جومبا لاهيري

الأرض المنخفضة

مكتبة 475



رواية

ترجمة : يارا البرازي

مكتبة | 475

الأرض المنخفضة

الكاتبة: **جومبا لاهيري**

عنوان الكتاب: **الأرض المنخفضة**

ترجمة: **يارا البرازي**

تدقيق وتحرير: **مهدي مقدود**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-833-73-7**

الطبعة العربية الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

جومبا لاهيري

مكتبة | 475

الأرض المنخفضة

ترجمة: يارا البرازي

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي

Jhumpa Lahiri

The Lowland



إلى كارن التي آمنت بي من البداية

وآلبرتو الذي رافقني إلى النهاية

دعني أَعُدْ إلى بلدتي الصغيرة التي يحيط بها العشب الأخضر كما لو كان بحرًا دافئًا عالي الأمواج.

جورجيو باسيني: تحيّة إلى روما.

الفصل الأوّل

1
مكتبة

شرقيَّ نادي تولّيه، وبعد أن يتفرّع شارع ديشابرن ساسمل إلى طريقين، يصل الزائر إلى مسجد صغير ومنعطف يفضي إلى منطقة سكنيّة هادئة معزولة، يتخلّلها كثير من الأزقّة الضيّقة ومنازل الطبقة الوسطى البسيطة.

في ما مضى، كان هناك مستنقعان مستطيلا الشّكل متجاوران خلف البيوت، تمتدّ خلفهما عدّة هكتارات من السّهول المنخفضة.

وعندما يرتفع مستوى المياه في المستنقعين بعد انتهاء الرياح الموسميّة، كان الحاجز الفاصل بينهما يتلاشى وتغرق الأراضي المنخفضة تحت ثلاثة أقدام من مياه الأمطار أو أربعة، لتبقى الأمور على حالها خلال الفترة التالية من العام.

كانت زنابق الماء تنتشر بغزارة على سطح المستنقع الذي يغطّي السهول، وتنمو الأعشاب المائيّة بكثافة تجعل سطح الماء يبدو صلبًا، أخضر اللّون مقابل زرقة السماء.

وفي ما مضى تناثرت أكواخ بسيطة على امتداد أطراف المياه هنا وهناك، وكان سكّانها الفقراء يخوضون في الماء بحثًا عمّا يُؤْكَلُ. وفي الخريف، تصل طيور البلشون البيضاء مسوّدة الريش جرّاء سخام المدن، وتَكْمُنُ ساكنة بلا حراك في انتظار فرائسها.

وَكانت أشعّة الشّمس الحارقة في كلّ مرّة تمحو معظم مياه الفيضان لتكشف السّهل الكئيب الموحل من تحتها مجدّدا، رغم الرطوبة العالية المهيمنة على أجواء كالكوتا.

لقد عبر ساباش وأوديان الأرض المنخفضة عدّة مرّات إذْ كانت طريقًا مختصرة إلى ملعب في الجوار، يلعبان فيه كرة القدم. وفي طريقهما، كانا يتجنّبان بِرك الطّين ويدوسان على سجّادات لا متناهية من أوراق زنابق الماء وقد بقيت في مكانها بعد الجفاف ويستنشقان الهواء البارد المشبع بالرطوبة.

كانت بعض الحيوانات القادرة على تحمّل فصل الجفاف تضع بيْضها، بينما تقاوم الحيوانات الأخرى شبح الموت بدفن أجسادها في الطّين متظاهرة بالموت في انتظار تساقط الأمطار مرّة أخرى.

2

لم تطأ أقدامهما نادي تولّيه البتّة، ولكن مثل كل سكّان الجوار مرّ الأخوان بمحاذاة بوّابته الخشبيّة وأسواره القرميديّة مئات المرات.

اعتاد والدهما، حتى نهاية الأربعينيّات، مشاهدة سباقات الخيول من خلف السّور، كان يشاهد السباقات من الشارع برفقة المراهنين والمتفرّجين الآخرين الذين لا يملكون ثمن التذاكر أو بطاقات دخول النادي. ولكن، بعد الحرب العالمية الثانية، تزامنًا مع ولادة ساباش وأوديان، رُفعت الجدران كي لا يتمكّن العوامّ من مشاهدة ما يجري في الداخل.

باعهم بسم الله (وهو جارٌ مُسْلِمٌ يعمل مساعدًا للاعبي الغولف، بقي على ضفّة تولّيه من نهر الغانج بعد التقسيم) كرات غولف كانت إمّا ضائعة من اللّاعبين أو مهجورة من أصحابها على الملعب، لِبعضها خدوش عميقة كجرح في جسد إنسان، وَمن خلال تلك الجراح تظهر أحشاؤها الورديّة المطاطية.

قَضَيَا وقتا طويلا في رمي تلك الكرات المهترئة في ما بينهما بواسطة عصوين. ثم باعهما بسم الله عصا حديديّة معقوفة من أحد طرفيها، ومنحنية عند منتصفها، بعد أن أتلفها لاعب محبط فجّر غضبه بضربها بقوّة على جذع شجرة.

علّمهما بسم الله كيفيّة الانحناء الصحيحة، وشرح لهما أين يضعان يديْهما ووضّح لهما بمهارة بالغة هدف اللعبة، فحفرا بعض الحفر في الأرض الطينية وحاولا تصويب الكرات نحوها. ومع أنّهما كانا يحتاجان عصا حديديّة أخرى لرمي الكرة لمسافات أبعد فقد اكتفيا مضطرّين باستعمال عصاهما الوحيدة. لكنّ الغولف لا يشبه كرة القدم ولا الكركيت، إنّها لعبة لا يمكن للأخوين أن يرتجلا فيها أيّ شيء. لذلك لم تكن ترضي غرورهما.

رسم لهما بسم الله على الأرض الطينية خريطة توضح معالم نادي تولّيه، وأخبرهما بِوجود بركة سباحة وإسطبلات وملعب تنس ومطاعم تُقدِّم الشاي في أباريق من الفضة وغرفٍ خاصة بلعبة البياردو وأخرى للبريدج بجانب مبنى النادي الرئيسي، وحكى لهما عن غرامافونات تصدر الموسيقى وعن نُدُلٍ يرتدون أردية بيضاء ويحضرون مشروبات تدعى (السيّدة الورديّة) و(جنون الجنّ).

كانت إدارة النّادي الجديدة قد استحدثت جدرانًا أخرى للحماية ولإبعاد المتطفّلين، لكنّ بسم الله أخبرهما عن وجود نقاط ضعف تُتيح لهما الدخول من الجهة الغربيّة.

أعدّ الأخوان خطّة وتكتّما عليها. حفظاها كالسرّ بينهما ولم يذكراها لأحد من صبيان الحيّ. انتظرا حتّى حلول الغسق، وهو وقت مغادرة اللّاعبين أرض الملعب تجنّبًا للبعوض، وأدخلوهم مبنى النادي لتناول مشروباتهم، وتقدّما باتّجاه المسجد القابع في الزاوية والمميّز عن المباني حوله بمئذنته الحمراء والبيضاء، ثمّ انعطفا إلى الشارع الرئيسي وهما يحملان العصا ومصباحين زيتيّين.

عبرا الشارع إلى جهة استديو التقنيّين، وتقدّما صوب حقول الأرز حيث أبحر آدي جانجا ذات مرّة، في مكان التقاء تلك الحقول بنهر الغانج إذْ يتفرّع من هنا وينعطف إلى الجنوب الشرقيّ نحو خليج البنغال.

كان النهر آسنًا جَرَّاءَ ركوده في مثل تلك الأيّام، مرسوم الملامح على مدّ النظر بتجمّعات الهندوس الفارّين من دكّا وراجشاي وشيتاغونج. لقد استوعبت كالكوتا كلّ تلك الأعداد الغفيرة من النّاس لكنّها تجاهلتهم، فازداد عددهم بعد مرور عقد من الزّمن على التقسيم إلى أن غطّت مساكنهم أجزاء كاملة من تولّيه غانج وأخفتها كما كانت الرياح الموسميّة تُخفي معالم الأرض المنخفضة تمامًا.

حصل بعض موظّفي الدولة على منازل من خلال جمعيّة حكوميّة، لكنّ معظمهم كانوا لاجئين، وكانوا يصلون على دفعات، كالأمواج. بعد اقتلاعهم من أرض أجدادهم، بدأت هجرتهم بشكل بسيط متقطّع، ثمّ تحوّلت إلى طوفان وَكان ساباش وأوديان يذكرانهم. يذكران الموكب الكئيب القاتم ويذكران أفواج البشر.. يذكران منظر الرضّع المشدودين بأحزمة إلى صدور أمّهاتهم وهنّ يحملن صررًا على رؤوسهنّ إضافة إلى كلّ الأحمال الأخرى.

صنعوا لأنفسهم سقائف مرتجلة من القماش أو القشّ، وأحاطوها بجدران من جذوع البامبو المترابطة، وعاشوا دون صرف صحّي أو كهرباء في أكواخ حقيرة مجاورة لأكوام النفايات وفي كلّ مكان وجدوه متاحًا للسّكن.

وهكذا أدّى وجودهم في هذا المكان إلى تحويل رافد آدي غانج،

ونادي توليّه مُقامٌ على ضفافه، إلى قناة للصرف الصحّي لجنوب غرب كالكوتا، وَفي الوقت نفسه كانوا السبب في إشادة جدران إضافيّة للنادي.

لم يجد ساباش وأوديان أيّ أسلاك على السّور فتوقّفا أمام منطقة منخفضة منه، كانا يرتديان سروالين قصيرين، وقد ملآ جيوبهما بكرات الغولف رغم أنّ بسم الله أخبرهما بأنّهما سيجدان الكثير مِنْها داخل النادي، فهناك تُهْمَلُ الكرات المتناثرة على أرض الملعب بين الثّمار المتّساقطة من أشجار التمر الهندي.

رمى أوديان العصا الحديديّة خلف الجدار وألحقها بأحد قنديليْ الكيروسين، وتخيّل أنّ وقوف أخيه فوق القنديل الآخر سيعطيه طولًا إضافيًّا يسمح له بالقفز إلى الجانب الآخر. لكنّ أوديان وقتها كان أقصر ببضع بوصات من أخيه.

قال له أوديان: «اشبك يديك».

شبك ساباش أصابعه العشر فالتحمت كفّاه. شعر بوزن قدم أخيه فوقهما وبنعل صندله المهترئ ثمّ بوزن جسده. انكفأ أخوه قليلًا ثم رمى بجسده إلى الأعلى وامتطى الجدار كفارس يركب حصانه.

سأله ساباش عندما رآه يقف كالمذهول يراقب المشهد: «هل ينبغي عليّ الوقوف هنا كالحارس لحضرتك بينما تستكشف المكان؟ ما هو الأمر الممتع في هذا؟ ماذا ترى؟».

- تعال وانظر بنفسك.

قرّب ساباش قنديل الكيروسين إلى الجدار ووقف عليه فشعر بالهيكل المعدنيّ الأجوف وهو يتمايل تحته. تشبّث بكلّ ما أُوتِيَ من قوّة

بحافّة الجدار متشجّعا بكلام شقيقه، يأتيه واضحًا من فوق الجدار: «هيّا يا ساباش».

تدلّى أوديان من أعلى الجدار متعلّقًا بأطراف أصابعه فحَسْب ثم أفلتها وقفز إلى الداخل. سمعه ساباش، سمع أنفاسه المتلاحقة من فرط الجهد.

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم.. دورك الآن.

زرع ساباش يديه في الجدار وألصق صدره به فاحتكّت ركبتاه وجُرحتا. وكالعادة، لم يعرف مصدر إحباطه بالضّبط: أتُراها جرأة أوديان أم افتقاره هو إلى تلك الجرأة؟ كان ساباش في الثّالثة عشرة من العمر، ما يعني أنّه أكبر من أخيه بخمسة عشر شهرًا لا أكثر. لكنّه لمْ يكُنْ يملك أيّ إدراك لشخصه دون وجود أخيه معه. حتّى في أعمق ذكرياته وأقدمها وفي كلّ مرحلة من حياته، كان يذكره. كان أخوه موجودا وبكلّ قوّة.

فجأة، لم يعودا في تولّيه غانج. ظلّا يسمعان صوت حركة المرور لكنّها خرجت من حدود رؤيتهما. أحاطت بهما أشجار الكافور وعروس الجرس والفرانجيباني وشجيرات اللّيف الأحمر.

لم يشاهد ساباش في حياته عشبًا كهذا، عشبًا ممهّدًا ومقصوصًا بعناية على ارتفاع واحد ولون واحد كسجّادة ممدودة فوق أسطح الملاعب المنحدرة المتماوجة ككثبان رمليّة في صحراء، أو كأمواج البحر المتلاحقة في ارتفاعها وانخفاضها. كانت مقصوصة بشكل ناعم جدًا. حتّى بدا له، وهو يمشي فوقها محاذرا، أنّه يدوس الطحالب. كانت

الأرض ناعمة الملمس كشعر إنسان. والعشب بدا له هنا مجرّد شبح خفيف الظلّ للعشب البرّي الذي يعرفه.

لم يشاهد في حياته من قبل عددًا كبيرًا كهذا من طيور البلشون الأبيض متجمّعة في مكان واحد. وها هي قد طارت جميعها عندما اقتربا منها أكثر ممّا ينبغي. ألقت الأشجار ظلال العصر على المرج فبدت حدود ظلالها المتعرّجة على الأرض كالمناطق المحرّمة من أجساد النساء.

أصابهما الدّوار جَرّاء الانفعال الناجم عن التسلّل، والرّعب الذي حلّ بهما مِنْ خشية أنْ يتفطّن إليهما أحد. لكنّهما لم يشاهدا أيّ حارس، لا راجلًا ولا على صهوة حصان، ولم يرهما أيّ عامل وَلم يلاحقهما أحد.

وهكذا، بدآ يشعران بالاسترخاء، فراحا يستكشفان الرايات المزروعة على المرج، وبدت لهما الحفر علامات أرضيّة لتحديد الاتّجاهات، وقد وجدا في داخلها الأكواب المخصّصة لتلقّف الكرات.

وجدا حفرًا ضحلة مترعة بالرمال هنا وهناك، وبِرَكَ ماءٍ جانبيّة لها أشكال غريبة كقطرات الماء المتماوجة إذْ تُرى تحت المجهر.

حاول الصبيّان البقاء على مسافة بعيدة من المدخل الرئيسيّ ومبنى النادي. هناك كان العشّاق الأجانب يتمشّون جنبًا إلى جنب، ذراعا في ذراع، أو يجلسون على كراسي الخيزران تحت الأشجار. وكان النادي، من وقت إلى آخر، يقيم حفلات أعياد ميلاد لأطفال العائلات البريطانيّة التي ما تزال تعيش في الهند حسب أقوال بسم الله، حفلات يُوَزَّعُ فيها الكثير من المثلّجات ويتخلّلها ركوب الأحصنة الصغيرة وتقدّم في أثنائها كعكات تشتعل فوقها الشموع. ومع أنّ نهرو كان

رئيس الوزراء في الهند، فإنّ صورة الملكة إليزابيث الثانية كانت هي الّتي تزيّن صالة النادي الرئيسيّة.

في زاوية النادي المهجورة هذه، رفع أوديان عصاه ولوّح بها بقوّة بجانب بركة تحتوي على فرس نهر، ورفع ذراعيه فوق رأسه في محاولة منه لأخذ وضعيّة مناسبة للّعبة وكأنّه يلوّح بسيف في الهواء، ثمّ ضرب عدّة رميات مخترقًا في كلّ مرّة سطح العشب البتول. وعندما انتبها إلى أنّهما ضيّعا كلّ الكرات التي في حوزتهما في الماء، طَفِقا يبحثان عن كرات جديدة على المرج.

كانت مهمّة ساباش هي أخذ الحيطة لأيّ طارئ، فكان يصيخ السّمع تحسّبًا لاقتراب الخيّالة على الممرّات الحمراء المخصّصة لهم، وقد تناهى إلى مسمعه صوت نقّار الخشب وضربات منجل بعيدة فعرف أنّ أحدهم يشذّب العشب في مكان آخر من النادي.

شاهد الصبيّان مجموعات من الضّباع تتجمّع متحفّزة على مسافة منهما، بجلدها الأصفر المرقش باللون الرمادي. وببطء، راح بعضها يبحث عن طعام، فتراءت لهما هيآتها النّحيلة وهي تخبّ في خطوط مستقيمة. أخذت الضّباع تعوي. وتَرَدَّدَ صدى عويلها داخل النادي، ففهم كلّ من الصبيّين أنّ الوقت قد تأخّر وأنّه يتحتّم عليهما العودة إلى المنزل.

تَرَكَا قنديليْ الكاز على جانبي السّور لتعليم المكان وحَرِصَا على إخفاء القنديل الذي تركاه داخل السّور وراء إحدى الأجمات.

جمع ساباش في الزيارات اللاّحقة الكثير من ريش الطيور النادرة وثمار اللوز البريّ، وشاهد، مرّات عديدة، الجوارح تستحمّ في البرك وتنشر أجنحتها الكبيرة لتجفّ تحت الشمس.

وفي واحدة من تلك الزّيارات التي واظبا عليها، وجد ساباش بيضة طائر الدّخلة، سليمة غير مكسورة، وقد وقعت من العشّ. حملها بحذر واصطحبها معه إلى البيت. وضعها في وعاء فخّاري وغطّاها بأغصان رفيعة صغيرة، وعندما لم تفقس حَفَرَ من أجلها حفرة في الحديقة الخلفيّة أسفل شجرة مانجو، ودفنها هناك.

كان لا بدّ لهذه المغامرات من نهاية. ففي إحدى الأمسيات، لاحظ الصبيّان أن قنديل الكاز الذي أخفياه وراء الأجمة داخل السور قد اختفى وهما يحاولان العودة. فقال أوديان وعلامات الحيرة تملأ محيّاه: «لا شكّ أنّ أحدهم قد أخذه». وبدأ يبحث عنه في الضّوء الشّحيح. وبينما كانا منهمكَيْن في البحث وقد أخذت منهما الحيرة كلّ مأخذ، باغتهما صوت من وسط الظّلمة الّتي شقّها ضوء خافت: «هل هذا ما تبحثان عنه أيّها الولدان؟».

خرج عليهما شرطيّ من العدم، وكان في جولة حراسة حول النّادي. لاحظ الصّبيّان قامته المديدة وملابسه الرّسميّة وقنديلهما في يده. تقدّم نحوهما بضع خطوات ولاحظ وجود عصا الغولف الحديديّة على الأرض فالتقطها وفحصها ثمّ وضعها أرضًا وأشعل مصباحه ووجّه النّور نحو الصبيّين متفحّصًا وجهيهما وقامتيهما. وبعد لحظات من التأمّل الصّامت قال: «هل أنتما أخوان؟».

أومأ ساباش برأسه أنْ أجلْ.

ـ ماذا تحملان في جيوبكما؟

جاء الردّ بلا كلمات. أخرجا كرات الغولف من جيوبهما وسلّماها له فوضعها في جيوبه أمام ناظريهما وأبقى واحدة في يده ثمّ راح يرميها

في الهواء ويلتقطها مرّات متتابعة ثمّ عاد إلى الأسئلة: «كيف حصلتما على كلّ هذه الكرات؟».

ظلّ الصبيّان صامتيْن. ولمّا لمْ يردّا على سؤاله أردفه الشّرطيّ بثانٍ: «هل دعاكما أحد للعب الغولف في النّادي؟».

حرّكا رأسيهما يَمْنة فيَسْرة مرّتين متعاقبتيْن نافيين أن يكون أحد قد حرّضهما على اقتحام أسوار النّادي. فاستمرّ الشّرطيّ في إظهار سيطرته على الموقف بنبرة بدأت تحتدّ أكثر مع تعاقب أسئلته: «أنتما تعرفان أنّ هذه المروج منطقة خاصّة». ثمّ رفع عصا الغولف ووضعها برفق على ذراع ساباش. وأردف: «هل هي زيارتكما الأولى للمكان؟».

ـ لا.

ـ هل هي فكرتك؟ ألست واعيًا بما فيه الكفاية لتعلم أنّكما ترتكبان خطأً فظيعا؟

ـ إنّها فكرتي أنا. ردّ أوديان بنبرة واثقة.

تأمّل الشّرطيّ وجه الصبيّ وارتسمت على وجهه ظلّ ابتسامة حرص على إخفائها، ثمّ التفت إلى ساباش وقال: «لديك أخ مخلص.. يريد أن يحميك.. إنّه على استعداد لتحمّل كامل المسؤوليّة وحده. سأسدي لكما معروفًا هذه المرّة.. لن أذكر أمركما لإدارة النادي إذا وعدتماني بعدم تكرار فعلتكما هذه».

ـ لن نأتي إلى هنا مرّة أخرى. أجابه ساباش.

ـ جيّد جدًّا.. هل تريدان منّي مرافقتكما إلى بيت والديكما أم نعتبر الموضوع منتهيًا هنا؟

ـ هذا كافٍ.

ـ استدرْ إلى الخلف إذًا.. أنت فقطْ.

استدار ساباش كما أمره الشّرطيّ وواجه الجدار.

ـ تقدّم خطوة أخرى إلى الأمام.

شعر الفتى بضربة العصا الفولاذيّة على وركه، ثمّ بضربة خلفيّة أخرى على ساقيه، وكانت هذه الضّربة كافية وحدها لرميه أرضًا على ركبتيه.. وعرف في لحظة واحدة بأنّ الرّضوض النّاجمة عن هاتين الضّربتين لن تمحى إلاّ بعد عدّة أيّام.

لم يكن والده قد ضربه قطُّ... ولهذا لم يشعر بشيء في البداية عدا الخدر.. ثمّ كان شعور حارق كفوران ماء مغليّ لاسع على جلده.

صرخ أوديان في وجه الشّرطيّ: «توقّف». ثمّ ركع أرضًا بجانب ساباش وأحاط كتف أخيه بذراعه ليحميه.

عانق كلّ واحد منهما الآخر بقوّة وشدّ من أزره. خفضا رأسيهما وأغمضا العينين. لم يفارق الألم ساباش لكنّ الأمر انتهى عند هذا الحدّ. سمع الصّبيّان صوت العصا الحديديّة وهي تطير من فوق السّور لتحطّ داخله، ثمّ شعرا بخطوات الشّرطيّ وهي تبتعد عن المكان.

3

كان ساباش طفلًا حذرًا طَوال عمره. فلم تكن والدته بحاجة إلى الجري وراءه أو البحث عنه في يوم من الأيّام، فقد بقي بقربها كلّ الوقت. وكان يراقبها وهي تطهو الطّعام أمام الموقد الحجريّ، وتطرز أقمشة السّاري الّتي يكلّفها بها خيّاط السّيّدات المجاور. كما أنّه كان يساعد والده في زراعة أزهار الأضاليا في أصص فخاريّة لتزيين باحة المنزل الخلفيّة، وكانت براعمها تتفتّح بألوان مختلفة: البنفسجيّ والبرتقاليّ والورديّ، وتتفتّح أحيانًا مرقّشة بلطخات ناعمة من اللّون الأبيض، فتناقض بحيويّتها النّابضة جدار الباحة الخلفيّة الّذي تستند عليه كليًّا.

كان ينتظر انتهاء الألعاب الفوضويّة، ومتعطّشا للهدوء الّذي يعقب الصّياح والضّجيج، لأنّ لحظاته المفضّلة كانت تلك الّتي يقضيها وحده، أو الّتي يشعر فيها أنّه وحيد، فكان يستلقي في سريره مراقبا نور الشّمس المتراقص أمامه كطائر متنقّل من غصن إلى غصن.

كان ساباش يحاصر الحشرات تحت زجاجة مقعّرة كالقبّة ليراقبها، كما كان يغطّس يديه في ماء النّهر العكر، حيث كانت والدته تقرفص بجانب الضفّة لتغسل الصّحون عندما تغيب الخادمة، بحثًا عن الضّفادع. كان يعيش في عالمه الخاصّ، ولم يتمكّن أقاربه يومًا من انتزاع تعبير واحد منه أثناء تجمّعاتهم الكبرى.

وعلى النّقيض تماما من ساباش الذي لم يبتعد يومًا عن أنظار أمّه، كان أوديان كثير الغياب منذ سنوات طفولته الأولى، ميّالا إلى الاختفاء في بيتهم الصّغير ذي الغرفتين، فيختبئ تحت السّرير أو خلف الأبواب أو في الخزانة الجداريّة الّتي تحفظ فيها أمّه أغطية الشّتاء السّميكة. كان يفعل ذلك دون داعٍ واضحٍ كمن يلبّي حاجة فطريّة وُلِدَتْ معه.

كان يمارس لعبته تلك بعفويّة، ويختفي هكذا بكلّ بساطة، يتسلّل إلى الخلف ويتسلّق شجرة ما ليغيب عن أنظار أمّه، ويجبرها على التوقّف عمّا كانت تنجزه لتشتغل بالبحث عنه، متوسّلة إيّاه أن يظهر، مردّدة إسمه بلا انقطاع دون أن تلقى ردّا منه. لقد شهد ساباش ذلك الذّعر في عينيها، رأى بأمّ عينيه رعبها من ألاّ تراه مرّة أخرى.

عندما كبرا بما فيه الكفاية وسُمح لهما بالخروج من المنزل، وصّاهما أبواهما أن يظلّا معا، وهكذا اكتشفا سويّة الممرّات المتعرّجة والمناطق الّتي تقع خلف المستنقعات، وعبرا الأرض المنخفضة ليلعبا في الحقل الّذي كانا يجدان فيه صبيانًا آخرين. كما ذهبا إلى المسجد الواقع في زاوية الحيّ ليجلسا على درجاته الرّخاميّة الباردة. واستمعا في أحيان أخرى إلى مُجريات مباريات كرة القدم عبر مذياع أحد الموجودين دون أن يمانع حارس المسجد في ذلك.

في نهاية المطاف، سُمح لهما بمغادرة الجوار والذّهاب إلى المدينة الكبيرة، ليمشيا أطول مسافة يمكن لأقدامهما أن تحملاهما خلالها، ركبا عربات الترام والحافلات وحدهما، وكان المسجد دومًا العلامة الّتي يعتمدانها كي لا يضلّا الطّريق في ذهابهما والإياب.

في مرحلة ما، راحا يتسكّعان حول استديوهات التّصوير السّينمائيّ

لأنّ أوديان اقترح ذلك. تعرّفا إلى أمكنة كثيرة: في هذا المكان أطلق ساتيات راي النّار على باثر بانشالي، وفي هذا المكان قضّى أشهَرُ نجوم السّينما أوقاتا طويلة ممتعة. بين الحين والآخر كان أحد الحرّاس يسمح لهما بالدّخول للتّجوّل بين كابلات توصيل الكاميرات والأضواء الكاشفة. وبعد أن يسمعا إنذار السّكوت وضربة الكلاكيت الّتي تعني بدءَ التّصوير، كانا يراقبان المخرج وطاقمه وهم يصوّرون مرارًا وتكرارًا مشهدًا واحدًا يحتوي على أسطر معدودات. كان جهد يوم كامل مكرّسا لتصوير دقيقة واحدة من المتعة السّينمائيّة الخالصة.

شاهدا الممثّلات الجميلات يخرجن من غرف الزّينة مرتديات النّظّارات الواقية من الشمس ويركبن السيّارات الّتي تنتظرهنّ على الدّوام، وكان أوديان هو الصبيّ الجسور الوحيد الّذي تجرّأ على طلب توقيع منهنّ، لأنّه لم يكن يملك أيّ حسّ لحدود كيانه كحيوان فاقد تمامًا للتّمييز بين الألوان. أمّا سوباش فقد كان يبذل كلّ ما في وسعه للاختفاء عن عيون الآخرين كالحشرات الّتي تتماهى مع محيطها، وتختفي بتغيير لونها حسب الشّجرة أو النبتة الّتي تقف عليها هربًا من الأعداء.

ورغم تلك الاختلافات الّتي كانت تفرّقهما، فإنّ النّاس كانوا يجدون دائما صعوبة في التّمييز بينهما. كان أحدهم يصرخ باسم أحدهما وهو يعرف أنّهما سيجيبان معا في نفس الوقت، وكان من الصّعب في بعض الأحيان أن نعرف من ذا الّذي أجاب منهما لأنّ صوتيهما متماثلان تقريبًا. كانا يجلسان متقابلين أمام رقعة الشّطرنج كشخص واحد يلاعب نفسه أمام المرآة، السّاق مطويّة فوق الساق الأخرى والذّقن مستندة إلى كفّ اليد اليسرى المنتصبة، كجذع شجيْرة قميئة، فوق الرّكبة العليا.

كانت بنيتاهما متشابهتين إلى درجة أنّهما كانا يستعملان نفس الملابس، كما أنّ جلدهما النحاسيّ الفاتح الّذي ورثاه من والديهما كان متطابقًا تمامًا، بالإضافة إلى تماثل أصابعهما وملامح وجهيهما الحادّة وطبيعة شعرهما الأجعد.

ولطالما تساءل ساباش في قرارة نفسه إن كان والداه يعتبران طبيعته الهادئة هذه نقصًا في حسّ الإبداع لديه أو علامة على اهتزاز شخصيّته. لم يكن أمره يقلقهما ولم يكن ابنهما المفضّل، ولهذا باتت طاعتهما مهمّته الوحيدة لأنّه لم يكن قادرًا على مفاجأتهما أو إثارة إعجابهما. كانت تلك مهمّة أوديان.

وفي باحة المنزل الأماميّة، بإمكان المرء أن يرى آثار أوديان الأكثر ديمومة من بين جميع التّجاوزات والخروقات الّتي قام بها عبر تاريخ حياته، ألا وهي خطوات قدميه المحفورة عميقًا في الاسمنت، تلك الّتي خلّفها وراءه في اليوم الّذي بلّط فيه والداه الباحة بالاسمنت الطريّ. إنّه اليوم الّذي طلب فيه الوالدان من الصّبيّين ألاّ يخرجا من المنزل حتّى يجفّ الاسمنت.

راقب الصّبيّان العامل وهو يخلط الموادّ لصناعة الخليط الاسمنتيّ في آلة ذات عجلة دائريّة، ثمّ ينشر الخليط النّاعم اللّزج على الأرض ويسوّيه بأدواته. حذّرهما العامل من المشي على الأرض قبل مرور أربع وعشرين ساعة.

أطاع ساباش التّعليمات، وأمضى الوقت في مراقبة الطّريق من النّافذة ولم يخرج من المنزل. أمّا أوديان فقد خرج عندما حان وقت عودة أمّه من عملها، وداس على اللّوح الخشبيّ الّذي وضعه العامل

لمْلء المسافة ما بين الباب والشّارع، ففقد توازنه في منتصف الطّريق وخرج عن اللّوح. طُبعت آثار نعله المستدقّ في منتصفه كساعة رمليّة تبرز منه آثار أصابع الأقدام المتباعدة على الأرضيّة المبلّطة حديثا. كانت محفورة بوضوح في الاسمنت، وظلّت كذلك حتّى اليوم.

في اليوم التّالي استدعى الوالدان العامل مرّة أخرى، لكنّ السّطح كان قد جفّ بعد مرور كلّ ذلك الوقت، وحُفرت خطوات أوديان على الأرضيّة إلى الأبد، وكانت الطّريقة الوحيدة لإصلاح ذلك الخطأ هو بسط طبقة جديدة من الاسمنت فوق الباحة بالكامل. عرف ساباش أن خطأ أخيه هذا قد تجاوز كلّ الحدود. لكنّ العامل نصح والديه بأن يدعا الوضع كما هو، لا لتوفير المال والجهد بل لأنّه كان يعتقد أنّه من الخطأ إزالة آثار أقدام طفل عن الأرض.

هكذا تحوّلت الشّائبة إلى علامة فارقة للمنزل. كان الزوّار يلاحظونها على الفور، ممّا جعلها علامة مميّزة تساعد على الاهتداء إلى البيت.

كان بإمكان ساباش الذّهاب إلى المدرسة قبل عام من أخيه، لكنّ الوالدين وضعا الصّبيّين في الصفّ ذاته في اليوم نفسه لتيسير الأمور ولأنّ أوديان احتجّ -بالطبع- على ذهاب ساباش دونه. وهكذا راح الصّبيان يرتادان مدرسة متوسّطة بنغاليّة لفتيان الطّبقة الوسطى، تقع بعد موقف الحافلة الكهربائيّة والمقبرة المسيحيّة.

لخّصا على كرّاستيهما المتماثلتين تاريخ الهند وتاريخ إنشاء كالكوتا ورسما الخرائط ليتعلّما جغرافيّة العالم.

عرفا من خلال دراستهما أنّ تولّيه غانج بُنيت فوق أراض مستصلحة، فقد ردم النّاس قبل قرون، عندما كان تيّار النّهر أقوى

ممّا هو عليه اليوم، المنطقة لاستصلاحها، وأدركا أنّ البِرك الموحلة والحقول الطّينيّة والأرض المنخفضة هي بقايا تلك الحقبة.

ورسما أيضا لوحات تُصوّر أشجار المنغروف الاستوائيّة من أجل دروس العلوم وأبرزا فيها جذورها الّتي تعلو فوق سطح الماء، في محاولة منها للحصول على الهواء، وشتلاتها الطّويلة الشّبيهة بالسّيجار. وتعلّما أنّ الشّتلات تتكاثر وحدها دون تلقيح من نبتات أخرى، إذا غمرتها أمواج المدّ، متبرعمة وحدها بكلّ قوّة كالرّماح الشّمّاء المغروزة وسط المستنقعات المالحة. أمّا في الأماكن العميقة فإنّها تسير مع التيّار وتظلّ حيّة مدّة عام إلى أن تجد بيئة مناسبة لها فتغرس جذورها وتنمو كأسلافها.

بدأ البريطانيّون بإزالة الأدغال الّتي غمرتها المياه وشقّوا الطّرقات بدلًا عنها. وفي عام 1770 شيّدوا ضاحية سكنيّة جنوب كالكوتا سكنتها غالبيّة عظمى من البريطانيّين، ولم يمض وقت طويل حتّى أصبحت المنطقة السّكنيّة الأولى الّتي فاق فيها عدد البريطانيّين عدد الهنود. كانت منطقة تعجّ بالغزلان المرقّطة الّتي لاحقها البريطانيّون بسهامهم بلا هوادة.

سُمّيت المنطقة تيمّنًا بالميجور ويليام تولّيه، الّذي اكتشف المنطقة ودمّر جزءًا كبيرًا منها، وعُرف بين السكّان باسم تولّيه نوللاه. وكان الميجور الشّخص الّذي أسّس تجارة الشّحن البحريّ والنّهريّ بين كالكوتا وإقليم البنغال الشّرقيّ.

وعرفا أيضًا أنّ أرض نادي تولّيه تعود في الأصل لريتشارد جونسن، رئيس بنك الهند الوطني، الّذي بنى عام 1785 فيلّا كبيرة واستورد من أجلها أشجارًا غريبة من بقاع شبه استوائيّة أخرى في العالم.

وفي أوائل القرن التّاسع عشر قتل البريطانيّون السّلطان تيبو حاكم ميسور، بعد هزيمته، واعتقلت شركة الهند الشرقيّة المملوكة للبريطانيّين أبناءه وأرامله. اُقْتُلِعَتْ العائلة من جذورها وأُبعدت إلى شريانجاباتنا جنوب غرب الهند، وَأمّنت الشّركة لهم مكانًا يعيشون فيه في تولّيه غانج. وبينما بدأ البريطانيّون يعودون إلى مركز كالكوتا، تحوّلت تولّيه غانج إلى مدينة تسكنها أغلبيّة مسلمة.

ومع أنّ التّقسيم جعل منهم أقلّيّة، فإنّ معظم الشّوارع كانت تحمل أسماء سلالة تيبو مثل شارع السّلطان علام وشارع الأمير بختيار شاه وشارع الأمير غلام محمد شاه وجادّة الأمير رحيم الدّين.

بنى السّلطان غلام محمد المسجد الكبير في دارماتالا لتخليد اسم والده، وسُمح له بالإقامة لوقت ما في فيلّا جونسون. لكنّ رجلًا اسكتلانديًّا يدعى ويليام كروكشانك مرّ بالمكان، عام 1895، على صهوة جواده، فيما كان يبحث عن كلبه الضّائع، فأخرج السّلطان من البيت واستولى عليه، وزرع كروم العنب في حدائقه.

استعادت الحكومة الفيلاّ بعد ذلك وأقامت بدلًا منها على نفس الأرض ناديًا ريفيًّا، ووضعت كروكشانك مديرًا للنّادي. وهكذا مدّ البريطانيّون سكّة القطار، الّتي تصل إلى المدينة جنوبًا، حتّى النّادي، في أوائل عام 1930، لتأمين رحلة مريحة لمواطنيهم للهرب من حياة المدينة المرهقة والاستمتاع ببعض السّكينة المفقودة.

درس الصّبيّان علم البصريّات وقوى الطّبيعة في المدرسة الثّانويّة، وحفظا أوزان العناصر الذّريّة وخصائص الضّوء والصّوت، وتعرّفا إلى اكتشاف هرتز للأمواج الكهرمغناطيسيّة وتجارب ماركوني لبثّ أمواج

الرّاديو لاسلكيًّا، وحضرا عرضًا، في قاعة كالكوتا العامّة، لعالم بنغالي يدعى جاغاديش تشاندرا بوس يفيد بأنّ الأمواج الكهرمغناطيسيّة قادرة على تفجير البارود، وقرع جرس عن بعد.

كانا يجلسان متقابلين كلّ مساء على طاولة الدّراسة المعدنيّة أمام كتبهما وكراريسهما وأقلامهما وقرطاسيّتهما، ولعبة شطرنج قائمة يلعبانها مع الدّراسة. كانا يقضيان وقتا طويلا في اللّيل البهيم، برفقة عويل الضّباع القادم من بعيد، وهما يحاولان حلّ بعض المعادلات الرّياضيّة، ويحدث أن تستمرّ دراستهما، في بعض الأحيان، إلى أن تبدأ الغربان بالتّشاجر على قمم الأشجار المحيطة بالمنزل، منذرة ببزوغ شمس يوم جديد.

لم يساور الخوف أوديان أبدًا من إبداء آراء مناقضة لما يقوله المعلّم في حقل الهيدروليك أو الصّفائح التّكتونيّة. كان يستخدم يديه للتّعبير عن أفكاره إلى جانب كلماته ولتوضيح رأيه حتّى إنّ النّاظر إلى حركات يديه، وهو يحاول الشّرح، كان على وشك أن يرى الذرّات والجزيئات في متناول قبضته. وكان الأساتذة يطلبون منهما، في بعض الأحيان، الخروج من حجرة الدّراسة لأنّ أوديان يعيق سير الدّروس بينما كان في الحقيقة نابغة يتفوّق على أستاذه في فهمه لطبيعة الأمور.

وفي وقت لاحق، عيّن لهما الوالدان معلّمًا خاصًّا لتحضيرهما لاجتياز امتحانات دخول الجامعة. واضطرّت الأمّ للقيام بأعمال حياكة إضافيّة لتغطية تكاليف المعلّم. كان ذلك المعلّم شخصًا صارمًا، غليظ الطّبع، مرتخي الجفنين إلى درجة أنّه كان بحاجة لمشابك خاصّة تُثبّت على نظّارته لرفع جفنيه عن عينيه. ظلّ المعلّم يحضر إلى المنزل كلّ

مساء لمراجعة قضيّة طبيعة الضّوء الثّنائيّة (موجة أم جسيم!) وقوانين الانكسار والانعكاس، وقام بتحفيظهما مبدأ فيرما الّذي يقضي بأنّ المسار الذي يقطعه شعاع الضّوء ما بين نقطتين هو المسار الأقصر مهما كانت الظّروف.

وبعد أن درس الصّبيّان الدّارات الكهربائيّة، شرع أوديان يستكشف تمديدات الكهرباء في البيت، وعرف كيفيّة إصلاح الأسلاك والمفاتيح المعطّلة وكيف يربط الأسلاك بعضها ببعض بعد التّخلّص من الصّدأ الّذي يعيق وصول التيّار إلى مروحة غرفة الجلوس عند نقاط الارتباط. وبلغت ثقته بنفسه حدّ ممازحة أمّه حول موضوع الكهرباء، فقد كانت لا تجرؤ على لمس مفتاح كهرباء دون لفّ إصبعها بقطعة من قماش السّاري الّذي تخيطه حذر الموت جرّاء صعقة كهربائيّة.

عند حصول خلل في أحد القواطع الكهربائيّة، كان أوديان يتفقّد التّوصيلات ويفكّك القاطع كليًّا، مرتديًا خفًّا مطّاطيًّا يعزله عن الأرض، بينما يقف ساباش بجانبه وهو يحمل مصباحًا يدويًّا يوجّهه نحو العطل.

عاد ساباش يوما، وفي يده حزمة طويلة من الأسلاك. وكان ينوي تركيب جرس كهربائيّ يساعد زوّار منزلهم، فأضاف محوّلة في علبة القواطع الرّئيسيّة ووضع مفتاحًا أسود اللّون بجانب الباب الخارجيّ وثقب ثقبًا في الجدار ليمدّد الكهرباء إلى المفتاح. وما إن أتمّ تركيب الجرس حتّى قال إنّهم يجب أن يستعملوه للتّدرّب على شيفرة مورس. وكان قد عثر، بالمكتبة، على كتاب في علم التّلغراف فنقل منه نسختين من أبجديّة مورس المتكوّنة من نقاط وخطوط، وجعل لكلّ واحد منهما نسخة.

كان طول الخطّ الأفقيّ في شيفرة مورس يعادل طول ثلاث نقاط، ويعقب كلّ نقطة أو خطّ مسافة فارغة تعبّر عن صمت، بينما توضع ثلاث نقط للفصل بين كلّ حرف وآخر، وسبع نقط للفصل بين الكلمات، وهكذا.. كتبا أحرف أسمائهما الأولى بسهولة. تلقّى ماركوني قبلهما عبر المحيط الأطلسي حرف (S) الذي يرمز له بثلاث نقاط سريعة متتالية، بينما رُمز للحرف(U) بنقطتين وخطّ.

تدرّبا بلا توقّف، الواحد بعد الآخر. كان أحدهما يقف أمام الباب والآخر في الداخل، يرسل الواقف بجانب الجرس رسالة ما فيفكّكها الآخر. وهكذا أصبحا بارعين إلى درجة أنّهما صارا يتبادلان الرسائل دون أن يقدر أحد من الأهل على فكّ شيفرتها. كان أحدهما يقترح: *«ما رأيك بالذّهاب إلى السّينما؟»* فيجيب الآخر بنفس الطريقة: *«لا .. لنركب التّرام وندخّن السّجائر»*.

كانا يخترعان السّيناريوهات، يتظاهران بأنّهما جنديّان أو جاسوسان في مأزق ما، يتواصل أحدهما من ممرّ جبليّ في الصّين أو من غابة روسيّة مع أخيه القابع في حقل قصب في كوبا:

ـ هل أنت جاهز؟

ـ نعم.

ـ ما إحداثيّات موقعك؟

ـ إنّها مجهولة.

ـ هل من ناجين آخرين غيرك؟

ـ هناك ناجيان اثنان.

ـ ما هو حجم الخسائر؟

صارا يتخابران عن طريق الجرس ويتبادلان الرّسائل مهما كان محتواها بسيطا كأن يتحدّث أحدهما عن شعوره بالجوع مثلًا أو عن رغبته في لعب كرة القدم، أو مجرّد الإعلام بأنّ فتاة جميلة قد عبرت الطّريق من أمام منزلهما.. لقد كانت لغة مورس تلك منطقتهما الخاصّة السرّيّة.. كانت الملعب الّذي يركضان فيه ويدفعان بالكرة باتّجاه الهدف دون أن يلاحظهما أحد.. كان أحدهما ينذر الآخر مطلقًا نداء الاستغاثة عند ملاحظة اقتراب المعلّم باتّجاه المنزل.. ثلاث نقط.. ثلاثة خطوط.. ثلاث نقط أخرى.

نجحا في الامتحانات وقُبلا في اثنتين من أفضل الجامعات.. سجّل أوديان في جامعة الرّئاسة لدراسة الفيزياء، وسجّل ساباش في جامعة جادابور لدراسة الهندسة الكيميائيّة. كانا الشّابّين الوحيدين من منطقتهما المغمورة اللّذين قُدّر لهما دخول الجامعة.

وللاحتفال بهذه النّتائج المبهرة، خرج والدهما إلى السّوق واشترى حبوب الكاجو وماء الورد لصنع طبق البولاو، كما أحضر نصف كيلوغرام من القريدس الغالي الثّمن إقرارا بأهمّية هذه المناسبة. لقد بدأ والدهما في العمل للمساعدة في تأمين معيشة عائلته عندما كان في التّاسعة عشرة من عمره، ولم يندم في حياته على شيء باستثناء عدم حصوله على شهادة جامعيّة. عمل طوال حياته موظّفا في شركة الخطوط الحديديّة الهنديّة، ولهذا لم تسعه الدّنيا من فرط سعادته عندما انتشر خبر نجاح ولديه، وقال مختالًا إنّ النّاس سيستوقفونه في الشّارع لتهنئته على هذا النّجاح الباهر.

لم يكن له أيّ دور في نجاح ولديه.. هذا ما كان يخبر به النّاس..

لقد اجتهد ولداه كثيرًا وتميّزا عن الآخرين.. كلّ ما حقّقاه كان نتيجة الجدّ والاجتهاد.

وعندما سُئل الشابّان عن الهدايا الّتي يرغبان فيها مكافأة لهما قال ساباش إنّه يريد أحجار شطرنج رخاميّة بدلًا من الأحجار الخشبيّة القديمة. أمّا أوديان فقد قال إنّه يريد جهاز مذياع جديد.. كان يريد معرفة ما يجري في العالم، يريد أن يسمع أخبارًا أكثر من تلك الّتي تأتيهم عبر مذياع والديه القديم القابع في علبة خشبيّة، وأكثر ممّا كانت الصّحف اليوميّة تطبعه.. وخاصّة تلك الصّحيفة الهزيلة، الملفوفة كعود خشبيّ نحيل، الّتي تُرمى إلى حديقتهم من فوق الجدار كلّ صباح.

ولأنّه لم يكن بالإمكان اقتناء مذياع جديد، فقد قرّرا صناعته بنفسيهما. وهكذا راحا يبحثان عن القطع في سوق الأدوات الكهربائيّة وفي دكاكين الخردة، ووجدا قطعًا مفيدة في الدّكاكين الّتي تبيع قطعًا فائضة من معدّات الجيش الهنديّ، ثمّ طلبا طريقة صناعته عبر البريد وتتبّعا الخطوات المعقّدة.. وضعا كلّ القطع أمامهما على السّرير: الهيكل والمكثّفات والمقاومات المختلفة ومكبّر الصّوت، ثم لحما الأسلاك وعملا معا على كلّ خطوة.. وعندما انتهيا من تجميعه ووضعه في هيكله بدا أشبه بحقيبة معدنيّة سوداء صغيرة ذات قبضة حديديّة مربّعة الشّكل.

كان استقبال الإرسال ليلا أفضل منه نهارا وشتاءً أفضل حالا منه صيفا، لأنّ فوتونات الشّمس الضّوئيّة تكسر الجزيئات في غلاف الأيوسفير المحيط بالأرض، فكانت الجزيئات السّالبة والموجبة في الهواء تتّحد بسرعة أكبر في الليل.

تعاقبا على الجلوس قرب النّافذة لحمل جهاز الاستقبال باليد،

وجعلاه في أوضاع مختلفة لتعديل الهوائيّ وزرّ التحكّم بالأمواج الراديويّة في وقت واحد، وكان أحدهما يحرّك محوّل التّنقّل بين التّردّدات ببطء شديد إلى أن حفظا تردّدات المحطّات الّتي يريدانها.

فتّش الشابّان عن أيّ بثّ أجنبيّ، فعثرا على محطّة إذاعة موسكو للأخبار، وصوت أميركا وإذاعة بكين، والبي بي سي.. ومن تلك المحطات، استمعا إلى المعلومات المنوّعة الّتي أتتهما من بعد آلاف الأميال، والّتي راحت تنبثق من الأمواج المتداخلة كأغصان أشجار الأدغال، المتدافعة كأمواج المحيط، المرتعشة المرعدة كأُوار الرّياح. أنصتا لنشرات الطّقس في أوروبّا وأغاني الفولك اليونانيّة، كما سمعا مرّة خطابًا لجمال عبد الناصر، وتقارير صحفية بلغات مجهولة ظلاّ يتكهّنان بمصدرها: هل هي الفنلنديّة أم التّركيّة أم الكوريّة أم البرتغاليّة؟؟

حلّ العام 1964، وسمحت حكومة خليج تونكين للولايات المتّحدة باستخدام القوّة العسكريّة ضد فييتنام الشّماليّة، وتزامن ذلك مع مباريات كأس العالم لكرة القدم الّتي كانت تقام في البرازيل. وبدأت دور السّينما في كالكوتا بعرض فيلم (تشارلوتا) في نفس الوقت الّذي اندلعت فيه موجة جديدة من الشّغب بين المسلمين والهندوس، وراح ضحيتها أكثر من مئة إنسان، بعد سرقة أحد الآثار المهمّة من مسجد في شريناجار. وفي الوقت ذاته أيضًا كان الشّيوعيّون الهنود يعارضون الحرب الدّائرة لعامين على الحدود الشّماليّة مع الصّين، فانشقّت عنهم فرقة متعاطفة مع الصّين سمّت نفسها حزب الهند الشّيوعي الماركسي.

وعلى صعيد حكم البلاد تابع مجلس الشّيوخ حكم مؤسّسات الدّولة من مدينة دلهي بعد وفاة نهرو إثر أزمة قلبيّة. وفي الرّبيع التّالي،

قامت ابنته إنديرا باقتحام المجلس وبدأت العمل السّياسي خلفًا لوالدها.. وخلال عامين تمكّنت من الوصول إلى مركز رئيسة الوزراء.

في الصّباح، وبعد أن بلغ ساباش وأوديان العشرين من عمرهما وراحا يحلقان ذقنيهما، كان كلّ واحد منهما يمسك مرآة يدويّة ويضعها أمام وجه الآخر في يد، ووعاء معدنيًّا يحتوي على بعض الماء الدّافئ في اليد الأخرى ليتمّ عمليّة الحلاقة. ثمّ يتناولان طبقين من الأرز والدّالوالبطاطس، ومن ثمّ يمشيان باتّجاه المسجد مخلّفين الأزقّة وراءهما عبر الشّوارع المزدحمة ليصلا إلى محطّة التّرام ويستقلاّه إضافة إلى حافلات أخرى قبل الوصول إلى جامعتيهما.

أقاما صداقات مع شبّان يعيشون في مختلف أصقاع المدينة واختلطا بآخرين ارتادوا في طفولتهم المدارس الانكليزيّة المتوسّطة، واكتشفا أنّ طلاّب تلك المدارس كانوا يجتازون امتحاناتهم في أوقات مختلفة ويدرسون على يد أساتذة مختلفين ويقيمون تجارب مختلفة في مخابر مدارسهم رغم أنّ المناهج العلميّة الّتي درسوها مشابهة جدًا لمناهج الحكومة الهنديّة.

ولأنّ جامعة أوديان كانت أبعد من جامعة أخيه فقد احتاج وقتا أطول كي يعود إلى المنزل مساء، وبما أنّه قد بدأ بمخالطة طلّاب من جامعة كالكوتا الشّماليّة فقد توقّفت جولات الشّطرنج الّتي كانت تقام على الدّوام بينهما على طاولة الدّراسة. ولهذا فقد أخذ ساباش في اللّعب مع نفسه. ورغم كلّ ما بدأ يفرّق بينهما شيئًا فشيئًا فإنّ أيّامه كانت تبدأ وتنتهي برفقة أخيه أوديان.

وفي مساء أحد أيّام صيف عام 1966، استمعا إلى مباراة بطولة

العالم لكرة القدم ما بين بريطانيا وألمانيا. كانت تلك هي المباراة النّهائيّة الشّهيرة، المباراة الّتي يصبو إليها الفريقان منذ سنوات. وهكذا استمع الشّابان للمباراة وهما يسجّلان الملاحظات أثناء سيرها بعد أن وضعا مخطّطًا لترتيب اللّاعبين على ورقة منفصلة وتابعا تحرّكاتهم على الورقة ليقلّدا مجريات المباريات وكأنّ السّرير كان أرضَ الملعب.

افتتحت ألمانيا التّسجيل بهدف، فوافاهم البريطانيّون بهدف في الدّقيقة الثّامنة عشرة، وقبل نهاية الشّوط الثّاني تقدّم البريطانيّون بهدف آخر فأطفأ أوديان المذياع.

ـ لماذا أطفأته؟

ـ أنا أحرّض جهاز الاستقبال.

ـ الاستقبال جيّد بما فيه الكفاية. ستضيّع علينا نهاية المباراة.

ـ لم تنته المباراة بعد.

مدّ أوديان يده تحت الفراش حيث كانا يضعان ما يحبّان إخفاءه جنبًا إلى جنب مع دفاترهم والبوصلة والمسطرة والمبراة الحادّة -الّتي يستعملانها لبري أقلام الرّصاص- ومجلّات الرّياضة وكتيّب تعليمات تركيب جهاز الرّاديو وبعض الأسلاك والدّارات والمفكّات الّتي يحتاجانها.

تناول أوديان مفكّ البراغي وراح يفكّك الرّاديو وقال: «لا بدّ أنّ أحد الأسلاك أو القواطع قد ارتخى».

ـ هل أنت مضطرّ لفعل هذا الآن؟

لم يتوقّف أوديان ولم يجب. فكّك العلبة الخارجيّة، واستخرج بأصابعه الرّشيقة الماهرة كلّ البراغي، فصاح ساباش: «لقد احتجنا يوما كاملا لتجميع هذه القطع».

ـ إنّي أعرف ما أفعل.

فكّك أوديان الهيكل وأعاد تنظيم بعض الأسلاك، ثمّ أعاد جهاز الاستقبال إلى مكانه وأشعل المذياع. كانت اللّعبة ما تزال مستمرّة والتّشويش قد تضاءل، إلاّ أنّ ألمانيا قد سجّلت هدفًا أثناء فترة تفكيك الرّاديو في نهاية المباراة ممّا استدعى تمديد وقتها.

سجّل هرست هدفًا لبريطانيا، ارتطمت الكرة بالعارضة العلويّة وارتدّت إلى الأسفل داخل المرمى، اعترض الألمان على الفور عندما احتسب الحكم الهدف، فتوقّفت مجريات المباراة لأنّ الحكم قرّر استشارة مساعده السّوفييتي، ثم جاءت النّتيجة باحتساب الهدف.

ـ «ربحت بريطانيا المباراة». هكذا قال أوديان.

ما زال هناك بضع دقائق قبل النّهاية والألمان في غاية الإحباط، لكنّ أوديان كان على حقّ لأنّ هرست سجّل هدفًا رابعًا في نهاية الوقت الإضافيّ مما دفع بالمشجّعين البريطانيّين السّعداء لاقتحام الملعب قبل إطلاق صافرة النّهاية لتهنئة اللاّعبين.

4

سمع الشّابّان اسم ناكسالباري للمرّة الأولى عام 1968 عبر الإذاعة الهنديّة والصّحف. وهي منطقة ريفيّة تتألّف من عدّة قرى في منطقة دراجيلنج، لم يسمعا بها من قبل، وتقع على بقعة ضيّقة أقصى شمال غرب البنغال، أسفل سفوح الهيمالايا، وتبعد أربعمائة ميل تقريبًا من كالكوتا، ممّا يعني أنّها أقرب إلى التّيبت منها إلى توليه غانج.

كان معظم سكّان تلك المنطقة من الرّيفيّين القبليّين الّذين يعملون في زراعة الشّاي وتحكمهم مبادئ الحياة العشائريّة العدائيّة الّتي لم تتغيّر مع مرور الزّمن.

تلاعب البرجوازيّون مالكو الأراضي بهم. أطردوهم من الأراضي الّتي كانوا يستصلحونها ويزرعونها، حرموهم الاستفادة من محاصيلهم، وامتصّ المرابون دماءهم واستولوا على أرزاقهم وحرموهم من أبسط الأجور، فمات بعضهم جوعًا.

ومع حلول آذار، حاول أحد المزارعين السّابقين حراثة أرضه الّتي طُرد منها غصبًا وعدوانًا في ناكسالباري، أرسل إليه المرابي رجاله فضربوه واستولوا على محراثه وثوره، ورفضت الشّرطة التّدخّل في الأمر.

بعد ذلك، أخذ المزارعون السّابقون ينظّمون عمليّات انتقاميّة.

أحرقوا أوّلًا السّجلاّت المزوّرة ثمّ احتلّوا الأراضي عنوة. لم تكن هذه ثورة فلاّحي دارجيلنج الأولى إلاّ أنّها كانت المرّة الأولى الّتي يخطّطون فيها لما سيقومون به عسكريًّا. تزوّدوا بأسلحة بدائيّة وحملوا رايات حمراء وصاحوا ملء حناجرهم: «*يعيش ماو تسي تونج.. يعيش ماو تسي تونج*».

ساعد شابّان شيوعيّان بنغاليّان الفلاّحين في محاولتهم هذه، وطالب كلّ منهما بحقوق ملكيّة الأراضي للفلّاحين وحرّضوهم على زراعة أراضيهم الّتي أُخذت منهم.

كان اسمهما: ماجومدار، وسانسيال، وقد ترعرعا في بلدتين قريبتين من ناكسالباري وضمّهما ظلام السّجن معا. كانا أصغر سنًّا من أغلب قيادات الحزب الشّيوعيّ في الهند الّذين ولد أغلبهم في ثمانينيّات القرن التّاسع عشر. وهكذا شعر كلّ منهما بالازدراء تجاه أولئك القادة الخارجين من عباءة الحزب الشّيوعيّ القديم.

انحدر ماجومدار من عائلة برجوازيّة، مالكة لكثير من الأراضي ولم يكمل دراسته الجامعية، وكان والده محاميًا. شاهد الشّابّان صورا كثيرة عن معاناة الفلاّحين والبؤساء ومن بينها صورة رجل ضعيف البنية، نحيل الوجه، بارز العظام، ذي أنف معقوف وشعر كثيف. بدا لهما شخصًا مصابًا بالسلّ أو الرّبو وبدت عليه أيضًا علامات الانتماء الماركسي، وعرفا لاحقا أنّ بعض قيادات الحزب كانوا ينعتونه بالمجنون. ومع بدء تلك الاحتجاجات كان قد بلغ الخمسين من عمره معتلّ القلب أسير السّرير.

أمّا سانيال فقد كان تلميذًا لماجومدار، وهو في العقد الثّالث من

عمره كان راهبًا براهميّا انشغل بتعلّم اللّهجات القبليّة. ورفض التملّك والتزم بذلك الموقف طيلة حياته التّي كرّسها لمقاومة الفقر.

مع انتشار الاحتجاجات واستمرارها، جاب عناصر الشّرطة الشّوارع وفرضوا حظر تجوّل غير معلن على المناطق الّتي تسودها الاضطرابات، وألقوا القبض عشوائيًّا على بعض النّاس.

ناشدت حكومة ولاية كالكوتا سانيال لمساعدتها وأَمَلَتْ أن ينجح في إقناع الفلّاحين بالاستسلام. وعدوه في البداية بعدم اعتقاله، فالتقى بوزير الماليّة الّذي وعده بدوره بالتّفاوض مع الفلّاحين، ثمّ تراجع لاحقا.

وفي أيار، أفادت الأنباء أنّ مجموعة من الفلاّحين المتمرّدين -رجالًا ونساء- قد هاجموا مفتّش الشّرطة بالأقواس والسّهام ممّا أدّى إلى مقتله، فهاجمت قوّات الشّرطة المحليّة، في اليوم التّالي، مجموعة من الثّائرين في الطريق، واشتبكت معهم ممّا أدّى إلى إصابة ذراع أحد الرّقباء بسهم أيضًا. وعندما اشتدّت حدّة المواجهات طلبت قوّات الشّرطة من المتمرّدين الانصراف لكنّهم أبوْا، فأطلق رجال الشّرطة عليهم النّار، فقتل في ذلك اليوم أحد عشر شخصًا، ثمانية منهم من النّساء.

في تلك اللّيلة، تحدّث ساباش وأوديان وهما يجلسان متقابلين أمام طاولة الدّراسة حول ما آلت إليه الأمور وهما يدخّنان سرًّا بعد خلود والديهما إلى النّوم. سأل ساباش أخاه: «هل تعتقد أنّ الأمر كان يستحقّ كلّ تلك الدّماء المُراقة؟ ماذا فعل الفلاّحون؟».

ـ الأمر يستحقّ بالتّأكيد. لقد تمرّدوا وجازفوا بكلّ شيء. إنّهم لا يملكون أيّ شيء في كلّ الأحوال يخشوْن عليه. ليس لديهم ما

يخسرونه، إنّهم الفئة الّتي لا تبذل الحكومة أيّ شيء لأجلهم ولا تفعل أيّ شيء لحمايتهم.

ـ ولكن هل سيؤدّي ما جرى إلى تغيير الأوضاع نحو الأفضل؟ ماذا تجدي الأقواس والسّهام أمام الأسلحة الناريّة؟

ضغط أوديان أصابع يده بعضَها على بعض وكأنّه يهمّ بتناول لقمة من الأرز وقال: «لو ولدت في حال كحالهم، في حياة مشابهة لحياتهم، ماذا كنت لتفعل؟».

وأسوة بجلّ النّاس، لام أوديان الجبهة الاتّحاديّة وجناح التّحالف اليساريّ بقيادة مُوخريي الّذي يحكم البنغال الغربيّة. احتفل ساباش وأوديان مثل كلّ الناس آنذاك بفوزه الانتخابي في ذلك العام قبل حصول تلك الاحتجاجات، لأنّه أوصل الشّيوعيّين إلى مجلس الوزراء ووعد بتأسيس حكومة من العمّال والفلاّحين وتعهّد بإلغاء حيازة البعض للأراضي الشّاسعة منهيًا بذلك حكم مجلس وزراء غربيّ البنغال الّذي دام عقدين من الزّمن.

لكنّ الجبهة الاتّحادية خذلت التمرّد، بل استدعى وزير الدّاخليّة يوتي باسو الشّرطة لمواجهة المعارضة، فتلطّخت يدا موخريي بالدّم بعد أقلّ من عام على استلامه الحكم.

اتّهمت صحيفة الشّعب الصّينيّة في بكين حكومة البنغال الغربيّة بقمع المتمرّدين قمعا دمويّا، وكان عنوان الصّفحة الأولى هو: «*رعود الرّبيع تلمع في سماء الهند*». نشرت كلّ صحف كالكوتا نفس القصّة، وانتشرت اللّافتات المعارضة للمجزرة في الشّوارع والجامعات وخرج النّاس في تظاهرات رافضة لما جرى. وفي كليّة الرئاسة وفي جادافبور،

شاهد ساباش وأوديان لافتات تتدلّى من النّوافذ دعمًا لناكسالباري، واستمعا لخطب تنادي باستقالة موظّفي الدّولة والمسؤولين.

ورغم ذلك فقد استمرّ الصراع واشتدّ في ناكسالباري ووقعت بعض أعمال السّلب والنّهب وأنشأ الفلاحون إدارات بديلة للحكومة وخطفوا بعض مالكي الأراضي وقتلوهم.

منعت الحكومة المركزيّة اقتناء السّهام والأقواس في حزيران ثمّ داهم خمسمائة ضابط ومجنّد منطقة ناكسالباري بأمر من الحكومة وفتّشوا أكواخ أفقر الفلاّحين وأسروا المتمرّدين العزّل وقتلوهم عندما رفضوا الاستسلام. وهكذا أثمرت هذه الخطّة المنهجة ما كانت تأمله الحكومة: أُجهضت حركة التّمرّد وأُجبر الفلاّحون الغاضبون على الرّكوع أمام الضبّاط والمجنّدين بلا رحمة.

نهض أوديان من على الكرسيّ حانقا، ودفع الكتب المجاورة له وأوقعها أرضًا وأغلق المذياع مشمئزًّا، ثمّ ذرع الغرفة دون أن تفارق الأرض أنظاره ومرّر أصابعه في شعره بين الحين والآخر. فسأله ساباش: «هل أنت على ما يرام؟».

وقف أوديان ويده ما تزال على رأسه بينما يضع يده الأخرى على خصره وحاول أن يقول شيئًا لكنّ الكلمات خانته. عجز عن التّعبير لبرهة. لقد صدمهما التّقرير الّذي استمعا إليه لكنّ أوديان كان يتصرّف وكأنّ الأمر يعنيه شخصيّا. كانت بمثابة الإهانة الكبيرة له. وكان يشعر بألم حقيقيّ وكأنّ أحدهم وجّه له ضربة مخزية. ظلّ يذرع الغرفة وخرجت الكلمات حادّة ناطقة بما يعتمل في أعماقه من غضب: «النّاس يتضوّرون جوعًا وهذا هو ما يكافؤون به!! لقد حوّلت هذه الحكومة

الضّحايا مجرمين ووجّهوا البنادق إلى صدور النّاس الّذين لا يستطيعون الدّفاع عن أنفسهم».

رفع مزلاج باب الغرفة وتوقّف أمام الباب فسأله أخوه: «أين تذهب؟»

ـ لا أعلم. أنا بحاجة إلى المشي قليلًا. كيف يمكن للأمر أن ينتهي على هذا النّحو؟

ـ أنت تتكلّم عن الأمر وكأنّه انتهى فعلا..

توقّف أوديان قبل أن يغادر وهزّ رأسه نافيًا وقال: «ليست هذه سوى البداية».

ـ بداية ماذا؟

ـ شيء أعظم من هذا.. شيء آخر.

ثمّ اقتبس ما تنبّأت به الصّحيفة الصّينيّة: *ستشعل شرارة دارجيلنج النّار الكبرى الّتي ستطال ألسنتها كلّ أنحاء الهند.*

ومع حلول الخريف توارى كلّ من سانيال وماجومدار عن الأنظار، وهو نفس الخريف الّذي أُعدم فيه جيفارا ببوليفيا وقُطعت فيه يداه لإثبات موته.

بدأ الصّحفيّون في الهند نشراتهم الخاصّة في شكل جرائد يوميّة صغيرة، مثل جريدة: *التّحرير* بالانكليزيّة وجريدة *ديشابراتي* باللّغة البنغاليّة، وأعادوا نشر مقالات وردت في مجلّات الحزب الشّيوعيّ الصّينيّ وراح أوديان يشتريها ويعود بها إلى المنزل. وما إن اطّلع والدهما على بعض تلك العناوين حتّى علّق بلا مبالاة بادية: «هذه العبارات الرّنّانة ليست جديدة. لقد قرأنا في شبابنا كتابات ماركس أيضًا».

فردّ عليه أوديان بنبرة متحمّسة: «ولكنّ جيلكم لم يَهتدِ إلى أيّ حلّ حقيقيّ لأيّ قضيّة».

ـ لقد بنينا هذه الأمّة، حقّقنا الاستقلال، واسترجعنا بلدنا.

ـ ولكنّ هذا لا يكفي.. إلى أين أوصلتنا خطواتكم تلك؟ من المستفيد من قراراتكم؟

ـ التّغيير يحتاج إلى الكثير من الوقت.

غيّر والدهما موضوع ناكسالباري واكتفى بالقول إنّ الحماس يستولي غالبا على عقول الشّباب أمثالهم دون أن يفضي إلى تغيير حقيقيّ. وأضاف أنّ كلّ ما جرى لم يتعدَّ اثنين وخمسين يومًا، وهذه فترة غير كافية لإحداث تغيير في أيّ دولة. أثار كلام الأب أوديان، فنظر إليه وهو يحاول أن يخفي الغضب الذي بدأ يتجمّع في أعماقه وقال: «لا يا أبي. الجبهة الاتّحاديّة تعتقد أنّ الأمر انتهى وأنّه أمر فارغ، لكنّهم قد سقطوا. انظر إلى ما يحدث حولك».

ـ ماذا يحدث؟

ـ النّاس يتفاعلون.. ناكسالباري تلهمهم.. إنّها تحرّضهم على التّغيير.

ـ لقد عايشت التّغييرات الّتي حصلت في بلادنا وأعرف الثّمن الّذي ينبغي دفعه لقاء تغيير نظام البلاد واستبداله بنظام جديد. أمّا أنتم.. فلا تعرفون ذلك.

لكن أوديان أصرّ على موقفه وتحدّى والده كما كان يتحدّى أساتذته في المدرسة فيما مضى، وقال له: «إذا كنت فخورًا باستقلال الهند الآن.. فلماذا لم تتظاهر من أجل جلاء البريطانيّين عن البلد في ذلك الوقت؟

ما سبب عدم انضمامك لأيّ نقابة عمّالية؟ ولماذا لم نر لك موقفًا واضحًا باعتبار أنّك اخترت الشّيوعيّين في الانتخابات؟»

كان ساباش وأوديان يعرفان الجواب: والدهما موظّف حكوميّ، وذلك يعني أنّه ممنوع من الانضمام إلى أيّ حزب أو نقابة. وقد منعته الحكومة وزملاءه من التّصريح بأيّ رأي خلال حركة الاستقلال.. هذه شروط البقاء في مركزه. ومع أنّ عددا قليلا من الموظّفين تجاهلوا هذه القوانين اللاّمكتوبة، فإنّ والدهما لم يخاطر بالتفوّه بكلمة واحدة.

وفي محاولة منه لرفع الحرج عن والده، أجاب ساباش عن السّؤال: «من أجلنا.. لقد فعل ذلك من أجلنا. لأنّه لم يرغب في التّخلّي عن مسؤوليّاته تجاهنا».

ولكنّ أوديان كان له رأي آخر.

تسلّلت كتب أخرى إلى مكتبة أوديان، غير كتب الفيزياء الّتي كان يدرسها، وميّزها الشّابّ عن بقيّة الكتب بلصاقات صغيرة من الورق.. مثل كتاب: *المعذّبون في الأرض.. ما الّذي ينبغي فعله؟* وكتاب صغير رقيق مغلّف بغطاء بلاستيكيّ أحمر يحتوي على أقوال ماو المأثورة.

وعندما سأله ساباش عن مصدر المال الّذي يشتري به هذه الكتب أجابه أخوه بأنّ هذه الكتب هي ممتلكات عامّة يتداولها مجموعة من طلاّب الكليّة الّذين أصبحوا أصدقاءه.

أخفى أوديان أيضا تحت فراشه بعض كتيّبات ماجومدار الّتي ألّفها قبل اندلاع أحداث ناكسالباري عندما كان في السّجن، وكان بعضها يحمل هذه العناوين: *انتهز الفرصة، ما هي الاحتمالات الّتي يخفيها عام 1965 في طيّاته؟*

كان أوديان، حين ترهقه الدّراسة، يمدّ يده تحت الفراش ويستخرج أحد تلك الكتب ليقرأه. كانت المقالات قصيرة، منمّقة، مترعة بالبيان والعبارات الرنّانة.. كتب ماجومدار أنّ الهند تحوّلت بلادا لا يسكنها سوى المتسوّلين والأجانب، وأنّ الحكومة الهنديّة الرّجعيّة تبنّت تكتيك قتل الجماهير عبر سياسات التّجويع والاغتيال.

كانت آراء ماجومدار تبهر أوديان. كان يرى فيها الكثير من الوجاهة والواقعيّة إضافة إلى الجرأة الّتي كانت تميّزه عن غيره من السّياسيّين. ففي أحد تلك المقالات، اتّهم الهند باللّجوء إلى الولايات المتّحدة لحلّ مشكلاتها الدّاخليّة. كما اتّهم الولايات المتّحدة باستعباد الهند كنتيجة لذلك، وطالت اتّهاماته أيضًا الاتّحاد السّوفييتي الدّاعم للطّبقة الحاكمة الهنديّة. وكحلّ جذريّ وعمليّ، دعا ماجومدار إلى إنشاء حزب سرّي وتجنيد الكوادر في القرى وشبّه المقاومة والنّضال بالصّراع الّذي جرى في الولايات المتّحدة، من قبل، للحصول على الحقوق المدنيّة.

وتأكيدا لوجاهة دعوته تمثّل بواقع الصّين قائلًا: «إذا أدركنا أنّ ثورة الهند ستتحوّل إلى حرب أهليّة لا مفرّ منها، فإنّ الطّريقة الوحيدة للفوز بتلك الحرب هي اعتماد تكتيك الاستيلاء على منطقة تلو أخرى».

أصبح أوديان مهووسا بهذه المقالات كثيرَ الخوض في مضامينها. سأله ساباش يوما بنبرة من يشكّك في نجاح الفكرة الّتي دعا إليها ماجومدار: «هل تعتقد أنّهم سينجحون؟ ماذا يقترح ماجومدار تحديدا؟».

كان كلّ منهما قد انتهى للتوّ من تقديم الامتحانات النّهائيّة، وكانا

في طريقهما إلى لعب كرة القدم برفقة بعض الزّملاء القدامى. وقد توجّها إلى زاوية الشّارع لشراء صحيفة، فتحها أوديان لقراءة مقال يتعلّق بناكسالباري، وتابع قراءته وهما يسيران باتّجاه الملعب.

تقدّم الشابّان عبر الأزقّة المتعرّجة الّتي تتخلّل بيوتا لا أسوار لها، وسارا أمام أنظار قاطنيها الّذين يعرفونهما منذ ولادتهما.. وصلا إلى البركتين المتجاورتين ذات المياه الخضراء الهادئة، أمّا الأرض المنخفضة فقد غرقت تحت سطح الماء كالعادة ممّا اضطرّهما للالتفاف حولها بدلًا من عبورها تلافيًا للبَلل.

وقف أوديان فجأة.. تأمّل الأكواخ المتداعية المحيطة بالأرض المنخفضة وأزهار لوتس الماء البهيجة المتفتّحة على كامل سطح البركتين وقال مدهوشًا: «لقد نجح الأمر من قبل.. لقد غيّر ماو بحكمته الصّين بالفعل».

ـ ولكنّ الهند ليست الصّين.

ـ صحيح.. لكنّها قادرة على فعل ذلك.

كلّما مرّ الشّابّان أمام نادي تولّيه في طريقهما إلى محطّة التّرام، كان أوديان ينعته بالعار، ويقول إنّ النّاس يعيشون في عشوائيّات فقيرة مكتظّة حول المدينة، وإنّ الأطفال يولدون ويعيشون طوال حياتهم في الشّوارع.. «لماذا مُنِحَت مائة هكتار لثلّة قليلة من النّاس لغرض المتعة؟». هكذا كان يردّد بنبرة حادّة مغتاظة.

تذكّر ساباش الأشجار الّتي تمّ استيرادها من الخارج والضّباع وصرخات الطّيور ووزن كرات الغولف الثّقيل في جيوبه والملاعب الخضراء المتماوجة.. تذكّر الواقعة الّتي قفز فيها أوديان فوق الجدار قبله

وتحدّاه أن يفعل مثله. تذكّر ارتماءة أخيه على الأرض آخر مرّة كانا فيها هناك من أجل حمايته.

قال أوديان إنّ الغولف هو هواية البرجوازيّين الكومبرادوريّين، وإنّ وجود نادي تولّيه هو أكبر دليل على أنّ الهند ما تزال مستعمرة بريطانيّة حتّى الآن، على أنّ الاستعمار الانكليزي لم ينتهِ، وعلى أنّ الانكليز لم يغادروا فعلًا.

أشار في معرض حديثه إلى أنّ جيفارا الّذي اشتغل في صباه عاملا في ملعب كرة قدم في الأرجنتين قد توصّل إلى نفس النّتيجة بسبب هذه الأماكن. ولهذا فقد كان التخلّص من ملاعب الغولف أحد المنجزات الأولى الّتي قام بها كاسترو بعد نجاح الثورة الكوبيّة.

5

انهارت الحكومة الإتّحاديّة، في بدايات العام 1968، أمام الاحتجاجات المتصاعدة ووُضعت البنغال الغربيّة تحت حكم الرّئيس. وتأزّم نظام التّعليم، فقد عفا عليه الزّمن بعد كلّ المتغيّرات الّتي حدثت في الهند.. وكان يوجّه النّاشئين إلى مسالك تتجاهل الاحتياجات الرّئيسيّة للنّاس. وقد وجد الطلاّب الرّاديكاليّون المتطرّفون في هذا الوضع فرصة لتغذية شعور النّاس بالغضب ودفعهم إلى التّحرّك.

وكما حدث في باريس وبيركلي، قاطع طلّاب كالكوتا الامتحانات وضربوا بالشّهادات عرض الحائط، وعطّلوا مكبّرات الصّوت في التّجمّعات الّتي أقامتها الكليّة وردّدوا هتافات بملء حناجرهم تصف فساد إدارة الجامعة، وحاصروا نوّاب رئيس الجامعة في مكاتبهم ومنعوا عنهم الطّعام والشّراب حتّى تتمّ تلبية مطالبهم.

امتثل الأخوان لنصائح أساتذتهما رغم كلّ تلك الاضطرابات، وباشر كلّ واحد منهما دراسته العليا في جامعته بعد أن توقّع منهما الجميع تحقيق أهدافهما والانتهاء من الدراسة لمساعدة والديهما في أقرب وقت ممكن.

مالت حياة أوديان إلى الاضطراب في هذه المرحلة. وعندما سألته أمّه عن سبب عدم تناوله لعشائه الّذي تركته له تحت طبق مقلوب يقيه من الذّباب، أجابها بأنّه تناول العشاء عند أحد الأصدقاء. ولم تناقش

العائلة موضوع انتشار عدوى ناكسالباري إلى أماكن أخرى في البنغال والهند أثناء تناول الطّعام، عندما يغيب أوديان، ولا عن المقاتلين النّاشطين ضدّ الحكومة في بيهار أو في أندرا برادِش. لقد أدرك ساباش أنّ أوديان قد وجد أندادًا له يبادلونه الاهتمامات والأحاديث دون أيّ حرج حول هذه الأمور خارج المنزل. وهكذا كانت العائلة تتناول عشاءها بسلام، دون صراعات أو نزاعات سياسيّة كما فضّل الأب، ومع أنّ ساباش افتقد لرفقة أخيه إلاّ أنّه بدأ يشعر بالسّلام عندما يجلس إلى طاولة الدّراسة وحده.

لم يكن أوديان يعود إلى المنزل إلاّ نادرا. وإن عاد فلا يقضي فيه إلاّ ساعات قليلة جدًّا، يمضيها في الاستماع للمذياع ساخطًا على التّقارير الإخباريّة المزخرفة الكاذبة. دفعه ضيقه بتلك التّقارير إلى البحث عن قنوات سريّة تبثّها محطّات في دار جيلنج وشيليغوري واستمع ذات مرّة لبثّ من محطّة بكين. وفي إحدى المرّات، وبينما كانت الشّمس تبزغ في الأفق الشّرقيّ، نجح في اقتناص محطّة تبثّ خطبة للزّعيم ماو يخاطب فيها شعب الصّين بصوته الرنّان. ومع أنّ البثّ كان ضعيفًا ومتقطّعًا، إلاّ أنّه أعاد توجيه الخطبة عبر جهازه البسيط هذا وبثّه في أجواء تولّيه غانج.

تملّك الفضول ساباش حول ما يجري في حياة أخيه، فلبّى دعوته لحضور لقاء في إحدى ضواحي شمال كالكوتا مساء أحد الأيّام. امتلأت الغرفة الصّغيرة بالطلاّب الّذين أثقلوا جوّها بدخان سجائرهم، وخلفهم صورة للينين مغلّفة بغطاء بلاستيكي معلّقة على جدار مغطّى بورق أخضر مشرق، إلاّ أنّ الآراء في الغرفة كانت مناهضة لموسكو عمومًا ومؤيّدة لبكين.

تصوّر ساباش أنّ النّقاش سيكون بيزنطيًا، لكنّ اللّقاء كان منظّمًا وكأنّه حلقة بحث طلّابية. وقاد الجلسة طالب طبّ ناعم الشّعر اسمه سينا، أمّا الآخرون فكانوا يدوّنون الملاحظات، ثمّ طلب منهم إثبات معرفتهم بالأحداث الّتي جرت في الصّين وتعاليم ماو، واحدًا تلو الآخر.

وزّعوا خلال الجلسة على الموجودين أحدث نسخة من جريدتي التّحرير وديشارباتي اللّتين احتوتا على أحدث أخبار سريكاكولام، حيث انضمّت مائة قرية تمتدّ على مساحة مائتي ميل إلى الفكر الماركسي.

لم يجرؤ شرطيّ واحد على الاقتراب من التّحصينات الّتي أقامها الفلّاحون حول أراضيهم، وهجر المرابون الملّاكون المنطقة بكاملها بعد ورود أخبار عن حرق أفراد عائلات ملّاكة لبعض القرى بأسرها، ليلًا، في غرف نومهم، وقطع رؤوسهم وتعليقها على الرّماح وعرضها لكلّ من يحبّ النّظر، ورسموا شعارات ترمز للانتقام بدم أولئك المرابين.

تحدّث سينا للموجودين بهدوء وهو يجلس أمام طاولة، مجترًّا كلّ تلك الأحداث وهو يشبك أصابعه بعضها ببعض. كان يقول بنبرة واثقة تنمّ عن وعي وثقة كبيرين: «لقد مرّ عام على أحداث ناكسالباري، ومازال الحزب الشّيوعي الماركسي الهندي يخوننا مرّة تلو الأخرى. لقد وصموا رايتنا الحمراء بالعار... ولطّخوا اسم ماركس بقذاراتهم. الحزب الشّيوعي الماركسي الهندي، وسياسات الاتّحاد السّوفييتي والحكومة الرجعيّة في الهند، كلّها تنبع من أصل واحد.. إنّهم جميعًا أذناب أمريكا.. إنّهم يشكلون معًا أربع جبهات كبيرة كالجبال، وعلينا الإطاحة بهم جميعًا. إنّ هدف الحزب الشّيوعي الهندي هو المحافظة على السّلطة، أما هدفنا فهو إنشاء مجتمع عادل منصف لمواطنيه. ولهذا فإنّ تشكيل حزب

جديد هو أهمّ أولويّاتنا الآن، وإذا ما آن للتّاريخ أن يتقدّم فلا بدّ للعبة سياسات البرلمان أن تنتهي».

عمّ الصّمت الغرفة.. رأى ساباش عيني أخيه أوديان المتعلّقتين بشفتيْ سينا.. بالكلمات الخارجة من فمه كعصافير لا يراها أحد سواه.. لاحظ انتباهه التامّ واستحواذ تلك الجمل على تفكيره كما كان يبدو أثناء إنصاته، فيما مضى، لمباريات كرة القدم على المذياع.

ومع أنّ ساباش كان حاضرًا هناك ضمن الموجودين، إلاّ أنّه شعر بأنّه شخص غير مرئيٍّ. آمن في قرارة نفسه بأنّ الأفكار المستوردة من بلاد أخرى لا تحلّ أبدا مشكلة الهند، ومع أنّ شرارة حقيقيّة، هنا، انطلقت قبل عام، إلاّ أنّه لم يصدّق أنّها ستقود لثورة على أيّة حال.

وتساءل في قرارة نفسه: «هل كانت أفكاره هذه تدلّ على جبنه أو على نقص في مخيّلته يمنعه من الإيمان بقدرة أبناء بلاده على النّجاح في تفجير ثورة؟». كان يخامره إحساس قويّ بهاجس عجز عن مغالبته: لعلّ طبيعة العجز المتمكّنة من شخصيّته والتي لطالما وعاها في أعماقه هي ما يمنعه من مشاركة أخيه إيمانه السّياسي بقدرة أبناء شعبه.

عادت به الذّكريات إلى الإشارات السّخيفة الّتي كان يتبادلها مع أخيه عبر الجرس مستخدمين إشارات مورس، والّتي كانت تثير ضحكهما، وها هو الآن غير قادر على الاستجابة للإشارات الّتي يرسلها سينا إليه.. بينما أوديان، أخوه، يستقبلها ويفهمها بكلّ وضوح.

لأوّل مرة يتفطّن ساباش، في تلك اللّيلة، إلى وجود صندوق معدنيّ تحت السّرير، في غرفتهما، ويحتوي على طلاء أحمر وفرشاة. ووجد تحت الفراش ورقة مطويّة تحتوي على عدّة شعارات مكتوبة بخطّ يد أوديان:

رئيس الصّين هو رئيسنا.. فلتسقط الانتخابات.. طريقنا إلى الحرّية هو طريق ناكسالباري.

انتشرت تلك الشّعارات على جدران المدينة كلّها، على جدران الحرم الجامعي وعلى أسوار استوديوهات السّينما وعلى أسوار البيوت الفقيرة القصيرة في منطقتهم. وفي إحدى اللّيالي، عاد أوديان إلى المنزل متأخّرًا واتّجه مباشرة إلى الحمّام. جلس ساباش أمام طاولة الدّراسة وأنصت إلى تساقط الماء على بلاط الحمّام، ثمّ راقب أخاه يدخل الغرفة ويضع علبة الطّلاء والفرشاة تحت السّرير، فأغلق الكتاب وأعاد الغطاء إلى القلم وسأله: «ماذا كنت تفعل؟».

ـ كنت أغتسل.

عبر أوديان الغرفة وجلس بجوار النّافذة وهو يرتدي سروال منامته الفضفاضة، عاري الصّدر. كان الهواء ساكنًا، فأشعل لفافة تبغ بعد عدّة محاولات بسبب البلل الّذي طال علبة الثّقاب.

أضاف ساباش وهو يراقب حركات أخيه: «هل كنت تكتب الشّعارات على جدران المدينة؟».

ـ الطّبقة الحاكمة تضع شعاراتها وعباراتها الدّعائية في كل مكان.. فلماذا يكون ذلك حلالًا عليهم وحرامًا على غيرهم؟

ـ ولكن ماذا سيحدث إذا ما ألقت الشّرطة القبض عليك؟

ـ لن يفعلوا.

أشعل المذياع وقال: «إذا لم نجابهْ المشكلة فنحن نشارك في نموّها». صمت قليلًا ثمّ أضاف: «تعال معي غدًا يا ساباش... إذا كنت ترغب في ذلك».

مرّة أخرى، راقب ساباش كلّ التّفاصيل، أنصت إلى كلّ الكلمات باهتمام بالغ..

عبرا جسرًا خشبيًّا يقود إلى قطاع ضيّق من تولّيه نوللاه، وهو قطاع كانا يعتبرانه بعيدًا جدًّا عن المنزل عندما كانا صغيرين، عندما طلب منهما والداهما ألّا يبتعدا عن المنزل. حمل ساباش المصباح وأضاء بقعة على الجدار. كان الوقت قريبًا من منتصف اللّيل، وقد قالا لوالديهما إنّهما ذاهبان لحضور عرض سينمائيٍّ.

اقترب ساباش وحبس أنفاسه وسط نقيق ضفادع اللّيل الرّتيب. غمس أوديان الفرشاة في الدّلو وكتب بالانكليزيّة: *عاشت ناكسالباري.*

رسمت أنامل أخيه الأحرف بسرعة، لكنّ يده كانت ترتجف قليلًا. لاحظ ساباش هذا على أخيه من قبل، عندما كان يعدّل تردّد قنوات المذياع خلال الأسابيع المنصرمة أو يقلّب صفحات الجرائد.

تذكّر ساباش قفزتهما عن سور نادي تولّيه.. لم يكن ساباش خائفًا هذه المرّة من أن يُتفطّن إليه أو القبض عليه. وقد يبدو هذا غباء منه، لكنّه كان يعتقد أنّ الأمور لا تحدث في الحياة مرّتين. وقد كان على حقّ، فلم يلاحظ أحد وجودهما أو ما كانا يفعلان، لم يلق أحد القبض عليهما. ولم تكد تمرّ بضع دقائق حتّى كانا يعبران الجسر مرّة أخرى عائدين إلى المنزل، بخطوات حثيثة.. يدخّنان بشراهة لتخليص نفسيهما من كلّ ذلك التوتّر.

هذه المرّة، كان أوديان الّذي طالما شعر بالطيش والاستهتار أكثر فخرا وانتشاءً، بما قاما به، من أخيه. أما ساباش فكان غاضبًا من نفسه لأنّه انقاد بسهولة إلى التيّار الّذي يقوده أخوه.. فهو مازال يحتاج أن يثبت لأخيه قدرته على أن يكون مثله ويقوم بما يقوم به.. استولى عليه

الخوف الّذي لطالما أضناه.. أحسّ أنّه سيتلاشى.. أنّ أخوّتهما ستتبخّر.. أنّ أوديان سيختلف معه ويتركه.

انتهت أيام الدّراسة وتخرّج الأخوان، وكانا ضمن الأعداد الغفيرة للشّبّان المتخرّجين من أفضل الجامعات والحاصلين على أعلى الدرجات دون أن يظفروا بعمل.. بدأ الشّابّان بتعليم الصّغار للحصول على المال الّذي كانا يعطيانه لوالديهما للمشاركة في تحمّل أعباء المنزل ونفقاته، ثمّ وجد أوديان عملًا يتمثّل في تدريس العلوم بمدرسة ثانويّة تقنيّة قريبة من تولّيه غانج، وبدا راضيًا بمهنته العاديّة غيرَ مبالٍ ببناء مستقبله.

أمّا ساباش فقرّر أن يتابع دراسته لنيل شهادة الدكتوراه من إحدى جامعات أمريكا بعد تغيير قوانين الهجرة وتسهيل الأمر على الطلّاب الهنود. تركّزت دراسات تخرّجه وأبحاثه على الكيمياء البيئيّة، وتأثير البترول على المحيطات ونفاد النّتروجين من الأنهار والبحيرات.

فكّر ساباش بأنّه من الأفضل طرح الموضوع على أوديان أوّلًا قبل والديه، وأمل في تفهّم أخيه لدوافعه، كما اقترح على أوديان السّفر إلى الخارج أيضًا، حيث تتوافر الوظائف الشّاغرة ويمكنهما بناء مستقبلهما.

ذكر لأخيه أسماء الجامعات الشّهيرة الّتي دعمت أفضل العلماء الموهوبين مثل المعهد التّقني في بيركلي وبرنستون حيث عاش آينشتاين. لكنّه لم يفلح في التّأثير على أوديان الّذي قال: «كيف يمكنك الهرب بعيدًا عن موطنك في مثل هذه الظّروف والذّهاب إلى هناك بالتّحديد دون سائر الأماكن الأخرى؟».

ـ سأسافر لنيل درجة الدّكتوراه، بضع سنوات فقط.

هزّ أوديان رأسه مستنكرًا وقال: «إذا رحلت.. فلن تعود أبدًا».

ـ لماذا تقولها بكلّ هذه الثّقة؟

ـ لأنّي أعرفك. لأنّك لا تفكّر سوى بنفسك.

حدّق ساباش بأخيه المستلقي على السّرير، يدخّن محاطًا بأوراقه، يقرأ مقالة عن اعتقال سانيال الأخير، ثمّ قال له: «ألا تعتقد أنّ ما تقوم به أنانيّ أيضًا؟».

قلب أوديان صفحة الجريدة دون أن يتكلّف عناء النّظر إلى ساباش وقال: «لا أعتقد أنّ الرّغبة في إحداث تغيير في المجتمع هي رغبة أنانيّة. أليس كذلك؟».

ـ هذه ليست لعبة تلعبها يا أخي.. ماذا لو أتت الشرطة إلى البيت لاعتقالك؟ ماذا لو ألقوا القبض عليك في الشّارع؟ ما سيكون رأي والدينا؟».

ـ إنّ الحياة أكبر من ظنونهما وأفكارهما وآرائهما.

ـ ولكن ماذا جرى لك يا أوديان؟ إنّهما الشّخصان اللّذان ربّياك، ومازالا يطعمانك ويلبسانك.. أنت لا شيء إن لم تكرّس نفسك لهما.

اعتدل أوديان في جلسته وخرج من الغرفة، ثمّ عاد بعد لحظة ووقف أمام أخيه مطأطِئ الرّأس. وبعد أن تخلّص من غضبه الّذي كاد يقوده للانفجار، قال بصوت أقرب إلى الهدوء: «أنت نصفي الآخر يا ساباش، قيمتي لا تساوي شيئًا دونك.. لا ترحل».

اعترف أوديان بهذا الأمر للمرّة الأولى في حياته، وقال جملته تلك بكلّ حبّ مظهرًا احتياجه إلى أخيه. لكن ساباش سمع الجملة كأمر، كأمر آخر من بين الأوامر العديدة الّتي كان أخوه يأمره بها طوال عمرهما معًا، كعمل آخر يودّ أوديان أن ينجزه من أجله، كي يلحق به.

بعد ذلك بأيّام قليلة غادر أوديان المدينة دون أن يخبر أحدًا عن مقصده، وقد سافر أثناء عطلة المدرسة الّتي كان يعمل بها، ولم يخبر أهله وساباش بموضوع سفره إلّا عند الصّباح، قبيل مغادرته. وبدا الأمر للجميع أنّه مسافر ليوم واحد لأنّه لم يصطحب معه سوى حقيبة ظهر وقليل من المال لا يكفي لشيء.

سأله والده الّذي ظلّ يرقبه وهو يتهيّأ للمغادرة: «هل ستقوم بجولة؟ هل ستذهب مع أصدقاء؟».

ـ تمامًا. أحتاج إلى استراحة من هذا الرّوتين.

ـ ولكن لماذا قرّرتم السّفر فجأة؟

ـ وما الّذي يمنع من ذلك؟

قال ذلك كمن يريد أن يقطع الحوار، وانحنى ليقبّل قدم والديه وطلب منهما ألاّ يقلقا واعدا إيّاهما بالعودة السّريعة.

ولكنّ أخباره انقطعت بعد سفره. لم تصلهم منه أيّة رسالة أو كلمة تفيد بأنّه حيّ أو ميّت. ومع أنّ ساباش لم يتحدّث مع والديه بهذا الشّأن، فإنّ الجميع كان شبْه متأكّد من أنّ أوديان لم يكن خروجه حينذاك في رحلة سياحيّة، ولم يحاول أيّ منهم أن يثنيه عن عزمه.

بعد شهر، عاد أوديان وقد بدت عليه تحوّلات كثيرة ملحوظة. كانت لحيته تغطّي وجهه دون أن تُخفي ذلك الشّحوب الّذي يشي بتدهور صحّته وفقدانه الكثير من الوزن. ازداد ارتجاف يديه بشكل ملحوظ. كان الشّاي ينسكبُ من الفنجان رغم أنّه كان يحرص على إمساكه بكلتا يديه. وأصبحت حركة إحكام أزرار قميصه أو التقاط قلم، مهمّة صعبة جدًّا عليه. أمّا في الصّباح، حين يستيقظ من نومه،

فكان يشعر ببَلل الجهة الّتي ينام عليها من السّرير وبرودتها على الدّوام. كان من اليسير الانتباه إلى لونها الدّاكن بسبب انطباع جسده على القماش. وفي أحد الأيّام، استيقظ على خفقان قلبه المتسارع كحصان سباق، وعنقه مغطّى ببقع غريبة. استدعت العائلة الطّبيب الّذي أمر بتحاليل للدّم.

خشي الأهل من احتمال التقاطه لعدوى ما أثناء ترحاله في الرّيف كالملاريا أو التهاب السّحايا. إلاّ أنّ التّحاليل أظهرت أنّ كلّ ما في الأمر فرط نشاط في عمل الغدّة الدّرقيّة. وهو أمر يمكن السّيطرة عليه باستعمال الأدوية. وذكر الطّبيب للعائلة أنّ الدّواء يحتاج إلى بعض الوقت قبل تماثل المريض للشّفاء، والمهمّ هو تناوله باستمرار دون أيّ انقطاع، منبّها إلى أنّ هذا المرض يسبّب عادة سرعة الانفعال وتقلّب المزاج عند المريض.

استعاد أوديان بعضًا من وزنه وصحّته المفقودة، وعاد ليعيش حياته بشكل طبيعي بين أفراد أسرته، لكنّ جزءًا من عقله كان موجودًا في مكان آخر.

لم يعد يحاول إقناع ساباش بعدم الذّهاب إلى أمريكا، كما أنّ ردود أفعاله باتت شبه معدومة عندما كان يستمع إلى الأخبار عبر المذياع أو عندما يقرأ الصّحف. بدا أوديان وكأنّ شيئًا ما قد كسره، قد تغلّب عليه، شيئا لا علاقة له بساباش أو فرد آخر من العائلة، شيئا يستحوذ كليًّا على تفكيره الآن.

في عيد ميلاد لينين الموافق للثّاني والعشرين من نيسان عام 1969، في كالكوتا، أُنشئ حزب شيوعيّ ثالث وسمّى الأعضاء أنفسهم

بالنّاكساليّين نسبة إلى ناكسالباري. تمّت تسمية ماجومجار أمينًا عامًّا للحزب وسانيال رئيسًا.

وفي ذلك العام، غصّت الشّوارع بمسيرة ضخمة مؤلّفة من أكثر من عشرة آلاف عامل، في يوم العمّال المصادف لأوّل أيّام أيار، جابت شوارع كالكوتا وانتهت إلى الميدان تحت أعمدة نصب الشّهيد مينار المقبّبة. وكان سانيال قد خرج من السّجن للتوّ، ووقف هناك على المنبر مخاطبًا الحشد الضّخم: «*أعلن لكم اليوم، بكثير من الفخر وبسعادة لا حدّ لها، في هذ اللّقاء تشكيل الحزب الشّيوعي الحقيقي، الّذي يحمل اسم حزب الهند الشّيوعي الماركسي اللّينيني*».

لم يعرب عن امتنانه للسّياسيّين الّذين أطلقوا سراحه، بل قال بأنّه نال حريّته بسبب قانون التّاريخ الأزليّ، ألا وهو التّغيير. قال إنّ ناكسالباري خلقت وعيا ثوريّا وضخّت دماء الحياة في الهند بأكملها، وأضاف أن الوقت مناسب الآن للثّورة في داخل الهند وخارجها بعد أن شمل المدّ الثّوريّ أصقاع العالم، وبما أنّ ماو تسي تونغ في كرسيّ القيادة.

وأضاف محمّسا السّامعين المحتشدين من حوله: «*تسلّل الضّعف إلى صفوف الرّجعيّين محلّيًا ودوليًا إلى درجة أنّهم ينهارون أينما ضربوا. إنّهم يبدون أقوياء. لكنّهم، في الحقيقة، كتماثيل العمالقة المصنوعة من الطّين. إنّهم مجرّد نمور من ورق*».

كانت المهمّة الأساسيّة للحزب الآن هي تنظيم صفوف الفلّاحين وتجنيدهم للقيام بحرب عصابات ضد الدّولة الهنديّة الرّسميّة.

أعلن سانيال أنّ حزبهم هذا هو شكل جديد من الحركة الشّيوعيّة تتّخذ من القرى مركزًا لها وقال حرفيًّا: «*بحلول عام 2000، وهو على*

بعد واحد وثلاثين عاما من الآن لا أكثر، ستكون شعوب العالم بكاملها قد تحرّرت من كلّ أشكال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، ولسوف نحتفل بنصر الماركسيّة اللّينينيّة والماويّة في أصقاع العالم».

لم يحضر ماجومدار هذه المسيرة والخطبة الّتي تلتها، لكنّ سانيال طالب الحشد بمبايعته محذّرًا أولئك المعارضين لعقيدة ماجومدار والّذين يقارنون أفكاره بحكمة ماو. قال موضّحا: «*سنخلق شمسًا جديدة وقمرًا جديدًا يسطعان ويشرقان وينيران أرض بلادنا*».

كان صوته عاليا ونبرته واثقة إلى درجة أنّ صدى كلماته الرّنّانة تلك قد استطاعت أن تتردّد على بعد أميال من المدينة.

نشرت الصّحف صورًا التقطت عن بعد للحاضرين وللحشود الّتي أتت للاستماع لخطبة سانيال ولتحيّته بالتّحيّة الحمراء، وأُعلنت بداية المعركة بصرخة جهْوَريّة أذهلت الجماهير وشلّت كالكوتا المتسمّرة على قدميها للحظة.

كانت تلك صورة المدينة الّتي ولد فيها ساباش ولم يعد يشعر بالانتماء إليها، المدينة الّتي تقف على منعطف طريق يقود إلى شيء مختلف وعظيم للغاية، مدينة يستعدّ لمغادرتها وتركها خلفه.

أدرك سباش أنّ أوديان هناك بلا شكّ. لم يشارك سباش في تلك المسيرة ولم يَدْعُهُ أخوه لمرافقته من البداية. وفي هذه اللّحظة، أدرك سباش أنّهما قد افترقا بالفعل وانتهى الأمر. إنّها اللّحظة الفاصلة الّتي باعدت ما بين طريقيهما المتوازيين منذ الولادة.

6

سافر ساباش بعد عدّة أشهر إلى قرية. والقرية مفردةٌ قديمة الطّراز يستخدمها الأمريكيّون للدّلالة على تجمّع سكّاني قديم ومتواضع. ومع ذلك، كانت هذه القرية القديمة تحتوي على كلّ وجوه الحضارة، من كنيسة إلى محكمة وحانة وسجن.

وكانت الجامعة الّتي انضمّ إليها قد بدأت ككليّة زراعيّة محاطة بالأراضي الّتي منحها لها السّكّان من أجل تعليم الطّلّاب الجامعيّين. وما زالت تقع، حتّى اليوم، وسط الدّفيئات الزّجاجيّة والبساتين وحقول الذرة المحاطة بدورها بحقول خضراء مزروعة بالعشب الأخضر الرّائع المنظّم بشكل علميّ، والمسقيّ بشكل منتظم ثابت، والمخصّب بالسّماد والمقصوص بانتظام، ممّا جعله يبدو لساباش أروع من العشب الموجود في نادي تولّيه.

لكنّه لم يعد واحدًا من سكّان تولّيه غانج. لقد غادرها، في الحقيقة، كما كان يغادرها كلّ ليلة في أحلام السّنين الفائتة. والآن، بعد أن عرف هذا المكان، بدا له منطق بلاده الفريد وواقعها الغريب خاليًا من أيّ معنى تحت نور شمس قريته الجديدة.

كان الفرق بين القريتين شديدًا إلى درجة أنّ عقله لم يتّسع للمكانين معًا. لم يجد متّسعًا في بلاده الجديدة هذه لوطنه القديم. لا شيء يجمع بينهما، ولا شيء يمكن أن يقود إلى أدنى شبَه بينهما. كان هو الرّابط

الوحيد بينهما. توقّفت الحياة هنا عن عرقلته أو الاعتداء عليه. هذا مكان لا تتدافع فيه البشريّة، ولا تحثّ الخطى أو تركض على الدّوام وكأنّ أحدهم يضع مسدّسًا في ظهرها ليحثّها على الجري.

ومع ذلك، كانت بعض جوانب رود آيلاند الطّبيعيّة -وهي ولاية أمريكيّة صغيرة يشار إليها على الخرائط بسهم بسبب صغر حجمها- تشبه ملامح كالكوتا بقوّة، فها هي الجبال مرئيّة شمالًا والمحيط يحدّها شرقًا بينما تقع غالبيّة الأراضي غربًا وجنوبًا.

كلاهما يقع قرب البحر ويحتوي على مصبّات الأنهار حيث تجتمع المياه العذبة والمالحة معًا. وكما حدث لنهر تولّيه غانج في حقبة سابقة عندما غمرته مياه البحر بسبب ارتفاع منسوب المياه، كانت كلّ منطقة رود آيلاند مغطّاة بصفائح جليديّة تتراجع وتتقدّم مع تقلّب الفصول، وتخلّف وراءها في كلّ مرّة حطامًا حجريًّا جديدًا ممّا أدّى مع مرور السّنين إلى انجراف التّربة وصخور الأساس، من نيو إنغلند إلى هنا، تاركة وراءها علامات هائلة حُفرت عميقًا في أديم الأرض. وخلقت هذه الحركة المستمرّة للمكوّنات الطّبيعيّة مستنقعات وخليجًا وكثبانًا رمليّة ساحليّة وتراكمات جليديّة منحت السّاحل الحالي شكله النّهائيّ.

وجد ساباش غرفة مناسبة في بيت أبيض خشبيّ، قريب من الطّريق العامّ في القرية، تزيّنه مصاريع نوافذ خشبيّة سوداء موجودة للزّينة فقط، فلا تفتح ولا تغلق، على عكس مصاريع النّوافذ في كالكوتا، للمحافظة على جفاف الغرف ولمنع المطر والبرد والرّيح من دخول البيت، أو لتخفيف نور الشّمس المتسلّل إلى الدّاخل.

عاش في الطّابق العلويّ وتقاسم استغلال المطبخ والحمّام مع

طالب دكتوراه آخر يدعى ريتشارد غريفآلكوني. كان يسمع ليلًا صوت عقارب السّاعة، القابعة حذو سريره، وهي تتقدّم ببطء، ترافقها جوقات جنادب اللّيل. وكانت الطّيور الجديدة توقظه في الصّباح، طيور صغيرة ناعمة الصّوت تعلن له انقضاء فترة النّوم كلّ صباح.

كان ريتشارد، طالب علم الاجتماع وشريكه في السّكن، يكتب افتتاحيّات لصحيفة الجامعة عندما لا يعمل على أطروحته، وينتقد فيها بفقرات مقتضبة أستاذ علم الحيوان الّذي انتقد استخدام النابالم الحارق في مكان ما أو قرار بناء بركة سباحة بدلًا من زيادة مهاجع النّوم الطّلّابي في المدينة الجامعيّة.

ينحدر زميله هذا من عائلة عريقة في وسكونسن، له شعر داكن طويل يجمعه على شكل ذيل حصان ولحية لم يتكبّد يومًا عناء تشذيبها، تُطِلُّ عيناه الواثقتان من خلف نظّارة معدنيّة الإطار أثناء اختياره الفقرات الّتي سينشرها في الصّحيفة بكلّ عناية، ويستند بإصبعين إلى منضدة الطّعام في المطبخ بينما تحترق لفافة التّبغ، بلا نهاية، بين شفتيه.

أخبر ريتشارد رفيقَه في السّكن ساباش بأنّه بلغ الثّلاثين من عمره للتوّ واختار لنفسه مستقبل الدّراسات الجامعيّة العليا من أجل الأجيال القادمة. حكى له كيف سافر إلى الجنوب، عندما كان مستجدًّا في الجامعة، للاعتراض على التّمييز العنصريّ الموجود في وسائل النّقل العامّة، فأُلْقِيَ القبض عليه واحتجزته السّلطات أسبوعين كاملين. ثمّ دعاه إلى مرافقته إلى حانة المدينة الجامعيّة، حيث شربا البيرة وشاهدا التّقارير الإخباريّة عن حرب فيتنام. كان ريتشارد مناهضًا للحرب لكنّه لم يكن شيوعيًّا، وأخبر ساباش أنّه يعتبر غاندي بطلًا قوميًّا

حقيقيًّا. لو كان أوديان حاضرًا لسخر من رأي زميله، ولقال إنّ غاندي انحاز إلى صفوف القتلة، إلى قتلة الشّعب، وإنّه نزع السّلاح من الهنود باسم انتهاء حرب التّحرير.

وفي أحد الأيّام، بينما كان يعبر ساحة الكليّة المربّعة الشّكل، شاهد ساباش ريتشارد وسط مجموعة من الطّلاب وهيئة التّدريس، وكان يرتدي شارة سوداء ويقف على سقف سيّارة مغلقة تمّ دفعها خارج الطّريق المخصّص للسّيارات للتوقّف على العشب.

قال ريتشارد أمام مكبّر الصّوت إنّ حرب فيتنام هي غلطة وإنّ الحكومة الأمريكيّة لا تملك الحقّ في التّدخّل عسكريًّا في تلك المنطقة. وتكلّم كثيرا، وببالغ التّأثّر والحدّة، عن معاناة الأبرياء في فيتنام.

هلّل بعض النّاس وصاح بعضهم الآخر، لكنّ أغلبهم أنصت باهتمام وصفّق بيديه كما لو كان يشاهد عرضًا مسرحيًّا، ثمّ تمدّدوا على العشب ليتشمّسوا ويستمعوا إلى احتجاجات ريتشارد على الحرب المتأجّجة على بعد آلاف الأميال من أرض الوطن.

كان ساباش الأجنبيّ الوحيد الحاضر في ذلك التّجمّع. لم يكن هناك أيّ طالب آخر من آسيا ضمن المتابعين للخطبة. لم يبد له هذا شبيهًا بالمظاهرات الّتي اندلعت في كالكوتا، لا يشبه الحشود غير المنّظمة الّتي تمثّل الأحزاب الشّيوعيّة المتصارعة على السّلطة، لا يشبه الهذر والهرج والمرج الّذي يسود الشّوارع كلّما قامت مسيرة أو مظاهرة، لا يشبه الشّعارات الّتي يتمّ ترديدها بلا توقّف، ولم تشبه نهايتها النّهاية العنيفة لمظاهرات كالكوتا.

انزوى ساباش بعيدًا بعد أن أنصت إلى جزء من خطبة ريتشارد.

وعرف، في قرارة نفسه، مقدار السّخرية الّتي كان أوديان سيشعر بها تجاهه، لو كان حاضرًا، بسبب رغبته في حماية نفسه من أيّ مشكلة محتملة.

لم يكن يؤيّد الحرب في فيتنام، لكنّه كان، كوالده، يعرف أنّ أهمّ شيء في حياته هو المحافظة عليها، وأنّ الحذر ضروريّ للغاية، وكان يعرف أنّ السّلطات الأمريكية قد تلقي القبض عليه إذا ما تظاهر ضدّ الحكومة أو لسبب تافه مثل حمل لافتة. إنّه يعلم تمامًا بأنّه موجود هنا بسبب تأشيرة مجاملة من الأمريكان لحكومته تفيد بأنّه مجرّد طالب، طالب يدرس هنا بفضل منحة دراسية. لقد دُعي من قبل نكسون ذاته للدّراسة في أمريكا.

كان يتذكّر، كلّ ليلة، الأوقات الّتي تسلّل فيها إلى نادي تولّيه رفقة أخيه أوديان. وكان يجد في اعتراف السّلطات الرّسميّ بوجوده بعض ما يطمئنه. ومع ذلك، يظلّ متيقّظا وكأنّه يقف على عتبة أمريكا بانتظار إذن الدّخول. وعرف أيضًا أنّ البوّابة الّتي يقف على عتباتها قد تُغْلَقُ في أيّ لحظة بشكل عشوائيّ كما فُتحت تمامًا، وكان يعلم أنّهم قد يعيدونه إلى بلاده لأيّ سبب وأنّ الكثيرين ينتظرون مثل تلك الفرصة للحلول مكانه.

لم يتجاوز عدد الهنود أصابع اليد الواحدة في هذه الجامعة لكنّ ساباش كان القادم الوحيد من كالكوتا. التقى يوما بأستاذ الاقتصاد يدعى ناراسيمهان من مدينة مدراس، وهو متزوّج من أمريكيّة وله منها ولدان، لهما عيون فاتحة اللّون، ولا يشبهان والديهما على الإطلاق.

كان لناراسيمهان سوالف سميكة وطويلة على جانبي خدّيه، ويرتدي سروال جينز واسعًا من الأسفل وضيّقًا من الأعلى، ولزوجته

عنق مرمريّ رائع يزيّنه قرطان طويلان يتدلّيان حتّى منتصفه وحولهما هالة من شعر أحمر قصير. قابلهما ساباش، للمرّة الأولى، في إحدى عطل نهاية الأسبوع في ساحة المدينة الجامعية. وكانا الشّخصين الوحيدين الموجودين هناك تحت ظلال الأشجار المتشابكة.

تبادل الولدان ركل الكرة مع والدهما كما اعتاد ساباش وأوديان أن يفعلا في الحقل المجاور للأرض المنخفضة، باستثناء أنّ والدهما لم يرافقهما إلى هناك أبدًا. وكانت الزّوجة مستلقية على بِساط، تفترش العشب بشكل جانبيّ، تدخّن وترسم شيئًا على دفترها.

هذه هي المرأة الّتي اختارها ناراسيمهان زوجة له وترك خلفه كلّ الزّوجات اللّواتي رشّحهنّ الأهل له من أرض الوطن. تساءل ساباش عن موقف أهله منها وتساءل أيضًا إن كانت قد زارت الهند من قبل. وإذا ما فعلت، هل أحبّتها أم كرهتها. لم يتوصّل إلى إجابة من مجرّد النّظر إليها ومراقبة تحرّكاتها.

تدحرجت الكرة باتّجاهه، فركلها نَحْوَهم واستأنف السّير في الاتّجاه الّذي كان يقصده. ولكنّ ناراسينهام استوقفه وقال له وهو يتقدّم باتّجاهه ويمدّ يده نحوه ليصافحه: «لا بدّ أنّك الطّالب الجديد في قسم الكيمياء البحريّة. هل أنت ساباش ميترا؟».

ـ نعم.

ـ وهل أنت من كالكوتا؟

فأومأ ساباش برأسه إيجابًا.

ـ يتحتّم عليّ إذن الاعتناء بك. فقد ولدت في كالكوتا وما زلت أذكر بعض الكلمات البنغاليّة.

سأله ساباش عن عنوانه في رودآيلند وعن بعده عن المدينة الجامعيّة، فهزّ ناراسينهام رأسه وقال إنّ بيته قريب من بروفيدنس أكثر من رود آيلند، وإنّ زوجته كيت تدرس التّصميم الهندسيّ في جامعة رود آيلند. ثمّ أضاف إمعانا في تقليص الفجوة بينهما: «وأنت أين تعيش عائلتك في كالكوتا؟».

ـ في تولّيه غانج.

ـ آه، بجانب نادي الغولف...

ـ بالضّبط.

ـ هل تقيم في بيت الطّلّاب المغتربين؟

ـ نعم.. فضّلت الحصول على مسكن له مطبخ لأنّي أفضّل طبخ طعامي بنفسي.

ـ وهل استقرّ بك المقام؟ هل وجدت أصدقاء؟

ـ نعم. بعض الأصدقاء.

ـ هل بدأت تتعوّد على برودة الطّقس هنا؟

ـ أجل، لا يزعجني الطّقس هنا كثيرا.

وبحركة مفاجئة، التفت ناراسينهام إلى زوجته وقال لها: «كيت.. هل يمكن لك أن تكتبي له رقم هاتف منزلنا؟».

خطّت المرأة على دفترها الرّقم ثمّ مزّقت الورقة وأعطتها لساباش، في حين ربّت ناراسينهام على كتفه وودّعه قائلا: «اتّصل إذا احتجت أيّ شيء». ثمّ عاد ليستأنف ملاعبة ولديه.

شكره ساباش وهمّ بالانصراف. وقبل أن يقطع الخطوة الأولى، بلغه صوت ناراسنهام وهو ينأى باتّجاه الولدين الواقفين بانتظاره:

«سأطهو لك واحدة من وجباتي الهنديّة المفضّلة في يوم ما». لكنّ تلك الدّعوة لم تصل أبدًا.

تقع كليّة علم المحيطات الّتي يدرس فيها بجانب خليج بحريٍّ، وكان يغادر كل صباح قريته على متن حافلة تسير عبر شارع تحفّ به الأشجار الكثيفة من الجانبين، وكان يشاهد بين الحين والآخر صناديق بريد مزروعة على جانبي الطّريق لكنّه لم يشاهد بيوت أصحابها أبدًا. تقطع الحافلة عدّة إشارات ضوئيّة يليها مرصد خشبيّ قبل الوصول إلى أسفل التلّ الّذي تقع الكليّة خلفه بمحاذاة الشّاطئ تمامًا.

تعبر الحافلة مصبّ نهر متعرّج كي تصل إلى مكان منعزل، يبدو بعيدًا جدًّا عن كلّ شيء. إنّه مكان لا تكفّ فيه الرّيح أبدًا عن العويل، إلى درجة أنّ نوافذ الحافلة كانت تهتزّ بقوّة وتصدر أصوات حشرجة شخص يحتضر كلّ يوم من جديد. حتّى نوعيّة الضّوء هنا كانت مختلفة عن ضوء الشّمس قبل عبور ذاك المصبّ.

كانت مباني المختبرات تشبه حظائر الطّائرات الصّغيرة، لها هياكل وأسقف مسطّحة من معدن رماديّ متموّج. وها هنا، كان ساباش يدرس الغازات المنحلّة في مياه البحر والنّظائر الّتي عُثر عليها في الرّواسب العميقة ونسبة اليود المنحلّ في النّباتات البحريّة والكربون في العوالق والنّحاس في دماء السّرطعونات.

يوجد أسفل الكليّة، في قاعدة التلّ الشّديد الانحدار، شاطئ صغير تتناثر فيه الحجارة الرّماديّة والصّفراء، حيث كان يحلو لساباش تناول وجبة غدائه. ومن هناك، كان يتأمّل الخليج والجسرين المعلّقين والمؤدّيين إلى الجزيرتين القريبتين، وكان جسر جيمس تاون قريبًا

واضحًا، بينما يبدو، على الدّوام، جسر نيوبورت الّذي يبعد عدّة أميال باهتًا في الأفق. وفي الأيّام الملبّدة بالغيوم، كان صوت الصّافرة الخاصّة بالضّباب يخرق الصّمت الأبديّ الّذي يحيط بالمكان بين الحين والآخر مثلما كانوا يفجّرون القنابل التّحذيريّة في كالكوتا درءًا للخطر.

كانت بعض الجزر الصّغيرة المحيطة بالمكان خالية من الكهرباء والماء العذب ولا يمكن الوصول إليها سوى بالقوارب الصّغيرة، ولهذا فقد كان بعض الأغنياء يفضّلون الذّهاب إليها للانعزال ونيل قسط من الراحة في بعض الأوقات، وكانت إحدى تلك الجزر صغيرة إلى درجة أنّها لم تتّسع إلاّ لبناء منارة لا أكثر. ولكلّ الجزر على الإطلاق رغم صغر حجمها أسماء مميّزة: مثل جزيرة الصّبر والحكمة، وجزيرة الثّعلب والماعز، وجزيرة الأرانب والورد، وجزيرة اليأس والأمل.

وفي أعلى التلّة، بُنيت كنيسة من أخشاب بيضاء متراصفة كخلايا النّحل، يربطها بالشّاطئ مسلك للمترجّلين، وكان جزؤُها المركزيّ يرتفع على شكل قبّة مهملة الطلاء، ومن الواضح أنّ الخشب الّذي بُنيت به قد امتصّ الكثير من ماء البحر الرّطب، وواجه أعتى الأعاصير الّتي كانت تضرب ساحل رود آيلند.

فوجئ ساباش في أحد الأيّام بجمع من السّيارات المتوقّفة أمام الكنيسة، وشاهد لأوّل مرّة أبوابها مفتوحة على مصراعيها، ومجموعة من النّاس تقارب العشرين شخصًا من الكبار والصّغار يقفون أمامها.

ومن بين الزّائرين لمح ساباش زوجين في منتصف العمر. وعرف أنّهما قد تزوّجا للتوّ. كان شعر العريس مزيجا بين البياض والسّواد وكان يزيّن طيّة سترته بوردة قرنفل، بينما ترتدي المرأة سترة زرقاء فاتحة

وتنّورة. وقفا مبتسمين على درجات الكنيسة ثمّ انحنيا قليلًا برأسيهما عندما رماهما الموجودون بالأرز، وبدا له أنّ العروسين أقرب إلى عمر والديه من عمره هو.

خمّن ساباش أن يكون هذا زواجهما الثّاني دون شكّ، وأنّهما قد يكونا مطلّقين أو أرملين. ويمكن أن يكون لكلّ واحد منهما أولاده. لا بدّ أنّهما تزوّجا للمضيّ قدمًا في الحياة.

ولسبب لا يعرفه، ذكّرته الكنيسة بالمسجد الصّغير الموجود في زاوية حيّه في تولّيه غانج، إنّه مكان مغاير مكرّس لتعبّد الآخرين، كما كان على الدّوام علامة اهتداء له طوال حياته.

ذات يوم، وجد ساباش الكنيسة خالية من النّاس، فمشى باتّجاهها عبر الطّريق المعبّد بالأحجار الّذي يقود إليها وشعر بحاجة غريبة ملحّة إلى دخولها. لكنّ القضبان المحيطة بها منعته من تحقيق رغبته تلك. كان بابها الوحيد دائريّ الشّكل، أخضر اللّون خضرة داكنة، تعلوه نوافذ دائريّة أيضًا، لكنّها كانت صغيرة جدًّا لا يمكن اختلاس النّظر من خلالها. ولمّا كان الباب موصدًا دار حول المبنى وتوقّف عند كلّ نافذة على رؤوس أصابعه في محاولة منه لاستكشاف الدّاخل، لكنّ الزّجاج المزيّن ببلّورات حمراء صغيرة منعه من ملاحظة أيّ شيء. غير أنّه استطاع بصعوبة أن يتبيّن مقصورات رماديّة محاطة بقماش أحمر، وعرف أنّها كانت تصاميمَ مشرقة في الماضي، وباغتته الرّغبة في الجلوس في الدّاخل وسط الجدران الباهتة وتحت القبّة البسيطة الّتي تتوسّط المبنى.

تذكّر الزّوجين اللّذين شاهدهما يحتفلان بزواجهما هنا منذ أيّام، وتخيّلهما يقفان متجاورين أمام المذبح. عندئذ باغتته لأوّل مرّة فكرة

الزواج، وفكّر بإيجاد رفيقة له لأنّ شعوره بالوحدة لم يكن يفارقه أبدًا منذ وصوله إلى رود آيلند.

تخيّل المرأة الّتي قد يختارها لها والداه. وتساءل عن موعد حدوث ذلك، لأنّ إتمام الزّواج يعني ضرورة سفره إلى كالكوتا. وبسبب من ذلك تخلّى عن الفكرة، لأنّ زيارة بلاده حدث مؤجّل إلى ما بعد إنهاء دراسته.

كان يبتهج في بعض الأوقات لأنّ الفرصة أُتيحت له للقدوم إلى أمريكا، كي يتعلّم كيفيّة الحياة كما تعلّم الوقوف والمشي والكلام عندما كان صغيرًا. لطالما كان توّاقًا إلى مغادرة كالكوتا لا للدراسة فحسب بل للقيام بخطوة لم يقم بها شقيقه أوديان، وهو قادر على الاعتراف بذلك لنفسه الآن.

كان ذلك دافعه الحقيقيّ للسّفر في المحصّلة. ومع ذلك، لم يخطر بباله على هذا النّحو من الوضوح ولعلّه لم يفكّر فيه أصلا. وفي كلّ يوم، رغم الرّوتين المتزايد مع الوقت والتردّد حيال الكثير من المسائل واضطراره للارتجال للمضيّ قدمًا يومًا بعد يوم، فإنّه كان يشعر في هذا المكان الّذي يحيط به البحر من كلّ الجوانب، بأنّه يبتعد شيئًا فشيئًا عن أصله ومنبته. وهنا، بعيدًا عن أوديان، كان يشعر بأنّه يجهل مسائل كثيرة.

كان زميله ريتشارد يخرج، في معظم الأمسيات، لتناول العشاء خارج البيت، وقلّما كان يقبل دعوة ساباش لمشاركته الطّعام إذا ما صادف وبقي في المنزل مساء. كان يحضر علبة سجائره ومنفضته ويعرض على ساباش، المشغول بإعداد طبق الكاري إلى جانب بعض الأرز، علبة بيرة. ولمّا تكرّرت تلك الدّعوات، بدأ ريتشارد يقترح على

ساباش أن يرافقه بسيّارته، مرّة في الأسبوع، إلى المتجر في مركز البلدة وصارا يتقاسمان سداد فاتورة المشتريات.

وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع، كان كلاهما بحاجة إلى التخفّف من أعباء الدّراسة، فقاد ريتشارد السيّارة وركنها في موقف المدينة الجامعيّة وشرع في تعليم ساباش القيادة. علّمه، أوّلا، كيفيّة تغيير سرعة السّيارة ولقّنه الحركات الّتي يجب عليه أن يؤدّيها ليصبح قادرا على تحريك السيّارة. كانت تلك أولى الدّروس الّتي احتاجها ساباش ليتمكّن لاحقا من التقدّم للحصول على رخصة قيادة واستعارة السيّارة من ريتشارد عندما يحتاجها.

وعندما رأى ريتشارد أنّ ساباش مستعدّ لخوض ذاك الامتحان أعطاه السيّارة، طلب منه التجوّل في البلدة. وقاده إلى أقصى رود آيلند الّتي تنتهي في البحر تمامًا، فشعر ساباش ببعض الرّعب. أوقف السيّارة، فجأة، ثمّ عاد بها ببطء شديد إلى الخلف حتّى وصل إلى الشّارع المقفر وابتعد عن تلك النّهاية المرعبة.

قاد ساباش السيّارة إلى غاليله، حيث تأتي قوارب الصّيد وترحل، وعبر الحقول الطّينيّة المجاورة للبحر الّتي يزرعها الصيّادون محارات صغيرة كي يحصدوها فيما بعد وهم يرتدون أحذيتهم البلاستيكيّة الطّويلة، ومرّ من أمام أكشاك تبيع المأكولات البحريّة المقليّة إلى أن وصلا إلى منارة تنتصب فوق تلّة مُعشبة، مُحاطة بصخور داكنة التهمها عشب البحر، وعَلَتْها راية متمايلة مع الرّيح كشعلة نار متوهّجة وسط السّماء.

وصلا، في الوقت المناسب تمامًا، لمشاهدة غروب الشّمس خلف المنارة، وزبد الأمواج الأبيض يغمر الصّخور أسفل قدميهما مرّة تلو

الأخرى، والرّاية اللّامعة تخفق وتضطرب بلا توقّف. أشعلا لُفافتيْ تبغ وشَعَرا برذاذ الماء المالح على وجهيهما. تحدّثا عن جريمة قام بها ملازم في الجيش الأمريكي والتّفاصيل الّتي راحت تظهر تباعًا على وسائل الإعلام.

قال ريتشارد: «هناك مسيرة احتجاج في بوسطن الأسبوع المقبل، أعرف أصدقاء يمكننا المبيت عندهم لليلة هناك. لِمَ لا تأتي معي؟».

ـ لا.

ـ ألست مناهضًا للحرب؟

ـ هذه ليست بلادي لأحتجّ على أيّ شيء.

رأى ساباش أنّه مجبر على مصارحة ريتشارد برأيه، وقد أنصت إليه صديقه بدلًا من محاججته، ولم يحكم عليه أو ينتقد وجهة نظره كما كان يفعل أوديان. وبينما كانا يعودان أدراجهما إلى البيت سأله ريتشارد عن الهند والنّظام الطّبقيّ السّائد فيها وعن الجهة المسؤولة عن الفقر المستشري فيها. أجاب ساباش بصوت محايد: «لا أعرف، الكلّ يلوم الكلّ هذه الأيام».

ـ ولكن ألا يوجد حلّ لذاك الوضع؟ ما هو موقف الحكومة ممّا يجري؟

لم يعرف ساباش كيف يشرح انقسام السّياسة الهنديّة في ذلك المجتمع المعقّد لشخص أمريكي، فأخبره بأنّ الهند بلاد عتيقة وشابّة في آن، ما تزال تتصارع لاستكشاف حقيقتها. ثمّ أضاف: «يجب أن تسأل أخي عن تلك الأمور».

ـ هل لديك أخ؟

أومأ ساباش برأسه.

ـ لم تحدّثني عنه من قبل. ما اسمه؟

صمت ساباش قليلًا ثمّ نطق اسم أخيه لأوّل مرّة منذ وصوله إلى رود آيلند.

ـ حسنًا.. وكيف كان سيجيبني أوديان، حسب رأيك، لو طرحت عليه هذا السّؤال؟

ـ سيقول إنّ الإقتصاد الزّراعيّ المبنيّ على النّظام الإقطاعيّ هو أسّ المشكلة. قد يقول إنّ البلاد بحاجة إلى نظام عادل يساوي بين النّاس لإصلاح قانون امتلاك الأراضي.

ـ يبدو أخوك معجبًا بالأنموذج الصّيني.

ـ هو فعلا كذلك. إنّه يساند قضيّة ناكسالباري.

ـ ناكسالباري؟ وما تكون هذه؟

وجد ساباش في صندوق بريده رسالة من أوديان بعد عدّة أيام من هذا الحديث، رسالة مكتوبة باللّغة البنغاليّة، وبحبر أزرق داكن على ورقة زرقاء فاتحة اللّون، وقد أرسلها في شهر تشرين الأوّل وها هي قد وصلت في تشرين الثّاني. تقول الرّسالة:

«إذا وصلتك هذه الرّسالة فأتلفْها. لا داعي للمجازفة بحياة كلينا، لم أتمكّن من مقاومة إغواء الكتابة إليك حين عرفت بأنّ فرصتي الوحيدة لغزو الولايات المتّحدة ستكون عبر رسالة. لقد عدت للتّو من رحلة أخرى خارج المدينة حيث قابلت الرّفيق سانيال، وتسنّت لي فرصة الجلوس معه ومبادلته الحديث وتوجّب عليّ ارتداء عصابة على عيني حتى أتمكّن من فعل ذلك. سأخبرك عن تفاصيل ذلك في رسالة أخرى.

لِمَ لا نسمع أخبارًا منك؟ لا بدّ أنّ فتيات أعظم دولة رأسماليّة قد أخذن بتلابيب عقلك. ولكن إذا تمكّنت فعلًا من تمزيق الرّابط الّذي يصلك بالوطن، فأرجو أن تكون مفيدًا لبلدك الأمّ على الأقلّ. لقد سمعت أنّ الحركة المناهضة للحرب في أوج قوّتها عندكم.

التطوّرات هنا مشجّعة للغاية، لقد شكّلنا جيشًا شيوعيًّا وتوزّعنا في القرى لنعمّم أقوال ماو تسي تونغ وننشرها في الأصقاع، إنّ جيلنا هو الطّليعة فقط. نضال الطّلاب هو جزء من نضال الفلّاحين المسلّح كما قال ماجومدار.

عند عودتك، ستجد بلادًا مختلفة عن تلك الّتي فارقتها. ستجد مجتمعًا أكثر عدالة. أنا واثق من هذا. كما ستجد بيتًا مختلفًا أيضًا. فقد استدان والدنا قرضًا من البنك ليوسّع حجم المنزل، ويبدو أنّ والدينا يفكّران في أنّ زيادة عدد الغرف ضروريّة للغاية لأنّهما يظنّان أنّنا لن نتزوّج ونربّي أطفالنا تحت نفس السّقف إذا لم يكن البيت أكبر حجمًا.

أخبرتهما أنّ خطوتهما هذه مضيعة للمال باعتبار أنّك لا تعيش في المنزل لكنّهما لم يستمعا لرأيي ولم يعد بإمكانهما التّراجع عن قرارهما، فقد أحضرا مهندسًا وسمحا له بتشييد أعمدة جديدة لبيت جديد أكبر من الّذي نعيش فيه الآن. إنّهما يعتقدان أنّ العمل سينتهي بعد عام أو عامين.

الحياة كئيبة من دونك يا أخي، ومع أنّي لن أغفر لك خذلانك للحركة الّتي ستحسّن ظروف ملايين النّاس ومعيشتهم، فإنّي أتمنّى أن تغفر لي قسوتي معك. هلاّ أسرعت في دراساتك؟

كلّ المحبّة من أخيك.

ثمّ وجد ساباش ملاحظة في أسفل الرّسالة تحتوي على اقتباس لإحدى جمل ماو الشّهيرة: *«الحرب ستسبّب الثّورة، والثّورة ستوقف الحرب»*.

أعاد ساباش قراءة الرّسالة عدّة مرّات. شعر بأنّ أوديان موجود بقربه. يكلّمه ويستفزّه. شعر بالإخلاص الذي يجمعهما وبعاطفتهما الجيّاشة المتبادلة الممدودة كحبل سرّي عابر للقارّات، حبل مشدود ومتوتّر بسبب كلّ هذا الّذي يفصل بينهما لكنّه متماسك وقويّ، عصيّ على الانقطاع.

ربّما كانت الرّسالة في أمان وسط مقتنياته في رود آيلاند، فقد كُتبت بالبنغاليّة، وكان يمكن لساباش الاحتفاظ بها بكلّ سهولة، لكنّه كان يثق بآراء أوديان ويعرف أنّه على حقّ دائما، وأنّ المحتويات الّتي تشير إلى لقائه بسانيال قد تودي بهما معًا إلى الظّلمات إذا وقعت في الأيدي الخطأ. اصطحبها معه في اليوم التّالي إلى مختبره وانتظر حتّى أصبح وحيدًا، ثمّ وضعها بشكل جنائزيّ فوق المنضدة الغرانيتيّة السّوداء الّتي يجرون فوقها التّجارب وأشعل عود ثقاب ورماه فوقها وراقب أطراف الورقة وهي تتآكل ببطء متحوّلة إلى سواد قبل أن تتلاشى في الهواء. راقب في صمت وخشوع اختفاء كلمات أخيه وكأنّها لم تكن.

«درست التّفاعلات الكيميائيّة الفرديّة الّتي لا تحدث سوى في مصبّات الأنهار، والرّواسب الّتي تتأكسد بسبب المدّ والجزر. درست طبيعة رمال الشّواطئ الموازية للشّريط السّاحليّ لأعرف سبب البقع المنتشرة فيه فاكتشفت أنّ كبريتات الحديد تسبّب البقع السّوداء الدّاكنة على الرّمال».

وعلى قدر ما يبدو كلامي هذا غريبًا، إلا أنّ شيئًا ما في السّماء الملبّدة بالغيوم، وفي السّحاب المنخفض أحيانا، والمشهد البحريّ الّذي أراه كلّ صباح، وشيءٍ ما في الماء والعشب ورائحة البكتيريا المنتشرة فوق الطّين يذكّرني بالوطن. أنا أفكّر كثيرًا بالأرض المنخفضة وحقول الأرز، رغم أنّ الأرز لا ينمو هنا طبعا. هذا السّاحل لا يُنبِتُ سوى بلح البحر، وهو نوع من المحار يحبّ الأمريكيّون تناوله.

إنّهم يسمّون قصب المستنقعات وأعشابه باسم (سبارتينا)، وقد عرفت اليوم أنّها تحتوي على غدد خاصّة تفرز الملح، ولهذا تبدو في معظم الأحيان مغطّاة ببلورات كريستاليّة صغيرة. تهاجر القواقع هنا صعودًا ونزولًا في الينابيع، ولا بدّ أنّ أعشاب المستنقعات تلك تنمو هنا منذ ألوف الأعوام بين الأحجار ذاتها، ولا بدّ أنّ جذورها تساهم في استقرار الشّاطئ. هل تعلم أنّها تتكاثر عن طريق الجذور؟ وهذا يشبه بشكل من الأشكال نباتات المنغروف الّتي ازدهرت في تولّيه غانج في الماضي».

احمرّت الأعشاب الّتي تغطّي مرج الحرم الجامعيّ فبدت كبحر من الصّدأ، وكانت هبّات الرّيح تحرّك أوراقها الميّتة فتتماوج كبحر حقيقيٍّ. خاض ساباش فيها فغرقت قدماه حتّى الكاحليْن، وكانت النّسمات تحرّك أحيانًا بعض الأوراق الطّويلة فترتفع كما لو كانت تشي بتحرّكات شيء حيّ تحتها، شيء خفيّ يهدّده، يكاد يُبرِز له وجهه قبل أن يختفي في غياهب ذلك العشب مجدّدًا.

حصل ساباش على رخصة السّياقة ونسخة من مفاتيح سيّارة ريتشارد. وفي عيد الفصح، استقلّ ريتشارد حافلة لزيارة أهله وأغلقت المدينة الجامعيّة أبوابها، ولم يكن لديه أيّ مكان يقصده لعدّة أيّام، فحتّى

المكتبة ومبنى الاتّحاد الطلّابي قد أُغلقت الأبواب.

ولهذا، كان يقود السيّارة على غير هدى. كان يقصد جيمس تاون عبر الجسر، وإلى نيوبورت أيضًا، ثم يعود. ويستمع وهو على الطّريق إلى أغاني البوب الّتي يبثّها الرّاديو ونشرات الطّقس المختلفة: «تهبّ الرّياح الشّماليّة بسرعة خمس عشرة عقدة، ثمّ تُغيّر اتّجاهها قليلًا لتصبح رياحًا شماليّة شرقيّة مساءً. أمّا أمواج البحر فترتفع من مترين إلى أربعة، ويبلغ خطّ الرّؤية لليوم ميلًا إلى ثلاثة أميال بحريّة».

قرّر في إحدى الأمسيات أن يتناول طبق باذنجان بالجبن، في مطعمٍ إيطاليٍّ اعتاد ارتياده برفقة ريتشارد. جلس هناك واحتسى الجعة، وتناول الطّبق الثّقيل المليء بالسّعرات الحراريّة وهو يشاهد مباراة كرة قدم تُبثّ على شاشة التّلفزيون الأمريكي. وعندما دفع الفاتورة وهمّ بالمغادرة، أخبره النّادل أنّهم كانوا ينتظرونه لإغلاق المحلّ لأنّهم سيغلقون باكرًا بسبب عطلة عيد الشّكر.

خلت الطّرقات تمامًا في ذاك المساء وكأنّ البلدة بكاملها ترتاح من عمل الأيّام الماضية. ورغم كلّ الحركيّة الّتي تشهدها البلاد في مثل تلك المناسبة، ورغم حجم فرح الأمريكيّين وهم يحتفلون بها، إلاّ أنّه لم يشاهد دليلًا واحدًا على ذلك العيد في الشّارع. لم يشاهد موكبًا احتفاليًّا. لم يشاهد مهرجانًا من أيّ نوع. لم يشاهد سوى مجموعة من الطلّاب الّذين اجتمعوا لمتابعة مباراة كرة قدم في إحدى قاعات الجامعة. لم يكن هناك أيّ إشارة ملحوظة لذاك العيد.

قاد السيّارة، في يوم آخر، في منطقة سكنيّة يعيش فيها بعض أعضاء الهيئة التّدريسيّة، فلاحظ الدّخان ينبعث من بعض المداخن وسيّارات

قادمة من مختلف الولايات، مركونة أمام تلك المنازل. تابع القيادة غربًا وصولًا إلى تشارلز تاون حيث تحوّلت الاسبارتينا إلى اللّون البنيّ الشّاحب. وكانت الشّمس تسطع في وجهه. كان نورها ساطعا جدّا رغم أنّها كانت تشرف على المغيب. توقّف حين وصوله إلى تلّة ملحية على أحد جانبي الطّريق. نزل من السيّارة، فرأى فجأة طائر مالك الحزين قريبًا جدًّا منه، إلى درجة أنّ ساباش تمكّن من رؤية العنبر الأحمر الذي يلمع في عينيه ولاحظ ريشه الّذي يلمع بألوان الشّفق المنعكس عليه كصفحة مرآة صافية. عنقه ملويّ بشكل حرف S وساقاه الطّويلتان رفيعتان منتصبتان برشاقة كالسّكّين النّحاسيّة الحمراء الفاتحة للرّسائل الّتي أهداها له والداه قبل مغادرته الهند.

أنزل النّافذة المجاورة له، وراقب الطّائر الجامد مثل حجر. وفجأة تحرّكت رقبة مالك الحزين المتعرّجة وتمدّدت وتقلّصت وكأنّه واعٍ تمامًا بنظرة ساباش المركّزة عليه. تذكّر طيور البلشون، في تولّيه غانج، الّتي كانت تثير المياه الموحلة بحثًا عن صيد تأكله، لكنّها كانت أشدّ نحافة من هذا الطّائر، ولم تكن متناسقة القوام ورشيقة مثله.

شعر ساباش بالارتياح لمراقبته وللتّدقيق في ريشات صدره المتدلّية في الماء حتى رقبته ولمتابعة خطواته البطيئة ولتأمّل ساقيه المنحنيتين إلى الخلف.

فكّر في البقاء في السيّارة، حتّى حلول الظّلام، لمراقبته أطول فترة ممكنة، وللتّحديق في صفحة الماء إلى ما لا نهاية، لكنّ سيّارة قادمة من الخلف اضطرّته إلى التّحرّك بسيّارته بعيدًا عن منتصف الطّريق، وعندما عاد إلى نفس المكان كان الطّائر قد اختفى.

عاد في اليوم التّالي إلى نفس المكان. مشى على حافّة المستنقع بحثًا عن طائره رغم برد المساء. وقف هناك، وراقب تحوّل أنوار الشّفق في الأفق، عند الغروب، من الذهبيّ إلى الأحمر القاني. ثمّ فكّر بأن الطّائر قد غادر لمتابعة رحلة الهجرة السّنويّة دون شكّ. وعندها، سمع صوتًا حادًّا متكرّرًا. كان مالك الحزين ذاته وهو يحلّق فوق صفحة الماء. ها هو يقف وجهًا لوجه أمام الطائر الباسط جناحيه الخافقين ببطء وإصرار. كان متماسكا وحُرًّا. ورقبته ممدودة إلى أقصاها بينما يضمّ ساقيه تحته. وفوق أنوار الشّفق اللّامعة والقانية كانت السّماء مظلمة كصورة قديمة، ممّا جعل أطراف ريشاته تبدو بوضوح كبير، كلّ ريشة على حدة.

عاد ساباش إلى هناك مرّة ثالثة لكنّه لم يجده. أحسّ لأوّل مرّة في حياته بحبٍّ عظيمٍ وصل إلى شَغافِ قلبه. وفي نفس الوقت، كان يعرف أنّه حبٌّ لا طائل منه.

بدأ عقد جديد. حلّ العام 1970 في الشّتاء، والأشجار عارية والأرض مغطّاة بالثّلوج السّميكة، وصل خطاب جديد من أوديان في ظرف مغلق هذه المرّة. مزّق ساباش الظّرف فوجد داخله صورة قديمة بالأبيض والأسود لامرأة شابّة نحيلة، تبدو متردّدة قليلًا. وكان رأسها مائلا بعض الشّيء إلى جهة أكثر من الجهة الأخرى، وكانت شفتاها مضمومتين لكنّهما تبدوان لعوبتين أيضًا، كان شبح ابتسامة يلوح عليهما، وقد جعلت شعرها ضفيرة طويلة متدلّية فوق كتفها إلى الأمام، وبدا له أن بشرتها داكنة جدًّا.

اقتنع ساباش بها رغم عدم جمالها. لم تكن تشبه أبدا الفتيات الجميلات اللّواتي كانت أمّها تشير إليهنّ أثناء الأعراس عندما كان

رفقة أخيه في الجامعة. تساءل ساباش عن هويّة المصوّر. هل يمكن أن يكون أوديان؟ لقد التقطت الصّورة المباشرة والواضحة هذه أمام أحد المباني في كالكوتا. إن كان أوديان هو المصوّر، فلا بدّ أنّه سبب النّظرة اللّعوب الّتي تبدو على وجهها.

«أقدّم إليك بطاقة تعريف غير رسميّة، لكنّي آمل أن تعتبرها رسميّة لأنّ الوقت قد حان لتلتقيها. لقد عرفتها لسنوات خلت وحافظنا على سرّيّة علاقتنا. أنت تعرف طبيعة الأمور هنا. اسمها غاوري وهي على وشك الانتهاء من دراسة الفلسفة في جامعة الرّئاسة. إنّها من شمال كالكوتا وتعيش في شارع كورنويليس. والداها متوفّيان ولهذا فهي تقيم مع أخيها - وهو صديقي - وبعض الأقارب الآخرين. إنّها تفضّل الكتب على المجوهرات والحرير، وتؤمن بقضيّتنا مثلي وأكثر.

أنا أرفض الزّواج التّقليدي الّذي ترتّبه العائلات كالرّفيق ماو تمامًا، وهو شيء أعترف أنّي أقدّره في الثّقافة الغربيّة، ولهذا فقد تزوّجتها. لا تقلق. لا داعي للهرب معها لأنّ الفضيحة لن تحدث. لا يمكنك أن تصبح عمًّا في يوم من الأيام.. ليس الآن على كل حال.. فالكثير من الأطفال في عصرنا هذا هم ضحايا للنظام الاجتماعي الفاسد.. لا بدّ من إصلاح مجتمعنا أوّلًا قبل التفكير في إنجاب الأطفال.

أتمنّى لو كنت موجودًا هنا، لكنّك لم تغبْ عن الاحتفالات لأنّنا لم نُقِمْ أيًّا منها. لقد تزوّجنا مدنيًّا وأخبرت والديَّ بعد الزّواج، وها أنا أخبرك كما أخبرتهما بالضّبط. لكنّي أخبرتهما أنّك تقبلها زوجة لأخيك وطلبت منهما أن نعيش في كنفهما في تولّيه غانج، أمّا إذا لم يقبلا فسنعيش زوجًا وزوجة في مكان آخر.

مازال والدانا في حالة صدمة، مازالا مستاءين منّي ومنها لسبب لا أعرفه، لكنّنا نعيش معهما الآن وما زلنا نحاول تعلّم كيفيّة الحياة معهما. لا يمكنهما إخبارك بزواجي من شدّة استيائهما. ولهذا، ها أنا قد فعلتُ».

في نهاية الرّسالة، طلب منه أوديان إرسال بعض الكتب لزوجته معلّلًا طلبه بأنّها متوافرة في الولايات المتّحدة: *«لا تتكبّد مشقّة إرسالها بالبريد. ستضيع أو ستُسرق. أحضرها معك من فضلك. فلا بدّ أنّك ستحضر لتهنئتي بزواجي. أليس كذلك؟»*.

لم يقرأ ساباش الرّسالة ثانية. لقد كانت القراءة الأولى كافية.

ومع أنّ أوديان يزاول عملًا منتظمًا الآن، إلاّ أنّ المبلغ الّذي يغنمه نهايةَ كلّ شهر لم يكن يكفيه ليكوّن أسرة ويفي بكلّ حاجياتها على نحو مريح. لم يبلغ خمسة وعشرين عامًا من العمر بعد. ومع أنّ البيت سيصبح أكبر في نهاية العام، إلاّ أنّ قرار أوديان بدا لساباش قرارًا متسرّعًا وظالمًا لوالديه وسابقًا لأوانه. كما شعر في الوقت ذاته بالحيرة. فقد كرّس أوديان نفسه للسّياسة وكره تقليد الآخرين وها هو يتّخذ لنفسه زوجة.

لم يكتف أوديان بالزّواج قبل أخيه الأكبر فقط، بل تزوّج امرأة اختارها بنفسه. قام وحده بخطوة كبيرة لا يمكن القيام بها إلاّ عن طريق الوالدين كما يعتقد ساباش. ها هي الحياة تقدّم له مثالًا جديدًا على تقدّم أخيه عليه، على لامبالاته بالسّنة الّتي يكبره ساباش بها، بمناقضته للعرف الّذي يقول بأنّه جاء بعد أخيه ساباش، ولهذا، يتوجّب على ساباش أن يكون السبّاق إلى الزّواج. إنّه مثال آخر على الطّريق الجديد الّذي يشقّه أخوه لنفسه بعيدًا عن كلّ الأعراف والتّقاليد.

كتب أوديان بخطّ يده تاريخ التقاط الصّورة على وجهها الخلفيّ،

فاكتشف أنّها التقطت قبل أكثر من عام: في 1968. لقد عرفها ووقع في حبّها قبل مغادرة ساباش لكالكوتا. طوال كلّ ذلك الوقت، تمكّن أوديان من الاحتفاظ بسرّ علاقته بها له وحده.

مزّق الرّسالة واحتفظ بالصّورة في أحد دفاتره كدليل على فعلة أوديان الشّنعاء.

وكان يسحبها من الدّفتر، بين الحين والآخر، ليُمعن النّظر فيها متسائلًا عن اليوم الّذي سيلتقيها فيه، وعن الفكرة الّتي سيكوّنها عنها باعتبار أنّهما أصبحا قريبين. وشعر جزء من روحه بأنّ أوديان قد غلبه مرّة أخرى لأنّه وجد لنفسه فتاة كهذه.

الفصل الثاني

1

كانت تقضي وقتها غالبًا في القراءة على الشّرفة، أو في الجلوس في غرفة مجاورة لها أثناء دراسة أخيها وأوديان معًا، لكنّهما كانا يدخّنان ويشربان الشّاي طوال الوقت. لقد تعارفا في جامعة كالكوتا حيث تخرّجا معا من الدّراسات العليا في كليّة الفيزياء. وكانت كتب أنماط سلوك الغازات والسّوائل تقبع مهملة بينما يتحدّثان عن تداعيات أحداث ناكسالباري ويناقشان وقائع اليوم. ثمّ ما تلبث أن تتوسّع نقاشاتهما لتشمل حركات التّمرّد في الهند الصّينيّة وبلدان أمريكا اللّاتينيّة. وقد أشار أوديان مرّة إلى أنّ ما حدث في كوبا لم يكن حركة شعبيّة جماهيريّة بل مجرّد تحرّك لفئة صغيرة من المتمرّدين الّذين هاجموا الأهداف الصّحيحة.

كانت الحركات الطّلاّبية تكتسب قوّة وزخمًا حول العالم في مناهضتها ورفضها للأنظمة الاستغلاليّة، وكان أوديان يقول مازحًا إنّه مثال حيّ على قانون نيوتن الثّاني في الفيزياء: القوّة تساوي الكتلة مضروبة في السّرعة.

إلاّ أنّ ماناش كان شخصًا متشكّكًا. ما الّذي في وسعهم أنْ يحقّقوه؟ إنّهم مجرّد طلاّب مدنيّون لم يعيشوا يومًا حياة فلاّح حقيقيّ. قال أوديان مؤكّدا ذلك الرّأي: «لا شيء. علينا أن نتعلّم منهم».

رأته من باب الغرفة المفتوح شابًّا طويل القامة نحيل البنية، يبدو أكبر سنًّا من سنواته الثّلاثة والعشرين، تتدلّى ملابسه الفضفاضة على

جسده، ويرتدي رداء واسعًا هنديًّا فوق قميص أوروبيّ الطّراز مفتوح الأزرار من الأعلى ومطويّ الأكمام حتّى المرفقين باستخفاف الشّباب المعهود. كان يجلس في غرفة الرّاديو على السّرير الّذي كانا يستعملانه كأريكة للجلوس نهارا، وتنام عليه غاوري ليلا. انتبهت إلى ذراعيه العجفاوين وأصابعه الطّويلة جدًّا حين قارنتها بحجم مقبض كوب الشّاي الّذي شرب محتوياته برشفتين أو ثلاث حين قدّمه لهما أحد أقاربها. استرقت النّظر إلى شعره المتموّج وحاجبيه السّميكين وعينيه الضّيّقتين الدّاكنتين.

بدت يداه امتدادًا لصوته، فقد كانتا ترافقان كلماته، في حركات لانهائيّة، لشرح أفكاره. شاهدت ابتسامته الخفيفة المرتسمة على وجهه أثناء النّقاش وأسنانه المتداخلة وكأنّ فمه يحتوي على الكثير منها. لقد سحرها منذ أوّل نظرة.

لم يكن يخاطبها أبدًا في حال مرورها من الغرفة، لم تطرف عينه باتّجاهها مطلقًا، لم يخطر ببالها أنّه أدرك كونها أخت ماناش الصّغرى إلى أن طلب منها شقيقها في أحد الأيّام إعداد الشّاي لهما. دفعت الباب بكتفها لتفتحه وهي تحمل كوبيْ الشّاي السّاخن في يديها لأنّها لم تتمكّن من إيجاد طبق تضعهما عليه. نظر إليها أوديان نظرة طويلة. طالت تلك النّظرة أكثر ممّا ينبغي قبل أن يتناول كأسه من يدها.

لاحظت غاوري حينها أنّ الأخدود الموجود بين شفته العليا وأنفه عميق جدًّا وأنّه حليق الذّقن بشكل رائع للغاية وأنّه ما زال يمعن النّظر فيها، ثمّ كسر الصّمت الّذي ظلّ ملازما لقاءاتهما العارضة يوما وسألها للمرّة الأولى: «أين تدرسين؟».

أصبحت غاوري، كلّما تسنّت لها زيارة جامعة كالكوتا المجاورة لكليّة الرّئاسة الّتي تدرس فيها، تبحث عنه في ساحة الجامعة وبين أكشاك الكتب وبين الجالسين في مقهى الجامعة. لقد أخبرها حدسها أنّه لا يحضر كلّ المحاضرات كما تفعل هي، وراحت تبحث عنه بعينيها على الشّرفات وبين النّاس في الشّوارع. لقد تمكّن الحبّ من قلبها.

ثمّ شاهدته في أحد الأيّام، وباغتتها دهشتها حين تمكّنت من تمييز رأسه وشعره الدّاكن رغم وجود مئات النّاس في نفس المكان. كان يقف على الزّاوية المقابلة ليشتري علبة سجائر، ثمّ عبر الشّارع وهو يضع كيس كتبٍ قماشيٍّ على كتفه ويلتفت في الاتّجاهين ليتأكّد من عدم وجود سيّارات، سالكا الاتّجاه الّذي يقود إلى شقّتهم.

جثمت غاوري أرضًا، خلف الدّرابزين، تحت الغسيل المبلول المعلّق على حبال فوق رأسها، خوفًا من أن يراها. ثمّ سمعت خطوات تصعد الدّرج بعد دقيقتين، فنقرات المطرقة الحديديّة على الباب، فصوت فتح الباب وكلمات الخادم ليطلب منه الدّخول.

خلا المنزل من الجميع في عصر ذلك اليوم، فتساءلت إن كان سيبقى أو يرحل حين يعلم أنّ ماناش غير موجود في المنزل. ولكنّه بدل أن يرحل، فوجئت به يدخل الشّرفة ويتوجّه إليها بالخطاب: «ألا يوجد أحد هنا غيرك؟».

هزّت رأسها نافية.

ـ هل يمكنك مبادلتي الحديث؟

ما يزال الغسيل رطبًا، وتنانيرها وبلوزاتها معلّقة على الحبل، وكانت بلوزاتها مخيطة على قياس صدرها بالضبط ممّا أثار خجلها، لكنّه

لم يكترث وتناول إحدى تلك البلوزات وأنزلها من على حبل الغسيل، وأبعدها لإفساح المجال له كي يجلس.

أبعد البلوزات ببطء لارتجاف في يديه يتطلّب تركيزا مطلقا في أيّ عمل ينجزه مقارنة بشخص عاديٍّ. عندما وقف بجانبها في تلك اللّحظة، تمكّنت من قياس طولها مقارنة بطوله ولاحظت انحناء كتفيه الخفيف وزاوية وجهه. جلس أوديان وأشعل سيجارة في الوقت الّذي وصل فيه الخادم حاملًا بعض البسكويت والشّاي.

راقبا تقاطع الشّوارع سويًّا واقفين جنبا إلى جنب، مستندين إلى الدّرابزين ممّا حال دون النّظر إليه. حملقا في المباني المقابلة، المباني الحجريّة، البالية، بأعمدتها المهترئة وأفاريزها المتداعية والسّخام الّذي يغطيها.

أسندت رأسها إلى كفّها بينما تدلّت يداه خارج الإفريز والسّيجارة في إحداهما تحترق وتتآكل. وكالعادة، كان كمّاه مطويّين إلى المرفقين، ممّا سمح لها بالانتباه إلى عروق معصميه البارزة، والدّماء الرماديّة، المائلة إلى الخضرة، الّتي كانت تجري فيها مثل ممرّات مقنطرة تحت جلده.

هناك شيء غريب يشترك فيه كلّ النّاس الّذين يرونهم من هذا الارتفاع: التحرّك بلا توقّف. يمشون، يركبون الحافلات وعربات التّرام، يسحبون أو يركبون العربات. وفي الجانب المقابل من الشّارع، كانت هناك بضع محلاّت لبيع الذّهب والفضّة، جدرانها وأسقفها مغطّاة بالمرايا، تحتشد فيها العائلات على الدّوام لاقتناء مجوهرات الزّفاف، كما توجد المصبغة الّتي تغسل وتكوي الملابس ومتجر القرطاسيّة وبعض متاجر الحلويّات الّتي يغزوها الذّباب.

على ناصية الشّارع يقرفص متسوّلٌ، وشرطيّ المرور في المنتصف بخوذته وصفّارته الّتي لا تتوقّف عن العمل وذراعه المرفوعة يمينًا وشمالًا. صمّت أذنيهما أصوات الكثير من الدرّاجات النّاريّة وأبواق العديد من السّيارات والشّاحنات والتّاكسيات.

اخترق صوته الصّمت الّذي طال بينهما: «هذا منظر جميل».

أخبرته أنّها تراقب العالم أجمع من هذه الشّرفة. تراقب المواكبَ السّياسيّة والمسيرات الحكوميّة، وكبارَ الشّخصيّات الّتي تزور المدينة، وتيّارَ المركبات الهادر الّذي يبدأ مع الفجر، والشّعراء والكتّاب الّذين يمرّون في توابيتهم والأزهار تغطّي جثثهم، والمترجّلين الّذين يخوضون في الأوحال حتّى ركبهم في مواسم الأمطار.

حكت له عن مهرجانات الخريف الّتي تمرّ من هنا، عن دمى دوركا الّتي يحملونها في ذلك الوقت، وعن ساراسواتي في الشّتاء، تلك التّماثيل الطّينيّة الّتي تحتفل المدينة بقدومها، وتماثيل دهاك الّتي يقوم العَوَامُّ بضربها على موسيقى الأبواق. كانت المهرجانات تأتي بالتّماثيل على شاحنات، وتدور بها في أنحاء المدينة، ثمّ ترميها في النّهر في نهاية موسم الأعياد. وفي هذه الأيّام، كان الطّلاّب يخرجون من شوارع الكليّة في جماعات متضامنة مع ناكسالباري ويحملون اللاّفتات والأعلام ملوّحين بقبضاتهم اعتراضًا على نهج الحكومة.

ألقى أوديان نظرة على الكرسيّ المهترئ الّذي تجلس عليه والكتاب الملقى بجانبها، فاكتشف أنّه (تأمّلات في الفلسفة الأولى) لديكارت، فتناوله وسألها: «تقرئين هذا هنا، رغم كلّ ما يدور حولك؟».

ـ الضّجيج يساعدني على التّركيز.

قالت إنّها اعتادت الدّراسة والنّوم على وقع الضّجيج منذ وقت طويل، وإنّها تعتبره المرافق الوحيد الثّابت المستمرّ لحياتها منذ بدئها حتّى اليوم، وإنّه يساعدها على الهدوء أكثر من الصّمت. ثمّ أخبرته أنّ الوضع داخل البيت يؤرّقها لأنّها لا تملك غرفة خاصّة بها، ولهذا فقد اتّخذت الشّرفة مستقرًّا لها.

منذ صغرها، كثيرا ما كانت تخرج من سريرها في ظلام اللّيل وتلجأ إلى الشّرفة، ليجدها جدّاها، هناك، غارقة في النّوم، ووجهها مقابل الإفريز المخرّم، وجسدها مرتاح على الأرض الحجريّة، دون أيّ شعور بالضّجيج الّذي يملأ المكان. كما أنّها عشقت، منذ الطّفولة، الاستيقاظ في مكان مفتوح لا تحدّه جدران ولا يعلوه سقف. لقد ظنّوا، أوّل مرّة، أنّها اختفت عندما أرسلوا أفرادًا من العائلة والجيران بحثًا عنها في الشّوارع، ولم يجدوها.

ـ ثمّ؟ سألها أوديان.

ـ اكتشفوا أنّي نائمة هنا.

ـ هل منعك جدّاك من تكرار ذلك؟

ـ لا. طالما أنّ الطّقس مناسب وخالٍ من الأمطار. كانوا يتركون لي ملاءة صغيرة هنا.

ـ أستنتج إذن أنّ هذا المكان مماثل عندك لظلّ الشّجرة الّتي كان بوذا يجلس تحتها. إنّه المكان الّذي تصلين فيه إلى الاستنارة.

رفعت كتفيها ولم تجب. فركّز نظره على الصّفحات الّتي تقرأ ثمّ سألها: «ماذا يقول لنا السيّد ديكارت عن العالم؟».

أخبرته بما تعرفه عن حدود الإدراك وتجربة قطعة الشّمع المعلّقة

فوق شمعة مشتعلة، وكيف بقي جوهر الشّمع على حاله رغم تغيّر شكله الفيزيائيّ، ووضّحت الاستنتاج الكبير: إنّ العقل لا الأحاسيس هو الّذي يستوعب ذلك ويفهمه.

ـ تقصدين أنّ التّفكير أهمّ من الملاحظة؟

ـ بالنّسبة إلى ديكارت فالإجابة هي نعم. لا يمكن الاعتماد على الشّعور.

ـ هل قرأت أيًّا من مؤلّفات ماركس؟

ـ قليلًا.

ـ لماذا تدرسين الفلسفة؟

ـ إنّها تساعدني على فهم الأشياء.

ـ ولكن ما الّذي يجعلها بكلّ تلك الأهميّة عندك؟

ـ قال أفلاطون إنّ هدف الفلسفة هو تعليمنا أفضل طريقة للموت.

ـ لا يمكننا تعلّم أيّ شيء ما لم نكن أحياء. أمّا عندما نموت، فنصبح كلّنا متعادلين. لا ميّت أفضل من الآخر. وهذا ما يجعل الموت أفضل من الحياة من تلك النّاحية.

قال ذلك دون أن يقمع تلك البسمة الخفيفة الّتي ارتسمت على وجهه، ثمّ أغلق الكتاب وأعاده إليها، فأضاعت الصّفحة الّتي انتهت إليها. قال بعد لحظات من الصّمت: «لقد فقدت الشّهادات الجامعيّة قيمتها في هذا البلد».

ـ أنت على وشك الحصول على دكتوراه في الفيزياء!

ـ والداي يتوقّعان منّي ذلك، لكنّي لا أكترث للأمر.

ـ ما الّذي تكترث لأمره إذن؟

تحوّلت عيناه إلى الشّارع وأشار إليه بإيماءة من رأسه، وقال بصوت يكاد لا يسمعه غيرهما: «مدينتنا المستحيلة هذه».

غيّر أوديان الموضوع، وسألها عن الأقرباء الّذين يسكنون معهما فأخبرته أنّ البيت يحتوي على اثنين من الأعمام وزوجتيهما وأطفالهما، وأنّ جدّيها اللّذين يملكان الشقّة قد توفّيا كما حصل لوالديها، وأخبرته عن وجود أخوات أكبر منها يعشن في أماكن أخرى بعد زواجهنّ.

ـ وهل أمضيتم كلّ حياتكم هنا؟

هزّت رأسها نافية، وأخبرته أنّهم قد تنقّلوا بين منازل مختلفة في شرق البنغال وكولنا وفريدبور حيث تعيش أخواتها البنات الآن. أخبرته عن والدها الّذي كان يشغل منصب قاضٍ ممّا كان يجبره على التّنقّل دومًا بين بيوت جميلة، في مناطق ريفيّة رائعة الجمال، كانت الحكومة تتكفّل بدفع أجورها، وتوفّر لهم دائمًا طاهيًا وخدمًا يسهرون على راحتهم جميعًا.

ولد ماناش في واحد من تلك المنازل، وهو لا يذكره، إلاّ أنّ أخواتها الأكبر سنّا يتحدّثن دائمًا عن تلك المرحلة من طفولتهم، عن ماضيهم المشترك ذاك، عن المعلّمين الّذين كانوا يحضرون إلى البيت لتدريس الرقص والغناء، عن الموائد الرّخاميّة الّتي كانوا يتناولون الطعام عليها، عن الشّرفات الكبيرة الّتي اعتادوا اللّعب فيها، وعن الغرفة الّتي كانت مخصّصة للدّمى والألعاب فقط.

انتهى ذلك العصر في عام 1946. وعادت العائلة إلى كالكوتا، لكنّ والدها أعلن، بعد عدّة أشهر، أنّه لا يريد قضاء فترة تقاعده هنا بعد حياة طويلة عاشها خارجها. قال إنّه لا يحتمل الحياة في مدينة مكتظّة كهذه، وأنّ أكثر ما يزعجه هو أبناؤها الّذين يذبح بعضهم بعضا، وأنّه

لا يريد قضاء ما تبقى من عمره في حيّ يحترق شيئًا فشيئًا.

شهد والداها من هذه الشّرفة بالذّات منظرًا في بداية أحداث الشّغب: حاصرت عصابة مسلمًا يوزّع الحليب على المنازل كلّ صباح على درّاجته، وكانوا يريدون الانتقام من قريب هذا الرّجل الّذي اشترك في هجوم على الهندوس في حيّ آخر من المدينة. شاهدا بأمّ أعينهما أحد الهندوس يغرز خنجرًا بين أضلاع بائع الحليب. شاهدا الحليب الّذي كان سينتهي في أكواب أطفالهم وهو يُسفح على الأرض ويتحوّل إلى اللّون الورديّ بعد اختلاطه بالدّماء.

وعندئذ، حزما أمرهما بسرعة ونقلا العائلة إلى قرية هادئة على بعد عدّة ساعات غرب المدينة بعيدًا عن أقربائهم والاضطرابات المتأجّجة، وفضّلا البقاء هناك. كانت هناك بركة مجاورة تصلح للصّيد والسّباحة، والكثير من الدّجاج وحديقةٍ عَشِقَ والدها العناية بها. لا شيء من حولهم سوى الحقول والطّرقات الموحلة والسماء والأشجار. كانت تقع أقرب دار سينما على بعد عشرين ميلًا منهم، ولهذا فقد طلب والدها من بائع كتب إمدادهم بمجموعة من الكتب كلّ عام. كان اللّيل هناك ليلًا حقيقيًا مطلق العتمة.

عندما ولدت غاوري عام 1948، كانت والدتها ترتّب شؤون زواج أخواتها الأكبر سنًّا، أخواتها اللّاتي ينتمين إلى جيل آخر، إذ كنّ مراهقات عندما كانت غاوري مجرّد رضيعة، وتحوّلن إلى شابّات حين غدت طفلة، وأصبحت خالة لأطفال في نفس سنّها قبل أن تذهب إلى المدرسة.

ـ كم عشتِ في الرّيف؟

ـ إلى أن بلغتُ الخامسة.

وقعت والدتها طريحة الفراش، في ذلك الوقت، بسبب السلّ الّذي أصاب عمودها الفقريّ، فقامت أخواتها بكلّ الأعمال المنزليّة، ممّا جعلها، وماناش، مجرّد تعقيد آخر في حياة الأسرة اليوميّة. ولهذا أرسلتهما العائلة إلى بيت الجدّين في المدينة، للعيش برفقة أعمامهما وعمّاتهما.

بقي الطّفلان في المدينة رغم تحسّن صحّة والدتهما، إذ تمّ تسجيل ماناش في المدرسة في كالكوتا ولم ترغب غاوري في مفارقته، وعندما حان وقت ذهابها إلى المدرسة سجّلوها في واحدة مجاورة باعتبار أنّ التّعليم الّذي ستتلقّاه في المدينة أفضل، في كلّ الأحوال، من نظيره في الرّيف.

أصبح اختيار العودة إلى بيت العائلة في الرّيف بيديهما. وكانا يذهبان بالقطار في العطل والإجازات لزيارة أهلهما. لكنّ الرّيف لم يستهْوِهما أبدًا. أخبرته أنّها غير مستاءة من والديها لعدم استبقائها بجانبهما ككلّ الأطفال، فقد كان ذلك عادة موجودة لدى الكثير من العائلات الكبيرة، وأضافت أنّها تقدّر لهما تَرْكَها تتحمّل مسؤوليّة حياتها منذ البداية.

ـ إنّها هديّتهما الكبرى لك. أقصد منْحك استقلاليّتك.

قُتل والداها في حادث درّاجة ناريّة في طريق جبليّ حينما كانت في السّادسة عشرة من عمرها، وهما مسافران لقضاء إجازة في منطقة جبليّة مرتفعة. بيع البيت واختفت كلّ آثار عائلتها من تلك المنطقة. فُجع الجميع بوفاتهما المفاجئة، لكنّ فقدانها لجدّيها مؤخّرًا آلمها أكثر. لقد كبُرت في بيتهما، ونامت بينهما، ورافقتهما يومًا بعد يوم وهما

يكبران ويشيخان ويمرضان. وكان جدّها -البروفسور في الجامعة السّنسكريتيّة الّذي مات أثناء القراءة- أهمّ مُلهم لها، وأكثر من دفعها إلى دراسة الفلسفة.

أخبرته أيضا أنّ مسيرة حياتها المختلفة هذه كانت تفتن جدّها، فقد ولدت في الرّيف وأبدت رغبتها في العيش بعيدًا عن والديها في سنّ مبكّرة، وانسلخت عن معظم أفراد عائلتها، واستقلّت بشكل يكاد يكون تامّا.

أشعل أوديان لفافة تبغ أخرى وأخبرها أنّ طفولته كانت مختلفة. إذ لم يكن هناك أحد غيره وأخوه، بالإضافة إلى والديه طبعا، في بيت واحد في تولّيه غانج.

ـ وماذا يفعل أخوك؟

ـ إنّه يفكّر الآن في الرّحيل إلى الولايات المتّحدة.

ـ هل تفكّر بذلك أيضًا؟

ـ لا. وأنتِ؟ هل ستفتقدين كلّ هذا عند زواجك؟

لاحظت غاوري أنّ فمه لا يغلق كليًّا حين يتكلّم أو حين يصمت، وأنّ الفتحة الموجودة باستمرار تأخذ شكل الماس.

ـ أنا لن أتزوّج.

ـ ألا يضغط عليك أقرباؤك من أجل الزّواج؟

ـ إنّهم غير مسؤولين عنّي. أولادهم أحقّ بقلقهم ذاك.

ـ وماذا ستفعلين بدلًا عن الزّواج؟

ـ قد أدرّس الفلسفة في الجامعة.

ـ وهل ستبقين هنا؟

ـ ربّما. لِمَ لا؟

ـ هذا جيّد من أجلك. أعني لِمَ تفارقين المكان الّذي تحبّينه وتتوقّفين عن القيام بما تهوينه من أجل رجل؟

إنّه يحاول التقرّب منها. هكذا حدّثت نفسها. خامرها شعور بأنّه يحاول أن يكوّن رأيًا عنها دون النّظر إليها، وهو يتأمّل الشّارع، ويكلّمها كما لو أنّه يستنتج معلومات إضافيّة لصورة عنها، مرسومة أصلًا في ذهنه. لقد فعل ذلك دون إذنها، وهو شيء لم يحاول رجل آخر فعله معها، ولم تملك الاعتراض عليه لأنّه هُوَ هُوَ.

أشار بعد برهة للتّقاطع وقال: «إذا تزوّجت رجلًا يعيش في إحدى تلك الزّوايا، إذا ما اضطررت إلى الانتقال إلى واحدة من تلك الشّرفات. هل ستجدين الأمر مناسبًا لك؟».

لم تتمالك نفسها، فابتسمت، وحاولت إخفاء ابتسامتها بيدها، ثمّ ضحكت وأشاحت ببصرها بعيدًا.

بدأ العاشقان يلتقيان في الجامعة وفي بيت غاوري، إلى أن بلغت الأمور حدًّا منعهما من الافتراق، لفترة زمنيّة طويلة، دون تفكير أحدهما في الآخر، فكان يعبر أسوار كليّتها ليسترق النّظر إليها، وهي تهبط السّلالم بعد انتهاء محاضراتها، ثمّ يفاجئها فيجلسان في أحد الأروقة المحاطة باللّافتات الّتي علّقها اتّحاد الطّلبة، ويجلسان متجاورين للاستماع إلى الخطب الاحتجاجيّة على ارتفاع أسعار المواد الغذائيّة والانفجار السّكاني وانعدام الوظائف، ويمشيان سويًّا كلّما خرج الطلّاب في مسيرة احتجاجيّة ضدّ الحكومة.

بدأ أوديان يرغّبها في قراءة الكتب. اشترى لها أوّلًا بيان ماركس واعترافات روسو، ثمّ أهداها نسخة ممنوعة من كتاب فيليكس غرين عن فييتنام.

وفي المقابل، لاحظت غاوري أنّه معجب بها، لا لأنّها كانت تقرأ كلّ ما يختاره لها، بل لأنّها كانت تناقشه في كلّ شيء. تبادلا الآراء حول حدود الحريّة السّياسيّة وأبديا رأييهما حول ما إذا كانت الحريّة والسّلطة تعنيان الأمر ذاته، وحول الفرديّة والتّسلسل الهرميّ في السّلطة، وحول حال المجتمع المعاصر وما يمكن أن يؤول إليه.

شعرت غاوري بذهنها يُقدح ويُشحذ ويصبح أكثر تركيزًا، يُصارع آليّات عمل العالم المحدّدة والملموسة بدلًا من الشكّ في وجوده، شعرت أنّها أقرب من أوديان في غيابه وهي تفكّر في الأمور الّتي تهمّه.

حاولا إبقاء الأمر سرًّا عن ماناش، إلى أن اكتشفا أنّه خطّط للأمر منذ البداية لأنّه كان متأكّدًا من أنّهما يتناسبان تمامًا فسهّل لغاوري خروجها من المنزل لقضاء الوقت مع أوديان وبرّر غيابها أمام العائلة بتأكيدات من عنده على مكان وجودها.

وكان افتراقهما دومًا حادًّا وفظًّا، لأنّ اهتمام أوديان الكبير كان يتلاشى فجأة لاضطراره إلى الذّهاب إلى مكان ما أو لحضور لقاء سرّي أو حلقة بحث دراسيّة. لم يشرح لها تفاصيل أيّ شيء. لم ينظر أوديان إلى الخلف مطلقًا، بل كان يتوقّف في أماكن مرئيّة بالنّسبة إليها في الجامعة أو الشّارع.

كان يحدّثها أحيانًا عن السّفر لزيارة الرّيف الّذي عاشت فيه طفولتها المبكّرة، حيث لم تعد الحياة بسيطة مثلما ما كانت عليه بعد أحداث ناكسالباري.

كان يريد رؤية المزيد من الهند ـ على حدّ قوله- كما جاب تشي غيفارا أصقاع أمريكا الجنوبيّة لفهم ظروف سكّانها، بالإضافة إلى أنّه رغب في زيارة الصّين أيضًا.

حدّثها عن عدّة أصدقاء هجروا كالكوتا للعيش بين الفلاّحين. وكان يحاول أن يبرّر اختياره ذاك باستمرار. كان كثيرا ما يقول لها بنبرة تحاول أن تجمع بين التودّد والحزم: «هل تفهمين دوافعي؟ هل ستتفهّمين قراري إذا ما فعلت ذلك في يوم من الأيّام؟».

وكانت غاوري تعرف تمامًا أنّه يختبرها، وأنّه لن يحترمها بعد الآن إذا ما حوّلت الحديث إلى العواطف، إذا لم ترغب في مواجهة بعض المخاطر. ولهذا، مع أنّها لم ترغب في ابتعاده عنها ولم ترغب أيضًا في أن يصاب بأيّ مكروه، أبدت موافقتها وأظهرت تحمّسها لما يريد.

تذكّرت هويّتها وشخصيّتها الفريدة الخاصّة بها بعد رحيله. عادت إلى كتبها القديمة بسهولة، وراحت تقضي فترات العصر في الكتابة على الشّرفة أو القراءة في مكتبة الجامعة. لكنّها أصبحت تشكّ في هذه الشّخصيّة بعد لقائها بأوديان، إنّها الشّخصيّة الّتي دفعها أوديان جانبًا بأصابعه الطّويلة النّحيلة بحزم، وأبعدها، لتبدأ غاوري برؤية نفسها بوضوح أكبر كما لو كانت حياتها الماضية مجرّد طبقة غبار تغطّي مرآة من الكريستال.

كانت غاوري تجهل نفسها أثناء مرحلة الطّفولة، تجهل أصلها ولا تعرف سوى أنّها وصلت إلى هذه الحياة عن طريق الصّدفة. لم تكن ترى أقرباء حقيقيّين لها سوى أخيها ماناش. ولهذا، لم تكن ترى نفسها دونه ولا ترى خيطًا يجمعها بكلّ الأهل المحيطين بها. إنّها لا تذكر

دقيقة واحدة جمعتها بوالدتها أو والدها دون بقيّة أفراد العائلة حتّى في ذلك البيت الرّيفيّ المعزول عن العالم. كانت تأتي دومًا في ذيل طابور طويل، في ظلّ الآخرين، ممّا حدا بها إلى الاعتقاد بأنّها ليست مميّزة، بما فيه الكفاية، لتحظى بظلّها الخاصّ.

أمّا في حضور الرّجال، فكانت تشعر بأنّها غير مرئيّة. كانت تعرف أنّها لا تشبه أنموذج الأنثى الّتي تلفت أنظارهم في الشّارع أو في الأعراس. لم يطلب أحد يدها يومًا ولم يخطب ودّها رجل كما حصل لأخواتها. لقد خيّبت أمل المرأة الكامنة فيها بصمت.

وبصرف النّظر عن لون بشرتها الدّاكنة الّتي يعتبرها الكثيرون عيبًا، لم يكن فيها أيّ مظهر للدّمامة. ومع ذلك، كلّما فكّرت في ما يمنع الرّجال من الانتباه إليها، كانت تعتبر أنّ وجهها طويل أكثر من اللّازم أو أنّ ملامحها حادّة جدًّا، وتتمنّى لو كانت قادرة على تغيير شكلها لإيمانها المطلق بأنّ ملامحها هي السّبب، لا لونها.

لكنّ أوديان نظر إليها بعمق وكأنّها المرأة الوحيدة الموجودة في المدينة. ولم يساورها الشكّ أبدًا في تأثيرها فيه عندما يكونان معًا. إنّها تثيره عندما يقفان متجاورين، عندما يلتفت بوجهه نحوها ويتأمّلها بلا توقّف. كان يلاحظ أدنى تغيير في مظهرها ويثني على تسريحة شعرها دائمًا.

وفي أحد الأيّام، وجدت، في أحد الكتب الّتي أعطاها، ملاحظة تطلب منها أن تلاقيه في دار السّينما لحضور حفلة العصر.

خافت غاوري من الذّهاب وخشيت من عدم تلبية دعوته، لأنّ الجلوس في المقهى أو الجامعة للنّقاش أو المشي داخل حرم الجامعة

ومراقبة الشبّان الّذين يقفزون في بركة الماء شيء، ومقابلته في السّينما شيء مختلف تمامًا. لم يتقابلا في مكان خال من قبل، لم يلتقيا في مكان خارج إطار الدّراسة، لم يوجدا معا في مكان غير منطقيّ في نظر النّاس.

تردّدت غاوري في عصر ذلك اليوم، فتأخّرت ولم تصل إلاّ بعد بدء أحداث الفيلم، مرتبكة، قلقة من احتمال أن لا ينتظرها. وفي نفس الوقت، كانت تتحدّاه ليفعل ذلك، لكنّه تحدّاها أيضًا وانتظرها.

وقف أوديان خارج المسرح، يدخّن بعيدًا عن المشاهدين الّذين انقسموا إلى مجموعات كثيرة كي يناقشوا أحداث الجزء الأوّل من العرض. كانت الشّمس تشارف على المغيب عندما شاهدها، فرفع يديه إلى الأعلى كي يلفت انتباهها. وما إن اقتربت منه، قرّب وجهه من وجهها فالتقى شعراهما ممّا جعل الرّأسين يبدوان وكأنّهما تحت مظلّة ما. شعرت غاوري بأنّها فريدة معه، بأنّه يحميها من كلّ تلك الجموع. أحسّت أنّها متميّزة عن كلّ النّساء كفقاعة محلّقة فوق المدينة المنتفخة.

لم تلاحظ أيّ علامة انزعاج أو نفاد صبر على وجهه، لم تلحظ سوى البهجة الصّافية البرّاقة في عينيه عندما رآها، وكأنّه كان على يقين من حضورها، وإن تأخّرت. وكأنّه غير مهتمّ لتأخّرها، حتّى لو كان متعمّدًا. وعندما سألته عن أحداث الفيلم قبل وصولها، أجابها بأنّه لا يعرف.

«لا أعرف ما جرى». وأعطاها التّذكرة، فعرفت أنّه كان ينتظرها في الخارج طوال الوقت. انتظرها حتّى عندما بدأ العرض وأُطفئت الأنوار كي يأخذ بيدها ويدخلا معًا.

2

عاش ساباش وحيدًا، في السّنة الثّانية من دراسته، بعد مغادرة ريتشارد للعمل في شيكاغو. واستقلّ في الرّبيع سفينة أبحاث مع مجموعة من الطلاّب والأساتذة طيلة ثلاثة أسابيع. وعندما ابتعدت السّفينة عن البرّ، شاهد أثرها الزّبديّ الأبيض على سطح الماء يتلاشى بنفس السّرعة الّتي يتشكّل بها. ابتعد الشّاطئ، أكثر فأكثر، إلى أن بدا كأفعى بنّية اللّون، طافية على البحر. ثمّ تقلّصت اليابسة في الأفق حتّى اختفت تمامًا.

شعر ساباش، من لفح الرّياح على وجهه، أنّها تزداد قوّتها كلّما ازدادت السّرعة واضطرابات الجوّ تحت وهج الشّمس. رست بهم السّفينة أوّلًا في خليج بازارد، فقد ارتطمت بارجة بساحل فالموث الصخري، قبل عامين، بسبب الضّباب ممّا أدّى إلى ثقب هيكلها وتسرّب مائتي ألف غالون من النّفط إلى المياه. لقد دفعت الرّياح بتلك الكارثة النّفطيّة إلى وايلد هاربور، فقتل الوقود الأعشاب البحريّة وكلّ سرطعونات البحر الّتي لم تتمكّن من دفن نفسها كعادتها حين تستشعر أنّ خطرا يحدق بها، ممّا أدّى إلى تجمّدها وبقائها في وضعها الّذي لازمها حتّى الآن. نشر الطلاّب الشّباك لصيد الأسماك، وجمعوا عيّنات رسوبيّة في علب معدنيّة، فأدركوا من خلالها أنّ التلوّث سيستمرّ إلى أجل غير مسمّى.

تابعوا المسح وصولًا إلى جورج بانك حيث تتكاثر العوالق عادة، وتتفجّر الطّحالب متكاثرة تحت الماء بشكل دوّامات زرقاء نيليّة كلون ذيل الطّواويس. لكنّ المحيط بدا عدائيًّا مبهما، في الأيّام الملبّدة بالغيوم، داكنًا كدنٍّ هائل من القطران.

راقب ساباش الحياة المحيطة بالسّفينة: طيور الأطيش ذات الرّؤوس المائلة إلى اللّون الأبيض بأجنحتها البيضاء والسّوداء، والدّلافين الّتي تقفز فوق الماء أزواجًا، والحيتان الحدباء الّتي تنفث الرّذاذ كلّما تنفّست، حينًا، وتمرّ من تحت السّفينة، أحيانًا، بوداعة لتبرز فوق السّطح من النّاحية الأخرى.

وكلما ابتعدت السّفينة أكثر نحو الشّرق، شعرساباش بطول المسافة الّتي تفصله عن عائلته، مفكّرًا بالوقت الطّويل الّذي احتاجته السّفينة لقطع مسافة صغيرة كهذه على سطح الأرض. شعر أيضا بوحدة مضاعفة وهو بين الطلاّب والأساتذة لأنّه لم يتمكّن من استشراف مستقبله بعد أن شعر بانسلاخه عن ماضيه.

لم تقع عيناه على عائلته منذ عام ونصف، لم يجالسهم، ولم يشاركهم العشاء في نهاية النّهار. لم يملك والداه هاتفًا في المنزل في تولّيه غانج ممّا دفعه إلى إرسال تلغراف يعلمهم فيه بوصوله سالمًا إلى الولايات المتّحدة. لقد تعلّم أن يعيش دون أن يسمع أصواتهم، وألّا يعرف عنهم أيّ شيء إلاّ عبر الرّسائل.

خلت رسائل أودبان الجديدة من أيّ ذكر لموضوع ناكسالباري ولم يعد يذيّلها بشعارات الاستنكار السّياسيّة. لقد توقّف، فعليًّا، عن الكتابة السّياسيّة، وبدأ يحدّثه عن مباريات كرة القدم أو ما يجري في

الحيّ والسّينما. وكان يستفهمه عن دراسته وكيفيّة قضاء الوقت في رود آيلند، ويسأله باستمرار عن موعد رجوعه إلى كالكوتا، واستوضحه، في إحدى الرّسائل، إن كان ينوي الزّواج عند عودته.

احتفظ ساباش ببعض من تلك الرّسائل لأنّها لم تكن خطيرة من أيّ ناحية، لكنّ رقّتها ولطفها الغريب أربكاه. فمع أنّ الخطّ كان نفسه، إلاّ أنّها كانت تبدو مكتوبة من قبل شخص آخر. تساءل ساباش عمّا يجري في كالكوتا وعمّا يخفيه أوديان حقًّا، وفكّر أيضا في كيفيّة تعايش أخيه مع والديه في غيابه.

أمّا رسائل الوالدين فكانت تشير بشكل غير مباشر لغاوري كمثال لما لا يجب على المرء القيام به. كما جاء في أحد الخطابات:

«نتمنّى أن تسمح لنا بتخطيط مستقبلك عندما يحين الأوان لذلك، وأن تمكّننا من اختيار زوجتك، وأن نحضر حفل زفافك. نتمنّى ألاّ تعارض رغبتنا كما فعل شقيقك».

أجاب ساباش على تلك الرّسالة بأنّه فوّضهما، تمامًا، لتدبير أمر زواجه، وأرسل جزءًا من المال المخصّص لدراسته كي يساعدهما في بناء قسم إضافيّ للمنزل، وأضاف أنّه مشتاق إلى رؤيتهما. ومع ذلك، كان ينسلخ عنهما، أكثر فأكثر، يومًا بعد يوم، إلى أن تجاهل وجودهما كليًّا.

لم يكن أوديان وحيدًا، فقد بقي في تولّيه غانج الّتي تعلّق بها وبنمط حياتها الّذي تعوّد عليه، وأثار حفيظة والديه لكنّه بقي تحت جناحهما. الفرق الوحيد، الآن، هو أنّه أصبح متزوّجًا وأنّ ساباش غائب عن المنزل. ولطالما شكّ في أنّ غاوري قد أخذت مكانه في المنزل بعد غيابه الطّويل هذا.

في أحد الأيّام الملبّدة بالغيوم، ذهب ساباش إلى الشّاطئ المحاذي للحرم الجامعي. وفي البدء، لم يلحظ وجود أحد غير صيّاد واقف على طرف الرّصيف. وعندما وقف هناك وحيدًا برفقة الأمواج السّطحيّة المتكسّرة على الصّخور الرّماديّة والصّفراء، شاهد امرأة وطفلًا، برفقتهما كلب، يدنوان منه.

كانت المرأة تلتقط بعض الأعواد المبعثرة على الرّمال وترمي بها للكلب كي يلتقطها. كانت ترتدي حذاء رياضيًّا خفيفًا دون جوارب ومعطفًا مطريًّا مطاطيًّا وتنّورة قصيرة. أمّا الطّفل فكان يحمل دلوًا.

راقبهما ساباش وهما يخلعان حذاءيهما ويتجوّلان فوق الصّخور، ويبحثان في البرك المائيّة الّتي سبّبها المدّ والجزر عن نجمات البحر. تذمّر الفتى وأصابه الإحباط عندما لم يجدْ أيّ واحدة منها.

طوى ساباش أسفل سرواله وخلع حذاءه وخاض الماء لأنّه يعرف أماكن اختباء النّجمات واستخرج واحدة من تحت إحدى الصّخور وتركها ترتاح في الهواء. كانت قاسية الملمس، تنبض بالحياة. قلبَها ليرى وجهها السّفلي، وأشار إلى العيون الموجودة على أطراف أذرعها وهو يقرّبها من الفتى قائلا: «هل تعرف ما الّذي سيحدث إذا ما وضعتها على ذراعك؟».

هزّ الفتى رأسه نافيًا.

ـ ستنتزع الوبر عن جلدك.

ـ وهل سيؤلمني ذلك؟

ـ ليس كثيرًا. دعني أُرِكَ.

عندئذ سألته المرأة: «من أيّ بلاد أنت؟».

كان وجهها مألوفًا قريبًا إلى القلب، واللّون الأزرق الفاتح في عينيها كقلب بلح البحر. لقد بدت أكبر منه ببضع سنوات، وبدا شعرها الطّويل الأشقر الدّاكن كلون أعشاب البحر في الشّتاء.

ـ أنا من الهند، من كالكوتا.

ـ لا بدّ أن بلادنا مختلفة كثيرًا عن بلادك.

ـ نعم، إنّها كذلك.

ـ هل أنت سعيد هنا؟

لم يسأله أحد من قبل عن ذلك. نظر ساباش إلى الماء، إلى قضبان الفولاذ المتعانقة لربط أجزاء الجسر فوق الخليج، إلى الطّريقة الّتي تستند فيها القضبان العليا على السّفلى والأبراج الفولاذيّة البارزة من العليا والتّناظر الدّقيق الّذي يحدّد تقوّس الجسر الجديد والكابلات الجديدة الّتي ستنير عتمة الليل.

لقد أخبره أحد أساتذته عن تفاصيل بناء الجسر منذ بدايته حتّى الانتهاء منه، وعن الأسلاك الموجودة داخل الكابلات الّتي يصل طولها إلى أكثر من ثمانية آلاف ميل، وهي المسافة الفاصلة بين الهند والولايات المتّحدة، تلك المسافة الّتي تفصله عن عائلته.

نظر إلى المنارة الصّغيرة المربّعة الشّكل، ذات النّوافذ الثّلاث المصفوفة بعضها فوق بعض كما لو كانت ثلاثة أزرار على قميص، والمبنيّة على قمّة جزيرة داتش آيلاند. وفي الأفق، هناك جسر خشبيّ ينتهي إلى ما يشبه الكوخ الخشبيّ المفتوح من الجانبين حيث ترسو بعض القوارب في الطّرف الآخر من الشّاطئ، بينما تتناثر القوارب الباقية في زرقة البحر كنقاط بيضاء صغيرة.

ردّ ساباش بصوت خفيض وابتسامة خفيفة تضيء وجهه: «اعتقدت في مرّات عديدة أنّي اكتشفت أجمل الأماكن على وجه البسيطة».

لم يكن كلامه ذا صلة بالموقف، ولكنّه لم يكترث بل تكلّم وحسب. أراد أن يقول لها إنّه كان يبحث طوال حياته عن رود آيلند، إنّه تنفّس في هذه اللّحظة ملءَ روحه، ها هنا، لأوّل مرّة منذ ولد، في هذه الزّاوية المهيبة القصيّة من العالم.

كان اسمها هولي، أمّا الصّبيّ فاسمه جوشوا، وقد بدأت عطلته الصّيفيّة منذ فترة قصيرة، أمّا اسم الكلب فهو تشيستر، وكانا يعيشان في ماتونوك قرب أحد البحيرات الملحيّة قريبًا من هنا. عرف أنّهما كانا يأتيان إلى شاطئ الجامعة، بين الحين والآخر، ليتنزّها رفقة الكلب بعد أن حكت لهما مربّية جوشوا عن جمال المكان. وكانت هولي تستعين بتلك المربّية في أيّام العمل كممرّضة في مشفى صغير شرق غرينتش.

لم تذكر له أيّ شيء عن زوجها، لكنّ جوشوا ذكره، عصرًا، عندما سأل أمّه ما إذا كان سيذهب مع أبيه للصّيد في عطلة نهاية الأسبوع أم لا. دفع ذلك ساباش إلى الاعتقاد بأنّه يعمل في أحد مكاتب المدينة في مثل هذا الوقت.

وفي يوم آخر، لاحظ ساباش سيّارة هولي في المرآب، فاندفع إلى الشّاطئ ليسلّم عليها. لاحظته هولي من بعيد فلوّحت له، وبدا السّرور على وجهها لرؤيته، واندفع الكلب راكضًا أمامها باتّجاهه وجوشوا يعدو خلفه.

سارا معا بلا وجهة محدّدة، وتحدّثا أثناء مشيهما على الشّاطئ، ذهابًا وإيابًا. تناثرت الأعشاب والطّحالب البحريّة في كلّ مكان، واختلطت

بأعشاب الصّخور الّتي كانت تزدان في هذا الوقت من العام ببراعم بنّية خضراء منتفخة كحبّات من الزّبيب، وبعض من عشب خسّ البحر المرميّ هنا وهناك بعد أن جرفته الأمواج، وأعشاش متشابكة من سرخس البحر البنّي المتمايل مع المدّ والجزر، كما صادفا قنديل بحر، قد جنح من منطقة الكاريبي، وهو ممدّد على الرّمال متباعد الأذرع كشتلات أقحوان أزهرت في غير مكانها.

أخبرته عندما سألها عن حياتها، أنّها ولدت في ماساتشوستس من عائلة كَنديّة ذات أصول فرنسيّة وأنّها عاشت معظم حياتها في منطقة رود آيلند، ودرست التّمريض في الجامعة. ثمّ سألته بدورها عن نوعيّة دراسته فأخبرها بأنّه يستعدّ الآن لاجتياز امتحان نظريّ، يقوم بعده بإجراء بحث جديد وكتابة أطروحة للحصول على درجة الدّكتوراه.

ـ كم سيستغرق ذلك من الوقت؟

ـ ثلاث سنوات أخرى، وربّما أكثر.

كانت هولي تعرف الكثير عن طيورالبحر، فأخبرته عن الفوارق بين البطّ البرّيّ والوحشيّ، وبين طيور النّورس والخرشنة. وأشارت إلى طائر زمّار البحر الّذي يقفز إلى الماء ويعود إلى الشّاطئ بسرعة. وعندما وصف لها مالك الحزين الّذي رآه في الخريف الأوّل عقب وصوله إلى هنا، أخبرته بأنّه كان بلشونًا صغيرًا على وشك مفارقة مرحلة الطّفولة.

ثمّ أحضرت منظارًا من سيّارتها وسمحت له باستعماله للتمعّن في مجموعة من البطّ الوحشيّ الّذي كان يضرب الماء بأجنحته في حركة جماعيّة بلا توقّف.

ـ هل تعرف ماذا تفعل صغار طيور الزّقزاق؟

ـ لا.

ـ تتجمّع في السّماء لأنّ الكبار من مجموعتها تتنادى باستمرار، وتطير من هنا إلى نوفاسكوتيا في البرازيل، ونادرا ما تتوقّف عن الطّيران حيث تعوم قليلًا على سطح المحيط التماسًا لبعض الرّاحة.

ـ وهل تنام فوق أمواج البحر؟

ـ إنّها قادرة على الطّيران حول العالم دون فقدان طريقها بقدرة على الاهتداء تفوق قدرات البشر، كأنّ لها بوصلة في أدمغتها الصّغيرة.

وبما أنّها كانت مهتمّة بطيور الهند، فقد حكى لها عن الطّيور الّتي تجهلها. أخبرها عن طائر المينا الّذي يعشّش في شقوق الجدران، والكوكيلا الّتي تملأ أجواء المدينة بنعيقها في بداية الرّبيع، والبوم المرقّطة الّتي تنعب في وقت الغروب في تولّيه غانج وتأكل الفئران والسّحالي.

ـ وأنت، هل ستعود إلى كالكوتا عندما تنتهي من دراستك؟

ـ إذا تمكّنت من إيجاد عمل هناك، سأعود طبعا.

إنّها على حقّ. لقد افترض والداه، كما افترض هو نفسه أيضا، أنّ حياته هنا ليست سوى فترة مؤقّتة لا أكثر.

ـ ما الشّيء الّذي افتقدته وأنت مغترب؟

أخبرها عن والديه وأخيه الأصغر وزوجته الّتي لم يلتق بها بعد، قائلا إنّ تولّيه غانج بلادُه ومسقطُ رأسه وموطن طفولته وشبابه.

ـ وأين يعيش أخوك وزوجته بعد ارتباطهما؟

ـ يعيشان مع أهلي.

شرح لها فيما بعد أنّ الزّوجة تنضمّ إلى أهل زوجها بعد عقد القران

ليتسنّى للأبناء البقاء في منزل الأهل كي لا تنفصم رابطة الأجيال وتتفكّك العلاقات بينها كما يحصل في الولايات المتّحدة.

كان يعرف بأنّه من المستحيل على هولي، وربّما على أيّ امرأة أمريكيّة، أن تتصوّر مثل تلك الحياة، لكنّها حاولت تفهّم شرحه لطبيعة الحياة هناك وقالت مُجاملة: «إنّ الوضع هناك يبدو أفضل من الوضع هنا من ناحية ما».

فرشت هولي، في عصر أحد الأيّام، شرشفًا على الشّاطئ، وأخرجت من صندوق الرّحلات الّذي أحضرته معها شطائر جبن وشرائح خيار وجزر وبعض اللّوز والفواكه المجفّفة وشاركته هذه الوجبة البسيطة الّتي امتدّت حتّى المساء، ممّا جعلها تحلّ محلّ العشاء أيضًا، وبينما كان جوشوا يلهو بعيدا عنهما أعلمته بانفصالها عن والد ابنها منذ عام تقريبا.

تأمّلت صفحة الماء وساقاها مطويّتان تحتها، بينما كان شعرها المرفوع في جديلتين كشعر طالبات المدارس الصّغيرات يتهادى فوق كتفيها.

لم يرغب ساباش في أن يدفع علاقتهما إلى التّطوّر أكثر، لكنّها تحدّثت تلقائيّا دون أن يسألها عن أيّ تفاصيل تخصّ علاقتها بطليقها. أخبرته أنّه يعيش مع امرأة أخرى في هذه الآونة. أدرك ساباش أنّها كانت توضّح له وضعها. كانت تريد أن تقول له إنّها أمّ غير متزوّجة وغير مرتبطة.

دفعه وجود جوشوا الدّائم بينهما ومعهما إلى الاقتراب منها أكثر. لقد ساهم وجود ولدها معها في انحصار علاقتهما في حدود الصّداقة. وكان ذهنه المشغول يعرف أقصى درجات راحته كلّما كانا معا تحت السّماء اللّانهائيّة، على الشّاطئ المقفر ذاك. فقد عمل مذ وصوله دون

توقّف حتّى في أيّام العطل ونهايات الأسبوع، وكأنّ والديه يراقبانه من بعيد ويسجّلان تقدّمه في دراسته يومًا بعد يوم، كأنّه كان يريد أن يثبت لهما أنّه لا يهدر الوقت.

وفي أحد الأيّام الدّافئة، كانت هولي ترتدي قميصًا مفتوحًا يكشف قليلًا من رقبتها وبعضًا من أسفل ذراعها. خلعت عنها ذلك القميص كاشفة عن ثوب السّباحة الّذي ترتديه، فلاحظ بطنها المسطّحة وثدييها المدوّرين المتباعدين وكتفيها المليئين بالنّمش النّاتج عن التعرّض المستمرّ لشمس فصول الصّيف المتعاقبة.

استلقت على الشّاطئ وهو يلاعب جوشوا على حافّة الماء. كان الولد يناديه باسمه كما اعتادت هي أن تفعل، فهو صبيٌّ معتدل المزاج، لا يتكلّم إلاّ عندما يطلب أحد منه الحديث. وشكّل اهتمامه بساباش وتخوّفه منه في الآن نفسه، ومع تعاقب اللّقاءات، رباطا خفيّا قائما على التردّد المتبادل من الطّرفين. راحا يقفزان فوق الصّخور ويلاعبان تشستر الّذي يقفز إلى الماء تارة وخارجه طورا كالأرعن، نافضًا الماء عن فروه في كلّ الاتّجاهات، ثمّ يندفع في اللّهو بكرة تنس يلتقطها بأسنانه، بينما تراقبهم هولي من خلف نظّاراتها الشّمسيّة وهي مستلقية حينًا على ظهرها وحينًا على بطنها، وكانت تغلق عينيها أحيانًا لتأخذ غفوة صغيرة، ثمّ تفتحهما على نفس المشهد.

لم ترفع عينيها عن الكتاب الّذي كانت تطالعه عندما عاد ساباش ليجفّف نفسه وبشرته الّتي تكتسب اللّون الدّاكن ما إن تتعرّض لأشعّة الشّمس، ولم تبتعد لتفسح له مجالًا للجلوس بجانبها ممّا جعل كتفيهما يتلامسان قليلًا.

كان ساباش على بيّنة من الهوّة الكبيرة التي تفصل بينهما. لم يكن وضعها كأمريكيّة والسّنوات الثّماني فقط هي ما يحول بينهما، (كان في السّابعة والعشرين في حين بلغت هي الخامسة والثّلاثين) بل كانت تفصلهما أيضا حقيقةُ أنّها وقعت في الحبّ وتزوّجت بالفعل من قبل وأنجبت ولدًا، لتنتهي مكسورة القلب. في حين أنّه لم يختبر بعد أيّ شيء من هذا.

وبينما كان يوما في الطّريق لملاقاتها، لاحظ غياب جوشوا. إنّه يوم الجمعة وقد يكون الولد مع أبيه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، فمن المهمّ جدًّا للصّبيّ المحافظة على علاقة وثيقة بوالده، حسب رأيها.

شعر ساباش بالانزعاج عندما فكّر في أنّ هولي مضطرّة إلى محادثة والد جوشوا للتّخطيط لبرنامج الصّبيّ، والتّصرّف بأدب مع رجل آذاها في الصّميم، وربّما اضطرّت إلى مقابلته عندما أوصلت ابنها إلى بيته.

أمطرت السّماء رذاذًا عندما جلسا على الملاءة العامرة، فدعته هولي إلى تناول العشاء في بيتها، قائلة إنّها تحتفظ بقدر كافٍ لهما من الحساء في الثّلاجة، فقبل دعوتها لأنّه لم يرغب في الابتعاد عنها.

تبعها في سيارة ريتشارد الّتي اشتراها منه قبل رحيله إلى شيكاغو، وظلّ يعتبرها سيّارة ريتشارد رغم أنّها أصبحت ملكه. تبعها، تحت حبال المطر الّذي اشتدّ مع الوقت، إلى موتونوك.

بعد خروجهما من الطّريق السّريع، تحوّل المشهد من حوله سهلا أكثر انعزالًا وفراغًا من المعتاد. سارا على طريق ترابيّة تحفّ بها الأعشاب من الجانبين حتّى وصلا إلى منطقة رمليّة صغيرة خالية تماما، لا يحدّها سوى البحر والسّماء.

أوقف سيّارته خلف سيّارتها في المرآب، فتكسّرت قواقع البحر المتناثرة هنا وهناك تحت الدّواليب. لاحظ ساباش أنّ المنزل ليس له حديقة أماميّة، كان يطلّ من الجهة الخلفيّة على بحيرة ملحيّة صغيرة، ولا يحدّه من الجهة الأماميّة سوى بعض العوارض الخشبيّة المتفرّقة المشدودة بعضها إلى بعض بسلك معدنيّ صدئ. ثمّ لاحظ، في الأفق، عددا من البيوت البسيطة المتناثرة هنا وهناك.

سألها: «لماذا يغطّي جيرانك نوافذهم بهذا الشّكل؟».

ـ لقد غطّوها تحسّبًا للعواصف، ولكن لا أحد يعيش هناك الآن.

تأمّل ساباش البيوت الأخرى المواجهة للبحر وسألها: «ومن يملك تلك البيوت؟».

ـ بعض الأغنياء. يأتون من بوسطن أو بروفيدانس في عطل نهايات الأسبوع، ويبقون أسبوعًا أو اثنين في الصيف، ثمّ ينقطعون عن المجيء نهائيًّا ما إن يحلّ فصل الخريف».

ـ ألا يستأجرها أحد عندما تخلو من سكانها؟

ـ يستأجرها بعض الطلاّب أحيانًا، لأنّها رخيصة. ولكنّي أكون وحدي هنا في الرّبيع عادة.

كان بيت هولي صغيرًا جدًّا، ويتألّف من مطبخ ومساحة للجلوس في المقدّمة، وحمّامًا وغرفتيْ نوم في الجهة الخلفيّة. أمّا السّقف فقد كان منخفضًا، ممّا دفع ساباش إلى الاعتقاد بأنّ بيت والديه في كالكوتا يفوقه مساحة. فتحت هولي الباب بلا مفتاح ودخلت.

كان صوت الرّاديو مرتفعا وهو يذيع نشرة أحوال الطّقس منذرًا بنزول كميّات كبيرة من الأمطار. استقبلها تشستر بعوائه، ملوّحًا

بذنبه، متودّدًا لهما، متمسّحا بأرجلهما.

سألها وهي تخفض صوت المذياع: «هل تركتِه مفتوحًا عن غير قصد؟».

ـ أنا لا أطفئه. أكره العودة إلى بيت ساكن سكون القبر.

تذكّر ساباش المذياع الّذي صنعه صحبة أخيه، والأخبار الّتي كانا يتلقّيانها من كلّ أنحاء العالم في ركنهما القصيّ البعيد المعزول كما كانا يشعران، وأدرك في هذه اللّحظة أنّ هولي كانت تشعر بوحدة أكبر من وحدته، وأنّ وضعها كامرأة وحيدة بلا زوج أو جيران قاس للغاية.

كان سقف بيتها رقيقًا كغشاء، فبدا صوت المطر وهي تتساقط فوقه كانهمار سيل من الحصى. وكانت الرّمال قد ملأت المكان، وتناثرت بين وسائد الأريكة، وعلى الأرض، وعلى البساط المستدير أمام الموقد حيث يحلو لتشيستر الجلوس.

نفضت الرّمال عن الأريكة بيدها كما كانوا ينفضون الغبار مرّتين يوميًّا في كالكوتا، ثمّ أغلقت النّوافذ الّتي تُركت مفتوحة. وفوق الموقد، كان هناك رفّ مليء بالحصى والقواقع وبعض من قطع الأخشاب المكسورة الّتي كانت الأمواج تحملها إلى الشّاطئ، لكنّها بدت لساباش معدّة للزّينة لوجودها بطريقة أقرب إلى النّظام منها إلى الفوضى.

نظر ساباش من النّافذة، وتأمّل السّحب الكثيفة الدّاكنة الّتي تغطّي البحر منذرة بعاصفة قادمة، مركّزًا بصره على الرّمال السّوداء المحاذية للبحر تمامًا.

ـ لماذا تتكبّدين عناء الذّهاب إلى الشاطئ المحاذي للجامعة ما دمت تسكنين على حافّة البحر؟

ـ لأغيّر المشهد. أنا أحبّ الذّهاب إلى أسفل تلك التلّة.

بدت وكأنّها مشغولة بإعداد شيء ما في المطبخ، وملأت الحوض بالماء كي تغسل بعضًا من أوراق الخسّ.

ـ هل في وسعكَ أن تُشعل النّار في المدفأة؟

توجّه إلى المدفأة، ونظر حولها فوجد بعض الجذوع الصّغيرة وأدوات حديديّة وبعض الرّماد في المركز. أزاح الغطاء الشفّاف ووجد علبة ثقاب ففتحها.

ـ «دعني أرِكَ الطّريقة». قالت ذلك ما إن اقتربت منه وقبل أن يلتفت ليجيبها.

فتحت المدخنة، ورتّبت الجذوع والأغصان الجافّة النّاعمة، ثمّ أعطته إحدى الأدوات وطلبت منه أن يحرّك بها الحطب حين يبدأ في الاحتراق، فجلس يراقب النّار. لقد أوقدتها بشكل ممتاز بحيث لم تترك له شيئًا يقوم به غير تدفئة وجهه ويديه ريثما تعدّ هي العشاء.

تساءل عمّا إذا كان هذا الكوخ هو المكان الّذي كانت تعيش فيه مع والد جوشوا، وإذا ما كان هو البيت الّذي هجرها فيه. إلاّ أنّ مراقبة بعض التّفاصيل مدّتْه بالإجابة. لا، لم ير حوله سوى مقتنياتها وبعض أغراض ابنها. شاهد معطفيهما الشّتويَّيْن وسترتين صيفيّتين، معلّقة جميعها حذو الباب فوق أحذيتهما وصنادلهما أيضًا.

ـ هل يمكنك أن تتفقّد النّافذة الّتي تقع فوق سرير جوشوا؟ أعتقد أنّي تركتها مفتوحة.

كانت غرفة الصّبيّ أشبه بقمرة سفينة، منخفضة السّقف، وكان

السّرير تحت النّافذة مغطّى بملاءة مزيّنة بخطوط متعامدة، وكانت الوسادة مشبعة بماء المطر حقًّا.

شاهد لغزًا تركيبيًّا غير مكتمل على الأرض أمام رفوف الكتب، فقرفص محاولًا إكماله، باحثًا بين القطع المتشابهة المختلفة في الآن ذاته.

أبصر، عند نهوضه، صورة رجل فوق الدّولاب، فأدرك على الفور أنّه والد الصّبيّ، وزوج هولي. كان الرّجل يرتدي سروالًا قصيرًا، حافي القدمين، على شاطئ ما، ويحمل نسخة مصغّرة من جوشوا فوق كتفيه.

نادته هولي لتناول العشاء. تناولا قطعًا من الدّجاج مع الفطر، وشربا كأسًا من النّبيذ، وخبزًا محمّصًا في الفرن بدلًا من الأرز. كان الطّعم غريبًا بالنّسبة إليه ومعقّدًا ومنكّهًا، لكنّه يخلو من أيّ لمسة من الحرّ.

أستخرج ورقة غار من طبقه وقال: «لدينا من هذه الشّجرة خلف منزل أهلي إلاّ أنّ حجم أوراقها هناك يبلغ ضعفيْ حجمها هذا».

ـ هل يمكنك إمدادي ببعض منها عندما تذهب لزيارتهم؟

وعدها بذلك، لكنّ شعورًا غريبًا انتابه برفقتها. شعر بأنّه لن يعود إلى تولّيه غانج أبدًا، لن يقابل عائلته مجدّدًا. وما فاق كلّ ذلك سرياليّة هو أنّه شكّ في أنّها سترغب في قضاء الوقت معه إذا ما ذهب إلى هناك وعاد فعلا.

أخبرته، أثناء تناول العشاء، أنّها تعيش في هذا الكوخ منذ شهر أيلول، وأنّ والد جوشوا انتقل من البيت القديم الّذي كانا يعيشان فيه في شارع مينيسترال، لكنّها لم ترغب في البقاء هناك، وأنّ هذا الكوخ ورثته عن جدّيها، وأنّها قضت فيه الكثير من أوقات طفولتها.

قدّمت له بعد العشاء قطعة من فطيرة التفّاح وكوبًا من الشّاي

باللّيمون. ثمّ اتّصلت بجوشوا فيما اشتدّت قوّة الأمطار في الخارج. أسرّت هولي لساباش بالمخاوف الّتي تعتريها حول وقع الانفصال على ولدها، لأنّه انطوى على نفسه بعد مغادرة أبيه للمنزل، وبات قلقًا. قالت إنّه أصبح يخاف من أشياء لم يكن يهابها من قبل.

ـ مثل ماذا؟

ـ إنّه يخشى النّوم وحيدًا. هل ترى مدى قرب غرفته من غرفتي؟ إلاّ أنّه يأتي للنّوم بجانبي في اللّيل بعد أن توقّف عن فعل ذلك لسنوات. كما أنّه كان يعشق السّباحة، إلاّ أنّه خاف من الماء في هذا الصّيف، وأسرّ إليّ أنّه لا يرغب في الذّهاب إلى المدرسة في الخريف القادم».

ـ ولكنّه سبح على شاطئ الجامعة عندما كنّا معا.

ـ ربّما فعل ذلك لأنّك كنت معنا.

نبح تشستر، فنهضت هولي وحلّت وثاقه، ثمّ ارتدت معطفها وتناولت مظلّة قائلة: «ابق هنا، لن أغيب سوى دقيقة أو دقيقتين».

جمع ساباش الأطباق، وغسلها في الحوض أثناء غيابها، متعجّبًا من الاكتفاء الذّاتي الّذي تعيشه، وشعر بالقلق عليها باعتبار أنّها تسكن، وحيدة، بيتًا بعيدًا عن النّاس بهذا الشّكل دون أيّ قفل من أيّ نوع. فلن تجد أحدًا يساعدها إذا وقع أيّ مكروه، ولا يوجد من يعرف عنوانها سوى مربّية جوشوا. ومع أنّ والديها ما زالا على قيد الحياة، إلاّ أنّهما لم يحضرا للاعتناء بها. كما أنّه لم يشعر بالوحدة معها هنا. هناك تشستر وملابس جوشوا وألعابه وصورة الرّجل الّذي أحبّته فيما مضى.

قطعت هولي تأمّلاته، حين دخلت ووجدت الأطباق والكؤوس

مغسولة ومنشفة الأطباق معلّقة على الخطاف لتجفّ، بقولها: «إنّها المرّة الأولى الّتي لا أضطرّ فيها إلى غسل أطباق العشاء منذ وقت طويل».

- تسرّني مساعدتك.

- هل ستتمكّن من قيادة السيّارة كي تعود إلى البيت في هذا الطّقس الرّديء؟ بإمكاني أن أعيرك سترة واقية من المطر؟

- سأكون على ما يرام.

- دعني أرافقك حتّى السيّارة تحت المظلّة.

وضع يده على مقبض الباب، لكنّه لم يرغب في الذّهاب. وقف ساباش بجانب الباب مرتعشًا من شدّة البرد، وانتظرها إلى أن أحضرت المظلّة وفتحتها. شعر بطرف وجهها الّذي التصق بجانبه وضغط عليه قليلًا، ثم بيدها وهي تلمس كتفه، وصوتها عندما سألته عن مدى رغبته في البقاء لقضاء اللّيلة عندها.

كانت غرفتها مماثلة تمامًا لغرفة جوشوا، إلاّ أنّ سريرها الكبير لم يترك مجالًا لوضع أيّ شيء آخر في الغرفة. تسنّى له في داخل هذه الغرفة أن ينسى ما كان والداه سيقولان في مثل تلك الحالة، وتبعات ما سيقوم به. نسي كلّ شيء عدا جسد المرأة المجاور له في السّرير، ويدها الّتي قادت أصابعه حول عنقها وعظم ترقوتها وكتفيها وجلدها الناعم.

سحره ملمسها، وفتنته كلّ نقطة نمش وشامة وبقعة، كلّ انحناءاتها وظلالها، كلّ تدرّجات الألوان الّتي تغطّيها، لا تلك الّتي تبذل جهدًا لتعرضها تحت الشمس وتمنحها ذلك اللّون البرونزيّ الجذّاب فقط، بل لونها الأصليّ الّذي ورثته عن أهلها وتتلخّص فيه ألوان حفنة من الرّمال، تلك الّتي لا يمكن رؤيتها إلاّ تحت ضوء مصباح.

سمحت له بلمسها. وعندما توقّف، سألته غير مصدّقة لموقفه: «هل أنت جادّ؟».

أشاح ببصره بعيدًا، وقال: «كان يجدر بي أن أخبرك».

ـ «لا يهمّ يا ساباش. فأنا لا أكترث».

وهكذا، قام ساباش أخيرا بما كان يحلم بأن يقوم به، وبما يكتفي بتصوّره فقط.

توقّف المطر الّذي كان يطرق سطح المنزل، متسرّبًا عبر أوراق الأشجار الّتي تغطّي السّطح كجوقة من المصفّقين المتحمّسين. استلقى إلى جانبها بلا حراك ونوى العودة إلى شقّته قبل حلول اليوم التّالي، لكنّه أدرك بعد عدّة دقائق أنّ هولي لا تستلقي بجانبه بهدوء وحسب، بل نامت دون أيّ كلمة أو إشارة. لا يمكنه أن يوقظها أو أن يذهب دون إخبارها. بقي في السّرير الّذي أدفأته حرارة جسديهما، ولم يتمكّن في البداية من الخلود إلى النّوم لأنّ وجودها بجانبه كان يمنعه من ذلك، رغم العلاقة الحميمة الّتي باتت تربطهما.

استيقظ في الصّباح على صوت أنفاس تشستر ورائحة فروه ومخالبه الّتي كانت تخدش قوائم السّرير. وقف الكلب، قرب هولي، في انتظار نهوضهما في الغرفة الدّافئة الغارقة في نور الشّمس الصّباحيّ.

كان ظهر هولي مواجهًا لساباش، متقوقعًا باتّجاهه، فنهضت وتناولت سروال الجينز والقميص القطنيّ الّذي كانت ترتديه في اليوم السّابق وارتدتهما. وقالت وهي تغادر السّرير: «سأعدّ القهوة».

ارتدى ملابسه بسرعة وخرج من الغرفة للذّهاب إلى الحمّام فوقعت أنظاره على غرفة جوشوا الفارغة، لقد سمح غياب الصّبي

لذلك بالحدوث. أدرك ساباش أنّه موجود هنا بسبب غياب جوشوا.

عادت هولي من الخارج بعد أن أخرجت تشستر لقضاء حاجته، وعرضت على ساباش تناول الفطور معها إلاّ أنّه اعتذر متحجّجًا بعمل يجب عليه القيام به على الفور.

ـ هل تريدني أن أعلمك عندما يغيب جوشوا عن المنزل في المرّة المقبلة؟

شعر ساباش بالقلق فجأة، وأدرك أنّ اللّيلة الّتي انقضتْ قد تكون بداية لشيء كبير، لا نهاية له، وفي نفس الوقت، كان يشعر بالشّوق لملاقاتها من جديد.

ـ نعم، إذا أردتِ.

فتح ساباش الباب ورأى البحر القريب إلى حدّ لا يصدّق بسبب المدّ وقد غمره نور الشّمس وسكينة المحيط. لم يجد دليلًا على العاصفة الهوجاء الّتي اجتاحته البارحة عدا أعشاب البحر المرميّة كأعشاش متشابكة مهجورة على الشّاطئ.

3

شعر ساباش بأنّه يحتاج إلى إخبار أوديان. كان يريد أن يعترف له بالخطوة العميقة الّتي خطاها في حياته، رغب في أن يصف له هولي وطبيعتها وحياتها، في أن يتبادلا الحديث عن النّساء بعد أن بات كلاهما على علاقة بامرأة. لكنّ هذه الأمور لم تكن شيئًا يمكن الحديث عنه في رسالة أو تلغراف، ولا حديثًا يمكن إجراؤه على الهاتف حتّى لو تمكّن بالفعل من الاتّصال بأخيه هاتفيًا.

تسنّت له زيارة هولي مرّات أخرى وقضاء اللّيلة عندها في أمسيات الجُمَعة، أمّا في بقيّة أيّام الأسبوع فيظلّ بعيدًا، يلتقيها أحيانًا لتناول شطيرة على الشّاطئ لا أكثر، ويتظاهر طوال الأسبوع بأنّه لا يعرفها وأنّ حياته لم يطرأ عليها أيّ تغيير.

لكنّه كان يقود السيّارة مساء الجمعة إلى كوخها، ينعطف خارج الشّارع العام ليلج الطّريق الطّويل المؤدّي إلى المستنقعات المالحة والّذي تحفّ به الأشجار الكثيفة من الجانبين، ويبقى عندها أحيانًا حتّى صباح الأحد. لم تكن امرأة متطلّبة في يوم من الأيّام، وكانت معاشرتها سهلة. كانت تثق به، وتفارقه، في كلّ مرّة، على أمل اللّقاء به من جديد.

كانا يتنزّهان على الشّاطئ في بعض الأحيان، على الرّمال القاسية الّتي حزّها المدّ والجزر. سبح ساباش معها في المياه الباردة، تذوّق ملوحة البحر، شعر بتسلّل الملح إلى شرايينه وأوردته، وإلى كلّ خليّة

من جسده. شعر بأنّ مياه البحر المالحة هذه تنقّيه من شوائبه، تدسّ الرّمل بين طيّات شعره. كان يطفو على ظهره، معدوم الوزن، مفتوح الذّراعين، غارقًا في سكينة لا تنتمي إلى هذا العالم. ففي لحظات كهذه، يتوارى كلّ شيء عدا همهمة البحر الضّعيفة، والشّمس المتوهّجة كالجمر أمام عينيه.

قاما، مرّة أو مرّتين، بأشياء عاديّة كما لو كانا زوجين، ذهبا للتّسوّق وملآ سلّتها بالطّعام الّذي عبّآه في أكياس ورقيّة ووضعاه في صندوق سيّارتها. هذه الأشياء لم يكن ليقوم بها مع امرأة في كالكوتا قبل الزّواج.

عندما كان طالبًا في جامعة كالكوتا، اكتفى ساباش بالانجذاب المكتوم إلى بعض النّساء، ومنعه خجله من ملاحقتهنّ، لم يغازل هولي يومًا أو يلاطفها كما كان يشاهد أصدقاءه في الكليّة يفعلون مع الفتيات اللّواتي يشغلنهم، أولئك النّسوة اللّواتي تحوّلت غالبيّتهنّ إلى زوجات لأولئك الزّملاء. لم يغازلها كما فعل أوديان مع غاوري بكلّ تأكيد، لم يصطحبها إلى السّينما أو المطاعم، لم يكتب لها الرّسائل، ولم يطلب من إحدى زميلاته إيصالها لها، كي لا يلفت انتباه أهلها، لتلاقيه في مكان بعيد عن عيون النّاس.

تجاوزت علاقته بهولي كلّ هذه الأمور، ولم يفكّرا في اللّقاء بأيّ مكان آخر سوى بيتها لأنّه أفضل مكان بالنّسبة إليهما، حيث كان يحلو له قضاء وقته، وحيث كان بإمكانهما تلبية رغباتهما واحتياجاتهما بسرعة. كانا يتحدّثان لساعات عن عائلتيهما وماضيهما إلاّ أنّها لم تتكلّم يومًا عن زواجها ولم تسأله عن نشأته، بل عن تفاصيل حياته اليوميّة العاديّة الّتي

لم تكن لتلقى إعجاب أيّ فتاة في كالكوتا رغم أنّها تجعله في عينيها مميّزا عن سائر النّاس.

في طريق عودتهما من المتجر، وبينما كانا يحملان الذّرة والبطّيخ للاحتفال بعيد الاستقلال، وصف لها ساباش والده عندما كان ينطلق فجر كلّ يوم إلى السّوق وفي يده كيس من الخيش. وكلّما تذمّرت والدته من أنّه لم يحضر ما يكفي، كان يقول لها إنّه من الأفضل لهم أن يحظوا بوجبة صغيرة لذيذة من السّمك بدلًا من وجبة كبيرة خالية من الطّعم. كان والده واحدًا من الأشخاص الّذين شهدوا مجاعة فتّاكة، ذات أبعاد مدمّرة. ولهذا، لم يكن يستهين بأيّ مقدار من الطّعام مهما بدا ضئيلا.

أخبرها بأنّه وأوديان كانا يرافقانه في بعض الأحيان للتّسوّق أو لإحضار كمّيات من الأرز أو الفحم. حكى لها كيف كانا ينتظران في صفوف طويلة تحت المظلّة لاتّقاء وهج الشّمس الحارق في الصّيف أو الأمطار في المواسم الممطرة.

ساعداه مرارا في حمل السّمك والخضار إلى المنزل، وثمار المانجو الّتي كان يشمّ رائحتها قبل شرائها ثمّ يخزّنها تحت السّرير إلى أن تنضج، ولحم العنز في أيّام الآحاد، حيث كان الجزّار يزنها ويلفّها بعدد من الأوراق الجافّة.

ـ هل كنت على علاقة وثيقة بوالدك؟

ولسبب ما، فكّر بالصّورة الموجودة في غرفة جوشوا، تلك الّتي يحمله فيها والده فوق كتفيه. لم يكن والده أبًا حنونًا، بشكل واضح، في يوم من الأيّام، لكنّه كان حاضرًا على الدّوام.

ـ أنا أحترمه وأجلّه.

ـ وماذا عن أخيك؟

فكّر ساباش قليلًا، ثمّ قال: «نعم، ولا».

لم تحاول هولي الضّغط عليه أكثر من ذلك، واكتفت بالقول: «لديك مواقف متناقضة منه إذًا».

كان ذهنه يحيك بلا توقّف، في غرفة نومها الضيّقة المكتظّة، عبارات الدّفاع الّتي سيواجه بها والديه حين يلتقيهما. أدرك ساباش أنّه قادر على الإفلات بفعلته، وأنّ دفاعه هذا متين وصامد، فقط بسبب المسافات الشّاسعة الّتي تفصله عنهما.

وضع حالة ناراسينهام كمثال له، ناراسينهام وزوجته الأمريكيّة. وتخيّل أحيانًا ما يمكن أن تكون عليه حياته إذا ما قام بذلك مع هولي، أن يعيش ما بقي له من حياته في أمريكا، وأن يتجاهل والديه وينساهما ليؤسّس عائلته الخاصّة معها.

وفي الوقت ذاته، كان يدرك استحالة حدوث ما يفكّر فيه، لأنّ وضعها كأمريكيّة هو أبسط الموانع. إنّها أمّ، وكانت فيما مضى زوجة لرجل آخر، كما أنّها أكبر منه سنّا، ولا يمكن لوالديه أن يقبلا بمثل تلك الأمور، لا يمكن لهما أن يتصوّرا زوجة بمثل هذه المواصفات، سينتقدانها بكلّ قسوة. وهو لا يريد أن يضع هولي في مثل ذلك الموقف، ولا أيّ امرأة أخرى. لكنّه، مع ذلك، لم يتوقّف عن لقائها في أيّام الجمعة واختار اعتماد السّريّة كطريقة جديدة في حياته. وكان على ثقة تامّة من تفهّم أخيه لما يحدث له، ولربّما شعر بالاحترام تجاهه. لكنّ أوديان لم يكن ليقول شيئًا جديدًا على ساباش بل كان سيقول له إنّه على علاقة حميمة بامرأة لا ينوي الزّواج بها، امرأة يتفاقم تعوّده عليها وتعلّقه بها

يومًا بعد يوم، امرأة لا يحبّها حقًّا بسبب تناقضاته الشّخصيّة الخالصة وحسب.

ولهذا، لم يحك شيئًا عن هولي لأحد. ظلّت علاقتهما طيّ الكتمان، لأنّ رفض والديه وتهديد ذلك بتقويض علاقته بهولي بقي حيًّا نابضًا في بوّابة عقله الخلفيّة مثل حارس عليها. كان محظوظا بالمسافة الّتي تفصل بينه وبين والديه. سمح له ذلك بدفع رفضهما بعيدًا، أبعد في كلّ مرّة من الّتي تسبقها، كحلم العثور على اليابسة الموعودة في الأفق بعد الضّياع لسنوات في عرض البحر، دون إيجادها أبدًا.

لم يتمكّن، في أحد أيّام الجمعة، من رؤيتها. فقد اتّصلت لتخبره بتغيير طارئ في اللّحظة الأخيرة منع جوشوا من الذّهاب لزيارة والده. وكان ساباش يعلم أنّ لقاءهما مشروط بغياب ابنها. لكنّه فوجئ، رغم ذلك، بأنّه تمنّى لاشعوريًّا تغيير تلك الخطّة واستبدال الشّروط بأكملها.

وعندما ذهب لزيارتها في الجمعة التّالية، رنّ جرس الهاتف بينما كانا يتناولان طعام العشاء، أجابت هولي ثم مدّت شريط الهاتف وجلست على الأريكة، عرف ساباش أنّها تكلّم والد جوشوا. لقد أصيب الصّبيّ بالحمّى، فطلبت من طليقها وضعه في مغطس فاتر وتزويده بمقادير معيّنة من الدّواء الخافض للحرارة.

فوجئ ساباش، وأصيب بالارتباك. إنّها تتحدّث مع ذلك الرّجل الّذي كان ذات يوم زوجها بهدوء، دون أيّ حدّة تنمّ عن وجود ضغينة عليه في قلبها. مازال الشّخص الّذي يتكلّم معها على الطّرف الآخر من الخطّ شخصًا مقبولًا بالنّسبة إليها. أدرك ساباش أنّ حياتهما ظلّت مترابطة، رغم انفصالهما، بسبب جوشوا.

جلس إلى المائدة وظهره في اتّجاهها دون أن يتابع تناول طعامه، في انتظار انتهائها من المحادثة، وشغل نفسه بتأمّل التّقويم المعلّق على الجدار بجانب جهاز الهاتف.

كان اليوم التّالي هو السّبت، الخامس عشر من آب أوغسطس، وهو عيد الاستقلال في الهند، وكان ذلك اليوم عطلة رسميّة للبلاد، تقام فيه المهرجانات والاستعراضات. تضاء فيه الأنوار الساطعة، وترفع فيه الأعلام والرّايات فوق المباني. لكنّه كان يومًا عاديًّا هنا، كأيّ يوم آخر.

أغلقت هولي سمّاعة الهاتف ونظرت إليه، ثمّ قالت: «يبدو أنّك مستاء من شيء ما. ما الأمر؟».

ـ لا تشغلي بالك. لقد تذكّرت شيئًا الآن.

ـ ما هو؟

إنّها أقدم ذكرياته الّتي تعود إلى شهر آب عام 1947. ورغم أنّها تتراءى له، أحيانا، كمجرّد تخيّلات، فإنّها كانت ليلة واقعيّة يذكرها البلد بأكمله، إضافة إلى تأكيد والديه اللّذين أخبرا الجميع مرّات عديدة عنها. وذلك ما جعلها حيّة في ذاكرته إلى الأبد.

كانت الأحداث السّياسيّة تشغل ذهن والديه، في تلك الليلة، أكثر من أيّ شيء آخر. انطلقت الألعاب النّاريّة في دلهي أثناء أداء الوزراء اليمين الدّستوريّة، وصام غاندي عن الطّعام لتحقيق السّلام في كالكوتا. لقد ولدت الهند الحديثة في تلك اللّيلة، وكان أوديان في الثّانية من عمره فقط، أمّا ساباش الّذي ناهز، حينها، أربع سنوات، ظلّ يذكر يد طبيب مجهول على جبهته، وصفعات خفيفة على ذراعيه وباطن قدميه، ووزن الأغطية فوق رجليه كلّما انتابتها القشعريرة.

تذكّر ساباش كيف كانا يرتجفان من الحمّى، وكيف استدار لينظر إلى أخيه، فوجد نظرته غائمة ولونه ورديّا من شدّة الحمّى، وهو يهذي بهلوسات لاواعية وغير مفهومة.

«لقد خشي والداي من احتمال إصابتنا بالتّفوئيد طيلة أيّام عديدة، خشيا فقداننا بسبب ذلك المرض كما حدث لطفل آخر في حيّنا قبل فترة. ما زال الخوف يبدو عليهما كلّما تذكّرا تلك الحادثة، وكأنّهما ما زالا ينتظران زوال الحمّى عن جسدينا».

بدت هولي متأثّرة بكلام ساباش، وعلّقت كمن يخاطب نفسه: «هذا ما تشعر به عندما تصبح أبًا، يتوقّف الوقت عندما تُهدّد حياة أبنائك، ويتلاشى كلّ معنى للحياة».

4

في إحدى عطلات نهاية الأسبوع من شهر أيلول، انتزهت هولي فرصة وجود جوشوا عند أبيه، واقترحت على ساباش مرافقتها لقضاء نهار في أحد الأمكنة من رود آيلند الّتي لم يزرها بعد. ركبا العبّارة من غاليليو إلى بلوك آيلند وقطعا عشرة أميال بحرًا، ثمّ ذهبا من المرفأ إلى الفندق الصّغير مشيًا على الأقدام.

حصلا على غرفة في الطّابق الأخير أفضل من الغرفة الّتي حجزتها هولي، غرفة بإطلالة أجمل وسرير أوسع، وذلك لأنّ صاحب الغرفة العليا ألغى حجزه في اللّحظة الأخيرة. كانا قد فكّرا في المجيء إلى هنا لرؤية الصّقور الّتي تبدأ رحلة هجرتها جنوبًا من هذه الجزيرة في هذا الوقت من العام. وعندما فتحا حقائبهما لتفريغ محتوياتها، فاجأته هولي بهديّة غير متوقّعة بإعطائه منظارًا أخرجته من داخل جعبة جلديّة خاصّة، فأخفى إعجابه الشّديد بالمنظار، وقال: «لم يكن هذا ضروريًّا».

ـ لقد فكّرت في أنّ الوقت بات مناسبًا للتّوقّف عن استعمال منظار واحد.

قبّل ساباش كتفها وشفتيها، فلم يكن يملك أيّ شيء آخر يقدّمه لها، ثمّ تفحّص البوصلة الصّغيرة المثبّتة بين العدستين ووضع الرّباط حول رقبته.

سيختفي الزوّار قريبًا، حين ينتهي موسم السّياحة على هذه الجزيرة، ولن يبقى سوى مطعم أو مطعمين لخدمة السكّان القلائل الّذين لا يغادرونها. كان الصّيف يشارف على نهايته هذا اليوم، يوم أزهرت فيه نبتة الآسترا النّجميّة، بينما مالَ لون اللّبلاب السّامّ إلى الأحمر المخمليّ. كانت الشّمس ساطعة بشكل باهر، والهواء ساكن تماما. إنّه يوم مثاليّ.

استأجرا درّاجتين وتجوّلا في الجزيرة. احتاج إلى عدّة دقائق كي يجد توازنه على الدرّاجة لأنّه لم يركب واحدة منذ طفولته، منذ أن كان يمتطيها مع أوديان على طرقات تولّيه غانج الهادئة. تذكّر العجلة الأماميّة المتذبذبة والوضعيّة الّتي كانا يركبان فيها. ففيما يتولّى أحدهما القيادة، يجلس الآخر على المقعد الخلفيّ لدرّاجتهما السّوداء الثّقيلة.

في جيبه الآن رسالة جديدة من أوديان وصلت البارحة.

«دخل، اليوم، عصفور دوريّ إلى المنزل، إلى الغرفة الّتي كنّا ننام فيها يا أخي. كانت المصاريع مفتوحة ولا بدّ أنّه وجد منفذا عبر القضبان، ولكنّه لم يتمكّن من الخروج، إذ وجدته يدور في فضاء الغرفة دون أن يهتدي إلى منفذ للهرب. فكّرت فيك، في السّرور الّذي سيُدخله هذا العصفور الحبيس على قلبك. لقد شعرت لحظتها كما لو أنّك هنا، كما لو أنّك عدت. ولكنّه تمكّن من الفرار فَوْرَ دخولي إلى الغرفة.

أنا على ما يرام حتّى الآن، وقد بلغت السّادسة والعشرين، بينما ستُصْبِحُ يا أخي في الثّلاثين بعد سنتين. إنّها مرحلة عمريّة جديدة لنا الاثنين. لقد قطعنا منتصف الطّريق نحو الخمسين.

أقضي أيّامي الرّتيبة مع التّلاميذ. ولا عزاء في الأمر سوى الأمل في أن يحقّق كلّ واحد منهم أشياء أعظم من تلك الّتي قمنا بها. لكنّني،

مع ذلك، بدأت أشعر بالملل. ولم يبق من نهاري سوى فسحة أمضيها مستمتعا مع غاوري في البيت، ونحن منشغلان بالقراءة وبالاستماع إلى المذياع. ونظلّ على هذا الحال حتّى المساء.

هل تعلم أنّ كاسترو سُجن، وهو في السّادسة والعشرين من عمره، ضريبة قيامه بهجوم على مونكادا باراكس؟ وهل تعلم أيضًا أنّ أخاه كان مسجونًا معه في نفس المعتقل، لكنّهما فُصلا رغم ذلك، ومُنعا من أن يرى أحدهما الآخر؟

وبمناسبة الحديث عن الاتّصالات، كنت أقرأ عن ماركوني في ذلك اليوم. فعرفت أنّه كان يجلس في نيوفاوندلاند، ويستمع إلى الحرف (s) الّذي أرسله إليه كورنوال. أعتقد أنّ محطّة البثّ اللّاسلكي الّتي أنشاها في كيب كود ليست بعيدة عن مكان إقامتك، إنّها موجودة في مكان يدعى (ويلفلييت). هل ذهبت إلى هناك؟».

منحت الرّسالة بعض العزاء لساباش، لكنّها أربكته في الآن ذاته. فقد حملت رموزًا وإشارات عديدةً وألاعيب الماضي، كما ذكّرته بالرّباط الفريد الّذي كان يجمعه بأخيه، وهو يستحضر كاسترو، ويصف في الوقت ذاته الأماسي الّتي يقضيها مع زوجته. فتساءل ساباش ما إذا كان أودیان قد قايض عاطفة بأخرى، وما إذا أصبح كلّ تفكيره مكرّسًا لغاوري الآن.

تتبّعها على الطّرقات المتعرّجة الضيّقة، وأمام برك الملح الهائلة الّتي تقسم الجزيرة نصفين، وبين الوديان الجليديّة، والمروج الممتدّة فوق التّلال، والبيوت ذات الأبراج الغريبة، والمراعي الجرداء المزدانة بالصّخور المنثورة هنا وهناك بلا نظام، والمحاطة بشكل جزئيّ بجدران

حجريّة، ولاحظ قلّة عدد الأشجار مقارنة بشساعة الأماكن.

تنقّلا بين طرفي الجزيرة بسرعة، لأنّ قُطْرها لا يتعدّى طوله ثلاثة أميال. كانت الصّقور ترمي بأجسامها من أعلى الجرف، فتوهم من يراها بأنّها سقطت في البحر. وتظلّ أجنحتها ثابتة بلا حراك بينما تبدو أجسامها مائلة إلى الخلف عندما تدفعها الرّيح. أشارت هولي لمونتاوك، وهي أعلى نقطة في جزيرة لونغ آيلند، وكانت تُرى بوضوح في ذلك اليوم رغم المسافة الشّاسعة الّتي تفصل بين الجزيرتين.

عبرا، عصر ذلك اليوم، درجات خشبيّة متهالكة تؤدّي إلى المحيط، وتجرّدا من ثيابهما إلاّ من ملابس السّباحة، ثمّ نزلا مياه المحيط الباردة وخاضا في أمواجه المرتفعة نسبيًّا. ورغم أنّ الطّقس في ذلك اليوم كان حارّا بعض الشّيء، فإنّ الأيّام بدأت تقصر بسبب نهاية الصّيف. ركبا درّاجتيهما من جديد وذهبا لمشاهدة غروب الشّمس وذوبانها كوصمة عار حمراء على شاطئ آخر.

وأثناء عودتهما إلى البلدة، وجدا سلحفاة على طرف الطّريق، فتوقّفا. حملها ساباش وأمعن النّظر في معالم درعها، ثمّ قطع بها الشّارع ووضعها على العشب. وقال عندما عاد إلى درّاجته: «لا بدّ أن نخبر جوشوا».

لكنّ هولي لم تنبس ببنت شفة، واستغرقت في تفكير عميق، بينما غمر نور الشّفق الأحمر وجهها وتبدّل مزاجها. ولذلك، اعتقد ساباش بأنّ ذكر جوشوا أزعجها. تناولت هولي قليلا من الطّعام، عند العشاء، في صمت مطبق. ثمّ قالت، كمن يعتذر عن صمته، أنّ قضاء اليوم تحت أشعّة الشّمس قد أصابها بالصّداع.

تمنّى كلّ واحد منهما ليلة سعيدة للآخر، وناما دون أن يتحابّا لأوّل مرّة منذ لقائهما الأوّل في تلك اللّيلة الخالدة. استلقى بجانبها منصتًا لانكسار أمواج البحر على صخور الشّاطئ، متأمّلًا نور القمر الشّاحب وهو يسطع في السّماء. حاول أن يستسلم للنّوم مرارًا لكنّه لم يفلح، واسترجع مشاهد من رحلة اليوم، لكنّه توقّف عند المشهد الّذي دخل فيه مياه المحيط. كانت المياه الّتي سعى بكلّ جهده للوصول إليها عميقة بما يكفي كي يخوض فيها، لكنّها لم تكن تكفي للغوص والسّباحة كما يرغب.

بدت هولي أفضل في الصّباح، وجلست مواجهة له على مائدة الإفطار. كانت جائعة فتناولت الخبز المحمّص والبيض المخفوق. ثمّ قالت له وهما ينتظران وصول العبّارة للعودة إلى رود آيلند: «لقد استمتعت بالوقت الّذي قضّيته معك، وسررت بالتعرّف إليك».

شعر ساباش بالتّغيير السّريع والمباغت في موقفها، كما لو أنّ العبّارة حملتهما من تلك الأرض لترميهما في أرض محفوفة بالمخاطر، تمامًا كما حدث مع السّلحفاة الّتي حملها البارحة، وعبر بها الشّارع في لحظة عوض أن يتركها تواجه مصيرها تحت دواليب السيّارات.

لكنّ هولي أضافت بنبرة هادئة محايدة: «أرغب في أن تنتهي علاقتنا بلطف. وأعتقد أنّنا قادران على ذلك».

ثمّ أخبرته أنّها ناقشت مع والد جوشوا إمكانيّة عودتهما لبعضهما من أجل الصبيّ، ومحاولة إنجاح زواجهما لأجله.

نظر إليها ساباش كالمتوسّل، وهمس: «لقد هجركِ!».

ـ لكنّه يريد العودة. وهو والد ابني، وأنا أعرفه منذ اثني عشر عامًا

يا ساباش. كما أنّي بلغت السّادسة والثّلاثين.

ـ لماذا أتينا إلى هنا معا إذا لم تكوني راغبة في رؤيتي من جديد؟

ـ اعتقدت أنّ المكان سيعجبك. هل توقّعت تطوّر علاقتنا في المستقبل؟ أنا وأنت؟ مع جوشوا؟

ـ أنا أحبّ جوشوا.

ـ أنت شابّ في مقتبل العمر، وسترغب في إنجاب أبناء من صلبك في يوم من الأيّام. ستعود بعد عدّة سنوات إلى الهند لتعيش مع عائلتك، وأنت من حدّثني عن ذلك.

لقد أطبقت عليه في الشّبكة الّتي حاكها بنفسه، وأخبرته بما كان يعرفه منذ البداية. أدرك أنّه لن يزور بيتها مجدّدًا، وأنّ هديّتها تلك ليست سوى دليل على عدم مشاركتها له أيّ شيء بعد الآن، لقد فهم للتوّ فقط مغزى تلك الهديّة.

لم يكن بوسعه أن يلومها، فهي قدّمت له معروفًا حين أنهت العلاقة بتلك الطّريقة. ومع ذلك، فقد شعر بالغضب منها، لأنّها لم تحترم رغبته عندما اتّخذت هذا القرار لوحدها.

أضافت بعد لحظات الصّمت الثقيلة تلك بنبرة اعتذار: «بإمكاننا أن نبقى أصدقاء يا ساباش، ويمكنك أن تعوّل عليّ عند الضّيق».

أنهى ساباش الحديث، وأخبرها بأنّه سمع ما يكفي ولا يرغب في صداقتها. ثمّ قال إنّه سينتظر الحافلة ليرحل بعد وصولهما إلى اليابسة. وطلب منها ألاّ تتّصل به أبدًا.

جلسا في مكانين متباعدين ريثما تصل العبّارة إلى اليابسة. أخرج ساباش رسالة أوديان من جيبه، وقرأها من جديد وهو يفتّش بين

سطورها عن عزاء كان يحتاجه بشدّة، في تلك اللّحظة بالذّات. لكنّه ما إن انتهى من قراءتها حتّى مزّقها، ورماها في البحر.

بدأ خريفه الثّالث في رود آيلند عام 1971.

خسرت أوراق الأشجار لونها الأخضر مرّة أخرى، واستبدلته بالظّلال الّتي خلّفها وراءه. كانت الأشكال حيّة بألوان الفلفل الأحمر والكركم والزّنجبيل الطّازج المقطوف للتوّ من حديقة المطبخ، كما كانت أمّه تُعدّه لتطييب الطّعام كلّ صباح.

شعر مرّة أخرى بأنّ هذه الألوان قد رحلت مسافة شاسعة عبر العالم كي يبصرها الآن، وكي تزيّن الأشجار الّتي ترافقه طوال طريقه. هذه الألوان الّتي تكثّفت خلال أسبوعين إلى أن ضعفت الأوراق وتدلّت ثمّ تساقطت متكوّمة تحت الأغصان، هنا وهناك، كما لو كانت فراشات تحاول امتصاص الرّحيق من زهرة واحدة.

تذكّر ساباش عيد دورجا بوجو الّذي يُقام في كالكوتا، ويصادف موعده هذا اليوم. لم يكترث في السّنتين الماضيتين لغياب مظاهر العيد المعتادة لأنّه ما يزال يحاول الاندماج في المجتمع الأمريكي، لكنّه يريد العودة إلى الوطن الآن. لقد تلقّى خلال العامين الماضيين طرودًا بريديّة من والديه تحتوي على هدايا كالجلاليب الرّقيقة جدًّا، الجلابيب الّتي لا يستطيع ارتداءها هنا، وألواح صابون خشب الصندل وبعضٍ من شاي دارجيلنج الشّهير.

تذكّر، أيضا، الأغاني الّتي تبثّها كلّ محطّات الرّاديو في الهند في مثل هذا اليوم، واستحضر النّاس الّذين يخرجون من بيوتهم ليلًا تحت جنح الظّلام من تولّيه غانج وكالكوتا وكلّ أنحاء غرب البنغال للاستماع إلى

التّراتيل الدّينية قبل انبلاج الفجر والدّعاء إلى الآلهة دورجا الّتي تنزل إلى الأرض رفقة أولادها الأربعة.

آمن الهنود البنغاليّون بأنّها تأتي إلى الأرض كي تزور والدها هيمالايا في مثل هذا اليوم، وتتخلّى عن زوجها شيفا لقضاء عدّة أيّام (البوجو) قبل العودة للحياة الزوجية، وكانت التّراتيل تحكي قصّة تشكّل دورجا والأسلحة الّتي زوّدت بها أذرعها العشرة: السّيف والدّروع، القوس والسّهم، الفأس والصّولجان، المحارة والقرص، صاعقة إندرا ورمح شيفا الثّلاثيّ الشّعب والنّبلة المشتعلة وإكليل الثّعابين.

لم يستلم هديّة هذا العام من والديه كالمعتاد، بل تلغرافًا لا يحتوي غير جملتين هامدتين بلا حياة، كجثّة طافية على سطح البحر:

قُتل أوديان. عُد إن استطعت.

الفصل الثالث

1

ترك أيّام الشّتاء القصيرة وراءه، ومكانه القصيّ الّذي أمضى فيه أيّام حزنه وحيدًا. ترك خلفه المكان الذي سيحلّ فيه عيد الميلاد قريبًا، المكان الذي تزدان أبواب بيوته ونوافذه بالأشرطة الكهربائيّة المضيئة.

ركب حافلة إلى بوسطن، واستقلّ الطّائرة في رحلة ليليّة إلى أوروبا، ثمّ رحلة أخرى اضطرّ فيها إلى أن يبيت ليلة في الشّرق الأوسط، قضى أغلبها وهو يمشي ما بين البوّابات داخل المطار تمضية للوقت حتّى ركب الطّائرة الأخيرة الّتي أوصلته إلى دلهي حيث استقلّ من هناك قطارًا ليليًّا إلى محطة هاوراه.

على متن ذلك القطار، أنصت إلى الركّاب وهم يتحدّثون عمّا جرى في كالكوتا خلال غيابه، عن أمور لم يذكرها والداه ولا أوديان في الرّسائل، عن أحداث لم تُذكر يومًا في أيّ جريدة قرأها في رود آيلند، ولم يسمعها على محطّات الرّاديو في سيارته.

أخبره النّاس بأنّ الأحداث وصلت إلى منعطف خطير عام 1970، بعد أن تحوّل عمل الناكساليّين إلى العمل السّريّ واضطرّوا إلى عدم الظّهور علنًا إلّا لمهاجمة أعدائهم، فنهبوا المدارس والكليّات الموجودة في المدينة وأحرقوا سجلّات السكّان وألصقوا صور سياسيّين مقطوعي الرّؤوس في منتصف اللّيل ورفعوا الرّايات الحمراء وملأوا شوارع كالكوتا بصور ماو.

أخبروه كيف أرعبوا النّاخبين محاولين تعطيل الانتخابات، وكيف أطلقوا الذّخيرة المطّاطيّة في الشّوارع وأخفوا القنابل في الأماكن العامّة كي يتسرّب الخوف إلى قلوب النّاس فيمتنعوا عن الذّهاب إلى السّينما أو الوقوف في صفّ للدّخول إلى البنك مثلًا.

ثمّ أصبحت أهدافهم أكثر تحديدًا وراحوا يهاجمون عناصر شرطة المرور غير المسلّحين في التّقاطعات المزدحمة، ورجال الأعمال الأثرياء وبعض الأساتذة المرموقين في الجامعات وأعضاء الحزب الخصم.

قتلوهم بوحشيّة، ومارسوا ساديّة بشعة كي يصدموا كلّ من يطّلع على مصير القتلى. فقتلوا زوجة القنصل الفرنسيّ في سريرها أثناء نومها، واغتالوا غوبال سن نائب مستشار جامعة جادابفور في الكليّة حينما كان يتنزّه مساء. حدثت الجريمة قبل يوم واحد من انتهاء خدمته بسبب تقدّمه في السنّ. مزّقوا جسده بقضبان فولاذيّة ثمّ طعنوه أربع طعنات قاتلة.

سيطروا على أحياء بأسرِها، وأطلقوا عليها اسم المنطقة الحمراء، ثمّ استولوا على تولّيه غانج وأقاموا المشافي الميدانيّة واعتمدوا بيوتًا آمنة لأنفسهم، فبدأ النّاس بتجنّب الذّهاب إلى تلك المناطق، وشرع رجال الشّرطة في التّسلّح ببنادقهم كلّما خرجوا إلى الشّوارع.

وحينئذ، تمّ تمرير التّشريع الجديد الّذي أعطى الحقّ لعناصر الشرطة والميليشيات الموازية لها في دخول البيوت دون إنذار واعتقال الشبّان دون تهم واضحة. لقد وضع البريطانيّون هذا القانون لمواجهة حركة الاستقلال بقطع ساقيها وشلّها تمامًا.

بدأت الشّرطة بعد ذلك بالبحث عن بعض النّاس في أحياء المدينة

وإقفال المنافذ وكسر الأبواب المقفلة والتّحقيق مع شباب كالكوتا الصّغار. ثمّ قتلوا أوديان. الآن فحسب فهم ساباش أنّ الشّرطة هي من قتلت أخاه.

نسي ساباش خلال سنوات غيابه احتمال وجود الكثير من النّاس في مكان صغير كهذا، نسي الرّوائح المركّزة الّتي تفوح ممتزجة في الأماكن المغلقة المكتظّة. واحتفى بأشعّة الشّمس الحارقة على جلده وغياب البرد القارص رغم أنه فصل الشّتاء في كالكوتا. غصّت المنصّة في محطّة القطار بالنّاس وبالمسافرين العابرين وبالباعة المتجوّلين الّذين يحملون المثلّجات والماء البارد، وبالمشرّدين الّذين يأوون إلى المحطة اتّقاء للحرّ والبرد على حدّ السّواء وهم ملفوفون جميعهم بالأوشحة الصوفيّة والشالات.

حضر شخصان فقط لاستقباله، هما قريب والده الشابّ المدعوّ بيرن كاكا وزوجته. كان يقفان بجانب بائع فواكه ولم يتمكّنا من الابتسام عندما لاحظا وصوله. تفهّم ساباش الاستقبال البارد الذي حظي به لكنّه لم يفهم عدم حضور والديه للتّرحيب به، بعد مضيّ أكثر من عامين على غيابه واضطراره إلى السّفر أكثر من يومين كي يعبر العالم ويصل إلى كالكوتا. لقد وعدته أمّه قبل سفره إلى أمريكا بحفل استقبال يليق بالأبطال حين عودته منها وطوق من الورد عند ترجّله من القطار.

هنا، في هذه المحطّة، رأى وجه أخيه لآخر مرّة. وصل أوديان متأخّرًا ليلة مغادرة ساباش، لأنّه لم يصحب والديه وأهله الّذين شكّلوا قافلة صغيرة رافقته من تولّيه غانج إلى المحطّة، واختار بدلًا من ذلك ملاقاتهم على المنصّة، ولم يظهر إلاّ بعد انتهاء ساباش من توديع الجميع

وجلوسه في القطار، وأدخل رأسه من النافذة ليفاجئ أخاه.

مدّ يده عبر القضبان وضغط على كتف أخيه ثمّ ربّت على خدّه بلطف. لقد تمكّنا من أن يكونا معا بطريقة أو بأخرى في اللّحظة الأخيرة وسط ذلك الجمع الغفير من الناس.

أخرج أوديان بعض البرتقال الأخضر من حقيبته وأعطاها لساباش ليأكلها على الطريق وقال: «حاول ألاّ تنسانا تمامًا».

قال ساباش وهو يشير إلى والديه: «ستعتني بهما؟ ستخبرني إذا ما حصل لهما أيّ مكروه؟».

ـ وما الذي سيحدث لهما؟

ـ حسنًا. هل ستخبرني إذا ما احتجت لأيّ شيء؟

ـ عد إلينا في يوم من الأيّام..هذا كلّ ما عليك فعله.

بقي أوديان على مقربة من أخيه متّكئا على قضبان القطار ويده على كتف أخيه دون التفوّه بكلمة واحدة إلى أن ارتفع صوت محرّك القطار وبدأت أمّه بالنحيب وغامت عينا والده بمجرّد أن تحرّك القطار. لكنّ البسمة لم تفارق شفتي أوديان وهو يجيل بصره ما بين ساباش ووالديه.. ارتفعت يده عاليًا لوداع أخيه ولم تتفارق العيون إلاّ بعد أن ابتعد القطار وغاب وجه ساباش.

عبروا جسر هاورا وسط نور الفجر الرماديّ الشاحب، وفي الجهة المقابلة، كانت المتاجر قد فتحت أبوابها للتوّ والأرصفة مكتظّة بالباعة المتجوّلين والسّلال التي يستخدمونها لعرض خضار الصّباح الباكر. مرّوا عبر قلب المدينة النابض بالحياة باتّجاه داهاوسي.. مدينة اللاّشيء وكلّ شيء. اقتربوا من تولّيه غانج وعبروا شارع الأمير أنورشاه بعد

بزوغ الشمس وانتشار ضيائها في الأنحاء.

كانت الشوارع كما تركها تمامًا، مزدحمة بالعربات وأصوات الأبواق التي تصمّ الأذنين وكأنّها تُطلق زعيق مئات من أسراب الإوزّ المهتاج في نفس الوقت. إلاّ أنّ الأبنية هنا كانت مختلفة الهيئة، إنّها أقصر وأكثر تباعدًا عن بعضها. ذلك هو الفرق بين المدن الكبيرة والصغيرة.

لاحظ ساباش التّرام قادمًا من بعيد والأكشاك التي يبيعون فيها البسكويت والحلويّات المعبّأة في أوعية زجاجية وحاملات الشاي المصنوعة من الألمنيوم. وكانت جدران استديوهات التصوير السينمائي ونادي تولّيه مغطاة كليًا بالشعارات الثورية مثل: *«ليكن عقد السبعينيات عقد التحرير.. لتحمل البنادق لنا الحرّية... الحرّية قادمة قادمة»*.

عندما انعطف بهم الطريق عند المسجد الصغير الموجود على زاوية شارع باهورام غوش، شعر ساباش أنّ رحلته الطويلة انتهت بسرعة أكبر ممّا تخيّله. وكانت سيّارة التاكسي على وشك الاصطدام بالجدران المحيطة بالطريق من الجانبين لشدّة ضيق الدّرب عندما باغتته رائحة حامضة عابقة في الحيّ.. حيّ طفولته. إنّها رائحة المياه الراكدة والطحالب والمجاري المفتوحة.

وعندما اقتربت بهم السيارة من البركتين القديمتين لاحظ أنّ بيته الصغير الذي فارقه قد استبدل بشيء مثير للإعجاب لا يلائم المحيط الذي بني فيه. كانت بعض السقالات ما تزال عالقة عليه رغم أنّه بدا مكتملًا، وشاهد أشجار نخيل خلف البيت بدل شجرة المانجو التي كانت تظلّل سقف البيت القديم.

خطا فوق اللّوح الخشبيّ الذي يغطّي الميزاب الفاصل بين البيت

والشارع وقادته بوّابتان متحرّكتان إلى الفناء. غطّى العفن الأخضر الجدران لكنّ المكان ما يزال مضيافًا بهيجًا كما كان: البئر القديمة في الزاوية على حالها وأحواض القرميد التي تحتوي على أزهار الداليا والقطيفة والريحان الذي تستعمله أمّه في أوقات الصلاة، بالإضافة إلى الكرمة المتشابكة الأغصان بلونها الأصفر المعتاد في هذا الوقت من العام.

إنّه المكان الذي أمضى فيه مع أوديان أوقات طفولتهما، وتمرّنا على الرّسم بالفحم وتشكيل الأواني الطينيّة، حيث مشى أوديان بقدميه العاريتين على الإسمنت الطريّ عندما طلبت منهما والدتهما أن يبقيا في الداخل وهما صغيران.

نظر ساباش إلى آثار القدمين ومشى بمحاذاتها.. نظر إلى جزء المنزل العلويّ الذي بُني فوق ما كان سطحًا فرأى شرفة طويلة تشبه ممرًّا طويلا ممتدًا من بداية المنزل إلى نهايته على جانب واحد ومحاطا بشباك معدنية مزيّنة بزهرة البرسيم ومطليّة بلون الزمرّد الأحمر اللامع.

شاهد والديه عبر إحدى تلك الشبكات، جالسين في الطابق العلويّ فحاول استكشاف تعابير وجهيهما لكنّه لم يفهم شيئًا. رغب جزء منه في العودة مجدّدًا إلى التاكسي الذي كان يعود أدراجه بهدوء وببطء.. رغب في أن يطلب من السائق أخذه إلى مكان آخر. لكنّه اقترب من الباب وضغط الجرس الذي وضعه أوديان هنا منذ سنوات.

لم يقف والداه ولم يتفوّها باسمه.. لم ينزلا الدّرج لتحيّته، بل مدّ له والده مفتاحًا مربوطًا بحبل من الشبكة المعدنية فانتظر ساباش المفتاح بكل هدوء ثمّ فتح به قفل الباب الثقيل ودخل، فسمع أخيرًا صوت نحنحة والده وكأنّه يستعدّ للكلام بعد صمت دام دهورًا.

«أوصد الباب خلفك واقفله بالمفتاح». قال والده.

صعد ساباش درجًا محاطًا بدرابزين أسود ناعم وجدران زرقاء سماوية، وتبعه قريباه. وعندما شاهد والديه واقفين على التّراس انحنى أمامهما ليلمس قدميهما. لقد كان ابنهما الوحيد لمدّة خمسة عشر شهرًا قبل ولادة أوديان، لكنّ تلك الفترة لم تكن ذات أدنى أهمّيّة من قبل، ها هو الآن يبدأ معهما عهدًا جديدًا خاليًا من أيّ أبناء آخرين.

بدا له والداه كما تركهما تمامًا في البداية.. شعر والدته اللامع بسبب الزيت الذي تتزيّن به وبشرتها الشاحبة الجافّة الخالية من الدّهون وهيكل والده المحدودب وقفطانه البنجابي القطني واستدارة شفتيه التي تعطيك إحساسًا بأنّه يشعر بالخيبة دون أن يفقد الأمل واللّطف في الوقت ذاته.. ثمّ لاحظ الفرق في عيونهما المتصلّبة من الحزن، المنكسرة بسبب ما لا ينبغي على أيّ أمّ وأب أن يصابا به في أولادهما.

لم يصدّق ساباش أنّ أوديان غير موجود في أيّ مكان من هذا المنزل الجديد، رغم أنّ والديه اصطحباه إلى غرفتهما ليرى صورة أخيه المتوفّى المعلّقة على الجدار.. ولكن.. ها هو الدّليل.. لقد التقطت الصورة من قبل أحد الأقارب قبل عشر سنوات.. وهي إحدى الصور القليلة التي التقطت لهما عبر حياتهما، وتمّ التقاطها في يوم استلامهما لنتائج امتحانات الثانوية العليا.. في اليوم الذي أعلن والدهما أنّ هذا اليوم هو أكثر أيّام حياته مجدًا.

وقفا متلاصقين في الفناء.. بعد أن أوصاهما المصوّر بالوقوف بطريقة معيّنة لاستقطاب نور الشمس، ولهذا فقد لاحظ ساباش جزءا ضئيلا من كتفه ظاهرًا على طرف الصورة إلى جانب كتف أوديان، بعد

اقتطاع الجزء الذي يظهر فيه لاستحداث صورة للفقيد.

وقف أمام الصورة وبكى. أمسك رأسه المرتجف بيديه.. لكنّ والديه نظرا ببرود وكأنّهما يتأمّلان ممثّلًا على خشبة مسرح بانتظار نهاية المشهد.

حظيت الشّرفة الجديدة بإطلالة واسعة على مراتع طفولتهما، على السّطوح الصفيحية أو القرميدية المزدانة بكروم اليقطين واللّيف وأعالي الجدران المرقّشة باللّون الأبيض وبراز الغربان وبركتين مستطيلتين على جانب الحيّ والأرض المنخفضة التي تفترش الطين بعد موسم الفيضان.

نزل إلى الطابق الأسفل، إلى الجزء الذي لم يتغيّر من المنزل، إلى الغرفة التي كان يتقاسمها مع أخيه ففوجئ بمدى الظلام الذي يلفّها وصغر حجمها. ما زالت طاولة الدّراسة تحت النافذة على حالها ورفوف الكتب المثبّتة على الجدران والخطافات البسيطة التي كانا يعلّقان عليها الثياب كذلك، إلاّ أنّ السّرير الذي كانا ينامان عليه استُبدل بمهد طفل صغير. ويبدو أنّ أوديان قد استعمل الغرفة لتدريس الأطفال الصغار، لأنّه شاهد دفاتر أطفال على الرفوف وأدوات للقياس وقرطاسيّة وأقلامًا، فتساءل عن مصير المذياع وكتب السياسة التي كانت موجودة على تلك الرفوف.

أخرج ملابسه من الحقيبة واستحمّ من ماء المضخّة الذي يصل إلى المنزل مرّتين يوميًا، الماء الغنيّ بالحديد والذي تفوح منه رائحة معدنيّة، فشعر على الفور بخشونة تدبّ في شعره وبشرته.

أخبروه بضرورة الذهاب إلى الطّابق الأعلى لتناول غدائه. فقد أصبح المطبخ الآن، في الطابق الذي يحتوي على غرفة نوم والديه الجديدة، حيث تُعلق صورة أوديان. وُضعت الأطباق على الطاولة

لأجل أبيه وبيرن كاكا وزوجته وساباش، وكانت أمّه ستتناول الغداء بعد أداء واجب الضيافة لهم كما كانت تفعل على الدّوام.

أعطى ساباش ظهره للصورة لأنّه لم يحتمل النظر إليها مجددًا. تناول وجبته البسيطة المؤلّفة من الدال وشرائح الحنظل المقليّ والأرز وحساء السمك بنهم. تناول الغداء من جديد في تلك الأطباق الكبيرة المصنوعة من النحاس الثقيل وحظي بحريّة التهام الطعام بأصابعه وشرب الماء من جرّة فخّارية سوداء موضوعة في زاوية الغرفة.

سألهم بعد الفراغ من تناول الطّعام: «أين هي؟»

ـ من تعني؟

ـ غاوري.

سكبت والدته الدال على الأرز ثم قالت: «إنّها تتناول طعامها في المطبخ».

ـ لماذا؟

ـ إنّها تفضّل ذلك.

لم يصدّق ساباش كلام والدته ولم يتكلّم بما كان يفكّر فيه.. لم يقل لها بأنّ أوديان كان سيكره استبعادها وعزلها عن أفراد العائلة، سيكره امتثالهم لمثل هذه العادات القميئة.

ـ هل هي هناك الآن؟ أريد أن أتعرف إليها.

ـ إنّها ترتاح في غرفتها، ليست على ما يرام اليوم.

ـ هل اتّصلتم بالطبيب؟

نظرت أمّه إلى الأسفل، ونحو الأطباق التي كانت تعدها لهم ثم قالت: « لا حاجة لذلك».

ـ هل هي مصابة بشيء؟

ـ إنّها حامل.

خرج ساباش من المنزل بعد الغداء وعبر البركتين الموحلتين نحو الأرض المنخفضة التي امتلأت بزنابق الماء التي ترعرعت بفضل برك الماء المنتشرة بكثرة هنا وهناك.

لاحظ ساباش شاهدة حجريّة صغيرة لم تكن هناك في الماضي فتقدّم باتّجاهها فوجد عليها اسم أوديان الكامل وتاريخ ولادته ووفاته (1945-1971).

لقد وجد اللّوحة التّذكارية الحجريّة التي أقيمت لشهداء السياسة ها هنا، حيث ترتفع المياه وتنخفض. حيث تتجمّع وتتبخّر.. إنّه المكان الذي اختاره رفاق الحزب لتخليد ذكرى رفيقهم أوديان.

عادت الذكريات به إلى عصر أحد الأيام عندما كان يلعب كرة القدم مع أخيه وبعض من أصدقاء الحيّ على الجهة الأخرى من الأرض المنخفضة، عندما التوى كاحله في منتصف المقابلة فطلب من أوديان أن يتابع اللّعب لأنّه سيتمكن من العودة إلى البيت بمفرده. لكنّ أوديان أصرّ على ترك الرّفاق والانقطاع عن اللّعب لمرافقته إلى المنزل.

تذكّر اللّحظة التي وضع فيها ذراعه على كتف أخيه واتّكأ عليه وهو يعرج بعد تفاقم الألم، تذكّر مزاح أوديان معه لحركته الخرقاء التي أدّت لإصابته هذه مضيفًا أنّ فريقهم كان سينتصر لو لم يقم بتلك الحركة. وتذكّر كيف كان يسنده بكلّ جهده وهو يقوده نحو البيت.

عاد ساباش إلى البيت وفي عزمه نيل بعض الراحة في قيلولة قصيرة لكنّه غرق في نوم عميق واستيقظ في وقت متأخّر بعد وقت العشاء.

كانت المروحة متوقّفة والهواء ساكنًا. وجد مصباحَ يدٍ تحت فراشه فأشعله وصعد إلى الطابق الثاني.

كان باب غرفة والديه مغلقًا فذهب إلى المطبخ بحثا عن شيء يأكله فوجد غاوري على الأرض، جالسة إلى جانب شمعة مشتعلة. تعرّف عليها على الفور مستحضرا الصورة التي أرسلها إليه أودیان قبل عام، لكنّها لم تعد فتاة الجامعة الهادئة المبتسمة لأخيه في الصورة، كما أنّ تلك الصورة الملتقطة بالأبيض والأسود كانت بعيدة عن الحقيقة الملوّنة أمامه.. وفي غياب النّور، وحتى في ضوء الشمعة الدافئ، بدت له أكثر جمالًا ممّا كان يتخيّل.

كان شعرها ملقى إلى الخلف وراء كتفيها ووجهها مُنحنيا إلى الأمام وكانت ذراعاها بلا غطاء وترتدي ساريا أبيض اللون.. بدت له نحيلة القوام دون أثر للحياة التي تحملها في بطنها، وكانت تضع نظّارة، وهو تفصيل لم يظهر في الصورة، وعندما نظرت إليه، رأى بهاء في عينيها وجمالًا لا يمكن لأيّ صورة أن تظهره.

لم يكلّمها، بل ظلّ يراقبها وهي تتناول الدال والأرز.. يمكن لهذه المرأة أن تكون أيّ شخص.. إنّها غريبة عنه.. إلاّ أنّها اليوم جزء لا يتجزّأ من عائلته. إنّها تحمل في أحشائها ابن أودیان. رشّت بعض الملح على صحنها وخلطته بالأرز فلاحظ أنّها لم تحظ بأيّ قطعة من قطع السّمك التي قُدّمت له اليوم على الغداء. كسر الصّمت فجأة مخاطبا إيّاها: « أنا سباش».

ـ أعرف.

ـ لا أريد إزعاجك.

ـ حاولا إيقاظك لتناول العشاء.

ـ لقد استيقظت منذ ثوانٍ.

همّت بالنهوض وقالت وهي تستند بكفّها على الأرض: «دعني أعدّ لك طبقًا إذًا».

ـ تابعي وجبتك.. سأعدّ طعامي بنفسي.

شعر بنظرات عينيها وهي تتفحّصه وهو يستعرض محتويات المطبخ على نور مصباح الجيب. تناول طبقًا فارغًا ورفع الأغطية عن الطناجر التي تُركت لأجله.

ـ أنت تشبهه تمامًا.

جلس أرضًا في مواجهتها ونور الشّمعة الخافت ما بينهما. واجهها، راقب يدها وهي تنزل إلى الطبق ورمق رؤوس أصابعها المبلّلة بالطعام.

ـ ألا تتناولين السّمك بسبب والديّ؟

تجاهلت سؤاله وقالت: « صوتك مماثل لصوته أيضًا».

عاد طبعه للسّلبية التي كان عليها قبل سفره إلى الولايات المتحدة. عاد لانتظار كأس الشاي في سريره حال استيقاظه تحت الناموسية البيضاء، ووصول ملابسه المغسولة والمكويّة من المصبغة وانتظار أحدهم ليقدّم له طعامه، توقّف عن غسل الأطباق والأكواب التي يستعملها لأنّه رجع للاعتماد على الخادم، وعاد مرّة أخرى لتناول الخبز المحمّص بالسكّر على مائدة الإفطار مع الشاي المحلّى أكثر ممّا ينبغي، والذي كانت حلاوته الشديدة تجذب النّمل في محاولة لاقتناص كلّ الذرات المتساقطة من طعام ساباش.

كان تخطيط المنزل الجديد أيضا مربكًا وغير مكتمل. كان الطلاء الأبيض يسبّب بقعًا على الملابس إذا ما احتكّ أحدهم به، وكان يبدو غير مضياف وخاليًا من أيّ لمسة ترحيب رغم حداثته.. كان يحتوي على الكثير من الغرف التي يمكن الانزواء فيها والنّوم بهدوء، لكنّه لم يحتوِ على أيّ غرفة مخصّصة للاجتماع ببقيّة أفراد الأسرة، ولا على أيّ أثاث لاستقبال الضيوف.

ولكلّ هذه الأسباب مجتمعة، فضّل والداه الجلوس على الشّرفة، وهي المكان الوحيد الذي بدا له أنّهما يملكانه. كانا يتناولان شاي العصر بعد عودة والده من العمل جالسين على كرسيين خشبيين بسيطين دون إزعاج البعوض بسبب ارتفاع الشرفة، ليستمتعا بالنّسيم العليل الذي يلاعبهما هناك مهما كان ضعيفًا. لم يتكبّد والده عناء فتح صفحات الصّحف ولم تحاول والدته حياكة أيّ شيء خلال تلك الساعة المسائية على الشرفة إلى أن يحلّ المساء تمامًا ويشرعا في تأمّل المارّة في الحيّ من ذلك الارتفاع عبر الشّباك الحديدية.. بدا له أنّها هوايتهما الجديدة الوحيدة.

كانت غاروي تقوم بخدمتهم كلّما كلّف الخادم بمهمّة خارج المنزل، لكنّها لم تجالسهم قطّ، وكانت تلازم غرفتها في الطابق الثاني بعد الانتهاء من مساعدة والدته في أعمال المنزل الصباحية. لاحظ ساباش أنّ والديه يتجاهلانها تمامًا كلّما ظهرت في نفس الغرفة التي يجلسان فيها.

ورغم مضيّ وقت على عيد دورجا بوجو، إلاّ أنّ والديه قدّما له هدايا العيد. تلقّى منهما قماشًا رماديًا يصلح لحياكة سروال وقماشًا مقلّمًا يصلح لحياكة القمصان.. لكنّه تلقّى قطعتين من كلّ شيء.. فعلم أنّهما أهدياه حصّته وحصّة أخيه المتوفّى. وكانت أمّه تخطئ أحيانًا فتناديه

باسم أوديان إذا ما أرادت تقديم البسكويت أو المزيد من الشاي، وما كان منه إلاّ إجابتها دون اعتراض أو تصحيح للخطأ الذي تقع فيه.

سعى ساباش للتّفاعل معهما، سأل والده عن أحداث النّهار في المكتب، فأجابه بأنّ العمل على حاله ولا شيء جديد. وعندما سأل أمّه عن عملها في الحياكة وتطريز السّاري أجابته بأنّ عينيها أنهكتا من ذلك العمل.

لم يطرح والداه عليه أيّ سؤال عن أمريكا.. وتفاديا النّظر في عينيه ممّا دفعه إلى التّساؤل حول ما إذا كانا سيطلبان منه ترك حياته التي اعتادها في رودآيلند أم لا. لكنّهما لم يذكرا له ذلك أبدًا. بل لم يفاتحاه مطلقًا في موضوع زواجه لأنّهما لم يكونا قادرين على ترتيب زيجة في تلك الفترة أو حتّى التخطيط لذلك في المستقبل. كانوا يجتمعون ساعات طويلة في بعض الأحيان لا يتبادل فيها الثلاثة إلاّ حديثًا عامّا وموجزا. وهكذا.. حلّ الصمت المتبادل بينهم، جمعهم في رباط وثيق كما لا يستطيع أن يفعل أيّ حديث مشترك مهما كان نوعه أو مضمونه.

افترض والداه أنّه لن يطلب منهما سوى القليل وأنّه سيتولى مسؤولية احتياجاته بنفسه. وكانت أمّه تجمع كلّ مساء بعض الأزهار من الفناء وتغادر المنزل. كان يراها من الشرفة تعبر البرك الجافّة وتتوقّف أمام الحجر التذكاريّ على طرف الأرض المنخفضة وتغسله بالماء من طاسة نحاسية صغيرة تحملها معها، وهي نفس الطاسة التي كانت تغسلهما بها وهما صغيران، ثمّ تضع الأزهار في الأعلى. ولهذا لم يكن يسألها في مثل هذا الوقت عن وجهتها، لأنّه يعلم ما كانت تقوم به كلّ مساء.

استمعا يوما عبر المذياع عن خبر تحوّل الباكستان الشرقية إلى دولة

بنغلاديش بعد اثني عشر يومًا من الحرب، وقد عنى ذلك التحوّل لمسلمي البنغال الحصول على الحريّة. لكنّه عنى لكالكوتا في نفس الوقت أفواجًا جديدة من اللاجئين. لم يزل ماجومدار متواريًا عن الأنظار لكنّه تحوّل إلى أهمّ مجرم مطلوب للحكومة الهندية وخُصّصت جائزة عشرة آلاف روبية لمن يدلّهم عليه أو يحضر رأسه.

استمعت الأسرة إلى تلك التقارير بصمت رغم عدم الاكتراث الذي يبدو على والده، والده هذا الذي ما يزال يحتفظ بمفتاح البيت تحت الوسادة أثناء نومه رغم انتهاء غارات التمشيط المفاجئة، وكان يستعمل مصباحًا يدويًا في الظلام الدامس من أعلى شرفته لينظر إن كان هناك أحد يتحرّك في الجوار أو الشارع.

لم يذكر أحد أوديان.. لم ينطق أحد باسمه لأيّام. إلى أن سأل ساباش في إحدى الأمسيات: «كيف وقعت الحادثة؟».

جمد وجه والده وكأنّه لم يسمع السؤال.

ـ ظننت أنّه ترك العمل في الحزب وابتعد عن رفاقه.. هل تركهم بالفعل؟

«كنت في المنزل». قال والده وكأنّه لا يعترف بالسؤال من أساسه.

ـ متى كنتَ في المنزل؟

ـ في ذلك اليوم..فتحت لهم البوّابة.. سمحت لهم بالدخول.

ـ من هم؟

ـ الشّرطة.

بدأ ساباش يفهم ما جرى.. لقد حصل على بعض الشّرح لما حدث.. بعض التّفسيرات، لكنّه شعر بالاستياء في الوقت ذاته لأنّ

شكوكه بدأت تتأكّد.

ـ لِمَ لمْ تخبروني بأنّه كان في خطر؟

ـ وماذا كنت ستفعل لو عرفت؟

ـ حسنًا.. أخبروني الآن.. لماذا قتلوه؟

نظرت أمّه إليه في أوّل ردّ فعل لها على أسئلته بعينين صارختين، بوجهها الصغير الذي لم يكن يكفي للتعبير كما ينبغي عن فظاعة شعورها.. بوجهها هذا الذي ما زال شابًّا وشعرها الأسود الفاحم اللاّمع المزيّن بالشّريط القرمزيّ الذي يدلّ على أنّها امرأة متزوّجة، ثم قالت: «إنّه أخوك.. كيف يمكن لك أن تطرح مثل ذلك السؤال».

طرق ساباش في صباح اليوم التّالي باب غرفة غاوري ففتحت له، وكان شعرها مبلولًا متروكًا على كتفيها وكأنّها استحمّت للتوّ، وفي يده كتاب اشتراه لها من أمريكا بناء على رغبة أوديان من تأليف هربرت ماركيز تحت عنوان: «رجل الأبعاد». بسط يده به إليها قائلًا: «هذا لكِ.. من أوديان، لقد طلب منّي إحضاره لك».

نظرت إلى الغلاف الأماميّ ثمّ الخلفيّ ثمّ فتحته ونظرت إلى الصفحة الأولى فظنّ بأنّها بدأت بقراءته على الفور لأنّ وجهها تجمّد في تعبير هادئ يدلّ على التركيز وكأنّها نسيت أن ساباش واقف أمامها.

شعر ساباش بوقوفه أمام باب غرفتها وكأنّه يتجاوز الحدود المتعارف عليها فهمّ بالمغادرة، ولكنّها استوقفته قائلة: «شكرًا على تلطّفك بإحضاره من هناك».

ـ لم أفعل شيئًا يُذكر.

رغب في أن يكلّمها لفترة أطول، لكنّه لم يجد مكانًا مناسبًا للحديث

معها في المنزل فقال: «هل يمكننا الذهاب في نزهة؟»

ـ ليس الآن.

ابتعدت عن مدخل الباب وأشارت إلى كرسيّ في الغرفة. فهم إشارتها ولكنّه تردّد، ثمّ دخل الغرفة المعتمة، وما إن فتحت غاوري مصراعي النّافذة لتسمح للنّور الأبيض الساطع بالدخول، حتّى سقط الضوء بشكل مربّع متوهّج على السرير تقطعه ظلال القضبان الحديدية الأفقية التي تحمي النافذة.

كان سريرها منخفضًا يحاذيه دولاب صغير ومرآة للزينة مع كرسيّ صغير، وبدلًا من الأمشاط ومساحيق التجميل رأى الكراسات والأقلام وزجاجات الحبر. ملأت رائحة خشب الساج المنبعث من الأثاث الجديد رئتيه مختلطة برائحة شعرها المبلول.

ـ الضوء لطيف هنا.

ـ الآن فقط. سترتفع الشمس بعد قليل وستغيب عن الغرفة.

نظر في الاتّجاه الآخر فرأى رفوفًا على أحد الجدران حيث كانت تضع كتبها، وما بينها.. شاهد المذياع الذي صنعه وأخاه بأيديهما.. فسحبه عن الرفّ ولم يشغّله لكنّه عبث قليلًا بزرّ توليف الترددات.

ـ لقد صنعناه معًا.

ـ لقد أخبرني بذلك.

ـ هل تستمعين إليه؟

ـ كان أوديان الشخص الوحيد القادر على تشغيله.. هل تريد استرجاعه؟

هزّ رأسه نافيًا وأعاده إلى الرفّ. جلست على طرف السرير فشاهد

المزيد من الكتب المفتوحة مغلّفة بورق بنّي كتبت عليه عنوان كلّ كتاب بخط يدها. تناولت ورقة صحيفة قديمة وغلّفت الكتاب الجديد بها، لقد اعتاد هو وأخوه فعل ذلك بعد ابتياع كتب الدراسة الجديدة لحفظها خلال العام الدراسي.

ـ لا أحد يفعل هذا هناك.

ـ ولمَ لا؟

ـ لا أعرف.. ربّما تلك الأغلفة أكثر جودة من تلك التي نراها هنا، أو أنّهم لا يمانعون من رؤية مظهرها القديم.

ـ هل واجهت صعوبة في العثور عليه؟

ـ لا، أبدا.

ـ من أين اشتريته؟

ـ من مكتبة الجامعة.

ـ هل تقع تلك المكتبة بعيدًا عن بيتك؟

ـ لا. ليس بعيدا.

ـ هل تقطع المسافة إليها مشيًا على الأقدام؟

ـ نعم.

ـ نوعية الورق مختلفة.. هذا أكثر نعومة.

أومأ برأسه موافقًا.

ـ هل تعيش في فندق؟

ـ بل أعيش في غرفة استأجرتها من أحد البيوت.

ـ هل غرفة المعيشة في ذلك البيت فوضوية؟

ـ لا.

ـ من يطبخ طعامك؟

ـ أنا أطبخ بنفسي.

ـ هل أحببت الحياة وحيدًا؟

فكّر لا شعوريًا بهولي ووجبات العشاء التي تناولها على مائدة مطبخها. وللمرّة الأولى، شعر ساباش بأنّ التّغيير الذي حصل في حياته هناك برفقة هولي كان تغييرًا أو اضطرابًا تافهًا لا قيمة له ولا تأثير له على المدى البعيد، كمجموعة حصى يجمعها ويرميها مجدّدًا في بحر رودآيلند أثناء نزهته على الشاطئ، لم تعد تعني له أيّ شيء. ومع ذلك، تساءل في قرارة نفسه عمّا ستفعله غاوري في هذا البيت الحزين الخالي.. في حيّ الأزقّة العشوائية الغارق في الطين جنوب كالكوتا هذا، حيث ولد وعاش فترة طفولته.. وتساءل عن تأثير الحيّ والمنزل فيها.

سألها عن دراستها فأخبرته أنّها تخرّجت في بداية السنة من كليّة الفلسفة بعد أن أمضت سنوات أكثر من اللازم في تلك الجامعة، وحكت له عن الصعوبات التي واجهتها في الدراسة بسبب الاضطرابات السياسية، ثمّ أخبرته بأنّها كانت تنوي متابعة دراساتها العليا قبل مقتل أوديان، وقبل أن تعرف بأنّها حبلى.

ـ هل عرف أوديان بأنّه على وشك أن يصبح أبًا؟

ـ لا.

ما يزال خصرها نحيلًا، لكنّ روح أوديان متقوقعة داخلها، محفوظة بعناية في هذه الغرفة التي تقضي جلّ وقتها فيها، وعندما تتكلّم عنه تبدو وكأنّها تستحضر روحه من جديد بدلًا عن تغيير الحديث أو الصّمت غير المفهوم.

ـ متى سيولد الطفل؟

ـ في الصيف.

ـ كيف تجدين البيت؟ كيف تجدين الحياة مع والديّ؟

صمتت غاوري، فانتظر منها جوابًا ثمّ اكتشف أنّه يحدّق بشامة سوداء واضحة على رقبتها فأشاح بنظره بعيدًا.

ـ بإمكاني اصطحابك إلى مكان آخر. هل ترغبين بزيارة أهلك لفترة؟ أعمامك وعماتك؟

هزّت رأسها نافية.

ـ لمَ لا؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجولة للمرّة الأولى، فبدت أشبه بالابتسامة البسيطة المائلة لطرف واحد التي ظهرت على وجهها في الصورة التي أرسلها إليه أخوه قبل عام، ثمّ قالت: «لأنّي هربت من البيت لأتزوّج أخاك».

ـ ألا يرغبون برؤيتك رغم ما جرى؟

رفعت كتفيها وقالت: «إنّهم شديدو الحساسية وعصبيّو المزاج، وأنا لا ألومهم، لأنّني تعرّضت بفعلتي تلك لحياتهم وحياة والديك.. من يدري؟».

ـ أنا متأكّد من وجود شخص واحد على الأقلّ ترغبين في رؤيته.

ـ زارني أخي بعد ما جرى وحضر الجنازة، فقد كانا أصدقاء.. هو وأوديان. لكنّ القرار لا يعود إليه.

ـ هل يمكنك إخباري بالمزيد؟

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ أريد أن أعرف ما جرى لأخي.

2

حدث هذا قبل أسبوع من عيد دورجا بوجو، في شهر أشفين، في المرحلة الأولى من أطوار القمر الأربعة. استأجرت غاوري وحماتها عربة لتعود بهما إلى البيت من أمام محطة الترام، وجلستا على المقعد برفقة الأكياس والعلب واللفائف الورقيّة التي ابتاعتاها بعد يوم كامل من التسوّق، وقد تأخّرتا قليلًا أكثر ممّا كانتا تخطّطان.

كانت العلب تحتوي على هدايا للعائلة ولهما أيضًا.. سارٍ جديد لكليهما، وقفطان بنجابيّ وسروال خاصّ لحماها، وقماش لتفصيل سروالين وقميصين لأوديان وشراشف أسرّة جديدة وأخفاف منزليّة ومناشف لليدين والجسم وأمشاط عاجية للشعر.

عندما اقتربت بهما العربة من المسجد القديم طلبت حماتها من السّائق التمهّل والانعطاف يسارًا لكنّ السائق توقّف وأخبرهما أنّه لن يدخل الأزقّة لأنّه لا يعمل خارج نطاق الشارع العامّ.

عرضت حماتها عليه المزيد من المال وهي تشير إلى كلّ الأكياس التي يحملانها لكنّه رفض وانتظر نزولهما من العربة فاضطرّتا لإكمال المسافة مشيًا على الأقدام وهما تحملان كلّ المشتريات.

انعطف الزقاق بهما يمينًا أمام تماثيل الآلهة المزيّنة الموجودة في الحيّ، ولم يكن هناك أحد سواهما، تابعتا المشي إلى أن ظهرت لهما بِركتا الماء المقابلتان للبيت.

لاحظت غاوري سيّارة مغلقة تابعة للشرطة المركزية على ضفّة البركة الأولى ورجال شرطة هنا وهناك بزيّهم الكاكي الرسمي.. لم يكونوا كثرًا لكنّ عددهم كان كافيًا لتغطية المنطقة كلها.

لم يمنعهما أحد من الاقتراب، ولاحظتا بعد دخولهما الفناء أنّ البوابة الحديدية الموجودة في زاوية البيت مفتوحة والمفتاح موجود في قفلها وكأنّ أحدهم فتحها على عجل.

خلعت المرأتان حذاءيهما ووضعتا الأكياس على الأرض ثم صعدتا السلالم، وفي منتصف الطريق إلى الأعلى شاهدت غاوري حماها نازلًا على السلالم ويداه مرفوعتان فوق رأسه، ترتعد قدماه كلّما نزل درجة بعد الأخرى وكأنّه يخشى فقدان توازنه، أو كأنّه لم ينزل درجًا من قبل.

تبعه ضابط يحمل بندقيّة موجّهة إلى ظهره، وطلب من غاوري وحماتها الدوران ونزول الدّرج من جديد فلم تتمكّنا من متابعة طريقهما نحو الأعلى، أو رؤية الغرفة التي قلبت رأسًا على عقب. فالملابس ممزّقة ملقاة يمنة ويسرة بعد أن علّقت صباحًا لتجفّ على الحبال، وأبواب الدواليب خلعت، والوسائد والشراشف أُسقطت أرضًا، والفحم رُمي من السّلال، والعدس والحبوب أفرغت من أوعيتها في المطبخ على الأرض كأنّهم كانوا يبحثون عن قصاصات ورقية صغيرة.. لا عن رجل كامل.

أمرهم الضابط بالخروج من البيت وعبور الفناء نحو الشارع، وطلب منهم المشي إلى ما بعد البركتين حتى الأرض المنخفضة. سار الثلاثة تحت المطر المنهمر بغزارة، خاضوا طريقهم وسط المياه الفائضة من كلّ حدب وصوب.. عبر زنابق الماء المسجّاة على سطح المستنقعات

كالعثّ المتجمّع على رداء قديم متآكل.

شعرت غاوري بمراقبة الجيران للأحداث من شقوق مصاريع نوافذهم بلا حراك، من قلب غرفهم المظلمة بعيونهم المتحجّرة رعبًا.

أوقفوهم في صفّ فاقترب بعضهم من بعض إلى أن تلامست أكتافهم، وفوهة المسدّس ما تزال ملتصقة بظهر حماها.

سمعت غاوري صوت رنين جرس ما قادم من البعيد، فأدركت أنّ أحدًا ما يقيم صلاته ويقدم قرابين نهاية النّهار في حيّ آخر. حينئذ، قال الضابط الذي يبدو أنّه المسؤول عن زمرة العناصر المرافقين له من خلال مكبّر صوت يدويّ: «تلقّينا أوامر بإلقاء القبض على أوديان مترا، على من يعرف مكانه أو يخبّئه التّصريح بأيّ معلومات يعرفها».

لم يجب أحد بأيّ كلمة. ولكنّ صوت الأمّ كسر ذلك الصّمت: «ولدي في أمريكا.» قالت عبارتها تلك بهدوء.. تفوّهت بكذبة لا تخلو من الحقيقة. تجاهلها الضابط وتقدّم من غاوري وتفحّصها بعينيه البنّيتين الفاتحتين وتمعّن فيها وهو يشير إليها بمسدّسه ثمّ قرّبه من عينيها إلى أن فقدت القدرة على رؤيته، وشعرت بمقدمة المسدّس البارد على حلقها وسألها: «ألستِ كنّة العائلة؟ ألستِ زوجة أوديان مترا؟»

- بلى.
- أين زوجك؟

اختفى صوتها.. لم تتمكّن من الكلام.

- نحن نعرف أنّه هنا.. لقد تتبّعناه إلى هنا.. فتّشنا المنزل وأغلقنا كلّ المنافذ المؤدّية إلى خارج الحيّ.. هذا مجرّد تضييع للوقت».

شعرت غاوري بتيّار الدّم الصّاعد والهابط على ساقيها من الخلف،

ثم سمعت الضابط يقول من جديد وهو يضغط بالمسدس أكثر على حنجرتها: «أين هو؟»

ردّت غاوري بصعوبة: « لاأعرف».

ـ أعتقد أنّك تكذبين. لا شكّ أنّك تعرفين مكانه.

لقد أخبرها أوديان من قبل أنّه سيختبئ تحت السطح، خلف مستعمرات زنابق الماء الطافية فوق مستنقع الماء الطيني الذي يغطّي الأرض المنخفضة إذا ما اقتحمت الشرطة الحيّ بحثًا عنه. لقد أخبرها عن مكان تنمو به الطحالب بكثرة وغزارة، وأنّه يحتفظ بوعاء كيروسين خلف البيت لمساعدته على الهرب قفزًا عن جدار المنزل الخلفيّ، وأنّه تدرّب على فعل ذلك ليلًا عدّة مرات، وأنّه قادر على النجاح حتى لو تضرّرت يده أو ساقه.

قال الضابط دون أن يرفع عينيه عنها: «نحن نعتقد بأنّه يختبئ تحت الماء».

فردّت في أعماقها: «لا». قالتها بلهفة وحزم.. سمعت الكلمة في رأسها ثمّ أدركت أنّ فمها تفوّه بالكلمة، وأنّه مفتوح الآن بحركة بلهاء.. هل تكلّمت فعلًا؟ هل همست؟ لم يكن بوسعها الجزم بما جرى.

ـ ماذا قلتِ؟

ـ لم أقل شيئًا.

تابع الضّغط على حنجرتها بالمسدّس ثمّ رفعه فجأة والتفت إلى الأرض المنخفضة ثم ابتعد عنها.

ـ إنّه هناك.. لقد أخبر الآخرين بأنّه سيكون هناك.

عاد الضابط يردّد تنبيهاته ويطلق أوامره عبر مكبّر الصوت:

«أوديان مترا..أخرج من مخبئك.. سلّم نفسك».

أطلق الضابط أوامره بكلمات مشوّهة وبصوت متقطّع تردّد صداه في الحيّ بأكمله، ثم قال: «نحن مستعدّون لقتل أفراد أسرتك إذا لم تمتثل لأوامرنا». توقّف برهة ثمّ أضاف: «سنقتل فردًا منهم مقابل كلّ حركة رعناء من قبلك».

لم يحدث شيء في البداية..ساد المكان صمت عميق لا تتخلّله سوى أنفاسها، تجوّل بعض المجنّدين في المكان وهم يشهرون أسلحتهم لا على التعيين، ثم أطلق واحد منهم طلقة عشوائية.. وعندها.. ومن مكان ما في الأرض المنخفضة، سمعت غاوري صوت خروج شيء من تحت سطح الماء.

ظهر أوديان وسط زنابق الماء، مغمورًا بالأوحال حتى وسطه.. انحنى وسعل وتنفّس الهواء ملْء رئتيه.

كانت يده اليمنى المصابة ملفوفة بعدّة طبقات من الشاش المبتلّ، وأمّا شعره فملتصق بفروة رأسه كحال ملابسه الملتصقة بجسده، وأمّا لحيته وشاربه فطويلان وبحاجة للحلاقة.. رفع أوديان ذراعيه للأعلى، واستسلم.

ـ جيد.. تقدّم نحونا ببطء.

خاض أوديان عبر الماء المتخثّر الرّاكد وحشائش المستنقع ثمّ خرج منها وتوقّف على بعد عدّة خطوات منهم، مرتجفًا، محاولًا كلّ جهده السيطرة على تنفّسه.. وقعت عينا غاوري على الشّفتين اللتين لم يكن يغلقهما تمامًا أبدًا ليترك ما بينهما فتحة على شكل الماس في الوسط. رأت تلك الشفتين الآن وقد مال لونهما إلى الأزرق وبقعًا من الطحالب على

رقبته وساعديه.. ولم تعرف إن كان السائل الذي يقطر من وجهه ماءً أم عرقًا لشدة انفعاله.

طلبوا منه الانحناء لتقبيل قدمي والديه والتماس مغفرتهما، فاضطر لفعل ذلك بيده اليسرى السليمة.. وقف أمام والدته ثم انحنى وقال: «سامحيني يا أماه».

«علامَ نسامحه؟ أنتم مخطئون» سأل حموها الضابط بصوت مكسور عندما انحنى أوديان أمامه.

ـ لقد خان ابنك وطنه.. إنّه من ارتكب الخطأ.. لا نحن.

ارتفعت وتيرة التيّار في ساقي غاوري فوصل الارتعاش إلى قدميها وشعرت بوخز يمتدّ من رقبتها إلى كامل رأسها وخالت أنّ قدميها ستخونانها بعد أن ارتختا تمامًا.. لم يكن هناك شيء قريب منها لتستند عليه، لكنّها بقيت واقفة.

كبّلت يده بحبل فلاحظت أنّه جفل عندما فعلوا ذلك وأدركت أنّ يده المصابة قد آلمته جدًّا. ثمّ صاح الضابط وهو يشير بمسدسه: «من هنا».

توقّف أوديان ونظر إليها.. تفحّص وجهها كما كان يفعل في الأيّام الخوالي.. وكأنّه كان يحاول اقتناص كل تفاصيله قبل أن يغيب عنه إلى الأبد.

دفعوه إلى الشاحنة وأغلقوا الباب ثمّ أمروا أفراد العائلة بالعودة إلى البيت. رافقهم وهم يلبّون الأمرَ أحد المجندين.. تساءلت غاوري عن السجن الذي سيأخذونه إليه وما الذي يمكن أن يفعلوا به هناك.

سمعوا صوت إقلاع الشاحنة، ولكن.. بدلًا من العودة إلى الخلف

للخروج من الحيّ باتجاه الشارع الرئيسي، مشت على العشب المحاذي للأرض المنخفضة مخلّفة آثارًا غليظة هناك إلى أن وصلت إلى الحقل الفارغ المقابل.

صعدوا جميعًا إلى الطابق الثاني وخرجوا إلى الشرفة حيث تمكّنوا من رؤية الشاحنة وقامة أوديان بجانبها. كان من المستحيل على أيّ أحد في الحيّ بأكمله مشاهدة ما كانوا قادرين على رؤيته، لأنّ طابقهم الجديد هذا كان يعلو فوق كلّ المباني المحيطة.

شاهدوا من عليائهم تلك جنديًا يحلّ وثاق أوديان، ثمّ رأوا أوديان يتقدّم إلى الأمام عبر الحقل بعيدًا عن عناصر الشرطة العسكرية.. مشى ومشى باتّجاه الأرض المنخفضة.. عائدًا باتجاه المنزل وذراعاه مرفوعتان عاليًا كرايتين.

تذكّرت غاوري كلّ المرّات التي راقبته فيها من شرفة بيت جدّها في شمال كالكوتا أثناء عبوره الشارع المزدحم وهو قادم لزيارتها. وللحظة.. ظنّ الجميع أنّهم طلبوا منه الفرار وتركوه لشأنه.. ثمّ أطلق أحدهم النار عليه من الخلف، كان طلقًا ناريًا قصيرًا مبهمًا، ثمّ طلقًا آخر.. ثم ثالث.

راقبت ذراعيه وهما تهويان وجسده ينهار ويتوقّف قليلًا قبل أن يسقط تمامًا.. سمعوا جميعًا أصوات الطلقات الواضحة وسط سكون رهيب، أعقبه صياح الغربان وهياجها.

«لم تتبيّن جروحه بسبب بعد المسافة. لم نعرف مكان استقرار الطلقات في جسده، ولم نعرف كم نزف من الدّم. سحب الجنود جسده من ساقيه ثم رموه في الشاحنة وأغلقوا بواباتها خلفه بعنف لا مثيل

لقساوته، وأداروا محرّكها وابتعدوا، بتلك المركبة التي تقلّ جسده».

وجد أفراد الشرطة مفكّرة أوديان تحت الفراش ما بين الكثير من الجرائد المطويّة، وكانت تحتوي على كلّ الأدلّة التي يحتاجونها.. وجدوها ما بين المعادلات الكيميائية والتجارب العلميّة وتعليمات تصنيع زجاجات قنابل المولوتوف الحارقة، وملاحظات عن الفرق ما بين الميثانول والغازولين عند تصنيعها، ومقارنات ما بين كلورات البوتاسيوم وحمض النيتريك، ومابين إشعالها يدويًا عن طريق أعواد الثقاب أو فتيل الكيروسين.

كما وجدوا في المفكّرة خريطة مرسومة بخطّ يده لتولّيه غانج ومواقع وأسماء المباني والاسطبلات وأكواخ الخدم وأماكن ركن السيارات وطرق النزهة التي يسلكها الذين يحبّون التنزّه على الأقدام.

استدعته الشرطة للتحقيق معه قبل عدّة أشهر. تحوّل ذلك النّوع من التّحقيق إلى إجراء روتينيّ خلال الفترة الأخيرة بالنّسبة إلى كلّ شبان المدينة. كانوا يصدّقونه في تلك الفترة.. يصدقون ما يقوله لهم من أنّه مجرّد معلّم مدرسة ثانوية، متزوّج يقطن حيّ تولّيه غانج، ولا علاقة له بالحزب الشيوعي الهندي.

سألوه عن معلوماته حول حادثة التخريب التي وقعت في مكتبة المدرسة، عن أيّ معلومات يعرفها عن الأشخاص الذين اقتحموها في إحدى الليالي لتخريب صور طاغور وفيدياساغار المعلّقة على الجدران، وقد صدّقوا إجاباته آنذاك واستنتجوا أنْ لا علاقة له بما يجري فلم يسألوه عن أيّ شيء آخر.

وقبل شهر من مقتله، لم يعد في إحدى الليالي إلى المنزل، ووصل

باكرًا في صباح اليوم التالي قبل بزوغ الشمس بقليل، ولم يدخل من البوّابة، ولم يقرع الجرس، بل دار حول المنزل وتسلّق الجدار الذي يبلغ طوله طول كتفه.

انتظر قليلًا في الحديقة خلف سقيفة الحطب والفحم، ثمّ راح يرمي قطعًا من القرميد المكسور من إحدى أحواض الأزهار باتّجاه نافذة غاوري إلى أن فتحت الأخيرة مصاريع نافذتها ونظرت إلى الأسفل. كانت يده اليسرى مضمّدة وذراعه مرفوعة بشكل زاوية مستقيمة بقطعة قماش. كان يحاول مع رفاقه تصنيع قنبلة مولوتوف باستعمال الألعاب النارية كفتيل صاعق لإحداث الانفجار. كان أوديان الشخص الوحيد الذي لا ينبغي له محاولة ذلك بسبب الارتعاش الذي لم يفارق يديه.

حصل الانفجار في مكان بعيد في بيت آمن ممّا سمح لهم بالتكتّم على الأمر. ثمّ أخبر والديه بأنّه أصيب في مختبر المدرسة أثناء إجراء تجربة علميّة وطلب منهما عدم القلق لأنّ يده ستشفى خلال بضعة أسابيع. ولكنّه أخبر غاوري بكلّ شيء، وحكى لها أنّ رفيقيه ابتعدا عن القنبلة في الوقت المناسب لكن الفرصة لم تتسنَّ له ليفعل ذلك. لم يكن هناك تحت تلك الضمادة سوى كفّ خالٍ من الأصابع.. سيشفى جرحه ذات يوم، لكنّه فقد أصابعه كلّها.

اكتشفت الشرطة في تلك الفترة مستودعات الذخائر في استوديوهات السّينما وغرف الزينة والمونتاج والتدقيق فأغلقوا استديو (المسرح الجديد) أكثر من مرّة. وبدأت عمليّات البحث العشوائية. راحوا يضايقون الشبّان في الشوارع ويعتقلونهم ويعذّبونهم ويملأون المشرحة والمحارق بالجثث، ويرمون بالمزيد كلّ صباح في الشوارع

تحذيرًا لكلّ من تسوّل له نفسه الالتحاق بالثوّار.

اختفى أوديان لأسبوعين، وأخبر والديه أنّه يتّخذ بعض الاحتياطات، لكنّهما كانا يعرفان بحلول ذلك الوقت أنّ الخطر قد اقترب. أخبر زوجته أنّه خائف بالفعل لأنّ إصابة يده جعلته مثيرًا للشّبهات وأنّ الشرطة على وشك اكتشاف أمره.

لم تعرف غاوري مكانه. لم تعرف إن كان يختبئ في مكان ما أو في عدّة أماكن معًا. كان يرسل لها في بعض الأحيان رسائل بسيطة أو إشارات تفيد بأنّه ما زال على قيد الحياة كطلب بعض الملابس النظيفة أو حبوب علاج الغدّة الدرقية الخاصة به. وكان هناك في الجوار عدد لا بأس به من المتعاونين المأمونين الذين يمكن لهم تلبية طلباته. وبعد أسبوعين، عاد إلى الحيّ لأنّه لم يعد يجد مكانًا يأويه.

كانت مغادرته للمكان مستحيلة بعد دخوله، وقد فضّل والداه الموت على تركه يذهب إلى أيّ مكان آخر من شدّة خوفهم عليه. تأكّدوا في البداية من أنّ أحدًا لم يعرف بوجوده من الجيران أو العمّال أو الضيوف، وطلبوا من الخادم أن يقسم على الاحتفاظ بالسرّ ففعل، ثمّ تخلّصوا من مقتنياته وأخفوا كتبه واحتفظوا بملابسه في صندوق تحت السرير كما لو كان ميّتًا بالفعل.

توارى أوديان في الغرف الخلفيّة بعيدًا عن النوافذ والشرفة، لم يتكلّم إلاّ همسًا، وكان حرًّا فقط في الصعود إلى سطح المنزل بعد منتصف الليل، ليسند ظهره إلى الجدار ويدخّن تحت النجوم. كان بحاجة إلى المساعدة في ارتداء ملابسه والاستحمام.. مثل طفل صغير. واجه أيضا مشكلة في السّمع، وبدأ يطلب من غاوري إعادة كلامها

أكثر من مرّة لأنّ إحدى طبلتي أذنيه ثقبت من قوّة الانفجار، واشتكى من دوار وطنين لا يفارقه، وأخبرها أنّه لا يستطيع سماع صوت المذياع في حين أنّها تسمعه بكلّ وضوح.

خشي أوديان من عدم سماع صوت الجرس في حال رنينه أو صوت اقتراب شاحنات الجيش إذا ما اقتحمت المنطقة، واشتكى لها من أنّه يشعر بالوحدة حتى أثناء وجودهما معًا، يشعر بالعزلة التامّة التي تشبه صمت القبر.

مرّ أسبوع.. لم تتمكّن الشرطة ربّما من ربط الأدلّة بعضها ببعض، وربّما فقدوا أثره، أو صبّوا جلّ اهتمامهم على المهرجان القادم، هكذا كان يظنّ. فأقنع والدته وغاوري بترك المنزل في ذلك اليوم لقضاء احتياجاتهما من السوق، لإلهائهما عن قلقهما.. ولتثبتا للجيران أنّهما تعيشان حياة طبيعية، وانّهما تنشغلان بالتسوّق ككلّ النساء في هذا الوقت.

لم تسلّمهم الشرطة الجثمان ولم يخبروهم أبدًا عن مكان حرقه، وعندما ذهب حموها إلى مركز الشرطة لاستقصاء المعلومات أنكروا معرفتهم بالحادثة. أخفوا كلّ أثر لهم.. لمجيئهم ولجريمتهم.. بعد أن اقترفوها على مرآى من الجميع.

قامت غاوري بكلّ طقوس التحوّل إلى أرملة نموذجية.. توقّفت عن غسل ملابسها وارتداء خفّ في قدميها ولم تسرح شعرها لعشرة أيّام.. أغلقت نوافذها وباب غرفتها للاحتفاظ بكلّ ذرّة طافية منه في هواء الغرفة.. نامت على سريره ووسادته التي بقيت عَبِقة برائحته عدّة أيّام بعد موته إلى أن ضاع الأثر وفاحت منها رائحتها هي، رائحة

شعرها الزيتي المتّسخ وبشرتها التي تحتاج للاغتسال.

لم يزعجها أحد.. وأدركت أنّها لم تكن تتحرّك.. كما لو أنّها كانت متجمّدة لالتقاط صورة فوتوغرافية لم تلتقط أبدًا، وبدلًا من الشعور بالسكون.. كانت تشعر أحيانًا بأنّها تسقط وكأنّ السرير هاوية لا قرار لها.. لم تتمكّن من البكاء، إنّما كانت بعض الدموع الخارجة عن شعورها تتساقط أحيانًا، تلك التي تتجمّع في محجر العين وتنهمر من زاويتها في الصباح بعد النوم.

حلّ العيد وأوشكت أيّامه على الانتهاء: شاشتي، شابتامي، أشتامي، ونافامي.. أيّام العبادة والاحتفال في المدينة، كانت أيّام حداد وعزلة في البيت. غسلت شعرها ومحتْ من جبهتها علامة المتزوّجات وخلعت أساورها من يدها ليعرف كلّ من يراها أنّها باتت أرملة في الثالثة والعشرين من العمر.

حضر كاهن لزيارتهم بعد مرور أحد عشر يومًا لإتمام الشعائر. كما حضر طاهٍ لطبخ الطعام المخصّص للضيوف. وفي داخل البيت، عُلّقت صورة أوديان في إطار، خلف لوح زجاجيّ، مكلّلة بأزهار الناردين، لكنّها لم تستطع النظر إليها. جلست بانتظار انتهاء المراسم دون أيّة زينة في يديها.

قال لها ذات مرّة: «إذا حدث لي مكروه، فلا تسمحي لهم بتبذير المال على جنازتي». لكنّ الجنازة وقعت بالفعل وامتلأ البيت بالأقرباء وأعضاء الحزب والمعارف الذين حضروا لتقديم تعازيهم، وتناول الطعام الذي صُنع له وكأنّه هو من سيأكله. لقدّ أعدّت الأصناف التي كان يحبّها أكثر من كلّ الأنواع الأخرى.

عاد حمواها لتناول اللّحم والسّمك بعد انتهاء فترة الحداد، لكنّها لم تتمكّن من ذلك. وتلقّت ساريا أبيض اللون لترتديه بدلًا من كلّ الألوان الأخرى حتّى تماثل بقية الأرامل الموجودات في العائلة، أولئك النسوة اللواتي تبلغ أعمارهن ثلاثة أضعاف عمرها.

حلّ يوم داشامي، وهو آخر يوم من أعياد بوجو، يوم عودة دورجو إلى حضن زوجها شيفا. نُقلت المجسّمات التي وُضعت في الحيّ إلى النهر لإغراقها هناك، لكنّ الجيران قاموا بذلك دون ضوضاء احترامًا لوفاة أوديان.

أمّا في جنوب كالكوتا، تحت الشرفة التي شهدت لقاءهما الأوّل وحديثهما الأوّل، فلم تتوقّف المواكب والمهرجانات طوال الليل والنهار، واصطفّ الناس على الأرصفة في الليلة الأخيرة لاقتناص آخر لمحة قبل انتهاء العيد، واستحال النّوم بسبب الضجيج وغناء الناس: «*سوف تعود، ستعود إلينا*» وهم يواكبون تشييع تمثال الآلهة إلى مثواها في النهر ويودّعونها قبل مفارقتها لعام آخر.

بعد مرور شهر على الوفاة، لم تتمكّن من مساعدة حماتها في المطبخ كما كان يُفترض بها أن تفعل. خارت قواها وشعرت بالدّوار عندما نهضت فبقيت طريحة الفراش.

مرّت خمس دقائق، ثمّ عشر، ثمّ دخلت حماتها غرفتها لتخبرها أنّ الوقت قد تأخّر ويتوجّب عليها النهوض. فتحت المصاريع ونظرت إليها، كانت تحمل فنجان شاي لكنّها لم تقدّمه لها على الفور، بل وقفت بلا حراك لوهلة محدّقة فيها باستغراب، فجلست غاوري ببطء لتأخذ الشاي من حماتها ثم قالت: «سأصعد بعد برهة».

ـ لا تتعبي نفسك.

ـ لِمَ لا؟

ـ لن تتمكّني من مساعدتي اليوم.

هزّت رأسها مرتبكة، فقالت حماتها: «أخبَرنا أنّك فتاة ذكيّة بعد زواجكما، لكنّك غير قادرة على التقاط الأمور البسيطة».

ـ ما الذي لم أفهمه؟

توقّفت حماتها بقرب الباب بعد أن همّت بالمغادرة وقالت: «احترسي من الآن فصاعدًا، حاذري أن تقعي في الحمام أو على السلالم».

ـ من الآن فصاعدًا؟

ـ ستصبحين أمًّا.

طلب منها زوجها أن تراقب دورتها الشهرية لتخبره عن الأوقات الآمنة من كلّ شهر من بداية زواجهما، وأخبرها أنّهما سيحظيان بأولاد بعد نجاح الثورة، في تلك الحال فقط. لكنّهما نسيا الاحتراس من الحمل خلال الأسابيع الأخيرة التي توارى فيها في المنزل.

لقد وُلدت غاوري بجدول زمنيّ مثبت في دماغها، بالإضافة إلى قدرتها على تصوّر المفاهيم المجرّدة الأخرى كالأحرف والأرقام بالانكليزية والبنغالية على حدّ سواء. كانت تتصوّر الأحرف والأرقام كحلقات في سلسلة والأشهر كواكب تسبح في مدارات في الفضاء. اخترعت لكلّ مفهوم طبوغرافية خاصة، ثلاثية الأبعاد، ملموسة. ولهذا كان من المستحيل عليها منذ نعومة أظفارها أن تجري عملية حسابية أو تهجّي كلمة أو تتذكّر شيئًا أو تنتظر شيئًا دون استعادة فكرتها الثّاوية عنه في إحدى زوايا ذاكرتها.

كانت صورة الزمن في ذهنها أقوى صورة على الإطلاق، الماضي والحاضر، إذ كانت أشبه بالأفق الدائم الذي يوجّهها ويحتويها في الآن ذاته عبر سنوات لا محدودة رغم الفترة القصيرة التي عاشتها. كانت تضع أحداث الماضي القريب على الجهة اليمنى... العام الذي التقت فيه بأوديان وما قبل ذلك، كلّ السنوات التي عاشتها قبل لقائها به وعام مولدها 1948 مقابل كلّ السنوات والقرون التي سبقت ذلك.

واحتفظت في الجهة اليسرى بالسنوات التي ستأتي، بالمستقبل، بلحظة موتها المجهولة، والمؤكدة التي ستعنون لحظة نهاية حياتها. ستنجب طفلًا إلى هذا العالم خلال أقلّ من تسعة أشهر لكنّ حياته قد بدأت بالفعل، قلبه ينبض.. كسطر جديد منفصل عن كلّ ما عداه وماضٍ يتحرّك أبدًا إلى الأمام. شهدت نهاية حياة أوديان في تشرين الأول من عام1971، حياته التي خالت أنّها سترافقها إلى النهاية، فحفرت في ذهنها قبرًا للحبيب وتركته هناك.

وحدها اللّحظة الرّاهنة، الآن، تفتقد أيّ منظور في عينيها، كثقب أسود أمامها، مع أنّها قادرة على استشراف المستقبل ورؤيته بالتدريج وهو يتفتّح أمامها كوردة.

رغبت في إغلاق عينيها عليه، تمنّت نهاية أيّامها وشهورها، لكنّ بقيّة سنوات حياتها خذلتها وتابعت الظهور أمامها. تكاثر الوقت أمامها بلا توقّف، لقد خُلقت لاستباقه على الرغم منها.

لكنّها عرفت أنّ يومًا أخيرًا سيأتي، يومًا لن يتبعه أيّ يوم، جنبًا إلى جنب مع اليقين بقدومه. سيكون الأمر أشبه بحبس الأنفاس بالنسبة إليها، كما حاول أوديان أن يفعل تحت مستنقعات الأرض المنخفضة،

ومع ذلك، كانت تتنفّس. مرّ الوقت ووقف بلا حراك لديهما معًا، وأجبرتها أجزاء مجهولة أخرى من جسدها، أجزاء لا تعرف ماهيتها ولا تدركها على الاستمرار في التنفّس لإبقائها على قيد الحياة.

3

للمرّة الأولى يخرج ساباش وحده إلى المدينة بعد حديثه مع غاوري بعدّة أيام، وكان قد أخذ معه القماش الذي تلقّاه من والديه بمناسبة العيد، وقماش أوديان أيضًا. قصد دكّان الخياط رغم أنّه لم يكن بحاجة إلى قمصان وسراويل جديدة لكنّه شعر بضرورة القيام بذلك لأنّه لم يحبّذ فكرة عدم استغلال القماش بسبب ما حصل. كما أنّ والديه فوجئا عندما أخبرهما بعدم وجود خيّاطين في رودآيلند وأنّ كلّ الملابس هناك جاهزة، وكان هذا هو الموضوع الأوّل المتعلّق بحياته في أمريكا والذي أبديا حوله ردّة فعل واضحة.

استقلّ الترام إلى بالي غانج ثمّ نزل ومشى باتجاه المشغل الصغير الخاصّ بأحد أقاربهم متجاوزًا الكثير من الباعة المتجوّلين. كانا يأتيان إلى هنا مرّة كلّ عام لأخذ القياسات، وما زال المكان على حاله: طاولة عمل طويلة وغرفة قياس في الزاوية وحامل للملابس التي فرغ من حياكتها. انتهى ساباش من طلبيّته وراقب الخيّاط وهو يرسم طلب أوديان على ورق الخياطة ويُثبّت قطعة مثلثة من القماش بواسطة مسمار دقيق بحجم الإبرة على زاوية كلّ وصل استلام.

لم يكن بحاجة إلى شيء آخر من المدينة بعد ما حكته غاوري، وبعد أن رسم في خياله صورة واضحة عمّا جرى.. لم يكن منشغلا سوى بمقتل أخيه.

ركب الحافلة دون أيّ هدف ونزل بقرب إسبلاناد، شاهد الكثير من الأجانب في الشوارع: الأوروربيين الذين يرتدون الجلاليب الهندية والأثواب المطرّزة بالخرز على الطريقة البنغالية، ويستكشفون كالكوتا على الأقدام. ومع أنّه بدا كأيّ بنغالي آخر في الشارع إلاّ أنّه شعر بالانتماء إلى هؤلاء الأجانب أكثر من انتمائه إلى أبناء جلدته. إنّه يشاركهم معرفة مكان آخر، حياة أخرى وإمكانية مغادرة هذه البلاد.

كان بإمكانه دخول فنادق معيّنة في المدينة لاحتساء كأس ويسكي أو بيرة وتبادل الحديث مع غرباء لينسى جفوة والديه وما روته له غاوري.

توقّف برهة لإشعال لفافة تبغ من ماركة ويلز التي كان أوديان يدخّنها وشعر بالتّعب فوقف أمام متجر صغير لبيع الشالات المطرّزة، فسأله صاحب المتجر الكشميري الأصل، ذو الوجه الشّاحب والعينين المشرقتين اللتين تلمعان تحت القبعة القطنية التقليدية: «ماذا تحبّ أن تشتري؟».

- لا شيء.

- تفضل لإلقاء نظرة واحتساء كوب شاي.

لقد نسي ساباش إيماءات الضيافة المعهودة هذه من قبل أصحاب المتاجر لاستقدام الزبائن، فدخل وجلس على كرسيّ وتأمّل الشالات التي راح البائع يمدّها أمامه واحدا تلو الآخر على وسادة بيضاء كبيرة، وقد تأثّر تأثُرا عميقا بصدق البائع ورغبته الملحّة في أن يبيعه شيئا ما فقرّر شراء أحد الشالات لأمّه لأنّه أدرك الآن فقط بأنّه لم يحضر لها شيئًا من أمريكا. أشار إلى شال أبيض وأزرق بحريّ الطابع رجّح أنّها

ستحبّ نعومة صوفه ونوع غرزاته وقال: «سآخذ هذا».

ـ وماذا أيضًا؟

ـ فقط.

ثمّ تصوّر غاوري واستعاد صورة وجهها عندما روت له حادثة أخيه والطريقة التي ثبتت بها أنظارها إلى الأمام محدّقة في الفراغ وكأنّها تصف أحداثًا حيّة أمامها.

لقد عرف ما جرى بفضلها، فقد عاينت استشهاد أخيه رفقة والديه، وأدرك الآن فقط أنّهما شعرا بالعار أمام الجيران لأنّهما عجزا عن مساعدة ابنهما وحمايته ففقداه بطريقة لا يمكن تخيّلها.

فكّر في كلّ الخيارات المتاحة أمام قدميه، جال بنظره ما بين اللون العاجي والرمادي واللون البنّي الداكن أكثر من الشاي في كأسه واعتبر أنّ تلك الألوان كانت مناسبة لوضعها الحالي، لكنّ شالًا تركوازيًا مطرّزًا أعجبه وملك عليه لبّه.

تخيّل الشال على كتفيها، متدلّيًا من جهة دون أخرى، منيرًا وجهها بلونه الحيوي، فقال: «وهذا أيضًا».

جلس والداه على شرفتهما بانتظاره وسألاه عن سبب تأخّره ثمّ أخبراه بأنّ الوضع ليس آمنًا كالسابق وأنّهما خائفان عليه من التجوّل وحيدًا في وقت متأخّر في المدينة. ومع أنّ قلقهما كان مبرّرًا ومعقولًا إلاّ أنّه أصيب بالانزعاج وقال دون تفكير: «أنا لست أوديان، لا يمكن أن أعرّضكما لما عرضكما له».

قدّم لوالدته الشال الذي ابتاعه لها ثمّ عرض عليها الشال الذي اشتراه لغاوري وقال: «أريد أن أقدّم لها هذا».

ـ عليك أن تكون أكثر ذكاء.. يجب أن تتوقّف عن محاولة مصادقتها.

صمت ساباش ولم يردّ جوابًا.

ـ لماذا كنت تكلّمها البارحة؟

ـ ألا يجب أن أكلّمها؟

ـ بمَ أخبرتك؟

وبدلًا من إجابتها هاجمها بسؤال لم يفارقه منذ وصوله: «لماذا لا تكلّمانها أنتما؟».

صمتت أمّه هذه المرّة. ولمّا تأكّد من أنّها لن تردّ على سؤاله أضاف معاتبا: «لقد أخذتما ملابسها الملوّنة ومنعتماها من تناول السّمك واللّحم».

ـ إنّها التّقاليد. لا بدّ من احترام الزوج المتوفّى».

ـ ولكنّ هذا مهين. لم يكن أوديان ليرضى أن تعامل زوجته بهذه الطريقة.

ما عهدته والدته مجادلا من قبل، لكنّه لم يتمكّن من السّيطرة على نفسه وكأنّه مشحون الآن بطاقة جديدة لم تكن تعرفها.

ـ ألا يعني الحفيد الذي ستنجبه لكما أيّ شيء؟

ـ إنّه يعني لنا كلّ شيء.. إنّه الشيء الوحيد الذي تبقى لنا.

ـ ولكن ماذا عن غاوري؟

ـ بإمكانها البقاء هنا إذا ما اختارت ذلك.

ـ ماذا تعنين بكلمتك هذه؟

ـ بإمكانها الذهاب أنّى يحلو لها لإتمام دراستها، قد تفضّل ذلك.

ـ وما الذي يدفعكما للتفكير بأنّها تفضّل ذلك؟

ـ إنّها انطوائيّة أكثر ممّا ينبغي. اختارت الانعزال عن العالم وهو ما لا ينبغي للأمّ أن تفعله».

ارتفعت وتيرة خفقات قلبه وقال: «هل ناقشت معها أيًا من هذه الأفكار؟»

ـ لا طائل من إحاطتها علمًا بأي شيء الآن.

أدرك ساباش أنّ أمّه خطّطت لما ستفعله بكلّ برود على هذه الشرفة، وأقلقه صمت أبيه ومجاراة قراراتها كلّها. قلّب بصره بينهما ثمّ أرسله بعيدا في الفضاء وقال: «لا يمكنك فصلها عن ولدها.. اقبلي بها من أجل أوديان».

وكانت تلك العبارة التي ذهبت بصبر والدته. فقدت فجأة هدوءها وصاحت في وجهه غاضبة: «اخرس تمامًا.. لا يحقّ لك أن تملي عليّ كيف أحترم ذكرى ولدي الشهيد».

لم ينم ساباش تحت الناموسية في تلك الليلة. ربّما لن يعرف أبدًا ما كان أوديان قد فعله حقًا لأنّ غاوري حكت له ما فهمته فقط ورفض والداه الإدلاء بأيّ معلومة. فكّر في فرضيّة تساهلهما مع أوديان كما فعلا دائما، معتقدين أنّه أجبر على الانضمام إلى تلك الحركة الثورية دون مواجهته قطّ.

لقد ضحّى أوديان بحياته لقاء ثورة مُضلِلّة ومُضرّة ولم تخمد إلاّ بأشدّ أساليب التوحّش، ولم تغيّر شيئا سوى ما سبّبته من ضُرّ لعائلته.

ومع ذلك فقد حافظ على ساباش ووالديه بعيدًا في الظلّ بكلّ ما استطاعه. وكلّما ازداد تورّطه عمقًا، ازدادت درجة مراوغته. كان يكتب الرسائل لساباش وكأنّه شخص غير مبال بما آلت إليه حال الثورة أملا

في إبقاء أخيه بعيدًا عن كلّ الأخطار المحتملة بذات الدقّة التي جمع فيها أجزاء القنابل معًا ورسم خرائط نادي تولّيه وفجّر أصابعه دون أن يكترث لمصيره.

لم يثق سوى بغاوري. أدخلها حياتهم ليبقيها مكبّلة هناك كما لو كانت حلًّا لمعادلة صعبة ينكشف شيئا فشيئا. وبدأ ساباش باكتشاف المنحى الجديد الذي ستتّخذه حياتهم. كان يتوق إلى مغادرة كالكوتا بأسرع وقت ولم يكن هناك ما يمكن تقديمه لوالديه.. لم يكن قادرًا على مواساتهما مع أنّه حضر خصّيصًا للوقوف بجانبهما، لأنّهما لم يكترثا لحضوره بكلّ بساطة.

لكنّ غاوري كانت مختلفة. شعر معها، رغم قلّة اللقاءات، بإدراك متبادل ووعي عظيم بحقيقة الشخص الذي عشقاه.

فكّر في احتمال بقائها تحت رحمة والديه، وفي إهانة أمّه لها وسلبيّة والده المدمّرة لكيانها معها التي لا تقلّ وحشية عن إهانة الأمّ لها.

لكنّها لم تكن قسوة نابعة من تفكير بسيط، بل كانت تهدف إلى طردها. فكّر في أنّها ستصبح أمًّا في المستقبل وأنّها ستفقد السيطرة على وليدها، وفكّر في الحياة المقيتة التي سيعيشانها في هذا البيت. كانت الطريقة الوحيدة لمنع حدوث ذلك هي إبعاد غاوري عن هذا المكان، هذا ما كان يستطيع تقديمه لها، البديل الوحيد المتاح أمامه. وكانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي اتّخاذها زوجة له، الحلول مكان أخيه وتربية ابنه وتقديم كلّ الحبّ لغاوري كما كان أوديان سيفعل لو وجد نفسه في موقف مماثل: اتّباع منهجه في إيجاد الحلول بطريقة تبدو غير ملائمة أو منحرفة حمقاء ولكنّها قانونية في نفس الوقت، بطريقة تجمع

الخطأ والصواب معًا.

اقترب موعد رحيله. سيركب الطائرة مجدّدًا خلال وقت قصير وسيعود إلى رود آيلند حيث لا ينتظره أحد، لقد أتعبته الوحدة.

حاول إنكار الجاذبية التي شعر بها نحو غاوري لكنّها كانت كيراعات الليل المضيئة التي تطير حول المنزل في الليل بعشوائية، تحيط به وتتوهّج ثم تخبو دون أثر.

لم يذكر شيئًا لوالديه لأنّه عرف أنّهما سيحاولان ثنيه عن نيّته. عرف أنّ الحلّ الذي توصّل إليه سيثير فزعهما، فتوجّه إليها مباشرة. لقد شعر بالرّهبة فيما مضى من احتمال تعارف عائلته وهولي، لكنّه لم يعد يخشى شيئًا بعد الآن.

وقف ببابها وناولها الشّال قائلا: «أحضرت هذا لك». رفعت غطاء العلبة ونظرت إليه، فأضاف: «أحبّ أن ترتديه يومًا ما».

دخلت غاوري الغرفة وفتحت خزانتها ووضعت الشال على الرفّ كما هو. وعندما التفتت لتنظر إليه مجدّدًا لاحظ أنّ بعوضة حطّت على جبينها قرب شعرها فحاول إبعادها بيده. لم تبتعد غاوري عنه. قال وهو يجد من ردّة فعلها تلك ما يشجّعه على مفاتحتها في الأمر: «أنا أكره طريقة معاملة والديّ لك».

لم تتفوّه غاوري بكلمة. جلست على كرسيّ مكتبها أمام الكتاب والكرّاسة المفتوحين وانتظرت مغادرته.

فقد ساباش أعصابه لسخافة الفكرة.. لن ترتدي غاوري شالها الجديد التركوازي ولن توافق على الزواج منه والسفر معه إلى رودآيلند لأنّها في فترة حداد على أودیان وحامل بابنه.. أدرك أنّه لا يعني لها شيئًا.

قُرع الجرس في عصر اليوم التالي فجأة دون انتظار ضيف ما. كان ساباش جالسًا على الشرفة يقرأ الصحف. أما والده فكان في العمل وأمّه خرجت في مشوار قصير وغاوري في غرفتها. نزل ساباش السلّم ليرى من على الباب فوجد ثلاثة رجال على الطرف الآخر من البوّابة.. اثنين منهم من رجال الشرطة يحملون المسدّسات ومحقّق من مكتب الاستخبارات. قدّم المحقّق نفسه وطلب الحديث مع غاوري.

ـ إنّها نائمة.

ـ أيقظها.

فتح البوّابة وقادهم إلى الطابق الثاني وطلب منهم الانتظار ثمّ ذهب لإيقاظها. فتحت الباب دون ارتداء نظارتها فبدت عيناها المتعبتان ولاحظ شعرها المهمل وملابسها المجعّدة وسريرها غير المرتّب، فأخبرها عن الزوّار وأضاف: «سأبقى معكِ».

جمعت شعرها إلى الخلف ووضعت نظارتها ورتّبت السرير وأخبرته أنّها جاهزة. كانت غاوري متماسكة تمامًا لا تشعر بالتوتر الذي اخترق عظامه. دخل المحقّق الغرفة أوّلًا ثمّ تبعه الشرطيان ورابطا بالباب، يدخّنان ويرميان الرماد على الأرض وكان لأحدهما عين مريضة مما جعله يبدو وكأنّه ينظر إلى غاوري وساباش في نفس الوقت.

تأمّل المحقّق الجدران والسقف وبعض التفاصيل، ثمّ تناول كتابًا من فوق طاولة غاوري ومرّر أصابعه بين الصفحات ثمّ أخرج دفترا وقلمًا من جيب قميصه ودوّن بعض الملاحظات. كانت بعض أنامله حائلة اللون وكأنّها مبقّعة بالسائل المبيّض للأواني والملابس. ثمّ سأل دون الالتفات إلى ساباش: «هل أنت أخوه؟».

ـ نعم.

ـ الذي يعيش في أمريكا؟

أومأ ساباش برأسه لكن أنظار المحقّق كانت معلّقة بغاوري.

ـ في أيّ عام التقيتِ بزوجك؟

ـ 1968.

ـ أثناء دراستك في جامعة الرئاسة؟

ـ نعم.

ـ هل تأثّرتِ بمعتقداته؟ هل تعاطفتِ معها؟

ـ في البداية فقط.

ـ هل أنت عضوٌ حاليًا في أحد الأحزاب السياسية؟

ـ لا.

ـ أريد أن أعرض عليك صورًا لبعض معارف زوجك.

ـ حسنًا.

أخرج من جيبه مغلّفًا وبدأ يعرض عليها صورًا صغيرة التُقِطت على عجل.

ـ هل تعرفين أيّ واحد من هؤلاء الناس؟

ـ لا.

ـ ألم تلتقِي بهم من قبل؟ ألم يُعرّفك زوجك على أحد منهم؟

ـ لا.

ـ انظري جيّدًا من فضلك.

ـ لقد فعلت.

أعاد المحقّق الصّور إلى المغلّف بحرص كي لا يجعدها.

ـ هل تعرفين شخصًا يدعى نيرمال داي؟

ـ لا.

ـ هل أنت متأكّدة؟

ـ نعم.

ـ غوبال سينا؟

انفعل ساباش رغمًا عنه ونظر إليها.. إنّها تكذب.. حتى هو يعرف سينا.. طالب الطبّ الذي ترأّس الاجتماع الوحيد الذي حضره قبل سنوات. لا بدّ أنّ أوديان قد ذكره لغاوري.

أم لعلّه لم يفعل؟.. ربّما كذب عليها ولم يعرّفها على أحد ليحميها، أيضًا. أنّى لساباش أن يعرف الحقيقة. ومع أنّ ذكريات أيّامها الأخيرة مع أوديان كانت ماثلة أمام عينيها بحيويّة لا تصدّق، فإنّ بعض التفاصيل كانت مبهمة وغامضة بشكل غريب.

دوّن المحقّق بضع ملاحظات أخرى ثمّ مسح عرق وجهه بمنديل وقال: «هل يمكنني أن أطلب منك بعض الماء من فضلك؟».

سكب ساباش الماء للمحقّق من الخابية الموجودة في زاوية الغرفة في كأس معدنيّ كانوا يواظبون على وضعه مقلوبًا رأسًا على عقب للمحافظة على نظافته جانب الخابية. تأمّل المحقّق يشرب الماء ثمّ يضع الكأس على مكتب غاوري.

ـ سنعود إذا استجدّت لدينا تساؤلات أخرى.

أطفأ الشرطيان عقبيْ سيجارتهما بسحقها تحت قدميهما ثمّ نزل الثلاثة السلّم وخلفهم ساباش ليتأكّد من خروجهم ويوصد الباب خلفهم، فسأله المحقق: «متى تعود إلى أمريكا؟».

ـ بعد بضعة أسابيع.

ـ ماذا تدرس هناك؟

ـ كيمياء المحيطات.

ـ ليس فيك أيّ شيء من أخيك.

انتظرته غاوري على الشرفة جالسة على أحد الكراسي القابلة للطيّ، فسألها فور وصوله إليها: «هل أنتِ بخير؟».

ـ أجل.

ـ متى سيعودون؟

ـ لن يعودوا أبدًا.

ـ كيف يمكنك الجزم بذلك؟».

رفعت رأسها ثمّ عينيها ثم قالت: «لأنّي لا أملك شيئًا أخبرهم به».

ـ هل أنت متأكّدة؟

لم ترفع عينيها عنه دون أن يبدو على وجهها أيّ تعبير سوى الجمود والتماسك.. أراد ساباش أن يصدّقها، لكنّه أدرك أنّها لن تخبرهم بأيّ شيء آخر حتى لو كانت تعرف كلّ شيء.

ـ أنتِ لست بأمان هنا.. حتى لو تركتك الشرطة وشأنك.. لن تكوني بمأمن من والديّ.

ـ ماذا تعني؟

صمت برهة ثمّ أخبرها بما كان يعرفه. قال لها كالمحذّر: «يريدون طردك من المنزل يا غاوري.. لا يريدون الاعتناء بك.. يريدون حفيدهم فقط».

أخبرها بعد قليل، بعد أن استوعبت كلماته تلك بأنّ المخرج الوحيد الذي استطاع التفكير فيه هو الحقيقة الناصعة الماثلة أمامهم.. أخبرها أنّ لا أحد في أمريكا يعرف شيئًا عن الثورة، وأنّه لا أحد هناك بإمكانه أن يزعجها وأنّها ستتمكّن من متابعة دراستها. ستكون فرصة لتجديد حياتها.

تابع كلامه المنمّق دون أن تقاطعه، وشرح لها حاجة وليدها إلى أب.. وأخبرها بأنّه سيكبر في أمريكا دون الحاجة لتحّمل هول ما جرى لأبيه. وليجعلها تطمئنّ أكثر لقراره، أخبرها بأنّه يعرف مدى تعلّقها بأوديان وطلب منها عدم التفكير فيما قد يقوله الناس وما قد تكون عليه ردّة فعل والديه.. وأكّد لها أنّ كلّ ما تراه صعبًا الآن سيصبح غير ذي أهميّة في أمريكا.

لقد تعرّفت غاوري على معظم الناس في الصّور. إنّهم زملاء أوديان وأعضاء الحزب من جيران الحيّ، وتذكّرت بعضهم الآخر من لقائها بهم في اجتماع حضرته ذات مرّة قبل ازدياد حدّة التهديدات وتعاظم الخطر. عرفت شاندرا التي تعمل في مشغل الخياطة ورجل المحطّة لكنّها تظاهرت بعدم معرفتهم.

إلاّ أنّها لم تتعرّف أبدًا على اسم واحد من الذين ذكرهم المحقّق.. اسم واحد فقط.. نيرمال داي.. ومع ذلك شعرت في أعماقها بأنّها تعرف صاحب الاسم.

قالت لساباش في صباح اليوم التالي: «لست مضطرًا لفعل ذلك».

ـ الأمر لا يخصّكِ وحدك.

ـ لم يكن ليرغب بحدوثه بكلّ تأكيد.

ـ أنا أتفهّم ذلك طبعا.

ـ لا أقصد مسألة زواجنا.

ـ ماذا تقصدين إذن؟

ـ لم يكن يرغب في تكوين أسرة.. أخبرني بذلك قبل ليلة من مقتله. ومع ذلك...

توقّفت عن الكلام.. فاستحثّها ساباش على المواصلة بقوله: «ماذا؟».

ـ أخبرني مرّة أنّه لا يريد أن يصبح أبًا قبلك لأنّه تزوّج أوّلًا.. أرادك أن تصبح أبًا أوّلًا.

الفصل الرابع

1

انتظرها ساباش خلف حبل يفصل القادمين عن بقيّة الناس في المطار.. نسيبها، وزوجها، والرّجل الثاني الذي تزوّجته في فترة لا تتجاوز العامين.

لهما بنيتان متماثلتان ولهما الطول ذاته وكأنّهما نظيران أو انعكاسان لظلّ واحد في المرآة لم تشاهدهما من قبل معا. إلاّ أنّ ساباش كان نسخة أكثر نعومة من أوديان، كان وجهه كالختم الخفيف الذي ختمه موظّف الجمارك على جواز سفرها لتأكيد وصولها إلى الولايات المتّحدة، واضطرّ لختمه مرّة أخرى فوق الأوّل لتأكيد محتوياته.

كان يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا قطنيًّا تحت سترة ذات زمام منزلق وحذاء رياضة. رحّبت بها العينان الطيفيّتان الضعيفتان في الآن ذاته.. هذا الضعف الذي دفعه إلى الزواج بها وإسداء هذا المعروف الكبير الذي قادها إلى هنا.

ها هو الآن في استقبالها، وسيرافقها من الآن فصاعدًا. لم يتغيّر فيه شيء.. وفي نهاية رحلتها هذه، لم يكن هناك ما يمكن امتداحها عليه سوى قوّة القرار الذي اتّخذته.

لكنّها لاحظت عينيه تدرسان تغييرات جسدها الجديدة بعد مرور خمس أشهر على حملها وامتلاء وجهها ووركيها وخصرها وحضور

الطّفل الكامن في أحشائها تحت الشال التركوازي الذي أهداه إليها، ملفوفًا حولها اتّقاءَ البرد.

جلست بجانبه في السيّارة، على الجهة اليمنى، ووضع حقيبتيها الملفوفتين بقماش الكانفا لتجنيبهما مشاقّ السّفر على الكرسيّ الخلفيّ. انتظرته كي يدير المحرّك ويتركه لترتفع حرارته قليلًا. قشّر لها موزة وسكب لنفسه بعض الشاي من وعاء حافظ للحرارة وحينما ناولها الكأس لتشرب شعرت بأنّ هذا السائل السّاخن يخلو تمامًا من أيّ نكهة وكأنّها تتذوّق الخشب الرطب.

ـ كيف حالكِ؟

ـ متعبة.

أوحى إليها صوته بصوت أوديان.. يكاد يماثله في النبرة وطريقة الحديث.. كان هذا أعمق دليل على أخوّتهما وأكثرها غرابة.. سمحت غاوري لسريان صوت أوديان بالتسلّل إلى قلبها حتّى لو كان صادرًا من حنجرة ساباش.

ـ كيف حال والديّ؟

ـ على حالهما، كما تركتَهما.

ـ هل ارتفعت الحرارة في كالكوتا؟

ـ طبعا، بلا شكّ.

ـ وكيف حال الأوضاع عمومًا هناك؟

ـ البعض يقول إنّها أفضل، وبعضهم الآخر يعتقد العكس.

أخبرها على الطريق بأنّ هذه المدينة هي بوسطن التي تقع شمال رودآيلند. ثم خرجت السيارة بهما من قلب نفق يمرّ تحت نهر ومرّا أمام

ميناء ثمّ خلّفا المدينة وراءهما، فزاد ساباش في سرعة السيارة أكثر ممّا كانت معتادة عليه، وقادها بشكل أكثر ثباتًا من حركة السيارات في شوارع كالكوتا. أتعبتها الحركة المتواصلة وفضّلت السّفر بالطائرة على ركوب السيارة عندما كانت مفصولة عن الأرض وواقعة تحت تأثير وهم السكون.

شاهدت غاوري أشجارًا رماديّة وبيضاء عقيمة على طول الطريق، كثيرة الأغصان، رفيعة ومتشابكة بطريقة كثيفة ممّا لا يسمح لها بحمل أوراق أو ثمار كما خيّل إليها، وشاهدت بعض الأوراق متراكبة مما دفعها إلى التساؤل عن سبب عدم سقوطها كغيرها.

كانت تشاهد بين الفينة والأخرى أكواما من الثلوج تلوح من بين الأشجار وعرفت أنّها ستتذكر إلى الأبد هذه الطرق المعبّدة النّاعمة وأشكال السيارات المربّعة المنتظمة وكلّ الفراغات الفاصلة ما بين السيارات التي تسير بالاتجاهين المتعاكسين والمباني الغريبة والأشجار العارية التي لا تنتهي.

استرق نظرة إليها وقال: «هل يوافق المكان هنا توقّعاتك؟».

ـ لم أكن أعرف ما أتوقّعه.

تحرّك الجنين واستدار في بطنها غير واع بمحيطه الجديد وبالمسافات الكبيرة التي قطعها عبر القارات. كان جسد غاوري، وما زال، عالمه الوحيد، وتساءلت هي عن مدى تأثير البيئة الجديدة عليه وإذا ما كان يشعر بالبرد.

شعرت غاوري أنّها حامل بشبح كما قال أوديان، الطفل نسخة منه.. كان حاضرًا غائبًا فيها.. داخلها وبعيدًا عنها.. ندمت غاوري

على حملها غير مصدّقة لشعورها هذا بنفس الدرجة التي لم تكن تصدّق بها رحيلَ أوديان عن العالم. لم يرحل عن كالكوتا فقط، بل عن كلّ أنحاء الأرض التي زارتها أثناء رحلتها إلى هنا.

خشيت غاوري خطر الإجهاض بينما كانت الطائرة تحطّ في بوسطن، خشيت فقدان جنينها، خافت أن يهجرها بعد أن يدرك بطريقة ما زيف الوالد الذي ينتظره على الأرض.. خشيت احتجاجه على ذلك ورفضه متابعة الحياة.

توقّعت رؤية المحيط بعد الوصول إلى رودآيلند لكنّ الطريق السريع لم يتوقّف بهم على البحر إلى أن وصلا إلى بلدة صغيرة اسمها بروفيدنس. شاهدت من شارع هيلي ومبانيه المتلاصقة وسقوفها المائلة قبّة بيضاء مزخرفة، وكانت تعرف أنّ معنى كلمة بروفيدنس هو (التّبصّر).. رؤية المستقبل بكلّ وضوح.

وصلا في منتصف النّهار تحت الشمس العموديّة والسماء الزرقاء اللامعة والغيوم الشفافة، في وقت يفتقد فيه المكان للسّحر ولا يعني سوى تألّق النهار نفسه وكأنّ السماء لن تظلم أبدًا، وكأنّه النهار خالد لا ينتهي.

كان الوقت على الطائرة غائبًا، لكنّه كان مهمًّا أكثر من أيّ شيء آخر في الآن ذاته.. شعرت أنّها تسافر عبر الزمان لا عبر المكان، جلست بين العديد من المسافرين الغائبين الحاضرين القابعين في انتظار وصولهم إلى وجهاتهم، ينتظرون مثل غاوري لحظة حصولهم على الحرية في بلاد لا ينتمون إليها.

أشعل ساباش مذياع السيارة لعدّة دقائق من أجل الاستماع إلى

الأخبار المحلّية ونشرة أحوال الطقس، ولم تتمكّن غاوري من فهم الكثير من تلك الأخبار رغم أنّها تلقّت تعليمًا إنكليزيًا ودرست في الجامعة البريطانية.

ثمّ شاهدت في نهاية المطاف خيولًا ترعى وأبقارًا متسمّرة بلا حراك وبيوتًا ذات نوافذ زجاجية مغلقة اتقاءً للبرد وأسوارًا مبنيّة من حجارة صغيرة، منخفضة جدًا بحيث يمكن القفز فوقها بيسر. كانت لها على ما يبدو وظيفة واحدة: بيان الحدود ما بين المنازل.

توقّفا عند إشارة حمراء معلّقة على سلك فوق الشارع، أشار إليها ناحية اليسار فشاهدت برجًا خشبيًا منتصبًا كسلّم داخلي لمبنى غير موجود. وخلف قمم أشجار الصنوبر، ارتسم خطّ داكن أفقيّ.. إنّه البحر.. أخيرًا.

ـ جامعتي في هذا الاتّجاه.

نظرت إلى الشارع الرمادي المسطّح الذي يحتوي على مسارين متعاكسين للسيارات.. ها هنا سترمي كلّ ما تحمله من الماضي.. ها هنا ستضع أوزارها خلفها.. ها هنا ستلد طفلها، في نعيم الجهل بماضيه.

اعتقدت أنّ ساباش سينعطف إلى اليسار باتّجاه الجامعة التي أخبرها عنها، لكنّهما انعطفا إلى اليمين عند اخضرار الضوء.

وصلا إلى الشقّة التي تقع في الطابق الأرضي. وفي القسم الأماميّ منها، كانت هناك حديقة يغطّيها بعض العشب ثمّ يوجد ممرّ إسفلتيّ يفصل البيت عن شقق مماثلة أخرى، منخفضة ومستطيلة الشكل مبنية بالقرميد كالثكنات العسكرية، وفي نهاية الطريق يوجد المرآب الذي يضع فيه ساباش السيارة وحاويات القمامة بالإضافة إلى غرفة صغيرة

تحتوي على غسّالات الثياب.

كانت أبواب المباني الرئيسية مفتوحة باستمرار تقريبًا، بعد أن قام الطلاب والأساتذة بإسنادها بأحجار لمنعها من الانطباق. أمّا الأقفال على أبواب الشقق فكانت هشّة، مجرّد أزرار صغيرة على مقابض الأبواب بدلًا من الأقفال الحديدية الثقيلة المعتادة عندها. لكنّها الآن في مكان لا يخشى أحد التّجوال فيه، حيث يتعثّر الطلاّب المخمورون طوال الليل أسفل الهضبة في طريق عودتهم إلى مهاجعهم. على أعلى التلّة، شاهدت غاوري مركز شرطة الجامعة، لكنّ الطلاب كانوا يغدون ويروحون على هواهم لغياب أيّ حظر تجوال أو مواجهات ما بين الطرفين.

أمّا الجيران فكانوا أزواج طلاّب دراسات عليا آخرين، وبعضًا من العائلات ذات الأطفال الذين لم يلاحظوا وجودها على ما يبدو. سمعت غاوري أصوات أبواب تُغلق أو رنين هاتف مكتوم من عند أحدهم أو خطوات أشخاص يستعملون السلالم.

آثرها ساباش بغرفة النّوم وأخبرها أنّه سينام على الأريكة التي يمكن فتحها لتحويلها سريرا. أنصتت عبر الباب المغلق لروتين صباحه الذي يبدأ مع رنين المنبّه، ثمّ صوت مروحة الحمام التي تسكت بعد انطلاق الماء في المرحاض، ثمّ صوت الماكينة الكهربائية التي يستعملها لحلاقة ذقنه.

لم يأتِ أحد لإعداد الشاي وترتيب الأسرّة وكنس الغرف كما هي العادة في الهند، قام ساباش بتحضير فطوره بنفسه على الموقد الكهربائيّ وتناول الشوفان مع الحليب الساخن.

سمعت صوت ارتطام الملعقة بشكل منهجيّ متكرّر بأسفل

الصحن عندما أنهى فطوره ثمّ صوت الماء ينهمر عليها لغسلها قبل جفاف البقايا، ثمّ صوت الملعقة على الطبق من جديد، وفي نفس الوقت، قرقعة البيض في الماء على النار لسلقه طعام الغداء الذي سيصطحبه معه.

شكرت الله على استقلاليته الواضحة واحتارت في الوقت ذاته، لأنّ أوديان كان ثوريًا بكلّ معنى الكلمة، لكنّه كان يتوقّع من الآخرين تقديم كلّ الخدمات له في البيت، وكانت مشاركته الوحيدة في وجبات طعامه هي الجلوس وانتظار وصول الطبق إليه عن طريق غاوري أو أمّه.

منحها ساباش تلك الاستقلاليّة أيضًا، فترك لها بعض الدولارات ورقم هاتف عمله على ورقة صغيرة ومفتاح صندوق البريد ونظيرا من مفتاح الشقّة. سمعت الصوت الذي انتظرته بفارغ الصبر قبل نهوضها من السرير، صوت قفل الباب الداخلي الأشبه بصوت قلادة معدنية مقطوعة، يُفتح.. ثمّ صوت انغلاق الباب بقوّة.

ربّما شعرت غاوري بطريقة أو بأخرى بالاعتزاز باتّفاقيتها مع ساباش، هذه الاتفاقية التي لم تكن لتثير عند أوديان سوى مشاعر الإعجاب والتقدير. لقد شعرت بالبهجة عندما هربت مع أوديان، لكنّها شعرت الآن بأنّها بالغت في تطرّفها إلى أقصى الحدود عندما وافقت على زواجها من ساباش والسفر معه إلى أمريكا مهما كانت دقّة حساباتها ودراستها للموضوع.

ومع ذلك، شعرت بأنّ الممكنات كلّها جائزة الحدوث بعد رحيل أوديان. تلاشت كلّ الخيوط التي كانت تحيط بحياتها السابقة ممّا أتاح لها الزواج بساباش مهما كان هذا الزواج بحدّ ذاته سابقًا لأوانه أو وليدًا من رحم اليأس.. لقد رغبت في مغادرة تولّيه غانج بكلّ جوارحها،

وأن تنسى كلّ حياتها الماضية، وقد منحها ساباش تلك الإمكانية. همست لنفسها بأنّه يمكن أن تتوصّل إلى حبّه في يوم ما بسبب الامتنان وحسب.. للخدمة الجليلة التي قدّمها لها.

اتّهم حمواها ساباش أيضًا بأنّه يريد الحلول مكان أخيه، لكنّهما لم يمنعاهما من إتمام الزواج بعد كلّ التنديد الذي واجهاهما به. لم يرفضا عقد القران وربما قدّرا اختيارهما هذا كما قدّرت غاوري موقف ساباش، لأنّهما فكّرا بلا شك في أنّهما سيتخلّصان من مسؤوليتهما تجاه غاوري وسيتحرّران من عبئها.. وهكذا، مع أنّها تغلغلت بعمق أكبر في عائلتهم، كانت قد ضمنت حريّتها بطريقة أخرى.

تمّ زواجها الثاني مدنيًا كالأوّل، وفي الشتاء أيضًا. حضر ماناش وحمواها دون أيّ فرد آخر من عائلتها لأنّهم رفضوا جميعًا مثل تلك الزيجة. أمّا أعضاء الحزب فقد استنكروا الزواج كحمويها لأنّهم توقّعوا منها الوفاء لذكرى أوديان واحترام استشهاده، دون أن يعرفوا أيّ شيء عن حملها لطفل أوديان لأنّها رغبت في إبقاء الأمر سرًّا عن الجميع فقطعوا صلاتهم بها وأدانوا زواجها الثاني واتّهموها بالفسق.

تزوّجت غاوري من ساباش لتستمرّ صلتها بأوديان، مع أنّها أدركت بفطنتها أنْ لا فائدة ترجى من ذلك، لا طائل من رغبتها تلك، كحال من يقرّر الاحتفاظ بقرط بعد فقدان توأمه.

ارتدت ساريًا عاديًّا وساعة يدها فقط دون أيّ زينة أخرى إلاّ قلادة بسيطة، ورفعت شعرها بنفسها وغادرت الحيّ للمرّة الأولى منذ خروجها للتسوّق مع حماتها لأجل العيد.

في المرّة الثانية، لم يُقم حمواها وليمة غداء بعد عقد القران ولم

تحصل على ملاءة قطنية جديدة كتلك التي نامت عليها للمرّة الأولى مع أوديان في بيت تشيتلا، عندما دفعهما البرد القارص لاحتضان بعضهما وانحسار الحياء الذي كان يميّزها مع تعاظم رغبتها بزوجها الحبيب.

اصطحبها ساباش بعد تسجيل الزواج لاستخراج جواز سفر ثمّ للقنصلية الأمريكية للحصول على فيزا فهنّأهما الموظف المسؤول مفترضًا بأنّهما سعيدان لإتمام الزفاف في ذلك اليوم. وعلّق بعد أن عرف مكان إقامة ساباش في الولايات المتحدة قائلًا: «لقد أمضيت الكثير من فصول الصيف في طفولتي في رودآيلند». ثمّ برّر ذلك بأنّ جدّه كان أستاذ الأدب في جامعة براون الموجودة في رودآيلند أيضًا، وتحدّث مع ساباش عن الشطآن والسواحل الموجودة هناك، ثم خاطب غاوري قائلا: «ستعشقين تلك البلاد». وسرّع الإجراءات وتمنّى لهما أفضل الأمنيات.

سافر ساباش بعد عدّة أيّام. ها هي وحدها مع حمويها مرّة أخرى، عاشا معها دون تواصل كالعادة، وتصرّفا كما لو أنّها غير موجودة، كما لو أنّها قد غادرت بالفعل.

عشيّة سفرها حضر أخوها ماناش لمرافقتها إلى المطار وتوديعها. انحنت غاوري لتقبيل قدمي حمويها اللذين ينتظران لحظة رحيلها ثمّ خرجت من بوّابة الفناء إلى سيارة الأجرة التي استحضرها.

غادرت تولّيه غانج، غادرت المكان الذي لم تشعر نحوه يومًا بأيّ ميْل، المكان الذي حلّت فيه لأجل أوديان فقط، وتركت خلفها غرفة نومها التي لن يستعملها أحد، الغرفة التي تستقبل نور الشمس الرائع ذاك، حيث حملت بطفلها.

وآخر ما شاهدته من كالكوتا هو منظرها في وقت متأخّر من

الليل، تجاوزت بهما السيارة الجامعة التي درست فيها وأكشاك الكتب والعائلات المشرّدة النائمة على أرصفة الشوارع، ومرّوا أيضًا من خلال التقاطع المحاذي لبيت جدّيها، المقفر تمامًا في مثل هذا الوقت، حيث قضت أغلب سني حياتها.

تراكم الضباب على الطريق السريع وهم يقتربون من المطار فاضطرّ السائق إلى تخفيف السرعة عندما أصبح عصيًّا على الاختراق، لم يتمكّن من القيادة بنفس السرعة السابقة، وظلّ يخفّف من سرعته حتّى توقّف تمامًا.. غلّفهم الضباب الكثيف.. ضباب أقرب إلى دخان نار موقدة مستعرة بلا حرارة.. وحدها كثافة الرطوبة هي التي كانت تحبس عليهم أنفاسهم.

إنّه الموت، فكّرت غاوري، هذا البخار الأثيريّ الذي لا يتزعزع، الذي أوقف كلّ شيء.. شعرت بأنّها عرفت الآن ما واجهه أوديان بعد الموت.

شعرت بالرعب لأنّها ظنّت بأنّها لن تتمكّن من الهرب. عادوا للتقدّم إنشًا إنشًا واضطرّ السائق للضغط على البوق باستمرار تلافيًا للاصطدام بسيارة أخرى إلى أن بدت لهم أنوار المطار الساطعة، فعانقت أخاها وقبّلته وأخبرته بأنّها ستفتقده، ستفتقده وحده. ثمّ جمعت حقائبها وقدّمت وثائقها للموظفين وصعدت إلى الطائرة.

لم يوقفها شرطيّ ولا جنديّ. لم يسألها أحد عن أوديان، لم يسبّب لها أحد أيّ مشكلة لأنّها كانت يوما ما زوجته. انقشع الضباب وسمح برج المراقبة للطائرة بالإقلاع، لم يمنعها أحد من الارتفاع فوق المدينة، إلى السماء السوداء الخالية من النجوم.

حمل التقويم المعلّق على جدار المطبخ صورة جزيرة صخريّة صغيرة لا تتّسع إلاّ لمنارة، وقرأت أسماء أعياد على التقويم مثل (أربعاء الرماد) و(عيد القدّيس باتريك). تتبّعت الأيّام حتّى العشرين من آذار، اليوم الذي كان أوديان سيبلغ فيه السابعة والعشرين من عمره، بداية الربيع الرسمية.

إلاّ أنّ برد الصباح في رود آيلند كان شديدًا عليها، شعرت بأنّها تلمس صفائحَ من جليد كلّما لمست زجاج النوافذ، صفائح جليديةً ناعمة متجمّدة.

اصطحبها ساباش في أحد أيّام السبت للتسوّق، فدخلا متجرًا مضاءً إضاءة جيّدة تضجّ فيه الموسيقى ولم يعرض عليهم أحد من الموظفين المساعدة. لم يبدُ لها أنّ إنفاقهما المال في المكان أو عدمه يهمّ أحدًا. اشترى لها معطفًا وزوجًا من الأحذية الثقيلة والجوارب السميكة وشالًا صوفيًا وقبّعة وقفازات.

لكنّها لم تستخدم تلك الأشياء لأنّها لم تخرج من البيت إلاّ عندما ذهبت معه إلى ذلك المتجر. بقيت في المنزل تستمتع بالرّاحة وتقرأ جرائد الجامعة التي يحضرها ساباش كلّ يوم، وتشاهد برامج التلفاز في بعض الأحيان، وتلك المرأة الشابّة التي تقابل العزاب الراغبين في مواعدتها، وبرنامجًا آخر عن زوج وزوجة يتظاهران بالخصام ثم يغنّيان الأغاني الرومانسية.

اقترح عليها بعض الأشياء التي يمكنها فعلها في أماكن قريبة من البيت، مثل الذهاب لحضور أفلام في دار سينما الجامعة أو متابعة محاضرة يقدّمها عالم أنثروبولوجيا شهير أو معرض عالمي للمنتوجات

الحرفيّة في اتّحاد الطلاّب، وذكر لها أسماء أفضل الصحف التي يمكن قراءتها في المكتبة العامّة والأشياء المتنوّعة التي يمكن لها أن تشتريها من المكتبة. وأخبرها عن نساء هنديات أخريات حضرن إلى المنطقة بعد وصوله بفترة لزواجهنّ من طلاّب دراسات عليا آخرين، حيث يمكنها إقامة صداقات معهنّ. وأضاف حينما أنهى عرض هذا الخيار الأخير بنبرة متودّدة: «عندما تشعرين بأنّك جاهزة لذلك».

كانت تعرف أوقات مغادرة ساباش وعودته بدقّة على عكس أوديان الذي لم يتمكّن أحد يومًا من التكهّن بمواعيده. كان ساباش يعود إلى البيت في نفس الوقت مساء كلّ يوم، وكانت تتّصل به في بعض الأحيان في مختبره لتخبره بنفاد الحليب أو الزّبدة أو أيّ شيء آخر. لم تتدخّل يومًا في موضوع الطهي لأنّه تعلّم إعداد وجبات العشاء بنفسه، فكان يُخرج المكوّنات من الثلاجة في الصباح لإذابة الثلج عنها ببطء خلال النهار قبل عودته.

لم تعد تتضايق من روائح الطعام كما حصل لها في كالكوتا، لكنّها كذبت عليه وأخبرته بأنّ الروائح ما زالت تزعجها لتحصل على عذر يخوّل لها البقاء في غرفتها طوال الوقت مع أنّها كانت تنتظر طوال اليوم عودته إلى المنزل وتشعر بالقلق في غيابه. ولكنّها كانت تتفاداه عند وصوله خشية الاقتراب منه بعد اقتران حياتيهما ومعرفته أكثر فأكثر بعد زواجهما العجيب هذا.

كان يقرع بابها ويناديها باسمها للالتحاق بمائدة العشاء بعد الفراغ من كلّ شيء، لتجد طبقين وكأسي ماء وطعامًا ما إلى جانب الأرز الذي كان يبرع في طهيه.

كانا يشاهدان الأخبار أثناء تناول الطعام، أخبار أمريكا دائما.. اهتمامات أمريكا، شؤونها ونشاطاتها.. القنابل التي يلقونها على هانوي والصاروخ الذي ينوون إطلاقه إلى الفضاء والحملات الانتخابية التي ستقام لاحقًا ذلك العام.

حفظت أسماء المرشّحين: ميسكي، مكلوسكي، مكوفرن، وأسماء الحزبين: الديمقراطي والجمهوري، وأخبار ريتشارد نيكسون الذي زار الصين قبل شهر وصافح ماو تحت أنظار العالم أجمع، لكنّهم لم يتحدّثوا أبدًا عن كالكوتا وما يقتلها، عمّا غيّر مسار حياة أهلها وحطّمها.. لم يتكلّموا عنه أبدا.

بينما كانت تضع الكتاب من يدها ذات صباح نظرت من خلال نافذتها إلى السماء فبدت رمادية كامدة تخلو من البريق، وانهمرت الأمطار بثبات وكآبة. فشعرت غاوري للمرّة الأولى بأنّها حبيسة ومحاصرة.

توقّف المطر بعد الظهر فارتدت معطفها فوق الساري وحذاءها المطريّ وقبّعتها وقفّازيها وخرجت. مشت على الرصيف الرطب إلى أعلى التلّة وانعطفت باتجاه اتحاد الطلبة فشاهدت الطلاب يدخلون ويخرجون، رجالًا يرتدون سراويل الجينز والسترات الرسمية، ونساء يرتدين تنانير قصيرة ضيّقة وسترات صوفية قصيرة، يدخّنّ ويتكلّمن معا بصوت مرتفع.

عبرت باحة الكليّة ومرّت من أمام أعمدة الكهرباء التي تحمل المصابيح الكرويّة الشّكل الكبيرة واكتشفت أنّ الطقس ألطف ممّا توقّعت وأنّها لم تكن بحاجة إلى القفازات والقبّعة، وشعرت بروعة النّسيم العليل بعد انقشاع المطر.

دخلت إلى متجر بقالة صغير مواجه للحرم الجامعي بجانب مكتب البريد فوجدت شيئًا يُدعى (الجبن الكريمي) بين الزبدة وعلب البيض، ملفوفًا بورق فضّي كلوح صابون، فاشترته ظنًّا منها أنّه شيء من مشتقّات الشوكولا وصرفت ورقة الخمسة دولارات التي أعطاها لها ساباش لأوّل مرّة وملأت جيبها بالباقي من العملة المعدنية.

وقفت في مرآب السيارات المحاذي للمتجر وفتحت الغلاف الفضي فوجدت فيه كتلة سميكة باردة وحامضة قليلًا، فقطعته وتناولته على دفعات. لم تكن تعرف أنّها تُدهن على الخبز المحمّص أو الطازج، تذوّقت الطعم الدسم الذي لم تتوقّعه أبدًا وأحبّته فلعقت البقايا العالقة بالورقة.

بدأت باكتشاف نواحي أخرى من الحرم الجامعي ودخلت وخرجت من عديد المباني والإدارات الموجودة حول الباحة، مثل كليّة الصيدلة واللغات الأجنبية والعلوم السياسية والتاريخ، ولاحظت أنّ الأبنية تحمل أسماء: واشبُرن، روزفلت، وإدواردس. واكتشفت أنّ أيّ شخص يستطيع الدخول إليها والخروج منها بلا مانع.

وجدت قاعات المحاضرات وصفوف الدراسة ومكاتب الأساتذة على طول الممرّات وجوانب القاعات وتأمّلت لوحات العرض المعلّقة على الجدران خلف علب زجاجية تحمل جداول الدراسة والمؤتمرات وتعلن عن الكتب التي يؤلّفها الأساتذة وينشرونها. لم يوقفها أيّ حارس عن الاستكشاف، لم يسألها أحد، لم يستجوبها أحد.. لم تجد حارسًا مسلّحًا خلف أكياس رمل تحصّن المداخل كما هو الحال أمام مدخل كليّة الرئاسة.

تظاهر الشيوعيون أمام المطار عند وصول روبرت ماكنمارا إلى كالكوتا ممّا اضطره إلى ركوب هيلوكبتر للوصول إلى مطار المدينة بعد عام من اندلاع أحداث ناكسالباري. لم يكن المتظاهرون ليتركوا سيارته وشأنها. كانت غاوري في الجامعة في ذلك اليوم بينما طارت الهيلوكبتر فوق شارع الجامعة، فرمى الطلاب الحجارة على أحد مباني الجامعة واحتجزوا نائب رئيس الجامعة في مكتبه وأحرقوا الترام المؤدّي إلى الكليّة.

وجدت في أحد الأيّام كليّة الفلسفة ودخلت مدرج محاضرات كبير يحتوي على مقاعد متدرّجة نحو الأسفل، وكانت الأبواب مفتوحة على مصراعيها بينما كان الطلاّب يدخلون باطّراد، فجلست في أحد الصفوف الخلفيّة في مكان عال بما يكفي للنّظر إلى قمّة رأس الأستاذ المحاضر وقريب بما فيه الكفاية من الباب لتتسلّل إلى الخارج في حال حاجتها إلى ذلك. كانت تحتاج إلى الجلوس بعد مشيتها الطويلة تلك وثقل حمْلها.

استرقت النّظر إلى كتاب الطالب المجاور لها فعرفت أنّه منهاج بسيط: مقدّمة للفلسفة الغربية القديمة.. هيراقليطس وبارمينيدس وأفلاطون وأرسطو. ومع أنّ معظم الموادّ كانت مألوفة لها إلاّ أنّها حضرت كلّ المحاضرة وأنصتت إلى شرح الأستاذ لمذهب أفلاطون في التفكير، الذي يعتبر أنّ التعلّم هو إعادة اكتشاف وأنّ المعرفة شكل من أشكال التذكّر.

كان المحاضر يرتدي ملابسَ غير رسمية، قميصًا قطنيًا وسروال جينز، وكان يدخّن أثناء المحاضرة. ولاحظت أنّ له شاربًا سميكًا بنّي اللون وشعرًا طويلًا كمعظم الطلاب الذكور لم يتكبّد عناء تصفيفه.

كان الطلاّب أيضا يدخّنون حولها، أو يحيكون الصّوف، وبعضهم كان مغمض العينين أو واقعًا في أحضان البعض الآخر، لكنّ غاوري وجدت نفسها مشدودة إلى المحاضرة ورغبت في تدوين بعض الملاحظات في النهاية ففتّشت في حقيبتها عن ورقة وقلم، وعندما لم تجد شيئًا دوّنت الملاحظات على هامش صحيفة الجامعة التي حملتها معها طوال النهار، ونقلت الملاحظات إلى كرّاسة وجدتها في الشقة مساء.

وراحت تحضر المحاضرات تلك خلسة مرّتين أسبوعيًا ودوّنت عندها عناوين النصوص لتقرأها فيما بعد وذهبت لإحضارها من المكتبة مستخدمة بطاقة ساباش لاستعارة الكتب من هناك.

فضّلت أن تبقى مجهولة، أن تحضر دون أن يلاحظها أحد، لكنّها رفعت يدها لا شعوريًا في أحد الأيام بينما كانت مستغرقة تمامًا في المحاضرة. كان الأستاذ يتحدّث عن قوانين المنطق عند أرسطو، عن مقياس تمييز الفكر الصالح من الفاسد. قالت حين أذن لها الأستاذ بالكلام وقد التفتت إليها جلّ العيون: «ماذا عن المنطق الجدليّ الذي يعترف بالتغيير والتناقض في مواجهة الحقيقة الواقعيّة؟ هل يجيز أرسطو ذلك؟».

ـ نعم. لكن لا أحد اهتمّ لذلك إلى أن بحث فيه هيجل.

أجاب الأستاذ عن سؤالها وكأنّها تلميذة نظاميّة أخرى، ثمّ غيّر سياق المحاضرة بشكل عفويّ آخذًا سؤالها بعين الاعتبار ومحترمًا النقطة التي طرحتها.

راحت غاوري تفعل كالطلاب الآخرين.. خرجت مثلهم لتناول الغداء بعد انتهاء المحاضرة في كافيتريا اتّحاد الطلبة، تطلب شطيرة

بطاطس مشويّة بالزبدة وكأسًا من الشاي ثمّ تتناول بعضًا من المثلّجات في بعض الأحيان.

وفي تلك الكافيتيريا، كانت هناك ساعة كبيرة معلّقة على الجدار القرميدي دون أيّ أرقام.. بضع خطوط معدنية معلّقة تتهادى العقارب ما بينها طوال النهار.

لكنّها ظلّت وحيدة. إنّها زوجة ساباش الآن لا أوديان، حتى الآن وهي في رودآيلند، في الجامعة التي لا يعرفها أحد فيها، كانت على أتمّ الجاهزية للاستجواب من قبل أيّ شخص.. للإدانة على ما قامت به، لتوجيه الاتهامات لها والدفاع عن نفسها.

استمتعت غاوري بإمضاء الوقت برفقة أناس يتجاهلونها رغم أنّهم يحيطون بها كلّ الوقت، أناس يخرجون إلى الشرفات للتنفّس والثرثرة والتدخين تحت الشمس، أو يجتمعون في الأروقة أو في الصالات أو غرف الألعاب لمشاهدة التلفاز أو لعب البلياردو.. شعرت غاوري وهي تتحرّك بينهم وكأنّها عادت إلى المدينة الصاخبة من جديد.

كانت الصالة التابعة لحمّامات النساء واحة غنّاء تتألّف من مساحة واسعة مغطّاة بالسجّاد الأبيض تحفّ بها المرايا على جميع الأعمدة والكثير من الأرائك للجلوس والاستراحة، ومنافض السجائر ما بين كلّ أريكة وأخرى. كانت أشبه بغرفة انتظار للشخصيات الكبرى في محطّة قطار أو ردهة فندق فخم، وكانت أكبر وأكثر رفاهية من الشقة التي تعيش فيها مع ساباش. كانت تجلس غاوري هنا أحيانًا فتستريح وتتصفّح الجرائد وتراقب النساء الأمريكيات اللواتي يأتين لتعديل وضع أحمر الشفاه أو تصفيف شعورهنّ.

وكانت صحيفة الجامعة تكرّس أعدادها أحيانًا لمواضيع معينة، كأن تكون أسود البشرة في أمريكا، أو معنى أن تكون امرأة أو مثليًا. كانوا يركّزون في مقالات طويلة على أشكال الاستغلال أو الهويّة الفرديّة. تساءلت عن موقف أوديان فيما لو قرأ مثل هذه المقالات.. هل كان سيسخر منهم لانغماسهم في الملذّات، ولاهتمامهم المتناقص شيئًا فشيئًا بتغيير حياة الناس مقابل تعاظم اهتمامهم بتطوير ذواتهم الأنانية.

سألتها طالبة مدخّنة تجلس بقربها في صالة النساء الخاصة في أحد الأيام: «متى سيولد طفلك؟».

ـ بعد بضعة أشهر.

ـ أنت معي في صفّ الفلسفة القديمة.. أليس كذلك؟

أومأت غاوري موافقة برأسها.

ـ كان يجب أن أتوقّف عن حضور تلك المادة.. أنا أرى أنّ المواضيع صعبة.

بدت لها الطالبة لا مبالية بما تقوله، بقرطها الفضّي الطويل وبلوزتها الرقيقة وتنّورتها القصيرة.. لم تكن تحيط جسدها بأمتار وأمتار من الحرير الذي يحيط بجسد غاوري ويغلّفها كالشرنقة كلّ صباح، إنّها ترتدي الساري منذ توقّفت عن ارتداء الفساتين عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. ثمّ تزوّجت أوديان وتابعت ارتداءها حتى الآن.

قالت الفتاة وهي تنهض للانصراف: «أنا أحبّ ملابسك..».

ـ شكرًا لك.

لكنّ غاوري شعرت بالانزعاج وهي تراقب الفتاة أثناء خروجها.. ألحّ عليها هاجس ولازمها: إنّها تريد أن تبدو كبقيّة النساء الموجودات

في الجامعة، كالنساء اللواتي لم تقع عليهنّ عينا أوديان يومًا.

حلّ نيسان، وراح الطلاّب يتجمّعون على المروج للترحيب بشمس الربيع، ملأت الأزهار البيضاء الأشجار المحيطة بمبنى اتحاد الطلبة، وفي أحد أيّام السبت شاهدت الطلاب يقفون في طوابير أمام الاتحاد مع حقائب صغيرة أو أكياس تحتوي على غسيل متّسخ، ثم استقلّوا حافلات فضّية كبيرة حملتهم بعيدًا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ذهبوا إمّا إلى بوسطن أو هارتفورد أو نيويورك. اعتقدت أنّهم ذهبوا لقضاء العطلة مع ذويهم أو زيارة أصدقائهم حتى مساء يوم الأحد.

ومع أنّها لم تكن تملك مكانًا آخر تذهب إليه إلاّ أنّها أحبّت مراقبة هذا الخروج الجماعي الأشبه بالطقس السنويّ. أحبّت مراقبة السائق وهو يتأكّد من وضع المسافرين وحقائبهم وأحبّت الطلاب وهم يتمركزون في مقاعدهم وتساءلت عن الأماكن التي سيزورونها خلال العطلة.

سألها أحدهم وهو يستعدّ لصعود الحافلة عارضا عليها مساعدتها: «هل ستصعدين؟». فهزّت رأسها بالنّفي وابتعدت عن الحشد.

حوّلها مستوصف الجامعة إلى طبيب توليد في المدينة فأخذها ساباش إليه بالسيارة. انتظرت في غرفة الانتظار حتى ناداها طبيب فضّي الشعر اسمه الدكتور فلين. كانت بشرته وردية وشابّة رغم سنوات عمره الكثيرة، وفي زاوية غرفة الفحص، وقفت ممرّضة بكلّ ثبات وفي منتهى الاستعداد. سألها الطبيب أثناء الفحص: «كيف تشعرين؟».

ـ أنا بخير.

ـ هل تنامين جيّدًا في الليل؟

ـ نعم.

ـ هل تأكلين جيّدًا؟ هل تشعرين بركلات الطفل خلال النهار؟

ـ نعم.

ـ هذه مجرّد بداية للمتاعب التي يسبّبها الأطفال.

قال الطبيب ذلك باسمًا وطلب منها العودة بعد شهر. وبمجرّد أن خرجت من المستشفى بعد انتهاء الفحص سألها ساباش: «ماذا قال الطّبيب؟» أخبرته بما قاله لها: طول الجنين قد بلغ 30 سم تقريبًا ووزنه رطلان. وأخبرته عن يديه اللتين تتحرّكان الآن وعينيه اللتين باتتا تميّزان الضوء وبقية أعضاء جسمه التي تتابع نموّها كالدماغ والقلب والرئتين لتحضيره للحياة خارجها.

قاد ساباش السيارة إلى السوبرماركت لابتياع بعض الحاجيات وطلب منها مرافقته إلى الداخل لكنّها رفضت فترك المفتاح في السيارة لتستمع إلى المذياع. فتحت غاوري تابلوه السيارة متسائلة عمّا يمكن أن يكون هناك، فوجدت خريطة ولاية نيوإنغلند ومصباحًا يدويًا ومكشطة للجليد وكتيّب تعليمات السيارة، ثمّ لفت انتباهها شيء آخر.. لاحظت غاوري رباط شعر مطاطي نسائي أحمر مزيّن ببريق ذهبي، لا يخصّها.

فهمت بفطنتها وجود امرأة أخرى قبلها، أمريكية.. احتلّت فيما سبق مكانها هذا في السيارة. وعرفت أنّ الأمور ما بينهما لم تنجح لسبب ما، أو أنّ ساباش ما زال يقابلها ليأخذ منها ما لم يكن يحصل عليه منها. تركت الرباط حيث وجدته ولم تشعر بحاجة تدفعها إلى سؤاله عن ذلك.

وعوض أن تشعر بالغيرة، شعرت بقليل من الفضول والراحة لأنّها لم تكن المرأة الوحيدة في حياته، وأنّها كانت بالنسبة إليه أيضًا بديلًا

عن شخص ما، وأكبرت فيه إخفاء الموضوع عنها وأحسّت بالامتنان له من أجل ذلك.

صادق اكتشافها هذا على صحّة قرارها بالزّواج منه، كما لو أنّها حصلت على درجة عالية في امتحان صعب الاجتياز، وسوّغت لها المسافة التي حافظت عليها ما بينهما منذ وصولها وأوحت لها بعدم حاجتها إلى محبّته في النهاية.

اصطحبها في عطلة نهاية الأسبوع إلى شاطئ المحيط ليشرح لها طبيعة المجال الذي كرّس حياته لدراسته عن قرب. عرض عليها رمال الشاطئ الرمادية الناعمة أكثر من حبيبات السكّر، انسابت تلك الرّمال من بين أصابعها عندما غرفت منها بكفّها.. شعرت بأنّها كالماء في تدحرجه على بشرتها. ثمّ عرض عليها أيضًا العشب النّامي على الكثبان الرملية في كتل متناثرة هنا وهناك والطيور الرمادية والبيضاء التي تسير بخطوات متباعدة ككبار السنّ على طول الشاطئ أو تغوص في البحر للصيد.

لم تكن الأمواج عالية في ذلك اليوم وكان لونها مائلًا إلى الحمرة في المكان الذي تتكسّر فيه على الصّخور. خلعت حذاءها كما فعل زوجها ووقفت على الصّخور القاسية وأعشاب البحر المرميّة على الشاطئ، فأخبرها ساباش أنّ المدّ يدفع بمستوى البحر إلى الداخل وأشار إلى الصخور الناتئة التي يقفان عليها وقال إنّها ستكون تحت مستوى سطح البحر خلال ساعة.

اقترح عليها المشي قليلا على الشّاطئ، لكنّ الرّيح هبّت فجأة ومنعتهما من التقدّم. فتوقّفت غاوري عن المشي بعد بضع خطوات

لأنّها شعرت بإرهاق لا يسمح لها بالمضي قدمًا عكس اتّجاه الرّيح، وببرد شديد على حدّ سواء.

انتشر الأطفال على الشاطئ هنا وهناك في ستراتهم الواقية من الرّيح والمطر، وراحوا يتسلّقون الصخور ويتراكضون على الرمال، وكان الوقت ما يزال مبكّرًا جدًّا على السباحة فراحوا يمضون وقتهم في حفر الحفر وبناء أبراج الرمال التي زيّنوها بالطين والحصى، فتساءلت وهي تراقبهم إذا ما كان ابنها سيلعب هكذا ويفعل كما يفعلون في المستقبل.

سألها ساباش وكأنّه كان يقرأ أفكارها: «هل فكّرت في اسم مناسب له؟»، فهزّت رأسها بالنّفي.

ـ ما رأيك باسم بيلا؟

شعرت غاوري بالضّيق من الاقتراح لا من الاسم ذاته لكنّها لم تفكّر بالفعل في اسم مناسب لطفلها من قبل.

ـ ربّما.

ـ لا يمكنني التّفكير في اسم مذكّر مناسب.

ـ لا أعتقد أنّي سأنجب صبيًّا.

ـ لمَ لا؟

ـ لا يمكنني تخيّل ذلك.

ـ هل أنتِ أفضل حالًا هكذا يا غاوري؟

ـ ماذا تعني؟

ـ هل أنت أفضل حالًا هنا؟

لم تجبه في البداية ثمّ قالت: «نعم.. الحال هنا أفضل». صمتت برهة ثم أضافت:

«كان يفترض بأخيك أن يأتي أيضًا إلى هنا، وكان يفترض به تحمّل مسؤولية طفله أيضًا.. سواء أرغب في إنجابه أم لم يرغب».

ـ سيكون طفلي أنا يا غاوري.. أعدك بأنّه سيكون طفلي على الدوام.

لم تجد غاوري كلمات مناسبة تصف امتنانها له بسبب ما تتجشّمه من أعباء، ولم يكن باستطاعتها أن تشرح له الميزات التي يتفوّق فيها على أوديان. لم تتمكّن من إخباره بأنّها تعرف نيّته الصادقة في حمايتها حتّى لا يندفع فيغيّر نظرته إليها.

نظرت إلى آثار أقدامهما على الرمال المشابهة لآثار قدمي أوديان الصغيرتين المحفورتين أبدًا على إسمنت فناء منزل الأهل في تولّيه غانج.. لقد اختفت آثارهما بالفعل بسبب المدّ المتسارع نحو الداخل بينما ستبقى آثار أوديان صامدة على مرّ الزمن.

2

بدأ ساباش متابعة دروسه بعد بداية الفصل الدراسي الجديد بأسبوعين بسبب انتقالهما إلى شقّة مفروشة خاصّة بالطلاّب المتزوّجين وعائلاتهم، فانهمك في شراء أغطية وشراشف جديدة مناسبة لفراش مزدوج واتصل بالباعة الذين ينقلون البضائع إلى المنازل فاقتنى الكثير من حاجات المنزل الأساسيّة لغاوري من أطباق وقدور طهي بالإضافة إلى نبتة خضراء في وعاء ثمين من حجر اليشب الياباني الجميل وتدبّر تلفازًا أبيض وأسود على طاولة متحرّكة.

لم يلمح من جسدها سوى القليل بعد خروجها من الحمام، وقد تعلّم من مُساكنته لريتشارد كيفيّة تقاسم المساحة مع شخص آخر دون المسّ بخصوصيّته. كان يخرج مثلا ملابس اليوم التّالي من دولاب غرفة النّوم في المساء كي لا يزعجها في الصّباح.

وكان يشعر أحيانًا ببابها يفتح أثناء اللّيل لدخول الحمام أو لشرب الماء، فكان يحبس أنفاسه حينما تستعمل المرحاض. شاهد ذات مرّة، في ضوء الفجر الشّاحب، شعرها المنسدل وقد تحرّر من الرباط الذي تحيطه به دائما لتبقيه مربوطًا في شكل حبل غليظ يتدلّى على ظهرها كما تتدلّى أفعى كبيرة من غصن شجرة. عبرت غاوري حجرة المعيشة متجاهلة حضوره تجاهلا تامّا.

تمنّى ساباش أن تتغيّر الأحوال مع الوقت بعد ولادة الطفل. وأن يجمعهما هذا الطفل كوالدين في البداية، ثمّ كزوج وزوجة حقيقيّين.

سمعها مرّة أخرى تهذي في كابوس أصابها أثناء النّوم، فاجأه صرير أسنانها في صرخة مكتومة وفم شبه مغلق، صرخة غاضبة غير مفهومة فاعتدل جالسًا على الأريكة وأنصت لمعاناتها واستعادتها اللاّوعية للحظة استشهاد أخيه.. ربّما. وانتظر في صمت حتى انتهى الكابوس.

صادف ناراسيمهان على حين غرّة، فأخبره بآخر المستجدّات بعد إلحاح زميله في السّؤال عن أخباره. أخبره أنّه على وشك الانتهاء من دراسته العمليّة للخضوع لامتحان التخرّج في الربيع وأنّ أخاه قد توفّي في الهند وأنّه قد اتّخذ زوجة، وهي تنتظر الآن مولودًا. لم يخبره عن الصّلة التي تربط زوجته بأخيه، لم يقل له إنّه تزوّج امرأة أخيه في الحقيقة.

ـ هل كان أخوك مريضًا؟

ـ لقد قُتل.

ـ كيف؟

ـ أطلقت الشّرطة عليه النار، لقد كان ناكساليًا.

ـ تعازيّ الحارّة لك. خسارة فظيعة. ولكنّك ستصبح أبًا الآن.

ـ نعم.

ـ اسمع.. أنت موجود هنا منذ وقت طويل ولم نتبادل الزيارات.. ما رأيك لو تزورنا أنت وزوجتك في منزلنا لتناول العشاء؟

قرأ ساباش العنوان المكتوب على مغلّف وتاه قليلًا بين الشوارع المتشابهة الغريبة عنه، لأنّ البيت كان في نهاية طريق طينيّ وسط الغابات، ولم تكن له حديقة أماميّة رسمية، ثمّ إنّه كان وحيدًا هكذا بين

الأشجار بلا أيّ جيران.

كان ساباش وغاوري زوجين من بين أزواج آخرين مدعوين للعشاء في ذلك اليوم، وكان لبعضهم أطفال خرجوا للّعب مع أولاد ناراسيمهان والركض حول المنزل. قدّم المضيّفان ساباش وزوجته للضيوف الآخرين الذين كان معظمهم طلاّبًا متخرّجين من قسم الدراسات العليا في الهندسة والرياضيات. وأحضرت زوجات بعضهم أطباقا تقليلدية أعددنها بأنفسهنّ في البيت مما أضفى على عشاء الباستا والسّلَطة التي أعدّتها كيت لذّة رائعة.

احتشدت غرفة المعيشة الخشبية بالمدعوّين على العشاء، وقوفًا وجلوسًا، وراحوا يتكلّمون وهم يحملون الأطباق بين الرفوف التي تحمل الكتب والنباتات المعلّقة في حوامل قماشية محبوكة يدويًا تتدلّى من السقف وألبومات الموسيقى المكدّسة بجانب الطاولة المتحرّكة. كانت النوافذ خالية من الستائر ممّا منحهم إطلالة رائعة على الأشجار المحيطة بالمنزل. أمّا الجدران فكانت تحمل لوحات تجريدية جريئة الألوان رسمتها أنامل كيت.

شعر ساباش بالارتياح لمخالطة غاوري للنّساء وهي ترتدي ساريًا جميلًا لا يخفي حملها، وشاهد بعض النّسوة وهنّ يتحسّسن الجنين بأناملهنّ، ثمّ سمع حديثهنّ عن الأطفال ووصفات الطعام وتنظيم مهرجان عيد ديوالي في الجامعة العام المقبل فشعر بالسعادة والامتنان لمرافقتها له ولمعرفته بأنّه سيغادر معها أيضًا، لأنّهما استُقبلا كذات واحدة وسيودّعان على هذا الأساس.

لم يشكّ أحد بحقيقة زواجهما ونسب طفلها إليه. تمنّى لهم الجميع

أفضل الأمنيات وأهدوهما الكثير من الملابس الصغيرة الخاصّة بحديثي الولادة التي استعملها أطفال ناراسيمهان مرّة واحدة لا غير حين ولادتهم.

وفي رحلة العودة، ظلت غاوري صامتة طوال الوقت. لقد أمضت طريق الذهاب عصرًا في قراءة أحد كتبها، لكنّها لم تجد ما يلهيها بعد حلول الظلام في رحلة العودة.

ـ بدت النساء ودودات.. هل تعرّفت عليهنّ؟

ـ لا أذكر أسماءهنّ.

تلاشت الحماسة التي رافقتها أثناء وجودها بين الناس وغلبها التّعب، فاعتقد أنّها لم تقض وقتًا جيّدًا، ولربّما أزعجها شيء ما، ثمّ جال في خاطره أنّها قد تكون متظاهرة بغير ما تشعر به بدافع التكبّر فقط، فأصرّ وسألها من جديد: «ما رأيك بدعوة بعضهم إلى منزلنا في المستقبل؟»

ـ الأمر يعود إليك.

ـ قد يساعدوننا بعد ولادة الطفل.

ـ لا أحتاج إلى نصائحهنّ.

ـ أعني مجرّد حضورهنّ لمصاحبتك ومرافقتك.

ـ لا أريد إمضاء الوقت معهنّ.

ـ لمَ لا يا غاوري.

ـ لا توجد قواسم مشتركة بيني وبينهنّ.

عاد ساباش إلى البيت بعد بضعة أيّام فلم يجدها جالسة في غرفة المعيشة تقرأ أو تكتب أو تشرب الشاي، فقرع باب غرفة النّوم، ولمّا

مرّت لحظات ولم يأته ردّ فتَحه. لم يجدها في الغرفة المظلمة. ناداها فلم تجب. رجّح أنّها ربّما خرجت للتنزّه مع أنّ الظّلام قد حلّ والوقت قد قارب موعد العشاء، وهي أصلا لم تذكر له شيئًا عن رغبتها في الخروج عندما اتّصل بها قبل بضع ساعات للاطمئنان عليها.

ذهب إلى المطبخ لإعداد الشاي فخطر له بأنّها تركت رسالة في مكان ما، ثمّ اجتاحه الرّعب بشكل مفاجئ خوفًا من مكروه ما قد يكون حلّ بالجنين فتفقّد الحمّام ثمّ عاد إلى غرفة النّوم وأشعل النّور.

وجد المقصّ على طاولة الزّينة مع خصلات مقصوصة من شعرها، وفي الزّاوية، وجد كلّ أزياء الساري الخاصّة بها وكلّ بلوزاتها وملابسها مقصوصة إلى شرائط طولية وعرضية بقياسات مختلفة كما لو أنّ حيوانًا قد مزّقها شرّ تمزيق بأنيابه ومخالبه. فتح أدراجها فوجدها خالية.. لقد مزّقت كلّ شيء.

سمع صوت مفتاحها في القفل بعد عدّة دقائق فنظر باتّجاه الباب ليرى شعرها القصير المقصوص بمحاذاة فكّها محيطًا بوجهها بشكل مأسويّ، وكانت ترتدي سروالًا ضيّقًا وبلوزة رمادية قطنيّة ضيّقة مزمومة على بطنها، فتأمّل شكل وركيها البارزين ثمّ أشاح بنظره بعيدًا رغم صورتها الجديدة التي عشّشت في رأسه، صورة ثدييها الناهدين.

ـ أين كنتِ؟

ـ ركبت الحافلة من أمام اتّحاد الطلبة إلى البلدة واشتريت بعض الأشياء.

ـ لماذا قصصتِ شعركِ؟

ـ تعبت منه.

ـ وملابسكِ؟

ـ مللتُها أيضًا.

راقبها تدخل غرفة النّوم دون الاعتذار عن الفوضى التي سبّبتها، ووضعت الملابس التي اشترتها في الدولاب ثمّ ملأت قصاصات الملابس القديمة في أكياس المهملات فغضب منها للمرّة الأولى لكنّه لم يجرؤ على الإفصاح عن مشاعره. لم يخبرها عمّا أهدرته بتخريبها للملابس بهذا الشكل أو الاضطراب الذي شعر به بسبب تصرّفاتها تلك وشعوره بأنّ سلوكها التخريبي الهدّام هذا قد يؤثّر سلبًا في الطفل.

حلم بغاوري لأوّل مرّة في تلك الليلة، بغاوري الجديدة ذات الشعر القصير والملابس الرياضية، حلم بأنّهما معًا تحت طاولة الطعام، وأنّه يقبّلها كما كان يفعل مع هولي على الأرض الرخامية الصّلبة.

استيقظ مضطربًا مهتاجًا وحيدًا على أريكة غرفة الجلوس.. غاوري نائمة خلف باب غرفة النوم الموصد.. إنّهما متزوّجان، إنّها زوجته الآن ومع ذلك.. شعر ساباش بالذّنب جرّاء تفكيره فيها بهذه الطريقة.

عرف ساباش أنّ الوقت ما يزال مبكّرًا وأنّه سيرتكب خطأ بالاقتراب منها قبل ولادة الطّفل، لقد ورث زوجة أخيه، وسيرث طفله في الصيف أيضًا، لكنّ رغبته الفيزيولوجيّة فيها أيقظته من نومه في الشقة التي كانا يتقاسمانها، يعيشان فيها معا منفصلين، ولم يتمكّن من إنكار وجودهما معًا في بيت واحد أكثر من ذلك.

3

بدأت بإمضاء وقت أطول في المكتبة مع اقتراب الصيف لأنّها كانت مكيّفة. هناك بإمكانها أن تكون مجهولة ومجتهدة في الوقت ذاته، وأن تركّز على الأوراق المفتوحة أمامها فقط دون التّفكير في أيّ شيء آخر.

وبجانبها كانت هناك نافذة مستطيلة الشكل تمتدّ من الأرض حتّى السقف وتطلّ على الحرم الجامعيّ، تخلّلت أشعّة الشمس قمم الأشجار التي أورقت واخضرّت خلال أسابيع قليلة. نظرت إلى الغابات والحقول المحيطة بالجامعة ثمّ تأمّلت ساحة الجامعة المحاطة بحبال بيضاء حيث مُدّت المئات من الكراسي القابلة للطيّ في صفوف طويلة تحضيرًا لحفل التخرج.

أمّا بعد حلول حزيران، فلم يبق أحد غيرها.. انتهى العام الدراسي واختفى الطلاب وسكنت الجامعة كليًّا، ولم تسمع غاوري سوى رنين ساعة الجامعة الكبيرة المعلّقة على برج حجريّ كبير لتذكّرها بمرور ساعة أخرى، وصوت العجلات المطاطية أسفل العربة الخشبية التي تُنقل فيها الكتب داخل المكتبة إلى أماكنها.

كانت الشخص الوحيد تقريبا الموجود في الطابق الأشبه بأجواء المستشفيات من ناحية التنظيم والنظافة، بينما ترتفع السلالم، في وسط البناء، توحي درجاته الصّغيرة القليلة السُّمك المغطاة بالمطّاط بأنّ

بعضها مفصول عن بعض وكأنها تطير في الهواء لتبلغ أعلى البناية.

جلست على مقربة من قسم الفلسفة كما كانت تفعل دائما، لتقلّب الكتب في ارتياح، فقرأت مؤلّفات هوبس وحنّا آرندت وسجّلت الملاحظات قبل إعادة الكتب إلى المكان الذي أخذتها منه بدقّة. كانت تستكين لأزيز الأضواء المستمرّ الصادر عن لوحات نيون مربّعة الشّكل عملاقة تشبه مكعّبات الثلج في الثلاجة، محاصرة من ثلاث جهات بجدران المقصورة الخشبيّة التي تجلس فيها وبظهر الكرسيّ الخشبيّ الذي تجلس عليه من الطّرف الرابع، بينما يعشّش الطفل داخلها ويمنحها نعمة الرّفقة رغم أنّه لم يكن له وجود حقيقيّ ملموس.

أمّا بعد حلول تموز، فقد كان العرق يغطّيها بعد خطوات من مغادرتها للمنزل ويتدحرج في خطوط مستقيمة على ظهرها لشدّة الرطوبة في الهواء وكأنّ السّماء كانت مثقلة بمطر ترفض الإفراج عنه. أمّا الحرارة المرتفعة فقد بدت لها وكأنّها تُخرس كل الأصوات الأخرى.

لقد عاشت طوال فترة طفولتها في طقس شبيه بهذا، لكنّها صُدمت بهذه الحرارة بعد أن عاشت أشهرًا من الشتاء القارص، وشعرت بأنّ الحرارة لا تصدّق رغم اعتيادها عليها فيما سبق.

كانت بعض أبنية الحرم الجامعي والمهاجع ومكاتب الإدارة قد أغلقت بسبب انتهاء الموسم الدراسيّ فتسنّى لها المشي في الجامعة، من المكتبة إلى الشقّة دون الالتقاء بأحد وكأنّها تمشي في وقت اعتصام أو حظر تجوّل. أنصتت في تجوالها إلى صياح الجنادب التي تعيش على أغصان الأشجار، وأصواتها المرتفعة بالتدريج كصفّارات متلاحقة

تتسارع بلا انقطاع. وكانت هذه الأصوات هي الوحيدة التي تشتّت الانتباه وتتسلّل إلى الآذان في ذلك المكان الهادئ.

باغتتها التقلّصات في المكتبة قبل ثلاثة أيّام من الميعاد الذي توقّعه الدكتور فلين، فشعرت بضغط بين قدميها وبرأس الجنين ككرة رصاصية تزن عشرة أضعاف وزنها الحقيقي، فعادت إلى الشقّة وحزمت حقيبتها ثمّ انتظرت عودة ساباش القريبة.

أحسّت أنّ التقلّصات العنيفة تكاد تقصم ظهرها نصفين لم تتمكّن من الوقوف باستقامة، فتمسّكت بحامل المنشفة الأفقيّ في الحمّام حتّى كاد ينخلع من مكانه. وعندما وصل ساباش، أحاطها بذراعه ورافقها إلى السيارة ووقف معها عندما اضطرّت للتوقّف بسبب تقلّص جديد ممّا دفعها إلى الضّغط على يده بشدّة إلى أن زال الألمُ.

تمسّكت غاوري بتابلوه السيارة بقوّة لأنّها الطريقة الوحيدة التي تمكّنت بفضلها من احتمال الرحلة إلى المشفى دون أن يتمزّق جسدها إلى نصفين.

أفرجت السّماء عن وابل من المطر الصيفيّ الحارّ ممّا أجبر ساباش على التمهّل لرؤية طريقه من خلال حبال الغيث الغزير التي منعته من رؤية أيّ شيء على بعد بضعة أقدام من زجاج السيارة.. ولسبب ما ظنّت غاوري بأنّ ساباش قد فقد السيطرة على السيارة وأخذها إلى الاتّجاه المعاكس.

تذّكرت الضباب الذي حاصرهم في طريقها إلى المطار ليلة مغادرتها لكالكوتا. كانت توّاقة في تلك الليلة للمضيّ قدمًا والخروج من الضباب، أمّا الآن، ورغم الألم واستعجال بلوغ المشفى، فإنّ جزءًا

منها كان يودّ التوقّف، يتمنّى استمرار حملها، يرجو توقّف الألم وبقاء الطفل حيًّا فيها، لتأجيل قدومه قليلًا.

لكنّ ساباش انحنى إلى الأمام قدر المستطاع وتابع قيادة السيارة بلا توقّف ممّا سبّب تطاير الماء على جانبي عجلات السيارة إلى أن لاح لهما المشفى القابع أعلى التلّة القريبة على مرمى البصر.

ولدت غاوري بنتًا، كما توقّعت دومًا، فشعرت بالارتياح لتحقّق أملها ولعدم ولادة نسخة صغيرة من أوديان لهذا العالم ولها.. ومن ناحية أخرى كان اختيار ساباش اسما للمولودة أمرا مرضيّا ومشرّفا.

صّرت أسنانها وهي تدفع بابنتها إلى الحياة، اهتزّ جسدها تحت عصف الألم، لكنّها لم تصرخ. ولدت في الثامنة مساء قبل هبوط الظلام، وبعد انقطاع المطر. قطعوا الحبل السرّي.. وفصلوا عنها وليدتها بكلّ بساطة، أحاطت الممرّضات بها لتسجيل وزنها وبصمتها وتنظيفها وتدفئتها. وبعد قليل، عندما نادوا على ساباش من غرفة الانتظار، وضعت الممرّضات بيلا بين ذراعيه لأوّل مرّة.

حلمت بنوارس تتصارع بشراسة على شاطئ رود آيلند إلى أن سالت منها الدّماء وتناثرت ريشاتها في الهواء، ثم سقطت أجنحتها على الرمال. مرّة أخرى، كما جرى بعد موت أوديان، شعرت بوعي حادّ بمرور الزمن، بالمستقبل الذي يلوح في الأفق، والمتسارع أبدًا. عمر الطفلة القصير الذي ينهي حياتها السابقة ويتجاوزها، يتخطّاها. إنّه حال الأمومة.

أحاطا بها بعد عودتهما إلى البيت، كلّ على طريقته. وفي البداية، رفضت غاوري أن يشاركها الاعتناء ببيلا، رفضت أن يقتحم دائرة

تجربتها التي لا تعني أحدا غيرها. إنّه زوجها.. نعم، لكنّه ليس والد بيلا، رغم أنّها تعلم أنّ وجود اسمه على شهادة الميلاد لن يدع مجالًا للشكّ في حقيقة أبوّته للطّفلة.

نامت بيلا بعد تناولها الحليب من صدر أمّها، لأنّه كان الشّيء الوحيد الذي تطلبه من الدنيا، ضمّتها غاوري، ضمّت إليها الرأس الخالي من أيّ شيء وفكّرت في قلبها الذي لا يتعدّى كوْنه آلة لضخّ الدّماء إلى بقيّة أجزاء جسدها الصغير.

لم تكن تطلب سوى القليل، ومع ذلك كانت تطلب كلّ شيء. لقد استنفدت بيلا كلّ ذرّة من وعي غاوري وإدراكها وطاقتها، امتصّت كلّ ذرّة من جسد غاوري وكلّ خليّة من خلاياها، ممّا أثبت لها صحّة كلام الممرّضة في المشفى عندما أخبرتها بأنّها لن تتمكّن من القيام بواجبات ابنتها وحدها. كانت تنام ملء جفنيها كلّما مدّ ساباش يد المساعدة، أو تستحمّ أو تشرب فنجان شاي ساخن. كان ساباش يحمل بيلا لتهدئتها عندما تبكي كي لا تضطرّ غاوري إلى فعل ذلك، ولا يمكنها إنكار الراحة التي تشعر بها عند الخروج من البيت لتغيب فترة قصيرة.

كانت بيلا تنام بين وسادتين دون حراك إلى أن تستيقظ وتدير رأسها وعينيها المتعبتين ما بين زوايا الغرفة وكأنّها على وعي باختفاء شيء مهمّ كانت قد ألفتْه.

وعندما كانت تنام، كانت تبدو وكأنّها تتنفّس من كلّ أنحاء جسدها كحيوان أليف صغير أو آلة، وقد فُتنت غاوري بهذا ثمّ قلقت لأنّ طفلتها تبذل مجهودًا لتناول كلّ شهيق، الواحد تلو الآخر طوال الوقت، لتتنفّس الهواء الذي تشترك فيه مع كلّ سكّان الدنيا.

شعرت غاوري أثناء حملها بأنّها قادرة على القيام بمهامّها كأمّ على أكمل وجه، لكنّها أدركت بعد الولادة أنّ أيّ إهمال من قبلها قد يؤدّي إلى موت ابنتها. شعرت بالرّعب أثناء خروجهم من المشفى، وعند عبورهم الردهة المفضية إلى مرآب السيارات وتلك التي تعجّ بالنّاس الداخلين والخارجين دون أيّ اكتراث بوليدتها. شعرت بالرّعب لأنّها أدركت بأنّ أمريكا هي بلاد خطيرة على ابنتها كما هو حال أيّ بلاد أخرى، وأدركت أنْ لا أحد في هذه الدنيا بإمكانه أن يدفع الأذى عن بيلا غير ساباش.

بدأت تتصوّر أحداثًا لا مبرّر لها، تصوّرت رأس بيلا معقوفًا نحو الخلف وتخيّلت احتمال انكسار رقبتها. وعندما غرقت بيلا في النّوم حاولت غاوري النوم أيضًا دون أن ترفع فم بيلا عن صدرها بعد أن غفت وهي ترضع، لكنّ صعوبة تنفّسها منعت غاوري من الغرق في النوم. في الليل، عندما كانت تسهر معها وحيدة في غرفة النوم، خشيت غاوري من سقوط بيلا من السرير أو أن تنقلب هي بنفسها فوقها بكلّ بساطة وتخنقها.

وعندما خرجا معها في نزهة للمرّة الأولى من البيت وقفت غاوري على شرفة اتّحاد الطلبة وهي تحملها بين ذراعيها بانتظار أن يحضر لها ساباش بعض المرطّبات. وقفت في البداية على طرف الشرفة، ثمّ تراجعت خوفًا من فقدان السيطرة على ذراعها وإسقاط ابنتها إلى الأسفل. ومع أنّهم كانوا يتنزّهون في يوم صيفيّ قائظ جدًّا، إلاّ أنّها خشيت أيضًا هبوب ريح مفاجئة تخلع بيلا من بين يديها.

أفلتت غاوري لاحقًا في ذلك المساء قبضتها من خلف رقبة بيلا

لترى ما يمكن أن يحدث فحافظت الصغيرة على وضع رقبتها بسبب غريزة البقاء وأفاقت من نوم عميق كانت تهنأ به لتعترض على انسحاب يد أمّها من تحت رأسها. وهكذا، لم تجد غاوري سوى وسيلة واحدة للتخلّص من مخاوفها وهواجسها: التقليص من قلقها على ابنتها بإفساح المجال أمام ساباش للمساهمة في العناية بها كأن تطلب منه حملها بدلًا عنها متى أتيحت لها الفرصة لذلك.

طمأنت نفسها بأنّ كلّ الأمّهات يحتجن إلى المساعدة وذكّرت نفسها بأنّ الطفلة هي ابنتها وابنة أوديان، وأنّ مساعدة ساباش لها هي دور من الأدوار التي يقوم بها وفاء لذكرى أخيه. أنا الأمّ.. همست لنفسها، ولا يجدر بي أن أعقّد الأمور على هذا النّحو.

راح ساباش يدخل الغرفة دون استئذان كلّما استيقظت بيلا في منتصف الليل ليحملها ويمشي بها في أنحاء الشقّة. لم يكن يتصوّر مدى ضآلة حجمها، واعتاد القول بأنّ وزنها ناتج عن الأغطية الملفوفة حولها لا أكثر.

بدا لهما أنها بدأت تميّز وجهه وتقبله وتسمح له بإزاحة حقيقة أنّه عمّها جانبًا، حقيقة أبوّته المزيّفة، فكانت تستجيب لصوته عندما يكلّمها وهي متكوّمة في حضنه، في العشّ الذي يبنيه لها من ذراعيه وساقيه، فتستلقي في حضنه بسعادة وتبحث عنه بعينيها. أمّا ساباش، فكان يشعر بأنّه وجد أخيرًا هدف حياته، وشعر بأهمّية وجوده لدعم حياتها التي أخذت في النموّ.

أطفأ التلفاز في إحدى الليالي ودخل غرفة النّوم حاملًا بيلا، وكانت غاوري نائمة فاستلقى على الجانب الآخر من السرير وأبقاها

فوق صدره وحافظ على وضعيّة رأسها الأسمر الصغير حتى تعود للنّوم.

ظلّ ساباش مستلقيًا فوق الأغطية وعيناه مفتوحتان في الظلام، ومع أنّ بيلا كانت تنام فوق جسده إلاّ أنّ إحساسه بغاوري التي لم تعد حاملًا كان أعظم، كان أشدّ وأكثف. تعجّب ساباش من قدرة هذا الجسد على انتاج الكائن الصغير المستلقي فوقه، والذي لا حول له ولا قوّة، على خلق خدّ ناعم كهذا المستريح قرب قلبه.

لم يجد بيلا على صدره عندما فتح عينيه بل وجدها بجانبه ترضع من صدر غاوري، وكانت الغرفة مظلمة والستائر مسدلة والطيور تزقزق، كما كان جسده دافئًا بذات الملابس التي كان يرتديها في اليوم السابق.

ـ كم السّاعة؟

ـ إنّه الصباح.

لقد غرق في النّوم.. وأمضيا الليل في السرير نفسه معا على الملاءات ذاتها، مع وجود بيلا ما بينهما.

اعتدل جالسًا عندما أدرك ما جرى واعتذر واستعدّ للنهوض، لكن غاوري هزّت رأسها نافية عنه الحاجة للاعتذار وهي تنظر إلى بيلا. وفجأة، نظرت إليه ومدّت يدها لا لتمسك به، بل لتشير له بالبقاء: « ابقَ هنا».

أخبرته أنّها شعرت بالاطمئنان لوجوده معها في الغرفة، وأنّها جاهزة الآن لاستقباله، لقد مرّ ما يكفيها من وقت لكي تقبل بوضعها الجديد معه.

سهّل مظهرها المختلف الآن الموضوع على ساباش، بشعرها القصير ووجهها الذي عاد إلى نحوله بعد ولادة الطفلة وملابسها الغربية التي ترتديها الآن بالإضافة إلى آثار الولادة عليها، للهالتين السوداوين اللتين تحيطان بعينيها ورائحة الحليب المنبعثة من جلدها. لقد فقدت غاوري آثار أوديان عليها واكتسبت بصمات الرضيعة التي يتشاركان أبوّتها الآن.

لم تعبّر له عن رغبة واضحة، بل أعربت عن قبولها فقط ومع أنّه شعر بلا مبالاتها وبعدم وضوح رغبتها العمليّة للقبول بالعلاقة الزوجية التي لا بدّ أن تجمعهما يومًا، إلاّ أنّه امتلأ بالحماس، فابتاع مهدًا لبيلا ليكون السرير لهما وحدهما كلّما نامت.

استلقت غاوري بجانبه على ظهرها أو على جنبها وأغلقت عينيها فاقترب منها وضجر من احتمال رفضها له واستحالة السكن إليه مهما طال الزمن، حتّى وهو يتنفّس رائحة شعرها ويضمّها إليه بكلّ ما أوتي من حبّ.

أدهشه لون بشرتها المتماثل في كلّ أنحاء جسدها وملمسها المختلف كليًا عن ملمس هولي ولونها المختلف ما بين أعضاء جسمها، وكأنّ جسدها كلّه كان كالخاصرة التي لا ترى الشمس أبدًا.

لم تكلّمه، لكنّها كانت تقترب منه أكثر فأكثر في المرّة تلو الأخرى، وشعر ساباش بأنّه يعيش معها للمرّة الأولى دون أدنى مقاومة منها.

4

بدأت بيلا تتذكّر أحداث الماضي عندما بلغت الرابعة من عمرها، دخلت كلمة (البارحة) قاموس مفرداتها، إلاّ أنّها استعملتها بمعناها المطّاط لتعبّر عن أيّ شيء لم يعد موجودًا، فراحت تعبّر عن الماضي بطريقة غير مفهومة ودون أيّ ترتيب لأنّها لم تكن تستعمل إلاّ تلك المفردة.

استعملت الصغيرةُ المفردة الانكليزية التي لا تعبّر إلاّ عن طرف واحد من طرفي الزمن. أمّا في اللغة البنغالية، فقد كانت كلمة (البارحة- كال) تعبّر عن البارحة والغد معًا. وهكذا يحتاج المرء إذا تكلّم باللغة البنغاليّة إلى إضافة صفة ما أو تصريف فعل في الماضي أو المستقبل للتّمييز بين ما قد جرى وما سيجري في المستقبل.

انساب الوقت بشكل مختلف بالنسبة إلى بيلا، بشكل معاكس، حيث كانت تقول مثلًا: *في اليوم الذي أتى بعد البارحة*. وكان اسمها بحدّ ذاته الذي يرمز لإحدى الأزهار يرمز أيضًا إلى فترة زمنية من النهار في اللغة البنغالية، حيث تعني كلمة (شاكال بيلا) الصبح الباكر وكلمة (بايكال بيلا) فترة بعد الظهر، وكلمة (راترير بيلا) المساء.

كان أمس بيلا يتضمّن كلّ ما يختزنه عقلها، كلّ التجارب والانطباعات التي مرّت بها، فكانت ذاكرتها قصيرة محدودة المحتويات، مشتّتة ومتماسكة في الآن ذاته، بالإضافة إلى افتقادها إلى التسلسل الزمنيّ الصحيح وجريانه بطريقة عشوائية. وهكذا، قالت لغاوري في أحد

الأيّام وهي تسرّح شعرها الكثيف: «أريد شعرًا قصيرًا، كالبارحة».

كان شعرها قصيرًا قبل عدّة أشهر، وقد شرحت لها غاوري ذلك من قبل وأخبرتها أنّ الشعر يحتاج إلى أشهر كي ينمو ويطول، وأخبرتها مجدّدًا بأنّ شعرها كان قصيرًا قبل مائة بارحة، لا بارحة واحدة.

أصيبت الصغيرة بالإحباط بسبب مناقضة غاوري لكلامها وبدت خيبة الأمل على وجهها الذي لم يكن يشبه بأيّ شكل ملامح أوديان أو ملامحها هي، إذ كانت جبهتها منحنية قليلًا وعيناها مائلتان نحو الأسفل بطريقة مميّزة، كما تعجّبت غاوري من بشرة الصغيرة الأفتح من لون بشرتها رغم معرفتها بأنّها ورثت هذا اللون الكريمي الناعم من جدّتها لأبيها.

في أحد الأيام سألتها الصغيرة وهما في طريقهما إلى المدرسة: «أين سترتي الأخرى؟».

ـ أيّ سترة تعنين؟

ـ الصّفراء التي كنت أرتديها البارحة.

كان ذلك صحيحا. كانت ترتدي سترة صفراء ذات قبّعة من الفرو في الربيع الماضي، لكنّها صارت صغيرة جدًا عليها الآن فاضطرّت غاوري للتبرّع بها للكنيسة لتوزيعها على الفقراء.

ـ إنّها سترة العام الماضي يا حبيبتي، كانت جيّدة عليكِ عندما كنت في الثالثة من العمر.

ـ كنت البارحة في الثالثة من عمري.

انتظرت غاوري توقّفها عن التجوّل في المكان لتتمكّن من إلباسها وتنطلقا إلى المدرسة، لكنّ الصغيرة قاومتها ممّا اضطرّها إلى إمساكها من

كتفيها، فقالت الصغيرة: «هذا مؤلم. لقد أوجعتِني».

ـ بيلا.. نحن على عجلة من أمرنا.

ارتدت السترة دون إغلاق زمامها فأرادت بيلا إغلاقه ممّا أضاع مزيدًا من الوقت فلم تتمكّن غاوري من تحمّل المزيد فأزاحت يد الصغيرة، فتذمّرت قائلة: «بابا يسمح لي بأن أقوم بهذا بنفسي».

ـ بابا ليس هنا الآن.

أغلقت غاوري الزّمام إلى آخره بشكل أقسى ممّا يجب حتى كادت تقرص رقبة بيلا. لامت نفسها لقسوتها وتساءلت عن موعد حلول ذاك اليوم الذي ستعرف فيه ابنتها المعنى الحقيقيّ لهذه الكلمات التي تفوّهت بها منذ لحظات.

ابتاعت كوب قهوة بعد إيصال بيلا إلى الروضة من كافيتيريا اتّحاد الطلبة التي تعجّ بالطلبة شأن ما يحدث كلّ شتاء وكلّ صيف عند بداية الفصول الدراسية، حيث يتجمّع مئات الطلاّب في طوابير طويلة للتّسجيل في الصفوف التي يرغبون في دراستها. كانت غاوري تلتقط بين الحين والآخر كتيّبًا مهجورًا في المكان لتتأمّل عروض كليّة الفلسفة وتحيط أسماء الموادّ التي ترغب في دراستها بدوائر، وتتذكّر الجلوس في مدرج الفلسفة القديمة سرًّا في بداية عهدها برودآيلند.

لم تجد موادَّ تستهويها في أوقات وجود بيلا في الروضة، فكانت تقضي وقتها في المكتبة دون دراسة مادّة محدّدة، وكان الجهد الذي تبذله للتركيز على القراءة يخلّصها لساعة أو ساعتين من كلّ شيء آخر، من إدراكها وإحساسها الثقيل بهذه الساعات التي تنقضي.

لقد تصوّرت الزمن، لكنّها تسعى الآن لفهمه. ملأت كراريسها

بتساؤلاتها وملاحظاتها ومشاهداتها.. هل الزمن موجود بشكل منفصل عن الأبعاد الأخرى في العالم الماديّ أم أنّه موجود فقط في عقول الناس؟ هل تدركه كلّ الكائنات أم أنّ البشر هم المخلوقات الوحيدة التي تشعر بمروره؟ ما الذي يجعل بعض اللحظات تبدو كساعات، وما الذي يختزل السنوات لعدد من الأيام؟ هل تشعر الحيوانات بمرور الزمن كالبشر عندما تفقد رفيق العمر أو عندما تقضي على فرائسها؟

تقول الفلسفة الهندوسية إنّ الزمن بكلّ حالاته (ماض وحاضر ومستقبل) موجود في عقل الإله الكليّ الخالد بلا زمن، وتُصوّر الزمن على أنّه إله الموت.

أمّا ديكارت فقد قال في رسالته الثالثة في التأمّل إنّ الله يعيد خلق الجسد في كلّ لحظة، لحظة تلو الأخرى ممّا يعني ثبات الزّمن على حالة خالدة.

أمّا على الأرض، فإنّ الزمن ممهور بحركة الشمس والقمر، بدورانها المحوري الذي يسبّب تعاقب الأيّام نهارًا بعد ليل، والذي يؤدّي إلى دوران الساعة وانقضاء التقاويم.. إنّ الحاضر هو لمحة تنبض على الدوام، تلمع وتتلاشى.. لا هو حيّ ولا هو ميّت. كم يدوم الحاضر يا ترى؟ هل يدوم لحظة أم أقلّ؟ إنّه في حالة تغيّر دائم، تحوّل ونموّ.. لكنّه يهرب على الدّوام، ينساب دون تمكّن أحد من إدراك معنى الآن.

وجدت غاوري ملاحظات مكتوبة بخطّ يد أوديان في واحدة من كراريسها التي حملتها معها من كالكوتا حول الفيزياء الكلاسيكية، ونظريّة نيوتن التي تذهب إلى أنّ الزمن كينونة مستقلّة ومطلقة، كتيّار ماء يجري بمعدّل واحد لا يتغيّرمن تلقاء ذاته، ورأي آينشتاين الذي يعتبر الزمان والمكان متشابكين.

شرح أوديان على تلك الورقة نظريّة آينشتاين على المستوى الجُزيئي ومن ناحية السرعة مستنتجًا أنّه نظام من العلاقات ما بين الأحداث الزمانية اللحظية المتعاقبة وأسماه استمرارية تعاقب الزمن، حيث لا يتمكّن المراقب من التميز ما بين ما حدث الآن وما حدث قبل لحظة على مستوى تحديد حركة الجسيمات الدقيقة وتغيّراتها.

أرّقها المستقبل لكنّه أبقاها على قيد الحياة. كان يعينها ويفترسها في آنٍ معًا، كانت تبدأ كلّ عام بمفكّرة فارغة لا تعدو كونها نسخة من الساعة اللحظية، ولكنّها مطبوعة ومجزّأة على أوراق مجموعة في دفتر. لم تسجّل غاوري انطباعاتها يومًا على تلك المفكّرات، بل استعملتها لتدوين مقتطفات من الكتب أو العمل على كتاباتها الخاصّة، وحتى عندما كانت طفلة كانت كلّ صفحة تقلبها على المفكّرة وتحتوي على أحداث قادمة تملؤها بالقلق بدلًا من الراحة الناجمة عن التنظيم، كمن يصعد سلّمًا مجهولًا في ظلمة دامسة.. ما الذي سيضمن لها مجيء شهر كانون أوّل آخر بعد مضيّ الوقت؟

وثِق معظم الناس بحلول المستقبل وافترضوا تحقّق أفضل ما يتمنّونه لأنفسهم مع وصول أيّامه القادمة، خطّطوا له وتصوّروا حدوث أمور لم تتحقّق بعد.. وهذا هو ما يعنيه عقد النوايا. إنّه الأمر الذي منح العالم بأسره منطق الهدف والتوجّه.. لم يمنحهم ما كان، بل ما سيكون.

ولم يتوصّل الإغريق إلى نظريّة واضحة عنه، كان بالنسبة إليهم شيئًا يتعذّر تحديده وتوصيفه والتكهّن به، وقال عنه أرسطو: «*لا يمكن للإنسان أبدًا أن يتأكّد من وصول قارورة متهادية ما بين أمواج البحر إليه غدًا*».

عرفت غاوري أنّ معظم النّاس يتوقّعون أحداث المستقبل جهلًا منهم أو أملًا بما سيكون. فقد توقّع حمواها من ولديهما البقاء في المنزل طوال حياتهما برفقة زوجات وأولاد. أرادا من ساباش العودة إلى البيت في تولّيه غانج للزّواج من فتاة أخرى.. أمّا أوديان، فقد وهب حياته للمستقبل متوقّعًا من المجتمع تغيير نفسه، وتوقّعت غاوري البقاء زوجة له.. لا لسنتين، بل إلى الأبد. وتوقّع ساباش أن يعيش مع غاوري وبيلا كعائلة مترابطة في رودآيلند، وأن تقوم غاوري بواجباتها كأمّ لبيلا وزوجة مخلصة له.

كانت غاوري ترتاح في بعض الأحيان لنسخة الماضي عند بيلا لأنّها تعني أنّ أوديان كان ما يزال حيًا البارحة فقط وأنّها كانت زوجته البارحة فقط، وعندما مرّت خمس سنوات كاملة على استشهاده مرّت خمس سنوات أيضًا على زواجها بساباش.

تحوّلت ذكراها عن يوم قتل أوديان إلى ثقب أسود ابتلع كلّ شيء.. حمتها المسافات -المكان- أكثر من الزمن المراوغ، المسافة الهائلة الفاصلة بين رودآيلند وتولّيه غانج وكأنّ عينها تحتاج إلى الرؤية أبعد من محيط وقارّة للوصول إلى تلك الحادثة، فتلاشت تلك اللحظات وانحسرت لتصبح أكثر شفافية، ثمّ اختفت. لكنّها عرفت أنّها هناك.. كانت الأحداث المختزنة في الذاكرة مميّزة عما يمكن تذكّره .. كما قال أوغسطين.

ومن ناحية أخرى، ظلت ولادة بيلا حاضرة في ذهن غاوري وكأنّها حصلت البارحة بالفعل. بدت أحداث ذلك المساء الصيفي قريبة كلوحة حيّة على الدوام أمام ناظريها، تذكّرت المطر الذي حاصرهما في الطريق

إلى المشفى ووجه الممرّضة التي وقفت بجانبها طوال الوقت ومنظر الشاطئ المحاذي للنافذة، وملمس رداء المشفى والإبرة التي أقحمت في يدها وكأنّها حصلت البارحة فقط، وكأنّها حملت بيلا ونظرت إليها للمرّة الأولى البارحة فقط، تذكّرت ثقل الحمل الذي يختفي فجأة حال الولادة والدّهشة التي انتابتها عندما رأت المخلوقة المميّزة التي كانت تختبئ داخلها كلّ ذلك الوقت والدهشة الأكبر التي لم تفارقها كلّما فكّرت في أنّها خرجت بالفعل من رحمها.

عادت ظهرًا إلى الروضة لتحضر بيلا كما اعتادت أن تفعل لأنّ ساباش لم يتمكّن من فعل ذلك قطّ بسبب عمله، لقد عُيّن أستاذًا بروفيسورًا في نيوبدفورد التي تبعد خمسين ميلًا عن المنزل بعد انتهائه من رسالة الدكتوراه. وهكذا، كان يغادر المنزل ويعود إليه في ساعات محدّدة فيما تتولّى هي شؤون ابنتها بيلا طوال ساعات غيابه.

وجدت بيلا جالسة في حجيرة صغيرة بدت لغاوري كنعش مفتوح، إلى جانب رفاقها الآخرين في الصفّ، لم تسرع الصغيرة إلى ذراعيْ والدتها كالأطفال الآخرين التماسًا لعبارات التقدير على الخربشات التي كانوا يرسمونها على الورق وقطع الأوراق التي كانوا يجمعونها ويلصقونها بالصمغ على الورق المقوّى. تقدّمت الطفلة باتجاهها ببطء وسألتها عمّا ستتناولانه على الغداء. كانت تسأل في بعض الأحيان عن سبب غياب ساباش وتحتفظ لنفسها بكلّ أخبار نشاطاتها المدرسيّة والتفاصيل التي كان رفاقها يرشقونها في وجه أهاليهم حال لقائهم بهم.

كانتا تعودان معا إلى الشقة، حيث تفتح غاوري صندوق البريد الذي يحمل اسم (ميترا) لمعرفة ما إذا كانت هناك رسائل جديدة.

كانت الأسماء ترسم بالطلاء على صناديق البريد الخشبية بفرشاة ناعمة دقيقة. أمّا هنا، فقد كانت تكتب على عجل بخط صاحب الصندوق، فكانت غاوري تجد الفواتير وأعداد المجلاّت الشهرية التي اشترك بها ساباش وكوبونات التسوّق.

لم تستلم بريدًا خاصًّا بها إلاّ في مناسبات نادرة، رسالة من ماناش في المناسبات لم تكن تفتحها إلاّ بعد لأي، لأنّها تذكّرها بما تريد نسيانه، بماناش وأوديان اللذين يدرسان معا في شقة جدّيها وأوديان وغاوري، العاشقين اللذين التقيا بفضل تلك الصداقة. إنّها الأوقات التي رغبت في تحطيمها بين أصابعها وتفتيتها لتمحو أثرها مهما كان بسيطًا، وتحيلها إلى مرهم واق من الحبّ تضعه على جلدها.

كانت تتلقّى أيضًا أخبار الصّحف العالمية التي تصل إلى المكتبة في بعض الأحيان، فحاولت في البداية تصوّر ما يجري، لكنّ النّتف القليلة التي وصلتها كانت غير مترابطة ونادرة ممّا منعها من ذلك. لقد غمرت الدّماء البقعة النّتنة التي غطّت بلادها.

مازال سانيال حيًّا في السجن أمّا ماجومدار فقد اعتقل بعد أن عثرت السلطات على مخبئه ورمته في سجن لال بازار، فمات في عهدة شرطة كالكوتا في نفس الصيف الذي ولدت فيه بيلا.

وما زال الكثير من رفاق أوديان غارقين في أتون التعذيب في السجون، وحظي شانكار راي رئيس الوزراء الحالي بدعم مجلس الشيوخ، ممّا منع الكثيرين من مساءلته عن موت الآلاف.

لكن أخبار الثورة لفتت بحلول هذا الوقت انتباه المفكّرين الغربيين، فأرسل كلّ من سيمون دوبوافر ونعوم تشومسكي رسائلَ

لابنة نهرو يطالبون فيها بإطلاق سراح السجناء، فأعلنت انديرا غاندي حالة الطوارئ لمواجهة الاحتجاجات المتصاعدة وأعمال التخريب وسياسات الحكومة الفاشلة، وتحكّمت بوسائل الإعلام لتمنع تسرّب ما يجري إلى الصحافة.

ورغم تعاقب السنين، ظل جزء من غاوري قابعًا بانتظار خبر من أوديان، في انتظار اعترافه بابنته، ليشكّلا العائلة التي كان من الممكن أن يكونوا عليها. ليعترف على الأقلّ بأنّ حياتهما - هي وابنتها - استمرّت، معه أو دونه.

5

مضى عامان على تقديم أطروحته المتمحورة حول التحلّل الغذائي في حوض الوادي الضيّق المتاخم. إنّه عام 1976، الذكرى المائوية الثانية لاستقلال الولايات المتّحدة، وسبعة أعوام على وصوله إليها. ومرّت خمس سنوات على آخر مرّة زار فيها كالكوتا. كتب له والداه عدّة مرّات بأنّهم يرغبون في لقاء بيلا، لكنّه أخبرهم بأنّ الفتاة أصغر من تحمّل مشقّة رحلة طويلة كهذه، وأنّ ضغوط عمله لا تسمح له بذلك في كلّ الأحوال. وبدلًا من زيارتهم، أرسل إليهم صورًا من وقت إلى آخر دون أن يتوقّف عن إرسال المال لهما بعد استقالة والده.

شعر ساباش بأنّهما قد لانا قليلًا لكنّه لم يكن جاهزًا لمواجهتهما بعد، كان متّفقا مع غاوري في هذا الأمر. لكنّ دافعا ذاتيّا آخر كان يحرص على إخفائه: هروبه من العارفين بأنّه ليس والد بيلا، سيذكّرانه بمكانته الحقيقية، قد يعتبرانه مجرّد عمٍّ لها، ولن يعترفوا بأيّ مكانة أخرى.

أنهى ساباش مع حلول هذا الوقت مرحلة ما بعد الدكتوراه في نيوبدفورد ودُعِي إلى المشاركة في الجرد البيئيّ العالمي. أمّا في المساء، فكان يُدرّس مادّة الكيمياء في جامعة خيرية في بروفيدنس. وفكّر في الانتقال إلى جنوب ماساتشوستس ليكون أقرب من مقرّ عمله، لكنّه بقي في مكانه لقرب انتهاء مدّة زمالته في جامعته. وجد شقّة أكبر في رود آيلند تبعد مسافة لا بأس بها عن الجامعة وتلقّى دعوة من مختبر

قريب للعمل هناك، وهكذا.. قرّر البقاء لأنّه اعتاد الحياة هنا بعد ذهاب بيلا إلى روضة الجامعة وسير الأمور على ما يرام.

كان يحتاج إلى ساعة كاملة للعودة إلى البيت بسيارته، فيمرّ أمام الطواحين والمعامل في منطقة فول ريفر وأمام تايفرتون ويقطع سلسلة جسور فوق الخليج ثمّ مسافة لا بأس بها على الطّريق الرئيسي ثمّ عشر دقائق أخرى إلى أن يصل إلى المجمّع السكني الذي تتخلّله الأشجار خلف مجموعة من الأبنية التي توجد فيها مقرّات أخويّات الجامعة.. هناك يعيشون. كان يشعر في كلّ مساء أنّ بيلا مختلفة قليلًا عن اليوم السابق، كأن يلاحظ أنّ عظامها وأسنانها صارت أقوى، أو أنّ صوتها المبحوح صار أكثر حدّة وصفاء من البارحة.

لقد تعلّمت أخيرًا كيفيّة كتابة اسمها وكيفيّة دهن الزبدة على الخبز المحمّص، وازداد طول ساقيها مع أنّ بطنها ما زال مدوّرًا كما كان عندما كانت في السنة الثانية من عمرها، ويمتدّ خطّ ناعم من الوبر الخفيف على طول ظهرها وينتهي بحلقة كاملة الاستدارة كالخطوط الموجودة على رؤوس أصابعها لتشكّل البصمة أو تلك الموجودة داخل جذوع الأشجار للتّعبير عن عمرها. كانت تلك الشعيرات الناعمة تعيد ترتيب نفسها كلّما أصابها البلل في الحمّام المسائي لتعود إلى نفس الشكل، وكان يراقب هذا الأمر بدهشة كلّما ساعدها على الاستحمام.

ومع أنّها تعلّمت كيفيّة ربط شريط حذائها إلاّ أنّها لم تكن قادرة على تمييز رجلها اليمنى من اليسرى، وحافظت على لفتات أخرى من طفولتها كالطريقة التي كانت تفتح بها قبضتها وتغلقها كلّما رغبت في الحصول على شيء ما ككأس ماء مثلًا. وكانت ما تزال أيضا تخاف من

صوت الرّعد وتستيقظ مرعوبة أحيانًا في منتصف اللّيل حتى لو لم يكن موجودًا، تناديه أو تأتي إلى غرفة نومهما وتنام بجانبه. وفي الصباح، وقبل مغادرة المنزل، تستلقي على بطنها وتطوي ساقيها تحتها وتنحني على نفسها كضفدع لتعبّر له عن عدم رغبتها في مفارقته.

في كلّ ليلة كان يستلقي بجانبها حتى تنام بناء على رغبتها وإلحاحها، وكأنّها تذكّره بمكانته في حياتها، وبالرابطة الحقيقية والمزيّفة في الوقت ذاته. وهكذا، كان يطفئ النّور كلّ ليلة بعد أن يساعدها على حكّ أسنانها وتغيير ملابسها لارتداء المنامة ثمّ يستلقي بجانبها ويطيعها عندما تأمره بالاستدارة لمواجهتها والنّظر في عينيها إلى أن تتمازج الأنفاس. كانت تهمس له بحزم وبراءة طاغية تغرقه في بحورها: «انظر إليّ»، أو تحيط وجهه بيديها الصغيرتين وتسأله: «هل تحبني؟».

ـ نعم يا حبيبتي.

ـ أنا أحبّك أكثر.

ـ أكثر من ماذا؟

ـ أحبّك أكثر ممّا تحبّني أنت.

ـ هذا مستحيل. إنّها مهمّتي.

ـ لكنّي أحبّك أكثر ممّا أحبّ أيّ شخص آخر.

كان يتساءل عندئذ كيف يمكن لمشاعر قويّة كهذه وولاء فائق كهذا أن يوجدا في طفلة صغيرة مثلها، فينتظر بصبر حتى تغرق في النّوم وتستكين وترتعش قليلًا بعد استرخائها ممّا يعني اقتراب لحظة غرقها داخل عباءة النوم العميق.

ومع أنّ كلّ شيء كان يتكرّر بنفس الطريقة كلّ ليلة، إلاّ أنّه كان

يصاب بالصّدمة كلّ ليلة. كانت بيلا تقفز عن السرير قبل بضع دقائق فقط وتملأ الغرفة ضحكًا، ممّا يجعله يتوق إلى لحظة نومها. لكنّه يصاب بالانزعاج عندما يتوقّف نشاطها ويشعر بأنّه توقّف نهائيًا، وكأنّها ماتت.

كان يغفو في بعض الليالي بجانبها لبعض الوقت، ثمّ يفيق ويرفع يديها عن ياقة قميصه ويغطّيها جيّدًا ثمّ ينسحب، ويترك رأسها يرتاح على وسادتها بشكل مائل على نحوٍ يوحي بالعزّة والاستسلام معًا. لم تتح له الفرصة ليكون على هذا القرب من شخص آخر في حياته سوى إنسان واحد.. أوديان. كان قلبه يتوقّف للحظة عن الخفقان كلّما أبعد نفسه عنها متسائلًا عمّا يمكن أن تقوله في اليوم الذي ستعرف فيه الحقيقة.

في أيّام الآحاد كان يصطحبها إلى المتجر ليحظيا بوقتهما الخاصّ خارج المنزل، وهو الوقت الذي كان يتوق إليه طوال الأسبوع. لقد كبرت الآن، ولم يعد بإمكانها الجلوس في مقدّمة العربة المتحرّكة داخل المتجر فكانت تمشي وراءه بينما يدفع هو بالعربة وتقفز ما بين الأروقة لتساعده على اختيار التفّاح الجيّد ونوع حبوب الفطور والمربّى.

كانت تستحثّه على الإسراع وتصرّ أحيانًا على الرّكض في الممرّات والأروقة إذا كانت خالية من الناس ليلعبا ويركضا جنبًا إلى جنب. ها هنا، كان ساباش يرمي عنه شخصيته المألوفة اليومية ويستعيض عنها ببديله الصّغير، بالطفل المختبئ داخله، لقد عشق ساباش تلك اللحظات، وأحبّ انسجام ابنته مع العقلية المنفتحة الليبرالية. تلك العقليّة التّي لم يكونا ليحظيا بها لو قدّرا لهما أن يعيشا في الهند.

كانت تأكل مكعّبات الجبن المتروكة على الرفوف للإعلانات وملاعق من سلطات البطاطس الموجودة أعلى الصواني الخاصة

بالعرض وشرائح اللحم الخاصة بالتذوّق، ثمّ يذهبان إلى الكافيتيريا الموجودة خلف المتجر لتناول الهوت دوغ وحلقات البصل المقلي.

وبينما كانا في أحد الأيام يدفعان العربة المليئة بالأكياس الورقيّة إلى السيارة في المرآب، وقعت عيناه على هولي، كانت بيلا ما تزال متعلّقة بمؤخرة العربة لكنّ وجهها كان باتّجاهه، وكان يومًا خريفيًا باردًا سطعت فيه الشمس وهبّت فيه رياح بحرية قوية.

تفادى ساباش لسنوات الأماكن التي يمكن أن يصادفها فيها وتوقّف عن زيارة الشاطئ الذي تعارفا عليه والشاطئ القريب من بيتها، لكنّه قابلها الآن في مكان يتردّد عليه كلّ أسبوع بلا توقّف، ولم تكن برفقة جوشوا، بل برفقة رجل يحيط خصرها بذراعه.

إنّه زوجها، الوجه الذي رآه في الصورة المعلّقة على جدار غرفة ابنها، إنّه يبدو أكبر سنًّا ممّا كان عليه في الصّورة.

بدت مرتاحة برفقة الرجل الذي تخلّى عنها في الماضي، وخانها، ولم تلحظ ساباش، فسمع ضحكتها وهما يعبران المرآب. لقد كان في العشرينيات من العمر عندما التقاها ولا بدّ من أنّها تجاوزت الأربعين الآن، وجوشوا، لا بدّ أنّه قد بلغ الرابعة عشرة، ممّا يجعله قادرا على أن يبقى وحيدًا في المنزل إذا خرج والداه للتسوق.

لم يكترث ساباش يومًا للتّفاوت ما بين عمريهما لكنّه فكّر مرارًا في أنّها فسخت علاقتهما لهذا السبب.. لأنّه لم يكن ناضجًا نضجا كافيا.. ولم يكن في مركز يتيح له الحلول في مكان الرّجل الذي يرافقها الآن.

ابتعدا عن ساباش وتقدّما باتّجاه المتجر فتمهّلت هولي عندما لاحظته ولوّحت له بيدها ثم اقتربت منه. لقد قصّت شعرها حتّى غدا

قصيرًا يحيط بوجهها في طبقات، وارتدت ملابس مختلفة عمّا اعتادت على ارتدائه. أمّا في ما عدا ذلك، فلم يتغيّر فيها شيء.

ـ إلامَ تنظر يا بابا؟

ـ لا شيء.

ـ هيّا بنا إذن.

لم يتمكّن من التقدّم أكثر وفات الأوان على تفاديها الآن. تركت بيلا العربة ووقفت بجانبه وحبست أنفاسها بسبب الهواء البارد فأخفى وجهها الصغير بيده ليدفئها.

ـ ساباش..لديك فتاة صغيرة الآن!!

ـ صحيح.

ـ لم أعلم بذلك.. هذا كيث.

ـ هذه بيلا.

تصافحا. فكّر ساباش فيما إذا كان كيث يعرف الوقت الذي أمضاه مع هولي، في المدّة الزمنيّة التي استغرقتها معانقة هولي بيلا الصغيرة وتأمّلها.

ـ كم من الوقت مضى على زواجك؟

ـ خمس سنوات تقريبًا.

ـ لقد قرّرت البقاء هنا إذن.

ـ نعم. كيف حال جوشوا؟

ـ إنّه يفوقني طولًا الآن.

قالت ذلك وأشارت بيدها إلى الأعلى، ثمّ مدّتها لتلمس ذراعه لهنيهة وبدت سعيدة حقًا لرؤيته وللقاء بيلا. تذكّر كم أحبّت الإنصات

لحديثه عن سنوات طفولته في الهند وكالكوتا.. ما الذي تذكره من كلّ ذلك يا ترى؟ لكنّه لم يخبرها بموت أخيه أوديان.

ـ يا لها من صدفة سعيدة يا ساباش. اعتن بنفسك.

ومع أنّه لم يكن ينبغي لنار الغيرة أن تتّقد، فقد شعر بلظاها عندما ابتعدت عنه مع زوجها.. لم تصفح هولي عن زوجها الخائن لأجل صالح جوشوا.. لقد صفحت عنه لأنّهما متحابّان. لقد أحبّته قبل الخيانة، وما زالت تحبّه حتى الآن.

أمّا هو، فإنّه يتقاسم السرير مع غاوري في الليل، يتقاسم معها علاقتهما مع طفلتهما. بدأت علاقتهما الزوجيّة قبل خمس سنوات تقريبًا، لكنّه ما يزال ينتظر لعلاقتهما أن تصل إلى مرحلة ما.. لمرحلة لا يقلق فيها ممّا فعلاه، لا يخاف فيها من نتائج القرار الذي اتخذاه.

لم تعبّر له يومًا عن بؤسها ولم تتذمّر أو تشتكِ.. لكنّه لم يرَ بعينيه مطلقًا تلك الفتاة السعيدة العاشقة التي لمحها في الصورة التي أرسلها إليه أوديان قبل سنوات.

كان هناك أيضا شيء مفقود آخر.. شيء مربك لم يتمكّن من الاعتراف به لنفسه.. وكره التفكير فيه، نبوءة أمّه الرهيبة التي أخبرته بها.

لكنّ أمّه عرفت كلّ شيء بطريقة ما.. عرفت أنّ الحنان الذي اكتنف تلابيب قلب ساباش تجاه بيلا، الذي استحال تقييده أو تقنينه أو الحدّ منه بأيّ شكل، يستحيل أن يحصل عليه من طرف أمّها بنفس الطريقة.

غاوري تلك الأمّ التي أحاطت ابنتها برعايتها وحافظت على نظافتها وأطعمتها بيدها وسرّحت شعرها، كانت تبدو مشتّتة الفكر

على الدوام، ونادرًا ما ابتسمت في وجه طفلتها، نادرًا ما رآها تقبّل الصغيرة بعفويّة، وبدلًا من ذلك.. بدا له أنها قلبت دوريهما منذ اللحظة الأولى، وكأنّ بيلا ربيبتها وابنته هو، وليست ابنتها.

كان يشاهد العائلات التي تسافر إلى رودآيلند لتعزيز أواصر العلاقات الأسرية في رحلات تبدو أشبه بالطقوس المقدّسة، أمّا هما.. ساباش وغاوري، فلم يأخذا أبدًا بيلا إلى رحلة ترفيهيّة، لم يقترح ذلك مطلقًا لأنّه ربّما عرف أنّ الفكرة لن تروقها. كان يقضي وقت فراغه مع بيلا ويقود السيارة بها طوال النهار من مكان إلى آخر، لم يتمكّن من تخيّل ثلاثتهم معًا في رحلة استكشافية، في مكان جديد مثلًا، أو استئجار كوخ مع عائلة أخرى في رحلة استجمام كما كان بعض زملائه يفعلون.

تمنّى أن يكون الوقت قد حان لديها لتحبل بطفله، لتمنح بيلا رفيقًا. تجرّأ على اقتراح ذلك متعلّلا بأنّه لا يريد حرمان بيلا من أخ لها ومعتقدًا أنّ إنجاب طفل سيصحّح الخلل القائم في المعادلة، وسيزيل عدم التوازن، إذا كانوا أربعة بدل ثلاثة. كان يعتقد بأنّ طفلًا آخر سيقلّل من اتّساع الهوّة التي تفصلهما.

ردّت عليه بأنّها ستفكّر في ذلك بعد عام أو عامين مبيّنة أنّها لم تبلغ الثلاثين بعد وأنّ الوقت ما زال كافيًا لهما للتفكير في ذلك مستقبلا.

لم يتوقّف ساباش عن الأمل في حدوث ذلك رغم شرائها كلّ شهر علبة جديدة من حبوب مانع الحمل.

خشي في وقت من الأوقات أن يكون القرار الثوريّ الوحيد الذي اتّخذه ونفّذه في حياته قد مني بالفشل. لقد توقّع مقاومتها آنذاك أكثر ممّا توقّعها الآن وتساءل أحيانًا عمّا إذا كانت تشعر بالندم على ارتباطها به،

عمّا إذا كانت تشعر بأنّهما تسرّعا أو ارتكبا خطأ لا يغتفر بسبب العجلة.

إنّها زوجة أوديان، لن تحبّك يومًا.. لقد أخبرته أمّه بهذا محاولة ثنيه عن قراره. صمد في وجهها مقتنعًا بأنّ الحال ستتغيّر مع مرور الوقت وأنّه قادر على إسعاد غاوري وصمّم على إثبات خطأ والدته.

لقد ضحّى بعلاقته مع والديه ليتزوّج من غاوري، لكنّه لم يعرف ذلك إلاّ بعد فوات الأوان. إنّه أبٌ الآن، ولن يتخيّل نفسه في حياة تخلو من والديه بعد الآن.

6

«اِلْعبي معي».

لم تكن بيلا تلتمس رفقةَ غاوري إلاّ في غياب ساباش، فتلعب معها على أرض غرفتها بالمكعّبات أو تغيّر ملابس دماها أو تلاعبها بالصّور المطبوعة على رقاقات كرتونية لتحفيز الذّاكرة.

كانت غاوري تُذعن أحيانًا وتُبقي كتابها بجانبها لتسترق بضع نظرات إليه بين الحين والآخر أثناء اللّعب، ولم تكن بيلا تشعر بالرضى أو الاكتفاء أبدًا، مهما طالت فترة اللعب. كانت تقول متذمّرة حين تشعر بتشتّت ذهن والدتها عن اللّعب: «أنتِ لا تعيرينني اهتمامك». فكانت غاوري تجلس بقربها على السجّادة وهي تأخذ بعين الاعتبار صحّة العتاب أو اللوم الذي قد تتلقّاه من ابنتها، ولطالما فكّرت بأن وجود أخ لها سيرفع عنها عبء واجب اللّهو مع بيلا، وأدركت أنّ هذا قد يكون من الأسباب التي تدفع الناس إلى إنجاب المزيد من الأولاد.

لم تُفصح لساباش عمّا تفكّر فيه كلّما حاورها حول موضوع الإنجاب، لم تخبره بأنّ الحمل بطفل ثان هو الشيء الذي قرّرت منع حدوثه لها رغم زواجها منه.

كانت تعاشره معاشرة الأزواج لأنّها تحتاج إلى محو أيّ أثر لشبح

أوديان من حياتها.. ولهذا، فقد قرّرت تدمير توقّعاته ووضع حدّ لاقتراحاته المتكرّرة تلك.

لم يكن زوجها يُذكّرها بأخيه، ولهذا لم يكن هناك أيّ شعور بالغرابة من قبلها. لم تبحث معه سوى عن المتعة الخالصة والخدر الذي يلي ممارسة الحبّ، والذي يزيح كلّ الأفكار من ذهنها ليسفر عن الوقوع فريسة سهلة للنّوم العميق الذي يستعصي عليها في أغلب الأوقات.

كان لساباش جسم مختلف، أكثر تردّدًا لكنّه أكثر يقظة، وكانت تقترب في بعض الأحيان من التجاوب معه أو السعي إليه كما شعرت بالرغبة في الطعام الغريب أثناء فترة الحمل، لكنّها تعلّمت أنّ أيّ حركة تعبّر عن الحبّ مع ساباش لا تقود إلى أيّ شيء، وأنّ قلبها وعقلها كيانان منفصلان مختلفان غاية الاختلاف.

شاهدت غاوري أوراقًا معلّقة على لوحة إعلانات اتّحاد الطلبة تعرب عن وجود طالبات جامعيات أو زوجات أساتذة لا عمل لهنّ جاهزات لمجالسة الأطفال، فدوّنت عندها بعض الأرقام والأسماء.

استشارت ساباش فيما إذا كان ذلك ممكنا كي تحضر حصص الفلسفة الألمانية مرّتين في الأسبوع. ومع أنّ بيلا أصبحت في الخامسة من العمر الآن وترتاد الروضة إلاّ أنّها ما زالت في سنّ لا تسمح لها إلاّ بقضاء نصف نهار فقط في الرّوضة. رأت غاوري أنّ هذا الحلّ منطقي نظرا لانشغال ساباش وعدم وجود أقرباء لهم في المنطقة لمساعدتهم على تدبير شؤون ابنتهم.

رفض ساباش. ولم يكن رفضه بسبب المال بل لأنّه لم يقبل مبدئيّا أن يجالس شخص غريب ابنته.

ـ ولكنّ الأمر عاديّ هنا.

ـ أنت موجودة معها في البيت.

أدركت غاوري في هذه اللّحظة أنّه لم يكن يأخذ دراستها على محمل الجدّ رغم تشجيعه لها على زيارة المكتبة في وقت فراغها ولحضور المحاضرات من جديد. أدركت ذلك رغم أنّه وعدها بمتابعة دراستها عندما طلبها للزّواج، وأخبرها بإمكانية فعل ذلك في أمريكا إذا رافقته إليها.. وها هو يقول الآن إنّ أهمّ أولويّاتها الآن هي بيلا وليست الدراسة.

اجتاحتها رغبة في الصّراخ في وجهه: إنّها ليست ابنتك.. لتذكيره بالحقيقة. لكنّها ليست الحقيقة بالطّبع.. لقد لاحظت غاوري الحقيقة قبل بضع أسابيع عندما تأخّر ساباش دقائق معدودة عن حفل الباليه الذي اشتركت به الصغيرة والتغييرات التي طرأت على معالم وجهها عندما حضر وجلس في مكانه ولوّح لها بيده.. لقد انطلقت الصغيرة بعدما امتلأت وأشرقت بحضوره.. رفعت ذقنها وراحت ترقص بخفّة لا تُضاهى وكأنّها تؤدّي الرّقصة له وحده.

طرحت غاوري الموضوع عليه مجددًا بعد بضعة أيام قائلة: «الأمر هامّ جدًّا بالنسبة إليّ..».

كان ساباش على استعداد لتقديم التنازلات للوصول إلى تسوية معها، فأخبرها بأنّه سيجري تغييرات على برنامجه وراح يغادر أبكر من المعتاد في بعض الأيام ويعود في بعض الأحيان الأخرى عصرًا إلى المنزل، فتمكّنت من التسجيل في الاستبيان وقامت برحلة إلى مكتبة مهمّة وملأت سلّتها بالكتب التي كانت تريدها: *أصل الأخلاق*، *ظاهرة العقل*، *العالم فكرا وتوجّها*، ثم ابتاعت قاموسًا وأقلامًا جديدة

وكرّاسة كبيرة سلكيّة تحمل شعار الجامعة.

يتعطّل الزّمن كلّما جلست غاوري مع بيلا وحدهما في البيت، لم تكن العقارب تتحرّك، ولم يهبط الظلام في نهاية اليوم.. كان شعورها بوقع الصّمت المتضافر مع العزلة المتنامية ما بينها وبين ابنتها يزداد ويتضخّم كلّ يوم. وكانت تشعر كأنّهما شخص واحد مكبّل بالتزام أحدهما تجاه الآخر، بالاتّكال والتبعية والاعتماد الكامل على الطرف الثاني. كان ذلك يُقيّدها عقليًا وجسديًا حتّى لو لم تكونا معا، وقد أصابها هذا الشعور بالرّعب في بعض الأحيان إلى درجة أنّها كانت تحسّ أحيانًا بفضاضة النّير الذي يطوّق رقبتها بالوحدة وقيود كثيرة.

كانت تذهب مباشرة إلى المطبخ بعد استقبال بيلا ظهرًا بعد عودتها من الروضة، لتغسل أطباق الفطور التي تجاهلتها طوال فترة الصباح ولتبدأ في إعداد وجبة العشاء، فتزن كمّية الأرز اللازمة وتنقعه في الماء ثم تقشّر البصل والبطاطس وتنظّف العدس وتعدّ بعض الأنواع الأخرى من الطعام التي قد تحتاجها في قادم الأيّام، ثمّ تطعم بيلا. ولم تفهم أبدًا لماذا تبدو لها هذه الأعمال المنزلية البسيطة عصيّة ومنهكة. لم تكن تفهم، عندما تنتهي من الطّهي، سبب التعب الذي تشعر به.

كانت تنتظر ساباش ليكمل العمل في المطبخ ممّا يتيح لها فرصة المغادرة أو الدراسة في المكتبة لأنّه لا يوجد في الشقة مكان يصلح للدّراسة. لم يكن هناك باب يمكن لها إغلاقه على نفسها لتركّز كما يجب.. ولا مكتب يمكن لها الاحتفاظ بكتبها عليه.

حسدته غاوري على ساعات غيابه في العمل وقدرته على الذهاب والعودة أنّى أراد وامتعضت من اللّحظات القليلة التي كان يستمتع

بقضائها مع بيلا في الصباح قبل مغادرة البيت للعمل. نقمت عليه لأنّه كان يسافر أحيانًا ليومين أو ثلاثة لحضور مؤتمرات حول المحيط أو لإجراء بعض البحوث في المحيطات الأخرى.. فتقابله في بعض الأحيان بعد غيابه الطويل بنظرة سريعة لأنّها لم تكن تطيق النظر إليه أو سماع صوته المعبّر عن الاشتياق إليهما.. ذلك الصّوت الذي شدّها إليه في البداية.. كانت تشعر بكلّ ذلك دون أيّ ذنب اقترفه.

بدأ امتعاضها يتجسّد على أرض الواقع بوجبات العشاء التي راحت تتناولها مع بيلا، دون أن تنتظره، وبحصّته التي راحت تتركها له على المنضدة، لتتمكّن من الخروج حال عودته والشعور بنسيم الغسق العليل على وجهها، وبالنّور المفعم في تلك الساعات من اليوم في الربيع والظلام والبرد في الخريف والشتاء.

لم تكن تخرج إلاّ لحضور الدّروس المسائية في البداية، والتي لم تكن يوميّة، ثمّ بدأت تخرج كلّ ليلة للذهاب إلى المكتبة في الأيّام التي لا تضطرّ فيها إلى الذهاب إلى الجامعة، لتبتعد عنهما. أمّا ساباش، الذي أسعده إمضاء المزيد من الوقت مع بيلا، فقد سمح لها بالذّهاب كلّ يوم.. خامرها شعور قويّ بأنّها قد اكتسبت عدوًّا.. خصمًا.. رجلًا لم يقم بأيّ شيء لكسب عداوتها، وبعداوة تجاه بيلا التي لم تكن تعي معنى تلك الكلمة بعد.

لكنّ أسوأ مخاوفها وأعدائها على السواء كان كامنًا في أعماقها. لم تشعر بالخجل من مشاعرها فحسب، بل خشيت من أن تكون المهمّة الأخيرة التي أوكلها إليها أوديان، مهمّة تربية بيلا التي ستحتاج إلى سنين طويلة من عمرها، لم تمنح أيّ معنى لحياتها.

طمأنت نفسها في البداية بأنّ شعورها هذا نابع من حداثة عهدها بالأمر، وكأنّ الأمومة شيءٌ ماديّ موجود وملموس. لكنّها قد وضعته خطًا في غير مكانه الصحيح، ضاعت الأمومة منها كقلم ضاع قبل أسابيع ثمّ وجد عالقًا ما بين الأريكة والجدار. همست لنفسها بأنّ كلّ مشكلاتها ستنتهي حين تجده، وأنّها لن تضيّعه أبدًا بعد ذلك. لكنّ البحث عن ذلك الشّعور الضائع زاد الأمور سوءًا، لأنّها انتظرت طويلًا ولم تجده.

لكنّ الحبّ لم يتفتّح.. رغم كلّ الوقت الذي قضته مع ابنتها، ورغم انقضاء خمس سنوات، ورغم كلّ الساعات التي قضتها مع بيلا.. رفض الحبّ الكبير الذي شعرت به تجاه أوديان أن يعيد تشكيل نفسه، ونمت في روحها شجرة غيبوبة وشلل، كبّلتها وأعاقت حركتها.

عرفت غاوري أنّها فشلت في القيام بالمهمّة التي قامت بها كلّ امرأة على وجه الأرض دون أيّ عناء، تلك المهمّة التي لا تجاهد النساء للقيام بها ولا تمثّل لهنّ أيّ صراع. لقد أحبّتها أمّها رغم أنّها لم تتعهّد بأمر تربيتها على نحو كامل، ولم يساورها الشكّ يومًا في هذا، وعرفت غاوري أنّ التيّار قد سحبها إلى مكان بعيد إلى درجة استحالة العودة إلى ابنتها.

وبنفس القدر، كان حبّها لأوديان ما يزال نابضًا متألّقًا على حاله، مشوبًا ببعض الغضب الذي يتردّد في داخلها بلا توقّف.. الغضب منه لأنّه مات حين كان يجب أن يعيش، لأنه جلب لحياتها الفرح ثمّ أخذه منها، لأنه وثق بها.. لا لشيء سوى ليخذلها، لأنّه آمن بالتضحية بكلّ جوارحه ليضحّي بنفسه في النهاية.

لم تعد تفتّش عن إشارات تدلّها عليه، أو عن الشعور الغامض بأنّه

قد يكون في الغرفة الآن معها، ينظر من فوق كتفها وهي تدرس على طاولتها.. لم تعد كلّ تلك التوقّعات تريحها. وقد كان من المستحيل عليها ألاّ تفكّر فيه في بعض الأيّام، ألاّ تذكره.. ومع أنّ شيئًا منه لم يسافر إلى أمريكا، ما عدا بيلا.. إلاّ أنّ شبحه رفض الانضمام إليها هنا.

كانت كلّ النساء في دائرة الفلسفة في الجامعة يعملن كسكرتيرات، أمّا الأساتذة والطلبة فقد كانوا كلّهم من الرجال. وقد كان عددهم قليلًا.. سبعة من الطلبة مع الأستاذ تعارفوا بسرعة وأحبّوا نقاش الفلسفة اللاّوضعيّة (antipositivism) وتطبيقاتها العمليّة، عن مفهوم الحلول ومفهوم المطلق، ولم يطلبوا يومًا رأي غاوري، لكنّهم كانوا يستمعون إليها حين تساهم في النقاش ويصابون بالدّهشة من سعة معرفتها التي مكّنتها في بعض الأحيان من إثبات خطأ افتراضاتهم.

كان أستاذها أوتو وايس رجلًا قصير القامة أحمر الشعر ثقيل اللكنة بطئ الكلام، يرتدي نظارات طبية ذات إطار معدنيّ رفيع. وكان يرتدي ملابس رسمية أكثر من غيره ويعتني بأحذيته اللامعة، ويحرص على ارتداء سترة رسمية ويشبك دبوسًا لامعا على ربطة عنقه، وقد مرّ في طفولته بمأساة حصار وارسو وعاش في مخيّم عندما كان في الثالثة من عمره.

«لا أذكر أيّ شيء من ذلك». قال لطلابه عندما سألوه عن تجربته وسبب مغادرته لأوروبا. لقد رفض الإفصاح عن أيّ شيء وكأنّه يقول: لا تشفقوا عليّ، مع أنّ كلّ أهله كانوا قد ماتوا قبل تحريرهم من المخيّم، ومع أنّه ما يزال يحمل حتى الآن وشمًا تعريفيًا رقميًا على ذراعه، ويخبّئه تحت ثيابه.

لم يكن يفوق غاوري سنًّا سوى بعقد من السنوات، لكنّه بدا أكبر بكثير، بدا وكأنّه ينتمي إلى جيل آخر. لقد عاش في بريطانيا قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة ويحصل على شهادة الدكتوراه من شيكاغو ولم يعد مطلقًا إلى ألمانيا كما أخبرهم. وفي اليوم الأوّل لحضورهم إلى صفّه قرأ أسماءهم جميعًا بما فيها اسمها دون أيّ تردّد ولم يخطئ بتهجئته فلم تضطرّ لتصحيحه للمرّة الأولى وتحمّل الطريقة الغريبة التي ينطق بها الأمريكان اسمها.

لم يكن يعتمد على أيّ ملاحظات مدوّنة في محاضراته رغم أنّه كان يتقدّم بهم بحذر عبر النصوص الموجودة في الكتب التي قرّرها، وبدا أكثر اهتمامًا بما يمكن أن يقوله الطلاّب من تلقاء أنفسهم، فكان يدوّن ملاحظاتهم على أوراق بيضاء. فوجئت غاوري بأنّه قرأ الأوبانيشاد كلّها لأنّه حدّثهم عن تأثير بعض نصوصها في الفلسفة الغربية، فشعرت للمرّة الأولى بأنّها على صلة قرابة بهذا الرّجل، ورغبت في إسعاده بأيّ شكل، بتحيّته بطريقة ما.

وفي نهاية الدّرس، طلب منها الأستاذ الحضور إلى مكتبه بعد تقديمها لمقالة تقارن فيها مفهوم الزّمن الدائري ما بين نيتشه وشوبنهاور. لقد عملت غاوري على هذه المقالة لأسابيع وكتبتها بقلمها ثمّ طبعتها على آلة ساباش الكاتبة على طاولة المطبخ، ما بين القدور والأواني، وتحت نور المطبخ الأبيض الساطع، وقد أبقتها هذه المقالة صاحية حتى الصباح في كثير من الليالي.

نقلت غاوري كلّ ما كتبته من ملاحظات على الهامش وتتبّعت الخطوط التي رسمتها لتدلّ على تعليقات مكتوبة في أماكن أخرى من

نفس الورقة وحرصت بكلّ ما تملك من تركيز على ألاّ تترك أيّ فكرة دون نقلها للنّسخة المطبوعة.

ـ هذه مقالة طموحة، ويمكن تسميتها بالجريئة أيضًا.

لم تحر غاوري أيّ جواب.

ـ هل تعتقدين أنّكِ قد نجحتِ؟

ظلّت صامتة.

ـ طلبت منكم مقالة من عشر صفحات لكنّك كتبت قرابة الأربعين صفحة وفشلت في إثبات وجهة نظرك.

ـ عفوًا؟

ـ لا تعتذري..أنا ممتنّ دومًا للحصول على طلاب أذكياء في صفّي.. لكنّي لم أقابل مطلقًا طالبًا فَهِمَ هيغل بهذا القدر.

قلّب الأستاذ ما بين الأوراق وتتبّع بعض الجمل والكلمات ثم قال: «المقالة تحتاج إلى التّدقيق والمراجعة».

ـ يمكنني القيام بذلك في الأسبوع المقبل.

هزّ رأسه وشبك يديه ثم قال: «لقد انتهيت من تدريس هذا الصفّ، لكنّني أقترح عليك وضع هذه الأطروحة في درج ونسيانها لبضع سنين».

اعتقدت غاوري أنّه نفض يديه منها كما نفض يديه من الصفّ، فشكرته ووقفت لتغادر فسألها: «ما الذي أتى بك من الهند إلى رود آيلند؟».

ـ زوجي.

ـ ماذا يعمل زوجك؟
ـ إنّه يدرّس هنا أيضًا.
ـ هل التقيتما في أمريكا؟

أشاحت غاوري بنظرها عنه، فقال كالمعتذر: «هل أحرجتك بسؤالي؟».

كان صبورًا، ثابت النظرات، لكنّه لم يضغط عليها وعرف أنّها تتوق لإخباره بالمزيد. التفتت إليه من جديد ثمّ نظرت إلى الكتب المرتّبة خلفه والأوراق المكدّسة على مكتبه ثمّ تمعّنت في قماش قميصه المُنشّى وكمّيه اللذين يغطّيان ذراعيه وفكّرت في تجربته القاسية التي مرّ بها في طفولته، عندما كان أصغر سنًّا من بيلا، ثم قالت: «قُتل زوجي الأوّل.. شاهدت مقتله، ثمّ تزوّجت أخاه لأهرب من المكان».

لم يرفع وايس عينيه عنها ولم يتغيّر أيّ شيء في معالم وجهه. أومأ إليها بعد برهة فأدركت أنّها أخبرته بما يكفي. وقف ومشى باتّجاه النّافذة وفتحها قليلًا ثم سألها: «هل يمكنك القراءة بالألمانية أو الفرنسية؟».

ـ لا، لكنّي درست اللغة السنسكريتية».
ـ ستحتاجين إليهما لكي تتابعي مسيرتك. لكنّك ستتعلّمينهما بسرعة، سيكون ذلك سهلًا عليك.
ـ هل أتابع؟
ـ لديك إدراك وعقل مفكّر كبير يا سيدة ميترا، لكنّ هذه الجامعة لا تهتمّ بمثل هذه المواضيع.

هزّت رأسها حائرة ممّا قاله وقالت: «عندي طفلة صغيرة».

ـ آه.. لم أعرف أنّك أمّ.. يجب أن تحضريها لأراها.

ثمّ سحب باتّجاهها إطار صورة وعرض عليها صورة عائلته، وكانوا يقفون أمام واد سحيق في الخريف، ظهرت زوجته وابنته وابناه في تلك اللقطة.

ـ تتوقّف الساعة عندما نكون آباء.. ننسى كلّ ما كنّا عليه قبل أن ننجب أبناءنا.

عاد إلى مكتبه وكتب لها أسماء عدّة كتب واقترح عليها قراءتها وأفادها بأرقام الفصول الأكثر أهمية في تلك الكتب، ثمّ استخرج لها من مكتبته نسخًا من كتب أدورنو وماك تاغارت ونسخة من كتب (النّقد الألماني الحديث) وبعض المقالات التي قال لها إنّها يجب أن تقرأها.

طلب منها الاستمرار في الجامعة وأخبرها أنّ الإدارة قد تقبل أطروحتها لنيل الدكتوراه بهذا المجال ثمّ قال بأنّه سيتّصل ببعض الناس ليسألهم عن أفضل البرامج التي يمكن لها حضورها في الجامعات الأخرى، وأخبرها بأنّ ذلك يعني السفر ما بين المدن عدّة مرّات في الأسبوع لبضع سنوات وأعرب عن استعداده لمساعدتها عندما يحين الوقت.

أعاد إليها أوراقها ووقف لمصافحتها.

7

أمام المجمع السكني الذي كانوا يسكنونه، كانت توجد حديقة مائلة باتجاه الشارع، حيث تتوقّف حافلة المدرسة على الطرف الآخر منها في نهاية الشارع. رافقت غاوري بيلا لانتظار تلك الحافلة في الأيّام الأولى عندما أصبحت في الصفّ الأوّل من المدرسة الابتدائية، وللتأكّد من ركوبها ثمّ العودة لانتظارها عصرًا.

وفي الأسبوع التالي، قالت بيلا إنّها تريد الذهاب إلى موقف الحافلة وحدها كما يفعل بقيّة الطلاب الذين يسكنون الحيّ، وقد طمأنت الأمّهات الأخريات اللواتي يأخذن الحافلة نفسها غاوري، وطلبن منها ألاّ تقلق لأنهنّ يتأكّدن من صعود كلّ التلاميذ إلى الحافلة قبل انطلاقها.

ومع ذلك، لم تتوقّف غاوري عن متابعة بيلا من خلال النّافذة لتتأكّد من وصولها إلى مجموعة الأطفال الذين ينتظرون الحافلة ووقوفها معهم ثمّ صعود الحافلة التي كانت تتوقّف خمس دقائق ثمّ تنطلق حاملة الأطفال الصغار.

شكرت غاوري الله على هذا التّغيير الطفيف الذي طرأ على روتين الصباح، والذي سمح لها بعدم ارتداء ملابسها والخروج من الشقة والثرثرة مع الأمّهات الأخريات قبل العودة إلى المنزل للعمل على أطروحتها، وقد بدأت بالفعل العمل على موضوع مستقلّ مع البروفسور

وايز، فتوجّب عليها قراءة مؤلّفات كانط ومحاولة فهمها لأنّها لم تقرأ كتبه من قبل.

وفي صباح أحد الأيام، بعد ليلة طويلة من الأمطار المستمرّة، وضعت علبة وجبة غداء بيلا في حقيبتها وأعطتها إيّاها وودّعتها، كانت غاوري ما تزال ترتدي منامتها، وكان النهار بأكمله لها وحدها حتى الثالثة عصرًا موعد انتهاء مدرسة الصغيرة، عندما ستأتي الحافلة لتعيدها إلى المنزل مع الأطفال الآخرين. لكنّها سمعت قرعا على الباب بعد دقيقة من مغادرة ابنتها. فتحت الباب وإذ بها تجد بيلا.

ـ هل نسيت شيئًا؟ هل تريدين قبّعة المطر؟

ـ لا.

ـ ما الأمر إذًا؟

ـ تعالي لتري بنفسك.

ـ أنا مشغولة.

شدّتها بيلا من يدها وقالت: «يجب أن تأتي لتري».

غيّرت غاوري ملابسها بسرعة وارتدت معطفًا مطريًا وحذاءً مطاطيًا وخرجت وفتحت المظلّة، وفي الخارج.. كان الهواء مشبعًا برطوبة أمطار الليل المفعمة برائحة كريهة تشبه رائحة السّمك. أشارت بيلا إلى العشب المحاذي للممرّ، وهناك.. شاهدت غاوري كومة كبيرة من ديدان الأرض التي خرجت من التربة الرطبة لتموت في مذبحة جماعية.. لم تكن دودتين أو ثلاثا.. كانت بالمئات، وكان بعضها ملفوفًا على نفسه بشدّة وبعضها الآخر ممدودًا بلا حول ولا قوّة، وكانت هياكلها الوردية مشقوقة مما دفع بأحشائها إلى الخارج.

أغلقت بيلا عينيها بيديها لاستيائها من المنظر والرائحة وقالت لأمّها إنّها لا تريد الدوس عليها كما كانت تخاف الجري عبر الحديقة لأنّها كانت مبتلّة للغاية.

ـ لماذا هي كثيرة إلى هذه الدرجة؟

ـ هذا يحدث في بعض الأحيان.. تخرج الديدان لتتنفس عندما تتشبّع التربة بالماء.

ـ هلاّ حملتني؟»

ـ أنتِ كبيرة على ذلك.

ـ هل يمكنني البقاء في المنزل؟

نظرت غاوري إلى الأطفال الآخرين الذين تدبّروا أمرهم وارتدوا قبّعاتهم ومعاطفهم المطريّة ووقفوا بانتظار الحافلة ثمّ نظرت إلى ابنتها.

ـ أرجوك؟

توسّلت بيلا بصوت ناعم وعينين دامعتين، ثم تدحرجت الدموع من عينيها.

أيّ أمّ أخرى غير غاوري كانت ستستجيب لمطلب ابنتها، كانت ستعيدها إلى البيت وتسمح لها بالغياب يومًا عن المدرسة، لم تكن أيّ أمّ أخرى لتعتقد أنّ إمضاء مثل هذا الوقت مع ابنتها سيكون مضيعة للوقت.

تذكّرت غاوري الفرح الذي شعر به ساباش عندما هبّت عاصفة ثلجية قويّة في الشتاء الماضي ممّا اضطر معظم المتاجر والدوائر الرسمية للإغلاق فلم يذهب لعمله لمدّة أسبوع، وبقي في المنزل مع بيلا وحوّل الأمر لفترة أعياد حقيقية، فلعبا بمختلف الأشياء في المنزل وطالعا

القصص وخرجا للّعب بالثلج.

ثمّ تذكّرت أمرًا آخر، تذكّرت بقاء جثث أعضاء الحزب الشيوعي مرميّة في الجداول والحقول لأيّام دون أن يتجرّأ أحد على انتشالها في ذروة الحملة القمعية. تركت الشرطة الجثث تتعفّن تحت الشمس لتخيف الناس وتصدمهم وتؤكّد لهم انتهاء أمر الحزب.

اقتربت الحافلة فقالت لها غاوري: «تعالي».

لكن بيلا هزّت رأسها نافية وقالت: «لا».

ـ سنذهب مشيًا إلى المدرسة إذا ما رفضت الصعود على متن الحافلة، ممّا يعني أنّك ستدوسين على أكوام أخرى من الديدان.

رفضت بيلا الذهاب فقبضت على يدها بقسوة وشدّتها فتعثّرت وانتحبت ببؤس، فالتفتت الأمّهات والأطفال باتّجاهها في لحظة وصول الحافلة. فتح الباب وصعد الأطفال فانتظر السائق حتى صعدوا جميعا.

ـ كفّي عن البكاء يا بيلا.. لا تكوني جبانة.

كان بإمكان غاوري أن تقول: لقد شاهدت مقتل أبيك بأمّ عيني دون ذرف دمعة واحدة. لكنّها لم تقل شيئًا. ظلّت تجرّ بيلا من يدها بقوّة. ولكنّ بيلا تمكّنت من الإفلات من قبضة أمّها ثمّ صاحت: «أنا لا أحبّك.. لن أحبّك أبدًا.. طوال عمري». ثم جرت هاربة.. هجرت الصغيرة أمّها بعد أن استدعتها بنفسها لمرافقتها.. ولم تعد ترغب في إكمال الطريق معها.

كان يمكن لحادثة الصباح تلك أن تكون حادثة عرضية طفولية بامتياز لدى أيّ عائلة أخرى، وقد نسيت بيلا ما جرى في الصباح بالفعل بعد عودتها عصرًا، لكنّ كلماتها اخترقت عظام غاوري كنبوءة،

فقالت لساباش في ذلك المساء وهي تستريح من طباعة دراستها على الآلة الكاتبة وبعد خلود بيلا للنّوم، بينما كان هو يقوم بضبط حسابات نفقات البيت ويرتّب الفواتير: «أريد أن تعرف بيلا بالحقيقة».

ـ أي حقيقة؟

ـ أريد أن أخبرها عن أوديان.

حملق ساباش فيها برعب شديد.. تذكّرت المسدّس الذي أقحم برقبتها عندما كان أوديان متواريًا تحت زنابق الماء في الأرض المنخفضة، وأدركت أنّها الآن الشخص الذي يحمل السلاح.. أدركت أنّها القادرة الآن على قتل كلّ ما يهمّه من هذه الحياة.

ـ إنّها الحقيقة.

هزّ رأسه نافيًا وتغيّرت ملامح وجهه ثمّ وقف لمواجهتها.

ـ إنّها تستحقّ معرفة الحقيقة يا ساباش.

ـ إنّها صغيرة جدًا.. مازالت في السادسة من العمر.

ـ متى سيحين الوقت المناسب إذًا؟

ـ عندما تكون جاهزة لذلك.. لن تصيبها هذه الحقيقة الآن سوى بالأذى..

جهّزت غاوري نفسها للإصرار على موقفها.. لانتزاع القشرة المزيّفة التي تحيط بحياتهم وتخرّبها، لكنّها عرفت أنّه محقّ وأنّ الحقيقة ستكون شديدة الوقع على الصغيرة وأنّها لن تتمكّن من استيعابها ولربّما أدّى ذلك إلى تهديد حياتها مع ساباش بالكامل، وقد تؤدّي إلى تغيير نظرة بيلا تجاه ساباش، فقالت: «حسنًا إذًا...».

ـ انتظري..

ـ ماذا؟

ـ هل توافقينني؟

ـ قلت لك نعم.

ـ عديني..

ـ بماذا؟

ـ عديني بأنّك لن تخبريها..بأنّنا سنخبرها معًا يومًا ما.

وعدته رغمًا عنها، وشعرت بثقل الاحتفاظ بالوهم، بالتظاهر بأنّه والد بيلا.. الوهم الذي أثقل عليها واستقرّ في أعماق حياتها بدل الظهور على سطح تلك البحيرة ليراه الجميع.

أدركت غاوري أنّ استمرار هذه الحال هو الشيء الوحيد الذي يحتاجه ساباش منها، وأنّه فقد الأمل من حصوله على أيّ شيء آخر منها.

شعرت بنظرات أحد الرجال تجاهها في كلّ مرّة صادفته في الجامعة، كان يدير رأسه قليلًا ليتابعها لكنّه لم يتوقّف للتّعريف بنفسه ولم تسنح لهما الفرصة لذلك. كانت تعرف بأنّ شكلها مختلف عن بقية النساء في الجامعة وأنّ معظم الهنديات الأخريات كنّ يرتدين الساري، وأنّها مميّزة عن الجميع لأنّها هنديّة ترتدي الملابس الغربية والأحذية الرياضية.

لم تجده جذّابًا في البداية وخمّنت أنّه في الخمسينات من عمره، ولاحظت بروز بطنه قليلًا وضيق عينيه وبرودهما، وشعره الباهت المشعّث وشفتيه الرقيقتين وبشرة وجهه المتغضّنة والجافة على ما يبدو.

كان يرتدي سترة بنّية قصيرة فوق بلوزة صوفية ويحمل حقيبة جلديّة مهترئة. ورغم أنّهما تلاقيا باستمرار في الجامعة أثناء ذهابها إلى صفّ اللغة الألمانية في نفس المكان، ورغم تبادلهما السلام إلاّ أنّه لم

يبتسم لها أبدًا.

افترضت غاوري أنّه بروفيسور ولم تعرف الكليّة التي يعمل بها، ولاحظت في أحد الأيام خاتم زواج في يده.

التفتت إليه بعد مروره في المرّة التالية في تحدٍّ واضح منها له للتوقّف والتعارف.. لتبادل أيّ حديث، ولم تكن لديها أيّ فكرة عمّا يجب فعله لكنّها رغبت في الاستمرار في هذه اللعبة. شعرت بأنّ جسدها يستجيب لرؤيته، بتسرّع نبضات قلبها والخدر في أطرافها.

وهكذا.. بدأت تعتني بنفسها في أيّام الأربعاء التي كانت تلتقيه فيها، وتحضر الكثير من الطعام في مساء يوم الثلاثاء تمهيدًا لأيّ تأخير قد يحصل من جانبها حين التقائه في اليوم التالي ممّا قد لا يمنحها الكثير من الوقت للطّهي.. حسبت وقتها وعرفت أنّها لا تملك سوى ساعة أو أكثر معه بعد انتهاء حصص اللغة الألمانية، وقبل الذهاب لاستقبال الصغيرة.

لكنّها التقته يوم الإثنين صدفة في مكان آخر من الجامعة وعرفته من الخلف لكنّها كانت مضطرّة للذهاب لاستقبال بيلا خلال نصف ساعة وكانت في طريقها إلى المكتبة لاستعارة كتاب فغيّرت مسارها وتبعته بسرعة كي لا تفقده.

تبعته إلى داخل مبنى اتحاد الطلبة.. ذابت كلّ الموانع التي كانت تجول في خاطرها.. كانت قاب قوسين أو أدنى من الاقتراب منه وتوسّله ليحبّها.. مشت خلفه ما بين الأرائك المتقابلة في غرفة مشاهدة التلفاز حيث توقّف لأخذ نسخة من صحيفة الجامعة وتصفّحها قليلًا ثمّ ذهب للجلوس على أحد الأرائك بجانب امرأة.. وقبّلها، ثم لمس ركبتها بحنان.

هربت غاوري إلى المكان الوحيد الذي تعرفه.. إلى غرفة النساء الكبرى المؤدّية للحمّامات.. دفعت الباب الثقيل وخطت فوق السجادة السميكة الخضراء وحبست نفسها في أحد المراحيض. لم تكن بحاجة سوى لدقائق معدودات لتهدئة نفسها، لوضع حدٍّ للهيجان الذي شعرت به، ثمّ غسلت يديها وسوّت شعرها ولاحظت التوهّج الذي علا وجهها، ثمّ خرجت من الغرفة ولم تطرف عينها ناحية ذاك الرّجل مرّة أخرى.

سلكت طريقا مختلفا إلى حصة اللغة الألمانية في الأربعاء التالي كي لا تلتقيه مجدّدًا وقرّرت تغيير طريقها إذا ما صادفته من جديد.

حلّ شهر تموز وأغلقت المدارس والجامعات أبوابها، وجلست بيلا لتمضي وقتها في أحد الأيّام بقصّ الدمى الورقية من كتاب ورقيّ. أمّا ساباش فكان يُدرّس طلاب الدورات الصيفية في جامعة بروفيدنس ويقضي بقيّة وقته في مختبر في ناراغانست. وأمّا غاوري فقد أمضت أيامها مع بيلا دون سيارة للتجوّل ودون أيّ ساعة راحة من رعاية الطفلة.

حاولت قراءة فصل من كتاب سبينوزا (الأخلاق) وهي ترعى بيلا، فلاحظت تغييرًا واضحًا على سير الأمور ما بينهما. إنّها قادرة الآن على قراءة كتاب ورعاية ابنتها في الوقت ذاته، قادرة على البقاء معها دون الانغماس كليًا في رعايتها.

التلفاز مطفأ والشقة هادئة تمامًا ما عدا صوت المقصّ المتحرّك في يد بيلا ببطء لقطع الورق.

ذهبت إلى المطبخ لصنع كوب من الشاي فاكتشفت نفاد الحليب

من الثلاجة. عادت إلى غرفة المعيشة ونظرت إلى ظهر بيلا ورقبتها المنحنية المنهمكة في ما كانت تفعله. كانت الصغيرة تتحدّث إلى نفسها وتخترع حوارًا ما بين الدمى التي قصّتها وتقوم به بأصوات مختلفة.

ـ ارتدي حذاءك.

ـ لمَ؟

ـ يجب أن نذهب إلى المتجر.

ـ أنا مشغولة.

قالت بيلا تلك الجملة الصغيرة وكأنّها في الثانية عشرة لا في السادسة من العمر، كأنّها قصّت بحركة واحدة من مقصّها الصغير الحبل السرّي الذي يربطها بوالدتها، وأقصتها.

خطرت الفكرة لها على الفور، كان المتجر موجودًا خلف المبنى على بعد دقيقتين وبإمكانها رؤيته من نافذة المطبخ، إنّه يقع خلف حاويات القمامة وآلات المشروبات الغازية والسيارات المركونة في الخلف.

ـ سأنزل إلى الأسفل لأحضر البريد.

خرجت غاوري دون تفكير في الأمر وأغلقت الباب ونزلت السلالم وعبرت المرآب الخلفيّ في ذلك اليوم الصيفي الحارّ. مشت بسرعة تقارب الجري وشعرت بعد دخولها المتجر بأنّها مجرمة، وخشيت من أن يظنّ البائع اللطيف دومًا مع بيلا بأنّها قدمت لتسرق الحليب بدلًا من شرائه.

ـ أين ابنتك الصغيرة اليوم؟

ـ إنّها مع صديقة.

ابتسم البائع وأهداها قطعة سكّر بطعم النعناع من طبق كبير على

منضدة البيع وقال: «أخبريها أنّي أرسلت إليها قطعة السكّر هذه.. هديّة».

خرجت الكلمات من فم غاوري بحذر وبطء كما جرى معها عندما وصلت إلى أمريكا قبل سنوات.. حرصت على التفوّه بكلمات الشكر عندما سلّمها كيس مشترياتها. رمت غاوري قطعة السكّر قبل أن تصل إلى المبنى لأنّها لم ترغب في وجود دليل عدا علبة الحليب على فعلتها.

وضعت بيلا في اليوم التالي أمام شاشة التلفاز وفكّرت في كل الاحتمالات.. وضعت لها كأس ماء في حال شعورها بالعطش، وطبقًا مترعًا بالبسكويت والعنب، والكثير من الأقلام. نصف ساعة من التحضير لغياب خمس دقائق عن البيت.

ضاعفت غاوري الدقائق الخمس إلى عشرٍ بعد فترة، ثمّ جعلتها خمس عشرة دقيقة، استغلّتها في الاسترخاء، وكانت ربع الساعة تلك تكفيها للعدو إلى المكتبة لإعادة كتاب استعارته من قبل على سبيل المثال، وكانت تلك أشياء بسيطة يمكن لها القيام بها في أيّ وقت آخر، لكنّها عقدت العزم على فعلها في هذا الوقت بالذات، فكانت تجري إلى مكتب البريد لإرسال رسالة تطلب فيها الكتب التي اقترحها البروفيسور وايز، وقد كانت تلك الدقائق كافية لتشعر بأنّ الحياة ستكون مختلفة للغاية دون وجود ساباش أو بيلا فيها.

تحوّل الأمر مع الوقت إلى تحدّ بالنسبة إليها، إلى لغز يجب حلّه، لإبقاء نفسها في حالة الجهوزية التامّة على مدار الساعة. كان الأمر عندها كسباق إجباريّ تخوضه وحدها مرّة تلو الأخرى خوفًا من تهاونها في إنجاز ما عزمت عليه حال توقّفها. كانت تتأكّد قبل خروجها من إطفاء الموقد وإغلاق كافّة النوافذ وإبعاد السكاكين عن متناول يد

الصغيرة رغم أنّ الفتاة لم تكن لتلعب بأيّ شيء من ذلك.

وهكذا، بدأت غاوري مغامراتها تلك في أوقات العصر، ولم تقم بها كلّ يوم لكنّها كانت تقوم بذلك بشكل كاف لها للاستمرار، مشتّتة، مضلّلة بالإحساس الزائف بالحريّة، تتنشّقه وتبتلعه وتتحسّسه كما يشعر المتسوّل الجائع تجاه الطعام.

كانت تمشي أحيانًا إلى المتجر وتعود دون شراء أيّ شيء، وكانت تحضر البريد بالفعل أحيانًا أخرى وتجلس على كرسيّ في حديقة الجامعة لإلقاء نظرة سريعة عليه، أو تذهب إلى مبنى اتّحاد الطلبة لإحضار صحيفة الجامعة ثمّ تعود جريًا وتخبّ على درجات السلّم وتفتح الباب وهي تشعر بالنصر والفخر بنفسها، وتنظر إلى بيلا التي كانت تجلس على الدوام بنفس الوضع الذي تركتها عليه، دون الاشتباه بخروجها ودون سؤالها عن المكان الذي كانت فيه.

ثمّ.. عاد ساباش في أحد الأيام قبل وقته المعهود ناويًا اقتناص فرصة الطقس الجميل لأخذ بيلا في رحلة إلى الشاطئ. وجد بيلا تحت إحدى الخيمات التي كانت تصنعها بوضع الأغطية فوق الطاولة والأريكة في غرفة المعيشة، وكانت تلعب فرحة بها بنته بيديها.

أخبرته أنّ أمّها قد خرجت لإحضار البريد لكنّه لم يجد غاوري في أسفل السلّم، وقد عرف ساباش أنّها لم تخرج لإحضار البريد لأنّه أحضره بنفسه قبل صعوده إلى الشقّة.

عادت غاوري بعد عشر دقائق مع صحيفة ولم تلاحظ وجود سيارة ساباش في المرآب. لم تفكّر في احتمال عودته لأنّه لم يتّصل قبل خروجه من العمل ليخبرها بأنّه سيخرج الليلة مبكّرًا.

«ها هي..» قالت بيلا عندما دخلت غاوري. «هل ترى.. لقد أخبرتك أنها تعود دائمًا». لكن ساباش، الذي كان ينظر من النافذة في تلك اللّحظة، لم يلتفت لمواجهتها، وبقي على حاله هكذا لعدّة دقائق.

لم يقل شيئًا في البداية، وعاقبها بعدم الكلام معها لمدّة أسبوع، ورفض حتى الالتفات والنّظر إليها كما تجاهلها حمواها بعد موت أوديان. عاش معها في نفس الشقة وكأنّها غير موجودة.. وكأنّ الشقّة لا تحتوي إلاّ على ساباش وبيلا دون التخلّص من غضبه. وقال عندما قرّر كسر صمته: «كانت أمّي على حقّ. أنت لا تستحقّين أن تكوني أمًّا.. لقد ضيّعت ثقتي فيك».

اعتذرت.. أخبرته بأنّها لن تعيد الكرّة أبدا رغم الكره الذي انتابها تجاهه لأنّه أذلّها بكلماته هذه..عرفت في قرارة نفسها أنّ كلماته عادلة وأنّه قد لا يسامحها أبدًا على فعلتها هذه.

ابتعد ساباش عنها بالتّدريج رغم معيشتهما في نفس البيت، بنفس الدرجة التي ابتعدت بها عنه.. منحها ساباش دون تردّد البعد والهوّة الكبيرة التي حاولت زرعها ما بينهما في بداية زواجهما. لم يعد يرغب في لمسها في السرير ولم يذكر لها مجدّدًا موضوع إنجاب طفل آخر.

لم يعترض ساباش عندما طلبت الجامعة منها الانضمام إلى برنامج نيل درجة الدكتوراه في الربيع التالي في بوسطن ودفعت لها الإدارة تكاليف الذهاب بالحافلة. لم يتفوّه بحرف عندما بدأت بالسفر يومين في الأسبوع إلى بوسطن أو عندما وجدت طالبات لمساعدتها في رعاية بيلا خلال غيابها.. لم ينتقد إخلالها بنظام حياتهم الأسريّة ولم يعبر لها عن رفضه لرغبتها تلك في قضاء ذلك الوقت بعيدًا عنهما.

لم يناقشا احتمال الانفصال بسبب وجود بيلا. لقد تمّ زواجهما بسببها، ورغم الضرر الذي سبّبته غاوري، ورغم برنامج حياتها الجديد، وغيابها المتكرّر عن البيت، إلاّ أنّ الحقيقة المتجسّدة في بيلا بقيت ماثلة للعيان على حالها. ثمّ إنّها ما تزال تلميذة، إنّها كبيلا تمامًا.. لا تستطيع العيش دون ساباش أبدًا.

الفصل الخامس

1

كانت بيجولي تراقب الاضمحلال التدريجي للبركتين المجاورتين للمنزل وتتابع اختفاء الأرض المنخفضة يوما بعد يوم... وإذا الواقع قليل من المياه المتبخّرة ومزيد من القمامة المرميّة فوقهما كل يوم.. ملابسُ قديمة وأسمالٌ وجرائدُ وعلبُ حليب فارغة وأوانٍ زجاجية مكسورة وعبوّات بودرة التالك الفارغة وورق شوكولا كادبوري البنفسجي وأكواب فخارية مكسورة كانوا يستعملونها في ما مضى لتقديم الشاي واللبن المحلّى.

شكّلت الكومة حاجزًا أبيض اللون قرب حافّة الماء، كما كان يبدو من مسافة بعيدة، لكنّه كان حاجزًا ملوّنًا في الحقيقة عن قرب. انتهى الأمر برمي كلّ النفايات هناك.. حتّى نفاياتها هي.. ورق البسكويت والزبدة وأنابيب معجون الأسنان الفارغة وكرات شعرها المتساقط التي تستخرجها من أسنان مشطها وترميها مع القمامة.

لطالما رفض الناس وجود المستنقعات هنا، لكنّهم لم يسعوا إلى ردمها في الماضي، أمّا الآن.. فقد بدأ السكّان بردمها بقمامتهم بشكل متعمد وغير شرعيّ.. راحوا يردمون البرك والحقول الطينية ويستمعون لمن يروّج في المدينة لفكرة أنّهم يساهمون في زيادة صلابة الأرض المحيطة بالمدينة والمليئة بالمستنقعات لإنشاء أحياء سكنيّة جديدة وبناء مساكن للمشرّدين تأوي الأجيال الجديدة.

جرى الأمر على هذه الشاكلة وعلى نطاق واسع في الشمال، في بيداناجار، وقد قرأت عن الموضوع في الصّحف، حيث وضع المهندسون الهولنديون أنابيب في الأرض لتثبيتها وحمايتها من الانجراف وردموا مستنقعات وقرّبوا بحيرات من بعضها البعض وحوّلوا الأراضي التي لطالما غطّتها المياه إلى أرض صالحة للسكن وأسّسوا مدينة جديدة وسموها (سولت ليك).

كانت مياه المنطقة نظيفة حينما انتقلوا إليها، ممّا شجّع ساباش وأوديان على السباحة في البرك في أيّام الحرّ وحظي الفقراء بمياه مجّانية للاستحمام. وبعد مواسم الأمطار والفيضانات، كانت الأرض المنخفضة تتحوّل إلى مكان رائع تجوبه الطيور، وكانت نظيفة وصافية إلى حدّ أنّها كانت تعكس نور القمر الفضّي في الليل.

صُرّفت المياه الموجودة فيها إلى بئر أخضر اللون في المركز، أخضر داكن يُذكرها بسيارات الجيش. وفي أيّام الشتاء الحارّة، كانت تشاهد تبخّر المياه من شرفتها هذه بعد تحوّل الأرض المنخفضة إلى مستنقع طينيّ.. أعمدة بخارية ترتفع من بعض البرك الصغيرة وتتلاشى في الهواء.

لم تتوقّف زنابق الماء عن النموّ رغم القمامة المرميّة التي تحيط بها وتغمرها. تابعت النموّ بفضل جذورها الصلبة. ولم يكن هناك من حلّ للتخلّص منها أمام المهندسين وأصحاب رؤوس الأموال إلاّ بحرقها أو إزالتها بالحفّارات.

كانت تنهض من كرسيّها في وقت معيّن من النهار لتنزل إلى الفناء لقطف بعض الأزهار والياسمين وتضمّها في راحة يدها وتراقب أزهار

الدفلى التي زرعها زوجها ومازالت تزهر حتى في الشتاء. كانت تلك الأزهار جميلة إلى درجة أنّ الناس كانوا ينحنون فوق السور لإبداء إعجابهم بها.

ثمّ تعبر البركتين والمستنقعات حتى تصل إلى الأرض المنخفضة.. تغيّرت طريقة مشيتها، بعد أن فقدت التوازن اللاّزم لوضع القدم أمام القدم الأخرى أثناء المشي، وهكذا.. كانت تميل بجسدها من جانب إلى آخر مع كلّ خطوة وتنحني إلى الأمام من جانب واحد.

جرى الأمر منذ وقت طويل بما فيه الكفاية للتحدّث عنه ورواية القصص عمّا جرى. وهكذا.. كان الأطفال الصغار الذين ولدوا بعد وفاة أوديان يصمتون عندما تعبر أمامهم مع أزهارها وجرّتها النحاسية.

كانت تغسل الحجر التذكاريّ وتستبدل أزهار الأمس باليوم. لقد حلت الذكرى الثانية عشرة لوفاته في شهر أكتوبر الماضي.. بلّلت يديها بماء بركة قريبة ونفضت قطرات الماء فوق الأزهار لتبقيها رطبة طوال الليل.

كانت بيجولي تعرف أنّها تخيف هؤلاء الأطفال، بمرورها الشبحيّ اليومي في نفس الساعة.. وأنّها تبدو لهم كظلّ يراقبهم من الشرفة ويخرج يوميًا في الوقت نفسه. رغبت في إخبارهم بأنّهم على حقّ وأنّ شبح أوديان موجود في المكان.. يجوب البيت ومحيطه والحيّ بأكمله.

كانت تشعر في بعض الأيّام بأنّها قادرة على إجابتهم لو سألوها.. وأنّها تراه يقترب من المنزل بعد يوم طويل في الكليّة، تراه يدفع باب الفناء المتحرّك ويحمل حقيبة كتبه على كتفه، حليق الذقن مهتمًا أيّما

اهتمام بدراسته، توّاقًا للجلوس إلى طاولة مكتبه، يخبرها بأنّه جائع وظمآن لكوب شاي، يسألها عن سبب عدم وضع الإبريق على النّار حتى الآن.

إنّها تسمع خطوات قدميه على السلّم والمروحة في غرفة نومه وصوت المذياع الذي توقّف عن العمل قبل سنوات وصوت أعواد الثّقاب التي يشعل بها سجائره والشعلة التي تلتهب لثوانٍ ثمّ تخبو وينتهي أمرها في المنفضة.

لم يعيدوا الجثمان إليهم أبدًا.. وصموهم بالعار.. حرموهم من تكريم جثمانه المصاب بالنار، لم يتمكّنوا من دهنه بالزيت وتغطيته بالأزهار.. لم يحملوه خارج الحيّ على أكتاف رفاقه ليدخل العالم الآخر صائحًا بأعلى صوته.. حرّية.. حرّية.

ولم يلجؤوا إلى القانون بعد وفاته.. فقد مات وفقًا للقانون. في ذلك الوقت.. القانون هو الذي سمح للشرطة بقتله. بحثت مع زوجها عن اسمه في الصحف لحاجتهم لدليل قطعيّ رغم مشاهدتهم لمقتله بأمّ أعينهم.. لكنّهم لم يعثروا عليه. لم يعترف أحد بما جرى. وكان هذا الحجر التذكاري الذي وضعه زملاء حزبه الدليل الوحيد والاعتراف الأوحد بموته.

لقد سمّوه تيمّنًا بالشمس.. مانحة الحياة، دون انتظار أيّ شيء في المقابل.

تقاعد زوج بيجولي في العام التالي من وفاة أوديان ورحيل غاوري إلى أمريكا للالتحاق بساباش. كان يستيقظ قبل الفجر ويستقلّ أوّل قطار إلى الشمال ليصل إلى بابو غات، حيث يغتسل متطهّرًا في مياه نهر

الغانج، ثمّ يعتزل في غرفته طوال النهار بعد تناول الإفطار للقراءة، ويرفض تناول الأرز على الغداء ويطلب من زوجته تقطيع بعض الفواكه له وتسخين بعض الحليب بدلًا عن الطعام.

قضى أيّامه تبعًا لهذا الروتين المتمثّل في حرمان نفسه من تلك الأشياء الصغيرة كلّها .. توقّف عن مطالعة الصحف والجلوس مع زوجته على الشرفة والتذمّر من سكون النسيم الذي كان يثقل على أنفاسه. قرأ المهابهارتا باللغة البنغالية ببطء ونسي نفسه تمامًا أثناء قراءة بعض القصص التي كان يعرفها مسبقًا، قصص الصراعات القديمة التي لم تؤثّر فيه فيما مضى. وعندما بدأت عيناه تؤلمانه وتغيمان بسبب إعتام عدسة العين، لم يتكبّد عناء مراجعة طبيب واستعمل عدسة مكبّرة لمتابعة القراءة.

بعد فترة، اقترح على زوجته بيع المنزل والانتقال بعيدًا عن تولّيه غانج وهجر كالكوتا إلى الأبد، الانتقال إلى مكان آخر من الهند.. إلى بلدة جبلية عالية أو طلب فيزا ربّما للذهاب إلى أمريكا والانضمام لساباش وغاوري. أفضى لها بشعوره بأنّه لم يعد يربطهما شيء بهذا المكان.. وأنّه يشعر بوحشة المنزل الخاوي.. المخالف تمامًا للمستقبل الذي افترضا حدوثه وخطّطا له.

فكرت قليلًا في أمر السفر ومصالحة ساباش وتقبّل غاوري والتعرّف على ابنة أوديان. لكنّ الأمر استحال عليها، استحال عليها هجر البيت الذي عاش فيها أوديان منذ ولادته والحيّ الذي مات فيه والشرفة التي شاهدته منها آخر مرّة من بعيد والأرض المنخفضة التي قبضوا عليه فيها.

لم تعد الأرض خالية كما كانت.. هناك بيوت مشيّدة عليها الآن، بيوت تكتظّ أسطحها بالهوائيات. وفي الصباح، كان سوق عربات الخضار الرخيصة يحطّ رحاله قريبًا منها، كما أخبرتها ديبا.

قبل شهر، ربط زوجها ناموسية نومه فوق السرير وربط ساعة المنبه للاستيقاظ في اليوم التالي. لكنّها لاحظت في الصباح أنّ باب غرفته المجاور لغرفتها مازال مغلقًا وأنّه لم يخرج باكرًا للاغتسال في الغانج.

لم تقرع الباب وذهبت إلى الشرفة للجلوس وتأمّلِ السماء وارتشاف الشاي. راقبت الغيوم القليلة الخالية من الأمطار ثمّ طلبت من ديبا حمل الشاي إلى غرفة زوجها وإيقاظه.

سمعت بيجولي صوت انكسار الفنجان وتهشّمه إلى شذرات بعد دخول ديبا بدقائق إلى غرفة زوجها..عرفت بيجولي أنّ زوجها قد مات قبل أن تهرع ديبا إلى الشرفة لتخبرها بذلك.

لقد أصبحت أرملة.. ومثلما جرى لغاوري، ارتدت الساري الأبيض وخلعت علامة الزواج من شعرها وتوقّفت عن تناول السّمك.

لكنّ غاوري امرأة متزوّجة للمرّة الثّانية.. من ساباش، وهو أمر ما يزال يصيبها بالدهشة والفزع حتى الآن. وعلى نحو ما، كان احتمال وقوع زواجهما أقلّ توقّعًا وأكثر غرابة من احتمال موت أوديان، كان ذلك يصيبها بإحباط أفظع من فاجعتها في ابنها.

تقوم ديبا بكلّ واجبات المنزل الآن، وهي فتاة مراهقة يعيش أهلها خارج المدينة، ولها خمسة أشقّاء آخرين يعملون مثلها لتقديم الدعم لأهلها، ولهذا.. فقد منحتها بيجولي مجوهراتها التقليلدية ومقتنياتها

الملوّنة ومفاتيح البيت. فكانت تغسل شعر بيجولي وتمشّطه ثمّ تصفّفه بحيث تخفي الأماكن التي راحت تفقد الشعر فيها، وتنام في البيت ليلا، في غرفة الصلاة التي لم تعد بيجولي تستعملها.

استلمت الفتاة الشؤون المالية، فكانت تذهب إلى السوق وتطبخ الطعام وتحضر البريد وتستخرج ماء الشرب في الصباح من البئر وتتأكّد من إقفال البوابة عند حلول الظلام، وتخيط ما يتمزّق من الملابس على آلة الخياطة التي اعتاد أوديان تزيينها لأمّه وإصلاحها كي لا تضطرّ إلى أخذها للإصلاح في الخارج. سمحت لها بيجولي باستعمال آلة الخياطة كما تشاء فتمكّنت من تأمين دخل رديف لها كما كانت بيجولي تفعل في الزمان الغابر.. خاطت الستائر والسراويل للناس، والبلوزات لنساء الحيّ.

وعند العصر، كانت ديبا تقرأ لبيجولي مقالات الصحف دون أن تكملها مطلقًا لأنّها لم تكن تعرف كيفية قراءة الكلمات الصعبة، فأخبرتها أنّ رئيس أمريكا الحالي هو ممثّل سينمائي سابق، وأنّ الحزب الشيوعي يدير غرب البنغال الآن، وأنّ باسو.. الذي اعتاد أوديان شتمه طوال الوقت، قد أصبح رئيس الوزراء.

وهكذا.. حلّت ديبا مكان الجميع.. مكان زوجها وكنّتها وابنيها، وقد فكّرت بيجولي في أنّ روح أوديان قد رتبّت لها هذه الأمور على هذا النحو.

تذكّرت كيف كان يجلس في الفناء ليعلّم القراءة والكتابة للصبيان والبنات الذين لم تتسنّ الفرصة لهم للذهاب إلى المدرسة، كيف صادقهم وأكل معهم ولاعبهم وتبرّع لهم باللّحم الموجود في طبقه ودافع عنهم كلّما طردتهم بيجولي من المنزل.

بعد أن بلغ أوديان أشدّه كان يجمع الأغراض البالية، كالأغطية القديمة وقدور طهي الطعام، للتبرّع بها للعائلات التي تعيش في الشارع. كان على استعداد لمرافقة خادمة إلى أفقر أحياء المدينة لحمل الدواء إلى بيت أهلها واستدعاء الطبيب لأيّ فقير مريض وتحضير جنازة لأيّ شخص معدم يموت دون تمكّن أهله من تأمين مدفن له.

قالت الشرطة إنّه وغد، نذل متطرّف..عضو في حزب سياسي غير مرخّص له.. شاب جاهل لم يعرف الخطأ من الصواب.

وهكذا.. اعتمدت على معاش زوجها المتوفّى ومعلوم إيجار غرف الطابق السفليّ التي أجّرتها لعائلة أخرى بعد رحيل غاوري، بالإضافة إلى شيك يرسله ساباش بين الحين والآخر بالعملة الأمريكية، وهي الدولارات التي تحتاج إلى أشهر في كلّ مرّة لصرفها. لم تطلب منه المساعدة يومًا لكنّها لا تستطيع رفضها لأنّها تحتاج إليها.

وفّرت لها تلك النقود ما يكفيها من الطعام مع ديبا، وتمكّنت من شراء ثلاّجة وتركيب خطّ هاتفيّ رغم سوء التوصيلات والخطوط. رفعت السمّاعة واتصلت بساباش في أمريكا. وفي اللّحظة التي وصل الطنين إلى هاتفها وأرسلت صوتها إلى أمريكا لتخبر ابنها بوفاة أبيه التي حصلت قبل أيّام فقط، فاجأته.. بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، وفوجئت هي أيضًا.. نعم.. ولكن ما هي درجة تأثير تلك المفاجأة فيها؟

لقد عاشا لأكثر من عقد من الزمن في غرفتين منفصلتين، امتنع زوجها عن الحديث عمّا جرى لأوديان لأكثر من عشر سنوات.. رفض الكلام مع بيجولي عنه ومع أيّ شخص آخر. كان يستقلّ الترام كل صباح ليغتسل من عاره في الغانج، ويشتري بعض الفواكه بين الحين

والآخر من السوق، ويتوقّف في طريقه إلى البيت للثرثرة مع بعض الجيران.. لكنّهما لم يتكلّما معا حول ما جرى.. لم يتناولا وجبات العشاء أبدًا.. لم ينظرا إلى صورة أوديان المعلّقة في غرفة المعيشة رغم جلوسهما تحتها طوال الوقت.

لقد عشقا هذا البيت.. شعرا بأنّه ابنهما الأوّل، شعرا بالفخر تجاه كلّ تفاصيله والتغييرات التي طرأت عليه مع مرور الزّمن مهما صغرت لأنّهما بنياها معًا.

في البدء، عندما كان المنزل حديث البناء ولم يتألّف سوى من غرفتين، كانت الكهرباء قد وصلت حديثا إلى الحيّ، وكانوا يضيئون المصابيح والقناديل قبل وجبة العشاء لأنّ أضواء الشارع البريطانية المثبتة على الأعمدة الحديدية التي تقدّم أبلغ الأمثلة عن الهندسة المدنية البريطانية لم تكن تضاء بشكل أوتوماتيكي، فكان يتعيّن على الموظفين الحضور لإشعالها في المساء وإطفائها في الصباح بكبسة زر صغير يصعدون إليه على سلالم خشبية يحملونها معهم لهذا الغرض.

قطعة الأرض بحدّ ذاتها كانت صغيرة مقارنة بغيرها، حيث بلغ عرضها خمسة وعشرين قدمًا وطولها ستين قدمًا، ممّا أدّى إلى بناء بيت ضيّق، إذ لم يبلغ عمقه سوى ستّة عشر قدمًا، واضطروا البناء ممرّ إجباري يبلغ أربع أقدام عرضًا على جانبيه ثمّ بناء السّور الخارجي.

ساهمت بيغولي في تكلفة البناء بالثروة الوحيدة التي تملكها، ألا وهي القطع الذهبية التي حصلت عليها عند زواجها، بعد أن أكّد زوجها أنّ بناء بيت خاص بهم في كالكوتا، قبل إنجاب الأطفال، أهمّ بكثير من اقتناء الذهب. لقد آمن زوجها بأنّ البيت هو الضمانة الكبرى لهم.

غُطّي السقف الأصليّ بقطع القرميد المصنوعة من الطين المشويّ، ثمّ استبدلت فيما بعد بالاسمنت المسلّح. وفي وقت من الأوقات، كان ساباش وأوديان ينامان في غرفة يغطّي نافذتها قماش الخيش فهي بلا قضبان أو زجاج لأنّ المصاريع لم تكن قد وضعت في أماكنها بعد، ممّا سمح للمطر بالدخول إلى البيت في بعض الأحيان.

استحضرت ما حدث يوم راح زوجها يلمع المزاليج والمفصّلات الرابطة ما بين الأبواب والجدران بقماش قديم، ويوم نفض المراتب للتخلّص من الغبار. وتذكّرت أنّه كان ينظّف الحمّام مرّة في الأسبوع قبل استحمامه بعد بنائهم لحمّامهم الخاصّ بهم، فكان يسكب الفينيل في الزوايا ويتخلّص من شبكات العناكب الجديدة.

كانت بيجولي تجرد محتويات الغرف كلّ يوم للتأكّد من ممتلكاتها، تزيحها وتنفض عنها الغبار وتعيد ترتيبها في أماكنها بدقّة شديدة، وكانت الأغطية تُفرش تحت إشرافها لتكون مشدودة كما يجب، وتُمسح المرايا لتنظيفها من البقع وتُنظّف أكواب الشاي من البقع الناتجة عن تكرار الاستعمال، لتبدو دومًا جديدة.

ثم تُعبّأ المياه النظيفة اللازمة للاستعمال اليومي يدويًا في دلاء توضع بشكل صفّ طويل، وتُخزّن مياه الشرب في جرار فخارية. ساعدتهم الظروف في الخمسينيات على بناء مرحاض خاصّ بالمنزل. أمّا قبل ذلك، فقد كانوا يستعملون غرفة خارجية مجاورة للبوّابة الرئيسية للتخلّص من فضلاتهم، ويُنظّفها يوميًّا رجل يأتي كلّ صباح ويحملها فوق رأسه.

تعود ملكيّة أرض كامل الحيّ إلى شخص يدعى ميجو صاحب، وهو واحد من أبناء النواب الثلاثة الذين كانوا يملكون كامل المنطقة، وقد ورثوها عن سلفهم السلطان تيبو، الذي اغتاله الانكليز وقسموا مملكته وعزلوا ذريّته لسنوات في نادي تولّيه. بإمكان أيّ زائر لإنكلترا، كما سمعت بيجولي، أن يشاهد سيف السلطان تيبو ونعليه وبعضًا من قماش خيمته الملكيّة وعرشه في أحد قصور الملكة إليزابيث حتى الآن، لأنّ البريطانيين يعرضونها كغنيمة حرب حصلوا عليها في إحدى الفتوحات التي تمّت باسم الملكة.

عاشت العائلات الملكيّة بين الناس في كالكوتا إبّان طفولة ساباش وأوديان، خلال السنوات التي لم يعرف فيها أحد ما سيؤول إليه مصير كالكوتا.. هل ستنضمّ للباكستان أم ستبقى مدينة هندية. كانوا لطفاء، ولطالما طلبوا من بيجولي التفضّل بزيارتهم في منازلهم الكبيرة بأعمدتها الرخامية، وقدموا لها العصير الحلو المذاق، فكان ساباش وأوديان يلاعبان الأرانب التي يحتفظون بها كحيوانات أليفة في أقفاص في حدائقهم، ويلهوان بالأراجيح الخشبية المُتدلّية من أغصان الأشجار الليفية.

خشيا عام 1946 من العنف الذي ساد المدينة، خافا أن تصل ناره إلى منطقة تولّيه غانج، من أن يحاربهم جيرانهم المسلمون ففكّرا بالانتقال إلى منزل آخر وحزما حقائبهما بالفعل وعاشا في قطاع مختلف من المدينة تسكنه غالبية هندوسية. لكنّ أحد أقارب ميجو صاحب تكلّم مع سكّان المنطقة بصراحة وخاطر بحياته لحماية الهندوس أمثالهم قائلًا: «سيضطرّ كلّ من يدخل المنطقة لتهديد سلامة الهندوس الموجودين هنا

إلى قتلي أوّلًا قبل قتل الآخرين».

ولكن بعد التقسيم، فرّت عائلة ميجو صاحب مع الكثير من عائلات الدّم الملكيّ والهندوس من المنطقة، تغيّرت أرضهم وأرض أجدادهم ولم تعد صالحة لمعيشتهم، كما يحدث للنبات الذي تغزو المياه المالحة الأرض التي ثبّت فيها جذوره، فإمّا أن يموت، أو أن يزرع في مكان آخر. هجروا بيوتهم الفخمة، التي احتلّها آخرون فيما بعد، أو هُدِمت وطالها الخراب.

شعرت بيجولي أنّ بيتها هذا قد هُجر، كما حصل لتلك البيوت من قبل، أنّ مساره قد تحوّل لتطاله يد الخراب أيضًا، فلم يعش أوديان ليرثه ورفض ساباش العودة للعيش فيه. علمت بيجولي أنّ بقاء ابنها ساباش على قيد الحياة يجب أن يقدّم لها العزاء والسلوى. إنّه الابن الذي بقي لها بعد موت أخيه، لكنّها لم تكن قادرة على حبّه دون وجود أخيه، لقد أضافته للخسارة العظمى التي منيت بها.

لم تشعر إلاّ بالغيظ والسخط والنقمة عندما عاد إليهما بعد مقتل أخيه، عندما وقف أمامهما.. أصابها الحنق لأنّه يذكّرها بأوديان أكثر من اللاّزم، لأنّه يملك الصوت ذاته وكأنّه نسخة منه وضعوها في مكان آمن في حال حرمانهم من أوديان..سمعت حواره مع غاوري، لمست اهتمامه بحديثها ولطفه معها. وأخبرته عندما علمت برغبته في الزواج منها أنّ القرار لا يعود إليه، وقالت له بعد إلحاحه بأنّه يجازف بكلّ شيء، يخاطر بكلّ شيء، وأنّهما لن يدخلا هذا البيت كزوج وزوجة أبدًا.

لم تقل بيجولي له هذه الكلمات إلاّ لتوجعه، لأنّ الفتاة التي لم تقبل بها في عائلتها، لم تقبل باتّخاذها كنّة من البداية، ستصبح كنّتها مرّتين على

التوالي.. قالت له ذلك لأنّ غاوري تحمل في رحمها قطعة حيّة من أوديان.

لم تكن تعنِي تمامًا ما قالته، لكنّ ساباش وغاوري امتثلا لرغبتها، ولم يعودا إلى البيت أبدًا. لم يظهرا معا ولم يأتِ كلّ واحد منهما على حدة إلى تولّيه غانج، عاشا بعيدًا عنها، ولهذا.. انتهى الأمر بها للشعور بأقصى حدّ من العار والخذلان يمكن أن يصيبا أيّ أمّ لأنّها لم تتمكّن من المحافظة على حياة أحد ابنيها وفقدت الثاني وهو على قيد الحياة.

تاقت بيجولي قبل واحد وأربعين عامًا إلى إنجاب طفل أكثر من أيّ شيء آخر في حياتها، وحدث هذا بالفعل بعد خمس سنوات من زواجها وهي في منتصف العشرينيات عندما بدأت تفكر بأنّها عقيمة غير قادرة على إنجاب الأطفال، وأنّ تكوين أسرة مع زوجها غير مقدّر لهما وأنّهما باعا كلّ شيء لشراء هذه الأرض وبنيا عليها بيتهما سدى.

لكن ساباش ولد في نهاية عام 1943، بعد أن باتت تولّيه غانج بلديّة منفصلة وافتتح جسر هاورا لحركة المرور، مع استمرار العربات التي تجرّها الأحصنة في حمل الناس إلى محطة القطار. ولد ساباش في الوقت الذي صام فيه غاندي احتجاجًا على الانكليز، وحارب الانكليز بدورهم دول المحور، ممّا أجبر القوّات البريطانية على إخفاء جنودها بين أغصان أشجار تولّيه غانج لإطلاق النار على الطائرات اليابانية حال ظهورها.

فاض القرويون من محطة قطار بالي غانج في صيف حملها بساباش. كانوا هياكل عظمية أنصاف مجانين.. هؤلاء الذين كانوا مزارعين فيما مضى وصيّادين.. أنتجوا الطعام وقدّموه للآخرين، ثمّ صاروا يموتون جوعًا بسبب نقصه.. تناثروا في شوارع كالكوتا، في ظلال أشجارها.

لقد دمّر أحد الأعاصير محاصيل الساحل بكاملها العام الماضي لكنّ الجميع كانوا على بيّنة من أنّ المجاعة التي تلت كانت كارثة من صنع الإنسان. ارتفع سعر الأرز ارتفاعا جنونيّا إلى أن استحال شراؤه من قبل الناس بسبب ارتفاع كلفة الحرب وانصراف انتباه الحكومة إلى الشؤون العسكرية وتهديد قوافل توزيع الغذاء بسبب انعدام الأمن.

تذكّرت تلك الجثث كيف تفسّخت تحت الشمس وتعفّنت على الطريق وكيف غطّاها الذباب ونقلتها العربات بعيدا وتذكّرت النساء اللواتي بلغت درجة نحول أذرعهن حدّ رفع أساور زواجهنّ إلى ما فوق المرفقين لمنعها من السقوط. تذكّرت المعدمين الذين كانوا لا يملكون حتّى الطاقة الكافية لإيقاف الناس في الشارع لطلب مياه طبخ الأرز المترعة بالنشاء الذي يتبقّى بعد طهيه ويُرمى عادة في القمامة.

وهكذا، توقّفت بيجولي عن رمي تلك المياه وراحت تعطيها للجوعى الذين يتجمّعون في أوقات طهي الطعام خارج البوابة. ومع أنّ حملها بساباش كان يثقل عليها إلاّ أنّها تطوّعت لطهي عصيدة للمعدمين كلّ يوم. أذهلتها أصوات توسّلاتهم وهم يستجدون الطعام خلال الليل كثغاء الخراف المتقطّع، كما كانت صيحات عويل بنات آوى في حقول نادي تولّيه تذهلها تمامًا.

كانت ترى الناس يبحثون عن الغذاء في البرك المقابلة لمنزلها وفي طين الأرض المنخفضة الفائضة بالماء، ويأكلون الحشرات والتراب واليرقات التي تزحف تحت سطحه. أنجبت بيجولي ابنها الأوّل وأتت بنفس حيّة إلى هذا العالم خلال عام المعاناة والمصائب ذاك الذي نشر جناحيه حيثما أرسل الإنسان نظره.

بعد خمسة عشر شهرًا وقبل انتهاء الحرب واستسلام اليابان بوقت قصير، أنجبت أوديان. إنّها تذكر أنّ فترة حملها به كانت طويلة شاقة، فقد احتلا رحمها واحدًا تلو الآخر. انقسمت خلايا أوديان وتكاثرت متضاعفة بلا هوادة قبل أن يخطو ساباش خطواته الأولى، قبل منحه اسمًا يليق به، وجوهريًا، لم يفصل بينهما سوى ثلاثة أشهر تقع ما بين عيدي ميلادهما، لا خمسة عشر شهرًا كما جرى في الحقيقة.

كانت تطعمهما الأرز والسمك بيدها من طبق واحد، بعد أن تفصل الأشواك وتضعها على جانب الطبق وتخلط اللحم بالأرز.

ومن البداية، كان أوديان متطلّبًا أكثر من أخيه. كان يشعر لسبب ما أنّها لا تحبّه كأخيه، فكان يبكي ويحتجّ من لحظة ولادته الأولى.. كان يبكي بشدّة إذا وضعته بين يدي امرأة أخرى للعناية به أو غادرت الغرفة لقضاء حاجة. لقد ميّزت حاجته تلك إلى تأكيد حبّها واهتمامها به، وأثارت حفيظتها في نفس الوقت لأنّها كانت حاجة أكثر من عادية.

ربّما شعرت لهذا السبب بأنّ أوديان أقرب إليها من ساباش، فقد تحدّاها كلّ منهما بزواجهما من غاوري. في حالة أوديان حاولت في البداية تقبّل كنّتها وأملت في أن تساعده هذه الزوجة على الاستقرار والابتعاد عن السياسة، رغم أنّه أخبرهم منذ البداية بأنّها ستتابع دراستها، وأنّه لا يرغب بأن يحوّلها والداه إلى ربّة منزل تقليدية. لقد طلب منهما الابتعاد عن طريقها.

كان يعود إلى المنزل محمّلًا بالهدايا لغاوري، يصطحبها للمطاعم ودور السينما وزيارة الأصدقاء. وعندما سمع الوالدان بما فعله طلّاب الجامعة بعد أحداث ناكسالباري من أفعال تخريبية وقتل طمأنوا

أنفسهم بأنّ أوديان متزوّج وأنّه يخطّط لمستقبله وللعائلة التي سينشئها مع زوجته ممّا يعني أنّه لن يختلط بهؤلاء الطلبة. ومع ذلك.. فقد تجهّزا لإخفائه عن الأنظار حال اضطرارهم لذلك، للكذب على عناصر الشرطة حال ظهورهم على الباب وافترضا أنّهما قادران على حمايته بهذه الطريقة البسيطة.

استعدّا للصفح عنه دون سؤاله عن المكان الذي يذهب إليه كلّ مساء، دون معرفة الأشخاص الذين يلتقيهم هناك.. كانا والديه، ولم يكونا على أهبة الاستعداد في تلك الليلة ليكونا والديه ويؤدّيا واجبهما كما ينبغي للمرّة الأخيرة.

لم تعد قادرة على تصوّر الحياة المشتركة ما بين ساباش وغاوري في أمريكا في المكان الذي يدعى رود آيلند، أوعلى تصوّر حياة تلك الطفلة التي سُمّيت بيلا، التي ربّياها كزوج وزوجة.. لكنّ ساباش فقد والده الآن، ولهذا، فهو مضطرّ لمواجهتها للمرّة الأولى بعد مغادرته الهند بسبب ميتة أخرى.

وفي صباح أحد الأيّام، خطرت لبيجولي فكرة، فنزلت من الشرفة وخرجت من بوابة الفناء المؤدّية إلى الزقاق ثمّ خرجت إلى الشارع، وشاهدت أطفال المدارس يعبرون في بزّاتهم الرسمية الموحّدة وجواربهم البيضاء الطويلة وأحذيتهم السوداء وحقائبهم الثقيلة التي تتدلّى على ظهورهم وتنانير الفتيات السماوية وربطات عنق الأولاد.

تابعوا الضّحك إلى أن لاحظوها. شاهدوا ساريها الأبيض المبقّع وعظامها الناتئة الضعيفة وأسنانها المتآكلة.. لقد نسيت عمرها.. لكنّها

تعرف دون تفكير بأنّ أوديان بلغ التاسعة والثلاثين في هذا الربيع.

كانت تحمل سلّة كبيرة يخزّنون فيها الفحم. مشت إلى الأرض المنخفضة ورفعت ساريها كي لا يتبقّع بالطين فبدا كاحلا قدميها المترّهلان للعيان.. خاضت حافية القدمين في بركة موحلة ثمّ انحنت وحرّكت أشياء مًّا بِعصا تحملها، ثمّ بدأت تقتلع أشياء من قبل الماء الأخضر العكر. وهكذا، حافظت على هذا الطقس اليومي، فكانت تذهب إلى هناك كلّ يوم لتحافظ على المنطقة المحيطة بحجر أوديان التذكاري مرتّبًا ونظيفًا.

كانت تكدّس القمامة التي تستخرجها من هناك في السلة ثمّ تفرغها على مسافة بعيدًا عن الحجر ثمّ تعود لتملأها من جديد.. كانت تجوب الماء العكر الأخضر بيديها العاريتين، لتستخرج عبوات الديتول الفارغة والشامبو.. كلّ ما لا تأكله الفئران ولا تحمله الغربان، علب السجائر الفارغة التي يرميها العابرون.. ومحارم النساء الصحيّة الوسخة المليئة بالدماء.

كانت بيجولي تعرف أنّها لن تتمكّن من التخلّص من كلّ القمامة الموجودة أبدًا، ومع ذلك، لم تتوقّف يومًا عن الذهاب لملء السلة وإفراغها بعيدًا عدّة مرّات. لم تكترث يومًا لرأي الناس العابرين الذين يشاهدون ما تفعله ويقولون لها إنّه لا فائدة من ذلك، وإنّ ما تقوم به مقرف للغاية وإنّه عمل يقلّل من شأنها ويهدر كرامتها، أو إنّها قد تلتقط عدوى لمرض خبيث بسبب لمسها لكلّ تلك القاذورات... اعتادت على حيرة الجيران من أمرها، واعتادت تجاهلهم.

راحت تزيح كلّ يوم بعضًا من الأشياء التي لا يرغب فيها الناس

في حياتهم، مع أنّها فكّرت بأنّ كلّ هذه الأشياء كانت مرغوبة ومفيدة فيما مضى.. شعرت بالشمس تلسع رقبتها بعد اشتداد الحرّ، لكنّ المهمّة منحتها الرضا وملأت وقتها.

وفي أحد الأيام، وجدت بيجولي بعض الأمور غير المتوقّعة بجانب حجر أوديان، وجدت أكوامًا من أوراق الموز الملطخة ببقايا الطعام والمحارم الورقية الخاصة بالموائد وكسرات من الأواني الزجاجية التي استعملها الضيوف لشرب الشاي والماء وأكاليل من الأزهار الميّتة التي استُعملت لتزيين مدخل أحد البيوت.

لا بدّ أنّها بقايا حفلة زفاف في مكان ما في المنطقة، زواج ميمون آخر، احتفال. اشمأزّت من تلك الفوضى الناتجة عن العرس إلى درجة أنّها رفضت لمسها وتنظيف المكان منها.

لم يتزوّج أحد من ولديها بهذه الطريقة، لم يحتفلا، لم يقيما المآدب للضيوف على شرف الزواج، لم يستضف البيت زوارًا لتناول المآدب إلا حين وفاة أوديان.. قدّمت يومها للضيوف أوراق الموز المماثلة لهذه وزيّنتها بشرائح الليمون المملّح، امتلأ بيتها بالناس إلى درجة أنّ الأقارب والزملاء انتظروا في الفناء انتهاء شخص من المأدبة المقامة في الأعلى ونزوله ليصعد شخص جديد بدلًا عنه.

تساءلت عن اسم العائلة التي أقامت الزفاف.. وأيّ ابن لهم هذا الذي تزوّج.. لقد ازداد الجيران وتوسّعت ممتلكاتهم مقارنة بذي قبل، ولم تعد تعرف أين تنتهي بيوت هؤلاء وأين تبدأ بيوت الآخرين. كانت تطرق أبوابهم فيما مضى، تعرفهم، يرحّبون بها ويدعونها إلى تناول كوب من الشاي ويسلمونها بطاقة دعوة لأعراسهم ويطلبون منها الحضور

من كلّ قلبهم، لكنّ الكثير من البيوت قد أقيمت الآن وسكنها الكثير من الناس المجهولين الذين يفضلون مشاهدة التلفاز على الاختلاط بالجيران. ومع ذلك فقد رغبت بشدّة في معرفة الشخص الذي رمى كلّ هذه الفضلات هنا.. من الذي دنّس المكان؟ من أهان ذكرى أوديان؟

نادت الجيران.. من المسؤول عن هذا؟ لماذا لا يعلنون عن أنفسهم؟ هل نسوا حقًا ما جرى هنا؟ أم أنّهم لا يعرفون أنّ ولدها اختبأ هنا من العسكر؟.. تحت هذه المياه.. في هذا المكان الذي كان فيما مضى حقلًا أجرد.. هنا.. حيث قُتل؟

تضرّعت للجيران وضمّت يديها متوسّلة لهم كما يفعل المتسوّلون الذين يدخلون الحيّ طلبًا للطعام، أولئك الذين بذلت بيجولي كلّ ما بوسعها لمساعدتهم. تضرّعت كثيرًا لكنّ أحدًا لم يكترث لها.

«تعالوا».. صاحت في النّاس الذين راقبوها من نوافذهم وأسطحهم.. وتذكّرت لسبب مجهول صدى كلمات مرشّحي مجلس الشيوخ عندما كانوا يصيحون عبر مكبّرات الأصوات ..*امشوا ببطء.. أروني وجوهكم..*

انتظرت ظهور وجه أوديان من تحت زنابق الماء المتشابكة.. انتظرت قدومه إليها.. المكان آمن الآن يا ولدي..لقد رحل العسكر.. لن يأخذك منّي أحد.. تعال إلى المنزل بسرعة.. لا بدّ أنّك جائع، العشاء جاهز.. سيحلّ الظلام قريبًا، لقد تزوّج أخوك من غاوري يا ولدي.. أنا وحيدة الآن، ابنتك تعيش في أمريكا، أمّا أبوك.. فقد مات.

انتظرت بيجولي لأنّها كانت متأكّدة من أنّه قابع هناك، وأنّه يسمعها، لكنّها كانت تحاور نفسها، نفسها فقط. وعندما تعبت من الانتظار،

انتظرت وقتا آخر قصيرا. لكنّ الشخص الوحيد الذي ظهر لها هو ديبا. غسلت الفتاة قدمي بيجولي المضرّجتين بالطين بالماء النظيف ثمّ أحاطت كتفيها بشال صوفيّ وخصرها بذراعها وحاولت أخذها معها قائلة: «تعالي لتناول الشاي..». استمالتها للدّخول وحثّتها بيديها. ناولتها ديبا شيئًا وهما تجلسان معا على الشرفة مع كوبيْ الشاي وطبق البسكويت.

ـ ماهذا؟

ـ رسالة أيّتها الأمّ.. وجدتها اليوم في صندوق البريد.

رسالة من أمريكا، من ساباش، أخبرها عن نيّة زيارتها في الصيف وأعلن لها تاريخ وصوله، ممّا يعني أنّه ستمرّ ثلاثة أشهر على وفاة والده قبل الحضور لتعزية أمّه.

أخبرها بأنّه لن يتمكّن من الحضور قبل هذا التاريخ، وأنّه سيحضر ابنة أوديان معه لكنّ غاوري لن تتمكّن من المجيء، وأعلن لها أنّه سيحاضر في كالكوتا كباحث علميّ ممّا سيسمح له بالبقاء ستّة أسابيع كاملة. وقال متكلّمًا عن الفتاة التي سمّوها بيلا: *الطفلة تعتبرني أباها، ولا تعرف أيّ شيء.*

الرّيح ساكنة.. منعتها الأبنية الحكوميّة الجديدة التي شيدت خلف البيت من الهبوب على طول الشرفة. أعادت الخطاب إلى ديبا وخزّنت المعلومات في ذهنها دون اهتمام وكأنّها علبة شاي إضافية لا تحتاج إليها الآن، ثمّ رحلت بأفكارها بعيدًا.

2

وصلا في بداية فترة الرياح الموسميّة الممطرة التي تسمى بارشا كال باللغة البنغالية. أخبرها أبوها أنّ اتّجاه الرياح يتغيّر في هذا الموسم كلّ عام، فتهبّ من البحر إلى اليابسة بدلًا من اتجاهها المعتاد من اليابسة إلى البحر، وبيّن لها على خريطة كيف تتحرّك الغيوم انطلاقًا من خليج البنغال فوق الأراضي الحارّة لتصل إلى الجبال شمالًا، فتقع أسيرة الهند المحاطة بجبال الهيمالايا بعد ارتفاعها وتبرّدها وعدم قدرتها على الاحتفاظ برطوبتها.

ومع هطول الأمطار تُغيّر المياه في فروع الدلتا مسارها، فتفيض الأنهار وشوارع المدن، وتزدهر المحاصيل أو تندثر. أخبرها وهما ينظران من شرفة بيت الجدّة، عن البركتين المقابلتين اللّتين قد تفيضان وتتحوّلان إلى بركة واحدة، ليرتفع منسوب المياه ويغمر الأرض المنخفضة التي تليهما إلى أن تبلغا مستوى ارتفاع كتفيها.

وفي أوقات العصر التي تلي الصباحات المفعمة بنور الشمس الساطعة، تصمّ أصوات الرّعد الآذان كألواح القصدير المموّجة التي يرتطم بعضها ببعض، ثمّ تقترب السّحب الداكنة المنخفضة بسرعة وتحجب وهج الشمس كستارة رمادية تغلق بسرعة. وفي بعض الأوقات، كان قرص الشمس يتوهّج معاندًا كثافة السحب ويبقى قرصًا ثابتًا شاحبًا بلا حراك، فيبدو قمرًا منيرًا ليلة تمامه لا شمسًا على وشك المغيب.

كانت الغرف تغرق في الظلام كلّ ليلة، ثمّ تتفجّر الغيوم عن مياه فيضانيّة تكتسح النوافذ وتملأ المنزل، فتركض الخادمة ديبا لتغلقها وتمسح الماء الذي اقتحم المكان بخرق بالية موضوعة تحت النوافذ لهذا الغرض. تجلس بيلا لتراقب جذوع أشجار النخيل الرفيعة التي تنحني دون أن تنكسر تحت ضغط الريح البحرية، وأوراقها الخافقة كريش طائر عظيم، كأذرع الطواحين الهوائية التي تتحرّك بعنف مع الريح.

لم تستقبلها جدّتها في المطار، بل تعرّفت عليها بيلا على شرفة منزل جدّيها في توليّه غانج، حيث تجلس بلا ملل، في الطابق الثاني من المنزل الذي ولد فيه أبوها. ألبستها جدّتها قلادة مرصّعةً بكرات ذهبية متلاصقة كتلك التي تُنثر على كعكات عيد الميلاد. انحنت جدّتها باتّجاهها بصمت وعقدت القلادة بقوّة حول رقبتها ثمّ عالجتها ليكون القفل من الخلف.

ومع أنّ شعر جدّتها كان رماديًا إلاّ أنّ جلد يديها كان ناعمًا وخاليًا تمامًا من أيّ علامة تدلّ على التقدّم في السّن. كانت ترتدي ساريا قطنيًا أبيض اللون كملاءة سرير، وكان اللون الأبيض في عينيها حليبيًا غريبًا، والبؤبؤان أزرقين بدلًا من اللون الأسود المعتاد. جالت بعينيها ما بين بيلا وأبيها وكأنّها تتبّع خيوطًا غير مرئية تربط بينهما.

شعرت الجدّة بالإحباط لأنّهما لم يحضرا هديّة لديبا. ديبا التي ارتدت ساريا ووضعت حجرة كريستالية في أنفها وبدأت منذ اللحظة الأولى بمناداة بيلا «سيّدتي». كان وجهها يشبه القلب وبنيتها قويّة رغم نحولها الشديد، وذراعاها قويّتين رغم شكلهما الأشبه بسلكين رفيعين. لقد ساعدت ساباش على حمل الحقائب الثقيلة إلى الطابق الثاني.

وكانت ديبا تنام في غرفة مجاورة لغرفة الجدّة وتعلوها بعدّة درجات، منخفضة السقف إلى درجة لا تسمح بالوقوف، تبسط فيها كلّ مساء فراشًا ضيّقًا وتنام حتى فجر اليوم التالي.

ولهذا، منحتها الجدّة كلّ قطع الصابون الأمريكي والكريمات التي اختارتها أمّ بيلا بعناية لحماتها، والشرشف المزيّن بالأزهار وبكرات الخيطان الملوّنة وطارة التطريز ووسادة الدبابيس المصمّمة على شكل حبّة طماطم، والحقيبة الجلدية التي اتّخذت شكل مغلّفات الرسائل، والتي ساعدت والدتها في انتقائها من سوق ميدلاند في رودآيلند.. كلّ ذلك كان من نصيب ديبا.

وفي اليوم التالي لوصولهما، حضر والدها مراسم تكريم والده الذي رحل قبل عدّة أشهر. أوقد الكاهن نارًا صغيرة في منتصف الغرفة، ووضعت ديبا أكوامًا من الفاكهة بجانبها في أطباق كبيرة نحاسية. وعلى الأرض، أسندت الجدّة صورة كبيرة لزوجها المتوفّى إلى الجدار بجانب صورة شابّ باسم المحيّا تعلو أنفه نظارة طبيّة داخل إطار خشبيّ شاحب، وأشعلوا أعواد البخور أمام الصورتين وألبسوهما أكاليل سميكة من أزهار بيضاء فوّاحة.

حضر مزيّن إلى البيت قبل بدء المراسم، حلق شعر رأس والدها ولحيته كليًا في الفناء فتغيّرت ملامح وجهه وبدا غريبًا وصغيرًا، ثمّ طلبوا من بيلا مدّ يديها إلى الأمام وقاموا دون تحذيرها مسبقًا بقص أظافرها وأظافر قدميها.

وعند الغسق، أشعلت ديبا لفائف نفّاذة الرائحة لإبعاد البعوض لكنّها لم تتمكّن من منع السحالي الخضراء من التجوّل أعلى جدران

الغرف بقرب السقف. ونامت بيلا وأبوها في نفس الغرفة على سرير واحد، لكنّ ديبا وضعت لهما فاصلًا سميكًا يفصل ما بينهما ووضعت لبيلا وسادة أشبه بكيس طحين صلب وعقدت فوقهم ناموسية زرقاء لاتّقاء لدغ الحشرات.

لم تشعر بيلا بالأمان إلاّ عندما كانت كلّ تلك الحواجز الواهية ترتفع حولها، ويستلقي والدها موليًا ظهره لها، رغم أنّه كان يبدو لها شخصًا غريبًا بعد حلاقة رأسه واضطراره للنّوم عاري الصدر بسبب الحرّ. كان يستيقظ قبلها ويرفع الناموسية ويربطها في الأعلى فتبدو كعشّ طائر كبير الحجم، ثمّ يستحمّ ويرتدي ملابسه ويتناول المانجو، وها هو اليوم، يستخرج الشوائب التي علقت بين أسنانه بسبب الفاكهة دون أن يبدو عليه أنّه يستغرب أيّ شيء من كلّ ما يدور حوله.

قُدّم لهما الخبز المحمّص على النّار واللّبن المحلّى وموزة صغيرة لها قشرة خضراء على مائدة الإفطار، وذكّرت الجدّة ديبا بألاّ تشتري نوعًا محدّدًا من السّمك قبل انطلاقها للتسوّق لأنّ أشواكه ستربك الصغيرة بلا شكّ. ثمّ طلبت منها أيضًا إحضار ملعقة لبيلا لأنّها لم تتمكّن من أكل الأرز والعدس بيدها في اليوم السابق، وأنّبتها عندما سكبت الماء من الجرّة الفخارية القابعة في زاوية الغرفة لتشرب الصغيرة قائلة: «لا تسقيها من ذلك الماء.. اسقيها من الماء المغلّى، لن تتمكن الفتاة من البقاء على قيد الحياة هنا. لم تُخلق لذلك».

خرج والدها من البيت بعد مضيّ أسبوع على وصولهما وأخبر الجميع بأنّه سيلقي عدّة محاضرات في جامعة قريبة ويلتقي مع علماء ساعدوه في بعض أبحاثه، وقد أغضبها ذلك في البداية لأنّه تركها

وحيدة مع الجدّة وديبا. راقبته من الشرفة.. خرج من البوّابة وفتح مظلّة لتقي فروة رأسه الحليقة من وهج الشمس الحارقة.

لم تفقد توتّرها إلاّ بعد عودته، بعد أن قرع الجرس وفتح البوّابة بمفتاحه الخاصّ ووقف أمامها مجدّدًا. قلقت عليه، خافت أن تبتلعه المدينة الكبرى الآيلة للسّقوط، المدينة التي شاهدتها من نافذة سيّارة الأجرة على الطريق إلى تولّيه غانج.. لم يرق لها التفكير في أنّه قد اختلط بكلّ هؤلاء الناس، أو أنّ أحدهم افترسه بشكل أو بآخر.

دعتها ديبا في أحد الأيّام لمرافقتها إلى السّوق والتجوّل قليلًا في أزقّة الحيّ، عبرتا أمام نوافذ ضيّقة تغطّيها قضبان حديدية أفقيّة ومزق من القماش معلّقة على أسلاك بدلًا من الستائر، وأمام بحيرات صغيرة أقرب إلى المستنقعات تحيط بها القمامة المغطّاة بأوراق الأشجار.

أستوقفهما الناس بين الحين والآخر في الأزقّة الهادئة المحاطة بالجدران العالية لسؤال ديبا عن هويّة الفتاة المرافقة لها وسبب وجودها في المكان.

ـ إنّها حفيدة عائلة ميترا.

ـ ابنة الأخ الأكبر؟

ـ نعم.

ـ هل حضرت الأمّ أيضًا؟

ـ لا.

وسألتها إحدى السيّدات وحملقت فيها بعينين خاليتين من اللّطف وبدت لها أسنانها التي شارفت على السّقوط من شدّة الإهمال: «هل تفهمين ما نقول؟ هل تتكلّمين اللغة البنغالية؟».

- قليلًا.

- هل أعجبك المكان؟

كانت بيلا ترغبة بشدّة في مغادرة البيت هذا الصباح ومرافقة ديبا إلى السّوق لاستكشاف المكان الذي قطعت نصف الدنيا لرؤيته، لكنّها لا تريد الآن سوى العودة إلى البيت لاستيائها من نظرات الجيران الذين كانوا يركضون إلى النوافذ ويفتحون الستائر للحملقة فيها.

كانوا يسخّنون ماء الاستحمام لها كلّ صباح، ويغَلّون قليلًا منه لها أيضًا لتشرب، لأنّ جدّتها قالت إنّها قد تصاب بالبرد من الاستحمام بالماء البارد رغم الحرّ الشديد. وكانوا يخلطون ماء الاستحمام الساخن ببعض من الماء البارد النظيف الذي يتمّ استجلابه عبر أنبوب مطاطيّ رفيع إلى خزّان مجاور للمطبخ بواسطة مضخّة مائية.

كانت ديبا تأخذها إلى الخزّان وتعطيها كوبًا معدنيًا وتملي عليها تعليمات الاستحمام، فتطلب منها تعبئة الكوز بالماء البارد لتبريد الماء الساخن كما تشاء وتسكبه على جسدها ثمّ تفرك جسدها بصابون داكن اللون ثمّ تشطف آثار الصابون. أمّا الماء الناتج عن استحمامها فلم يكن يذهب سدى، بل يُجمع في دلو ويخزّن المقدار النظيف الباقي منه في الخزّان من جديد.

أرادت بيلا الوقوف في الخزّان الأشبه بحوض استحمام عميق، لكنّها لم تسمح لها بذلك. ولهذا كانت الفتاة تستحمّ في الهواء الطلق دون الحصول على الخصوصية التي تمنحها غرفة الحمّام أو حوض الاستحمام على الأقلّ، بجانب الأطباق والقدور التي تحتاج إلى الغسيل وتحت أنظار ديبا، ما بين أشجار النخيل والموز التي تجوبها الغربان.

«كان يجب أن تأتي فيما بعد.. وليس الآن». قالت لها ديبا وهي تجفّف قدميها بمنشفة مهترئة تشبه فوطة تجفيف الأطباق.

ـ لماذا؟

ـ كان يجب أن تأتي مع فصل دورجا بوجو. أمّا الآن، فلا يحصل شيء سوى هطول المطر.

ـ لقد حضرنا إلى هنا للاحتفال بعيد ميلادي.

أخبرتها ديبا بأنّها في السادسة أو السابعة عشرة عندما سألتها بيلا عن عمرها، لكنّها لم تكن واثقة من العمر الصحيح.

ـ ألا تعرفين تاريخ ميلادك؟

ـ ولدت في باسانتا كال.

ـ ومتى يصادف ذلك؟

ـ عندما تبدأ طيور الكوكيل في الغناء.

ـ ولكن، في أيّ يوم تحتفلين بعيد مولدك؟

ـ لم أحتفل به من قبل.

في رقعة من أشعّة الشمس على الشرفة، فركت الجدّة ذراعي بيلا وساقيها ورأسها بزيت طيّب الرائحة من قارورة زجاجية صغيرة. وقفت بيلا بملابسها الداخلية وكأنّها ما تزال طفلة صغيرة مسترخية الذراعين والساقين.

سرحت لها جدّتها شعرها واستعملت أصابعها عندما اضطرت لتفريق عقد الشعر العنيدة، ثمّ أمسكت بخصلة منه وتفحّصته عن قرب ثم سألتها: «ألم تعلّمك أمّك كيفيّة المحافظة عليه؟».

ـ لا.

ـ ألا توجد قواعد خاصّة بالشعر في المدرسة؟

ـ لا.

ـ يجب أن تضفريه ليلًا، ضفيرتين على كلّ جانب، وعندما تكبرين قليلًا بإمكانك ضفره في جديلة واحدة من الخلف.

لم تعلّمها أمّها هذا أبدًا. كان شعرها قصيرًا على الدّوام كشعر الرجال.

ـ شعرك مماثل لشعر والدك تمامًا، لم يكن شعره سهل التسريح في الطقس المماثل لهذا. ورغم ذلك، لم يسمح لي بلمسه يومًا. حتّى في تلك الصورة.. يظهر مشعّثًا متداخلًا. مها

تناولت بيلا غداءها في غرفة نوم جدّتها. كانت معتادة على تناول الأرز لكنّه يعبق هنا برائحة خاصّة، كما أنّ الحبات لم تكن شديدة البياض، وتفاجئها بين الحين والآخر حصاة صغيرة لم تلحظها ديبا أثناء التنظيف، وكان صوت طحنها بين أسنانها يقع في أذنيها كصوت الانفجارات الصغيرة.

لم يكن في البيت مائدة لتناول الطعام، فجلست بيلا على حصيرة مطرّزة ممدودة على الأرض، وقرفصت جدّتها بالقرب منها منحنية الكتفين وعاقدة الذراعين حول الركبتين.. لتراقبها عن كثب.

وعلى الجدار، عُلّقت الصورتان اللتان باركهما الكاهن في حفل التأبين الصغير الذي أقاموه مسبقًا.. صورة جدّها المتوفّى والشاب الذي أخبرتها جدّتها بأنّه والدها.. يبتسم بوجه مائل قليلًا إلى أحد الجانبين. لم تشاهد بيلا أبدًا صورة نابضة بالحياة لوالدها في شبابه كهذه، كان صغيرًا جدًا في تلك الصورة إلى حدّ أنّه يبدو كأخ أكبر لها، بالإضافة إلى

أنّها لم تصادف من قبل صورة له تسبق ولادتها.

وتحت تلك الصورتين، عُلّقت إيصالات المشتريات والقسائم التموينية الحكومية على مسمار مثبت في الجدار، وكان النسيم الذي يهبّ من المروحة يحرّكها بلا توقف. فوق تلك الإيصالات المثقّبة، كان وجه والدها الشاب الباسم يراقبها وهي تتناول غداءها بالملعقة مستأنسًا بوجودها، بينما لم يبدُ على نظرة جدّها الشاردة بعيدا، تحت حاجبيه الخفيفين، بأنّه لاحظ وجودها.

لا يوجد في الغرفة أيّ شيء يمكن تأمّله سوى الصورتين والإيصالات، لا كتب ولا ذكريات من الرحلات التي قاموا بها في الماضي، لا شيء يعطي أيّ فكرة عن الطريقة التي تمضي بها جدّتها الوقت، كانت تجلس فقط على الشرفة لساعات مولية ظهرها للمنزل وعيناها شاردتان في مكان بعيد.

كانت ديبا تصطحب الجدّة كلّ يوم في ساعة محدّدة إلى الأسفل لتقطف بعض الأزهار من الأواني المزروعة بالورود والعرائش المتسلّقة على جدران الفناء، ثمّ تجمعها وتمضي. كانتا تغادران المنزل وتعبران البركيتن باتّجاه الأرض الغارقة بمياه الطوفان وصولًا إلى نقطة معينة، وتقفان هناك بضع دقائق ثمّ تعودان دون الأزهار.

سألتها بيلا يومًا: «ماذا تفعلين هناك يا جدّتي؟»

كانت جدّتها تجلس على كرسيّها القابل للطيّ وتضع يديها على حجرها وتتلمّس أطراف أصابعها المرتخية، فأجابتها دون أن تنظر إليها: «أتحدّث مع أبيك قليلًا».

ـ أبي في الدّاخل.

هزّت رأسها نافية ثمّ نظرت إليها بعينيها الزرقاوين المتّسعتين وسألتها: «حقًا؟»

ـ لقد وصل قبل قليل.

ـ أين هو؟

ـ في غرفتنا...

ـ ماذا يفعل؟

ـ إنّه يرتاح قليلًا. قال إنّه تعب بعد رحلته إلى مكتب النقل الأمريكي.

ـ آه..».

أشاحت الجدة بنظرها.

خفت ضوء النهار وكادت السماء تمطر فأسرعت ديبا إلى السّطح لجمع الغسيل عن الحبال فتبعتها بيلا لمساعدتها.

ـ هل تمطر عندكم في رودآيلند هكذا؟

لم تكن بيلا قادرة على شرح التفاصيل لديبا باللغة البنغالية، لكنّ الأعاصير في رود آيلند هي من أوائل الذكريات التي حفرت في ذاكرتها. إنّها لا تذكر العاصفة، بل التحضيرات التي تسبقها والإصلاحات التي تعقبها. إنّها تذكر حوض الاستحمام المملوء بالماء تحسبًا لانقطاعه والمتاجر المكتظّة بالناس والرّفوف الفارغة هناك. وتذكر أيضا أنّها ساعدت والدها على تثبيت الورق اللاصق على زجاج النوافذ وآثاره البشعة التي تبقى بعد انقضاء الإعصار ونزعه.

اصطحبها والدها في اليوم التالي إلى الجامعة لمشاهدة الأشجار التي طرحتها العاصفة أرضًا والأغصان المرمية على الأرض والأرض التي

تغطّيها أوراق الأشجار الخضراء، شاهدت شجرة مرمية على الأرض تمامًا ورأت جذورها السميكة الطويلة معرّضة للشمس والمكان الذي اقتلعت منه تلك الشجرة. لقد شعرت بيلا برهبة إزاءها عندما رأتها مطروحة أرضًا بهذا الشكل، أخافها هيكل الأشجار الميّتة المسجّاة أرضًا بعد أن فارقت الحياة بهذا الشكل.

جلب والدها صورًا ليعرضها على والدته، وكان معظمها يحتوي على لقطات للبيت الذي يقطنونه الآن، وقد انتقلوا للعيش هناك قبل عامين، وتحديدًا في الصيف الذي بلغت فيه بيلا العاشرة من عمرها، وكان منزلًا قريبًا من الخليج، في موقع غير بعيد عن المكان الذي درس فيه والدها علم كيمياء المحيطات، وكان بعده عن المختبر الذي يعمل به ساباش ملائمًا له، لكنّ المسافة ما بينه وبين المدينة الجامعية التي ولدت فيها بيلا كانت أكبر، حيث تذهب والدتها الآن مرتين في الأسبوع لتعليم مادّة الفلسفة.

وقد شعرت بيلا بالإحباط لأنّهم لم يحظوا برؤية المحيط من البيت رغم أنّه لا يبعد أكثر من ميل عنهم، وكانت تنتعش من تنشّق هبّات نسائمه الضالة المفعمة بعبير الملح التي كانت تقتحم أنفها كلّما وقفت خارج البيت.

عرض عليها صورًا لمائدة الطعام والمدفأة والغرفة الزجاجية وكلّ الأشياء التي تعرفها، من الحجارة الكبيرة التي تشكّل حاجزًا بينهم وبين جيرانهم والتي كانت بيلا تتسلّقها أحيانًا، إلى صور حديقة المنزل الأمامية في الخريف، عندما تكون أوراق الأشجار حمراء.وذهبية، وصورًا أخرى لفصل الشتاء تُظهر الأشجار ذاتها وهي مغلّفة بالجليد،

وصورة لبيلا بجانب شجرة قيقب يابانية زرعها والدها في الربيع الماضي.

لاحظت وجود صورة التقطت لها على شاطئ جيمستاون الذي يشبه الهلال حيث يحبّون قضاء صباحات الآحاد، ويتناولون فطورًا بسيطًا من الكرواسون والقهوة، وقد التقطت الصورة في المكان الذي يلتقي فيه شطرا الجزيرة الغربية، حيث علّمها والدها السباحة، وحيث يمكنها باستمرار رؤية الخراف ترعى على مروج الأرض المجاورة أثناء السباحة، تليها كثبان تفصل ممّراتٌ ضيّقة للتنزّه بعضَها عن بعض، لكنّها لا تتّسع إلاّ لمرور شخص واحد في كلّ مرّة على التّابع، هناك حيث تقفز الأرانب ثمّ تقف متجمّدة كتماثيل خرافية لا تقابل عيونها نظرات بيلا أبدًا.

تأمّلت الجدّة الصور بلا اكتراث وكأنّها جميعًا تصوّر مشهدا واحدا، ثمّ سألت: «أين غاوري؟»

- إنّها لا تحبّ الوقوف أمام الكاميرا. كما أنّها كانت مشغولة للغاية، إنّها تعمل للمرّة الأولى بعد انتهائها من كتابة أطروحتها، وهي على وشك تقديمها الآن.

لقد أمضت أمّها أيّامها، بالإضافة إلى عطلات نهاية الأسبوع في غرفة النوم الإضافية التي كانت تستعملها كمكتب للدراسة، لتعمل وحدها خلف باب مغلق عليها.. إنّه مكتبها، كما أخبرتها مرّة وطلبت منها التصرّف وكأنّها غير موجودة في المنزل عندما تدخل إلى الغرفة لتعمل.

لم تحتجّ بيلا على ذلك، بل شعرت بالسعادة لبقاء أمّها في البيت

بدلًا من سفرها إلى بوسطن لعدّة أيّام كلّ أسبوع، وقد قضت والدتها ثلاثة أعوام على تلك الوتيرة، كانت تذهب إلى الجامعة هناك لتلقي محاضراتها الخاصة بدرجة الدكتوراه، فتغادر باكرًا ولا تعود إلاّ بعد خلود بيلا إلى النّوم.

أمّا الآن، فإنّ أمّها لا تكاد تغادر المنزل، ما عدا الأوقات التي تذهب فيها إلى الجامعة لتدريس طلاّبها مرّتين في الأسبوع، وقد تمرّ ساعات دون أن تفتح بابها أو تخرج ولو لمرّة واحدة، وقد تسمع بيلا من الداخل صوت سعال أو صرير كرسيّ أو كتاب يقع على الأرض.

كانت أمّها تسألها أحيانًا إن كانت تسمع صوت الآلة الكاتبة في الليل، وإذا ما كان ذلك يزعجها، لكنّ بيلا نفت ذلك مع أنّها كانت تسمع الصوت بكلّ وضوح، وكانت تلعب مع نفسها لعبة أثناء استلقائها ليلًا في السرير قبل النوم، فتحاول التنبّؤ بموعد عودة رنين المفاتيح لكسر الصّمت الذي يسود أحيانًا.

كانت تقضي معظم وقتها مع والدتها خلال الأسبوع لكنّها لا تملك صورة واحدة تجمعهما معا لوحدهما، لا دليل على مشاهدتها للتلفاز عصرًا أو عملها على مشروع مدرسيّ على طاولة المطبخ بينما تنشغل والدتها بإعداد العشاء أو القراءة أو تصحيح أوراق الطلاّب.. لا دليل على ذهابهما إلى المكتبة الكبيرة في الجامعة بين الحين والآخر، على إعادتها للكتب التي قرأتاها إلى العلب الخاصة بذلك.

لا أثر لأيّ شيء يوثّق رحلاتها مع والدتها إلى بوسطن بين الحين والآخر في العطل المدرسية، إذ كانتا تستقلاّن الحافلة ثمّ الترام إلى جامعة في وسط المدينة، ما بين نهر تشارلز وطريق عامّ مزدحم على

الدوام. لا دليل على اقتفاء بيلا لأثر والدتها ما بين مباني الجامعة المتنوّعة بينما تلتقي بأساتذتها، ولا على الوقت الذي اصطحبتها فيه إلى سوق كوينسي لإرضائها.

«ها هي». صاحت بيلا عندما سحبت جدّتها الصورة التالية.

ظهرت والدتها بشكل عفويّ غير مقصود في صورة تعود لسنوات خلت، وتظهر فيها بيلا في منزلهم القديم المؤثث بالبلاستيك بدلًا من الأرضيات الحجرية الطبيعية، متنكّرة بثياب ذات رداء أحمر للاحتفال بعيد الهالوين، حاملة سلّة ممتلئة بأنواع السكاكر.

ولكن، في الخلفيّة، تظهر أمّها متّكئة على طاولة المطبخ ومنحنية وهي تنظّف الطاولة على ما يبدو، وترتدي سروالًا ضيقًا وبلوزة خمرية اللون.

«إنها أنيقة للغاية». علّقت ديبا بعد أن استرقت النظر من فوق كتف الجدّة.

ناولت جدّتها الصورة لأبيها.

ـ احتفظي بها يا أمي، لقد أعددت هذه النّسخ لكِ.

لكنّ الجدّة أعادتها إلى والدها بيد مرتخية فوقعت بعض الصور أرضًا.

ـ لقد شاهدتها.. وهذا يكفي.

سمعت بيلا كلمة أطروحة خلال السنوات الماضية مرّات عديدة دون أن تعرف فحواها. ثمّ قالت لها أمّها في أحد الأيام بعد انتقالهم لبيتهم الجديد: «أنا أكتب موضوعًا، كالفروض التي تكتبينها للمدرسة، إلاّ أنّه أطول، وقد يتحوّل إلى كتاب في يوم ما».

فتر حماس بيلا بعد اكتشافها هذا، لأنّها اعتقدت أنّه مشروع سرّي على نحو ما، أو تجربة خطيرة تقوم بها أمّها أثناء نومها كالتجارب العلمية التي كان والدها يقوم بها في المستنقعات المالحة، حيث اصطحبها من قبل لرؤية سرطانات حدوة الحصان التي تختفي تحت الطين والوحل وفي الثقوب، وتضع بيضها في وقت المدّ عند ارتفاع منسوب المياه. أدركت أنّ أمّها التي تنعزل عن العالم في غرفة مليئة بالكتب لا تقوم بشيء سوى بكتابة موضوع يشبه موضوع الإنشاء.

كانت تتسلّل أحيانًا إلى مكتب والدتها أثناء غيابها عن المنزل أو استحمامها لتلقي نظرة على محتويات المكان.. نظّارات أمّها المبقّعة المرمية على طاولة المكتب والتي يستحيل قراءة السطور بها لشدّة تلطخها، وأكواب عديدة تحتوي على بقايا الشاي والقهوة، تعفّن بعضها قليلًا ممّا يدلّ على طول نسيانها هنا وهناك. كانت تجد أيضا أوراقًا مجعّدة في سلة المهملات لا تحتوي سوى على حرفين (p) أو (q)، وكانت كلّ الكتب كانت مغلّفة بورق بنّي سميك، وقد كتبت أمّها عناوينها على الجوانب لتمييز بعضها عن بعض، مثل: *طبيعة الوجود*، *كسوف المنطق*، *في ظاهرة الوعي بالزمن الداخلي*.

ومؤخّرًا، بدأت والدتها تشير إلى الأطروحة بالمخطوطة، وراحت تتكلّم عنها كما لو كانت تتحدّث عن طفلها الرضيع الصغير. قالت لوالدها في أحد الأيّام إنّها تقلق من احتمال تطاير بعض الصفحات من النافذة حين فتحها، أو احتمال دمارها بسبب حريق ما، وعبّرت عن قلقها البالغ من ترك الأوراق في المنزل بلا رقيب.

وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع، وجدت بيلا وأبوها خزانة

ملفّات معدنية بنّية اللون في أحد الأسواق المقامة في حديقة أحد المنازل الخلفيّة للتخلّص من محتويات المنزل ما بين العديد من الأشياء الأخرى المعروضة للبيع، فتأكّد والدها من صلاحيّة الأدراج ثمّ حملها إلى صندوق سيارته وعاد بها إلى البيت ووضعها في مكتب والدتها بعد أن قرع الباب وفاجأها بالهديّة.

وجداها منكبّة على الآلة الكاتبة فحملقت في وجهيهما مستغربة. كان رأسها مطرقا إلى الأمام في الوضعية التي تدلّ على أنّها مستغرقة في التفكير. مرفقاها يستندان إلى الطاولة والإصبعان الأخيران من كلّ يد مضغوطان على خدّيها في شكل يشبه حرف (V) ليشكّلا مثلثًا جزئيًا يحيط بوجهها.

سلّمها ساباش مفتاحًا صغيرًا متدلّيًا من حلقة معدنية قائلًا: «أعتقد أنّها ستكون مفيدة لكِ». فوجئت بيلا بعدم غضب والدتها من مقاطعتهما لها في ذلك اليوم، وسألتهما إن كانا يشعران بالجوع ثمّ خرجت من مكتبها وجهّزت لهما الغداء.

وهكذا، بدأت بيلا تسمع أيضًا صوت الأدراج تفتح وتغلق كلّ يوم، بعد أن انضوت كلّ الأوراق الثمينة داخلها. وحلمت ذات ليلة بأنّها عادت إلى المنزل بعد المدرسة لتجد البيت محروقًا بالكامل دون أن يبقى منه شيء سوى بعض الأعمدة التي كانت تلهو بها أثناء طفولتها، بالإضافة إلى خزانة مخطوطة أمّها، سليمة معافاة على الأرض.

لاحظت بيلا في أحد الأيام أثناء وجودها في تولّيه غانج، وهي تتسلّى بالصعود والهبوط على السلّم وجود حلقات معدنية صغيرة على الجانبين، حلقات حديدية سوداء اللون، فسألت ديبا التي كانت تمسح

الدّرجات بقطعة قماش تغمسها في دلو ثمّ تعصرها بيديها، منكبّة على العمل بركبتيها ويديها: «ما هذه؟» وأشارت للحلقات بيدها.

ـ ثبّتناها في الجدار لمنعها من الخروج في حال عدم وجودي في المنزل.

ـ تمنعون من؟

ـ جدتكِ.

ـ كيف تستعملين الحلقات؟

ـ أثبّت سلسلة معدنية ما بينها.

ـ لماذا؟

ـ لكي لا تضيع.

لم يُسمح لبيلا بمغادرة منزل تولّيه غانج وحدها، مثل جدّتها، لم يسمحوا لها بالتجوّل فيه على هواها أيضًا، لم يكن النزول إلى الفناء وحيدة مسموحا لها وكذلك الصعود إلى السطح. لم يُسمح لها أيضا بالانضمام إلى الأطفال الذين شاهدتهم من الشرفة عدّة مرّات يلعبون في الشارع أو بدخول المطبخ لإعداد وجبة سريعة بنفسها، أو بشرب كأس من الماء المغلّى حين تشعر بالعطش، كان عليها أن تطلب من ديبا كلّ شيء تحتاج إليه.

أمّا في رود آيلند، فقد سمحت لها والدتها منذ دخولها للصفّ الثالث بالتجوّل في الحرم الجامعي على هواها عصرًا، وكانت تتجوّل هناك مع أليس، جارتهم الصغيرة التي تقاربها سنًا، لكنّ الأهل طلبوا منهما البقاء في الحرم حول المبنى، وهذا كلّ شيء. غير أنّ الحرم مكان شديد الاتساع لهما، فيه شوارع وسيارات، ممّا يعني أنّ احتمال الضياع هناك كان ممكنا جدًا.

لعبت الطفلتان في الحرم الجامعيّ كما كان كلّ الأطفال يلعبون في الحدائق العامّة، تسلّقتا الأدراج ونزلتاها لتزجية الوقت، تسابقتا في الساحة الجامعية أمام كليّة الفنون الجميلة، لينتهي بهما الأمر أمام بوّابة المكتبة العامة حيث تعمل أمّ أليس.

كانتا تذهبان لمكتبها وتجلسان أمام الطاولات الفارغة وتدوران حول نفسيهما على الكراسي المتحرّكة وتتناولان المأكولات السريعة التي تضعها والدة أليس في درج مكتبها، ثمّ ترتويان من ماء النوافير البارد وتختبآن خلف رفوف الكتب.

لم تكن تمضي بضع دقائق حتّى تخرجا من جديد وتغزوا بيت النباتات الزجاجي الذي يحيط بكليّة علم النبات، والذي تحيط به أيضًا حديقة أزهار خلاّبة تجوبها الفراشات. وعندما تمطر السماء، كانت الفتاتان تلعبان داخل مبنى اتّحاد الطلبة.

اعتزّت بيلا بعدم حاجتها لمراقبة شخص بالغ في تلك السنّ المبكّرة، وتباهت بأنّها تعرف طريق العودة إلى المنزل دون أن تطلب من أحد مرافقتها، فكانت الفتاتان تعودان إلى المنزل عند سماع دقّات الساعة المجلجلة كلّما بلغت الرابعة والنصف مساء.

لم تذكر لوالدها أيّ شيء عن مغامراتها تلك، لأنّها تعرف أنّه سيقلق عليها. ولهذا، فقد احتفظت بهذا السرّ لنفسها. وهكذا، كانت أخبار هذه المغامرات سرّا بين بيلا ووالدتها إلى أن انتقلوا للعيش في البيت الكبير. شكّلت هذه الغزوات الصبيانية للجامعة تقاربًا مبنيًّا على التباعد. لقد منحت بيلا أمّها ذلك الوقت برضاها، ولم ترغب في إفساد تلك المناسبات بإخبار والدها بالأمر، لم ترغب في تهديد هذه الفرص

وافتضاح هذا السرّ الذي يجمعهما معا.

بلغت بيلا من العمر ما يسمح لها بالاستيقاظ وحدها وتناول فطورها دون مساعدة أحد، لسكب الحليب دون هدر أيّ نقطة منه، والذهاب وحيدة إلى موقف الحافلة دون مرافقة أحد أيضًا، فوالدها يغادر البيت باكرًا جدًّا، وأمّها تسهر كثيرًا على أطروحتها فتفضّل النوم لساعات أكثر في الصباح.

لم يكن هناك من يراقبها ليعرف ما إذا تناولت الحبوب أو الخبز المحمّص على الإفطار، أو ليعرف إذا ما تناولت وجبتها كاملة أم لا، مع أنّها كانت تتناول الوجبة كلّها دائمًا، وتشرب الحليب حتى آخر نقطة، ثمّ تضع الطبق في الحوض وتضع فيه بعض الماء ليسهل تنظيفه فيما بعد. وبعد المدرسة، كانت تدخل البيت بواسطة مفتاح يخبّئه والدها في عشّ عصفور مهجور مجاور للمدخل عندما تكون أمّها في الجامعة.

كانت تصعد إلى الطابق الثاني كلّ صباح وتعبر الممرّ وتطرق باب غرفة والديها لتخبر أمّها بأنّها ستغادر. لم تكن ترغب في إزعاج والدتها.. لكنّها كانت تأمل في أن تسمعها.

وحدث في صباح أحد الأيام أن دخلت مكتب والدتها لإحضار دبّوس ورقيّ لشبك أحد التقارير الخاصّة بالمدرسة، فوجدت والدتها نائمة على الأريكة مولية ظهرها إلى الخارج وقد طوت إحدى ذراعيها فوق رأسها، فأدركت أنّ الغرفة التي كانت والدتها تسمّيها مكتبها هي في الحقيقة غرفة نومها أيضا، وأنّ والدها كان ينام في الغرفة الرئيسية.. وحيدًا.

وعندما اضطجعا للنوم مساءً تحت الناموسية، سألت والدها: «

كم كان عمرك في تلك الصورة؟».

ـ أيّ صورة؟

ـ تلك المعلّقة في غرفة جدّتي حيث نأكل، بجانب صورة جدّي التي تحملق فيها ديدا طوال النهار.

كان والدها مستلقيًا على ظهره فأغمض عينيه وقال:

ـ ذاك أخي.

ـ هل كان عندك أخ؟

ـ كان. وقد مات.

ـ متى؟

ـ قبل ولادتكِ.

ـ لماذا؟

ـ كان مريضًا.

ـ أيّ مرض أصابه؟

ـ أصيب بعدوى لم يتمكّن الأطبّاء من شفائه منها.

ـ هل كان عمّي إذن؟

ـ نعم يا بيلا.

ـ هل تذكره؟

التفت ليواجهها ثمّ نقر على رأسها بإصبعه وقال: «إنه جزء مني، لقد كبرنا معًا».

ـ هل تفتقده؟

ـ بالطّبع.

ـ قالت جدّتي ديدا إنّها صورتك أنت.

ـ إنّها عجوز يا بيلا، بدأت الأمور تختلط في ذهنها أحيانا.»

راح والدها يصطحبها معه في بعض الأحيان، فكانا يمشيان حتى الجامع الواقع على الزاوية ثم يستقلاّن سيّارة أجرة أو عربة صغيرة، أو يمشيان حتّى محطّة الترام ليستقلاّ إحدى عرباته، فكان يصطحبها إذا ما كان سيلتقي بزملاء دراسته ويتركها على أحد الكراسي خارج القاعات ويعطيها كتبًا مصوّرة للأطفال لقراءتها ريثما يعود.

ثمّ يصطحبها لتناول الغداء في المطاعم الصينيّة والأسواق لشراء قطع الحليّ الملوّنة وأوراقًا خاصّة للرسم وشرائط لشعرها وكراريس جميلة للكتابة وأدوات قرطاسية خلاّبة.

اصطحبها مرّة أيضًا إلى حديقة الحيوان لرؤية النّمور الهندية البيضاء النادرة، رأتها مستلقية على الأحجار نائمة ملء جفونها. وكان يتوقّف على الأرصفة المزدحمة أمام المتسوّلين الجوعى ليتصدّق عليهم بقطع نقديّة يرميها في أطباقهم المعدنية الفارغة.

دخلا إلى متجر لبيع قماش الساري في أحد الأيّام لشراء واحد أبيض لجدّتها وآخر ملوّن لديبا، وكانت كلّ الأقمشة مصنوعة من القطن وملفوفة في لفائف سميكة تشبه لفائف المقالي الغنيّة بالنشويات ومثبتة على الرفوف، أمّا الأقمشة الحريرية الثمينة فكانت معروضة على الواجهة الزجاجية ومتدلّية على تماثيل العرض.

ـ هل يمكننا شراء واحد لماما؟

ـ إنّها لا ترتديها مطلقًا.

ـ لكنّها قد تفعل.

بدأ البائع بعرض أفخر الأقمشة عندما سمع كلام بيلا لكنّ

والدها رفض وقال: «سنجد شيئًا آخر لوالدتك». ثمّ اصطحبها لمتجر مجوهرات فاختارت بيلا لوالدتها عقدًا مرصّعا بأحجار عين النّمر الثمينة، ثم اشتريا لها الشيء الوحيد الذي طلبته من الهند، وهو خفّ جلديّ أحمر اللون. وقبل مغادرتهما للمتجر، قرّر والدها شراء خفّ آخر احتياطي.

ملأ الهواء الملوّث في الشوارع وسيارات التاكسي رئتيهما. اسودّ جلد ذراعيهما بالهباب الداكن. وامتلأت الآذان بأصوات أبواق السيارات والحافلات والعربات الملوّنة. شاهدا سائقي الحافلات الذين يخرجون أصابع أيديهم من النوافذ للتعبير عن نيّتهم في تغيير اتجاه الحافلة ويشيرون بها إلى السيارات الأخرى للتّدليل على توقّفهم أينما اتفق لالتقاط ركّاب جدد. كانا يجلسان لساعات أحيانًا في الشارع منتظرين وسيلة نقل، وكانا يختاران، حين يطول بهما الوقوف، المشي بدلًا من متابعة الانتظار، بالإضافة إلى الإحباط الذي يشعر به والدها بسبب طول فترة الانتظار. ورغم كلّ التسلية التي كانت بيلا تحصل عليها أثناء تلك الرحلات، إلاّ أنّها كانت تفضّل البقاء في منزل جدّتها على الخروج إلى المدينة.

وفي أحد الأيّام، بينما كانا يعبران شارعًا تحفّ به أكشاك الكتب من الجهتين، أخبرها أبوها أنّه طريق والدتها إلى الجامعة عندما كانت شابّة، فتساءلت بيلا عمّا إذا كانت والدتها تشبه الفتيات العابرات أمامها في ما مضى، شابات يرتدين الساري مضفورات الشعر، متعرّقات بسبب الحرّ، يحملن مناديل قماشية لتجفيف العرق ويحملن حقائب قماشية لكتبهنّ.

لاحظت في ذلك الشارع طريقة خاصّة في تزيين الأبنية مختلفة عن الشوارع الأخرى، فقد كانت زينة عيد الميلاد معلّقة على كلّ أبنيته رغم أنّهم في شهر آب. توقّف بهم التاكسي بجانب إحدى تلك البنايات، حيث مدّت سجّادة حمراء تصل البناية بالرّصيف لإرشاد الضيوف إلى المدخل، تنبعث منه أصوات موسيقى عالية جدًا والناس يعبرون باتّجاه ذاك البناء في ملابس أنيقة ثمينة.

ـ ما الذي يجري هناك؟

ـ حفل زفاف. هل ترين السيارة المغطّاة بالورود هناك؟

ـ نعم.

ـ العريس على وشك الخروج منها.

ـ والعروس؟

ـ إنّها بانتظاره في الدّاخل.

ـ وهل تزوّجت أمّي بهذه الطريقة؟

ـ لا يا بيلا.

ـ لمَ لم تفعل؟

ـ كنت مضطرًا للعودة إلى رودآيلند ولم نملك الوقت لإقامة احتفال كهذا.

ـ لا أريد احتفالًا كبيرًا بعرسي في المستقبل أيضًا.

ـ هناك متّسع من الوقت للتفكير بهذا.

ـ أخبرتني أمّي مرّة بأنّكما لم تتعارفا قبل الزواج.

ـ قد لا يتعارف الزوجان جيّدًا قبل الزواج.. هذا ممكن.

ـ وماذا لو لم يحبّ أحدهما الآخر؟

ـ يجب أن يحاولا.

ـ من يقرّر الطريقة التي يتزوّج بها الناس؟

ـ الأهل يقرّرون ذلك في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان الأخرى يقرّر الشابّ والشابة معا ذلك بنفسيهما.

ـ هل قرّرتما الزوّاج باختياركما؟

ـ نعم. قررنا ذلك بمحض مشيئتنا.

أمضيا عصر يوم عيد ميلادها في ناد غير بعيد عن بيت جدّتها، دعاهما إليه زميل مُجايل لوالدها وعضو في ذلك النادي. وهناك، وجدت بيلا حمّام سباحة كبير وثوب سباحة مناسب بشكل خياليّ لها بعد اكتشافهم أنّ والدتها لم تضع لها واحدًا مع أمتعتها، كما وجدوا طاولات عديدة في أرجاء النادي ممّا سمح لهم بالجلوس لتناول الطعام أو الشراب في أيّ وقت وأيّ مكان.

كما وجدت بيلا هناك العديد من الأولاد الآخرين الذين أمكنها اللّعب معهم والسباحة بمرح لأنّهم يتحدّثون الانكليزية مثلها، وكانوا خليطًا من الهنود الزائرين للهند، مثلها تمامًا، من بلدان أخرى، بالإضافة إلى بعض الأوروبيين. تجرّأت بيلا على محادثتهم وتقديم نفسها إليهم، ثمّ امتطت فرسًا صغيرًا وتناولت شطائر الخيار والجبن وحساء الطماطم الحارّ، تلاه طبق كبير من المثلّجات بالقشدة.

جلس والدها وزميله يتحدّثان ويشربان الشاي على إحدى الطاولات، ثمّ تناولا الجعة. وبعد ذلك تنزّهت مع والدها حول المكان فتلوّثت أحذيتها البيضاء الناعمة بغبار أحمر كالصّدأ. مشيا على أطراف ملاعب الغولف بجانب الأزهار المزروعة في أوعية خاصة،

وبين الأشجار التي تأوي آلاف الطيور المغردة.

توقّف والدها لمراقبة اللاعبين تحت شجرة بانيان ضخمة، وشرح لها أنّ هذه الأشجار تبدأ حياتها متعلّقة بشجرة أخرى، حيث تتدلّى منها فروع ملتوية كالحبال ويعتقد الناس أنّها أغصان، إلاّ أنّها الجذور في الحقيقة، وتحيط بالشجرة المضيفة. تتلاحم الشجرتان مع مرور الزمن وتشكّلان جذوعا وفروعا وجذورا إضافية تحيط بالجذع الأصليّ الأجوف الذي قد يموت بسبب ضغط النبتة المحيطة به.

التقط لها والدها صورة أمام تلك الشجرة، ثمّ جلسا على أحد المقاعد المنتشرة في المكان، وأخرج والدها من جيبه علبة صغيرة ملفوفة بورق جرائد من جيب قميصه، فوجدت فيها سوارين متطابقين كانا قد أعجباها قبل عدّة أيام حينما رأتهما في واجهة أحد المتاجر، ممّا يعني أنّه عاد فيما بعد لشرائهما لها.

ـ هل أنتِ سعيدة؟

أومأت موافقة.. فانحنى وقبّل أعلى رأسها.

ـ أنا سعيد لأنّنا أتينا هنا اليوم، ولأنّ المطر توقّف، لا كما حدث عندما ولدتِ.

تابعا المشي وابتعدا عن مبنى النادي وعبرا حقولًا تسكنها بنات آوى، وترتاح فيها بلا قلق بين الحقول، غير أنّ البراغيث باغتتها وقرصتها في كاحليها ومرفقيها.

ـ إلى أين نذهب؟

ـ هناك مكان خلف هذه الطريق.. حيث اعتدت اللّعب مع أخي.

ـ هل أتيت إلى هنا عندما كنت صغيرًا؟

تردّد ساباش قليلًا ثمّ اعترف بأنّهما حضرا مرّة أو مرّتين وقفزا من السور الخلفيّ متسلّلين إلى النادي.

ـ لماذا اضطررتما إلى التسلّل؟

ـ لم يكن يسمح لنا بالدخول. لم يكن مكاننا.

ـ ولِمَ لم يكن كذلك؟

ـ كانت حال البلد مختلفة آنذاك.

لاحظ ساباش شيئًا على الأرض فذهب لالتقاطه.. كانت كرة غولف. ثمّ تابعا المشي.

ـ من كان صاحب الفكرة.. أعني فكرة التسلّل؟

ـ كانت فكرة أوديان. كان أشجع منّي، وأجرأ.

ـ هل قبضوا عليكما؟

ـ في النّهاية.. نعم.

توقّف والدها ورمى الكرة بعيدًا ثمّ راح يتلفت يمنة ويسرة ويتفحّص قمم الأشجار وكأنّه محتار بينها.

ـ هل يجب علينا العودة يا أبي؟

ـ نعم، أعتقد أنّنا مضطرّون لذلك.

رغبت بيلا في المكوث لفترة أطول في النادي لتجري على العشب وتمسك باليراعات التي أخبرها الأولاد بأنّها تظهر ليلًا. رغبت في المبيت بإحدى غرف الضيوف، لتستحمّ في حوض الماء الساخن وتقضي اليوم التالي كما قضت نهارها هذا، لتسبح في بركة السباحة وتزور غرفة المطالعة الممتلئة بالكتب الإنكليزية والمجلاّت المشوّقة. لكنّ والدها

طلب منها الاستعداد للمغادرة، وإعادة ثوب الاستحمام، ثمّ استدعى عربة مزوّدة بمقعد أزرق بلون الياقوت للعودة إلى بيت جدّتها.

لم تتصوّر بيلا جدّتها في هذا النادي ضاحكة بين الرجال الجالسين إلى الطاولات رفقة زوجاتهم الأنيقات وهم يطلبون الكوكتيلات أو محاطة بالمدخّنين وكؤوس البيرة. ولم تتمكّن من تصوّر جدّتها في أيّ مكان آخر غير شرفة البيت في تولّيه غانج، المحروسة بسلاسل حديدية حين تغادر ديبا المنزل، أو في زيارتها اليومية للأرض المنخفضة الغارقة في بحر من الماء الملوّث والقمامة.

اشتاقت بيلا لوالدتها فجأة، أدركت أنّها لم تقض عيد ميلادها بعيدًا عنها من قبل، وتمنّت سماع صوتها في الصباح لكنّ والدها أخبرها أنّ خطّ الهاتف مقطوع.

ـ هل يمكننا الاتصال بها الآن؟

ـ مازال الوقت باكرًا جدًّا، قد تكون نائمة.

تصوّرت بيلا أمّها نائمة على الأريكة في المكتب، محاطة بهالة من الورق المتناثر هنا وهناك على السجّادة، وأزيز المروحة المجاورة للهاتف لا يتوقّف.. ينبلج الصبح، ويبدأ وتيرته البطيئة.

كانت تستيقظ يوم ميلادها عادة على رائحة الحليب الذي يُسّخن على الموقد إلى أن يتخثّر، ثمّ تخرج أمّها من مكتبها لتضيف إليه السكر والأرز. وما أن تسكبه غاوري في صحاف زجاجية وتنخفض درجة حرارته، حتى تناديها لتتناول اللّقمة الأولى، وقد تسمح لها بمسح بقايا الحليب السميك الملتصق بأطراف القدر وأسفله.

ـ بابا؟

ـ نعم يا بيلا؟

ـ هل يمكننا زيارة النّادي مجدّدًا؟

ـ ربّما فعلنا في المرّة المقبلة التي سنزور فيها الهند.

قال والدها إنّه يريد منها أخذ قسط من الراحة قبل رحلة العودة الطويلة المتعبة إلى رود آيلند، فقد مرّت خمسة أو ستّة أسابيع على وصولهما إلى كالكوتا، وها قد نما شعر والدها مجدّدًا.

أسرعت العربة، عبرت الأكواخ والأكشاك المحاذية للطريق، حيث يبيعون الأزهار والسكاكر والسجائر والمشروبات الغازية الباردة. وعندما اقتربوا من المسجد خفّفت العربة من سرعتها، وانفجر أوّل سهم ناري ليعلن بدء احتفالات المساء، فأخرج والدها محفظته من جيبه وناوله الأجرة وقال: «توقّف هنا.. سنكمل الطريق مشيًا على الأقدام».

3

استقلاّ حافلة نقلتهما من مطار لوغان إلى بروفيدنس، ثمّ سيارة تاكسي إلى البيت. ارتدت بيلا السّوارين اللذين تلقّتهما من والدها في كالكوتا حول معصمها، وقد لفحت الشمس ذراعيها ووجهها وأكسبتها سمرة جذّابة، ووصلت ضفيرتاها اللّتان ضفرتهما جدّتها في الليلة السابقة لمغادرتهما حتّى منتصف ظهرها.

كان كلّ شيء على حاله: زرقة السماء والطرقات والبيوت ومياه الخليج المليئة بقوارب الصيد والشواطئ المليئة بالناس وصوت آلات جزّ العشب والهواء المالح وأوراق الأشجار.

وعندما اقتربا من المنزل لاحظت بيلا أنّ العشب طال في حديقتهم حتى كاد يصل إلى كتفها وبدا أشبه بالقمح أو القشّ، وبلغ طوله طرف صندوق البريد وأخفى الشجيرات الجميلة المحاذية للباب رغم أنّها لم تعد خضراء بعد طول إهمالها واحمرار أطرافها بسبب نقص الماء. بدت أطرافها الشاحبة معلّقة في الهواء كمجموعات من الحشرات تقف ثابتة في الجوّ بلا حراك.

«يبدو أنّكم قد غبتم لفترة طويلة». قال سائق الأجرة، ثمّ دخل بالسيارة إلى مدخل البيت وساعد والدها في تفريغ الحقائب من السيارة وحملها للأعلى.

هوت بيلا على العشب كما يغرق الإنسان في مياه البحر، اختفى جسدها لوهلة، فتحت ذراعيها وغاصت بين سيقان العشب الطويلة فارتعشت أطرافه في نور الشمس كريش الطيور ومرّت على وجهها بوداعة، ثمّ على ظهر ساقيها. قرعت الجرس وانتظرت من أمّها أن تفتح الباب.

اضطرّ والدها إلى فتح الباب بالمفتاح عندما تأخّرت غاوري في فتحه. صاحا باسمها حين صارا في الدّاخل دون أن يسمعا ردّا. لم يجدا أيّ طعام في الثلاجة. ومع أنّ الحرارة في الخارج كانت معتدلة جدًّا إلاّ أنّ النّوافذ كانت مغلقة تمامًا ومقفلة، والغرف معتمة والستائر مسدلة، وتربة النباتات في الأوعية جافّة للغاية.

شعرت بيلا في البداية بالتحدّي، وكأنّها في خضمّ لعبة ما، لأنّ لعبة الاختباء كانت اللّعبة الوحيدة التي لعبتها والدتها معها أثناء طفولتها، فكانت تختبئ خلف ستارة الحمّام أو تحشر نفسها في خزانة أو تلتصق بجدار خلف أحد الأبواب دون الاستسلام أبدًا.. لم تسعل مرّة واحدة لتدلّها على مخبئها ولم تترك خلفها أيّ دليل يقود إليها.

مشت في أرجاء البيت كمفتّش المباحث، نزلت الدّرجات الستّ التي تؤدّي إلى غرفة المعيشة والمطبخ، ثمّ صعدت إلى الطابق العلويّ حيث تمتدّ السجادات الزيتية المموّهة بألوان الزيتون، فتبدو الغرف كلّها وكأنّها مغطاة بالطحالب التي تغزو الأرضيات من باب إلى باب.

فتحت الأبواب فوجدت بعض الأشياء الغريبة: مشابك أوراق مرمية على أرض الحمّام ومخرزة وورق على مكتب أمّها المغطّى بالغبار وصندل والدتها في الخزانة وبضع كتب على الرّفوف.

جلس والدها على الأريكة وغرق في أفكاره ولم يشعر باقتراب بيلا منه رغم أنّها اقتربت حتّى وقفت على بعد خطوتين منه. بدا وجهه مختلفًا، وكأنّ العظام تحرّكت من مكانها، أو أنّ بعضها اختفى من مكانه فجأة.

ـ بابا؟

لاحظت بيلا ورقة على الطاولة المجاورة له، وكانت رسالة. مدّ ساباش يده باتجاهها باحثًا عن يدها.

لم أتّخذ هذا القرار على عجل، لقد فكّرت فيه لسنوات طويلة، لقد بذلت جهدك كما بذلت أنا، لكنّي لم أحاول بقدر ما فعلتَ أنت. حاول كلّ منّا الاقتناع بأنّه يمكن أن يكون رفيقا جيّدا للآخر.

لم أشعر طوال حياتي مع بيلا سوى بخذلاني العظيم لها. أتمنّى لو كانت صغيرة بما يكفي لنسياني.. بكلّ بساطة. لكنّها ستكرهني الآن، هل يمكن لها أن ترغب في مكالمتي في يوم من الأيام، أو أن ترغب في رؤيتي؟ ولأنّي لا أعرف، سأحاول جهدي لترتيب ذلك معها في المستقبل.

أخبرْها بما تعتقده أخفّ الأسباب وطأة وألمًا عليها، مهما كان. لكنّني أرجو منك إخبارها بالحقيقة، أنّي لم أمت أو أختفي، بل أنّي انتقلت إلى كاليفورنيا لأنّ زميلًا وجد لي عملًا مناسبًا في التّعليم هناك. ومع أنّ هذا لن يسعدها إلاّ أنّي أرجوك أن تخبرها بأنّي سأفتقدها.

أمّا بالنسبة إلى موضوع أوديان، فقد تساءلت كما تعرف لعدّة سنوات عن الوقت والظرف المناسبين لإخبارها به، وتساءلت أيضًا عن السنّ المناسب، لكنّ الأمر لم يعد مهمًّا عندي. أنت والدها كما

قررتَ قبل زمن بعيد، وكما قبلت أنا منذ سنوات طويلة. لقد أثبتّ أنك أهل لذلك أكثر منّي، وأعتقد أنك والد أفضل من أوديان نفسه. ونظرًا لقراري هذا بمغادرتكم، فإنّ معرفتها بالحقيقة لن تغيّر شيئًا ولا داعي لإحداث مثل هذا الزلزال في حياتها بعد الآن.

عنواني الجديد غير محدّد بعد لكنّك تستطيع مراسلتي عبر الجامعة. لن أطلب منك أيّ شيء، سيمنحونني مالًا كافيًا، وأنا أعرف أنك غاضب منّي جدًّا وسأتفهّم رغبتك في عدم الاتصال بي. أتمنّى أن يسهّل غيابي حياتكما أكثر، لا أن يعقّدها.. بالنسبة إليك وإلى بيلا. وأنا على ثقة من أنّ غيابي أفضل من حضوري.

حظًّا طيبًا لكما يا ساباش ووداعًا.. وفي مقابل كلّ ما قدّمته لي.. فإنّي أقدّم لك بيلا.

كُتبت الرسالة باللغة البنغالية كي لا تتمكّن بيلا من قراءتها فترجم نسخة محرّفة من محتوياتها دون أن يتمكّن من مواجهة نظراتها الحائرة إلاّ لمامًا.

إنّها كبيرة بما فيه الكفاية لتعرف بعد كاليفورنيا عن رودآيلند، وعندما سألته عن موعد عودة غاوري من هناك أجاب بعدم معرفته شيئا عن تلك الجزئيّة.

كان مستعدًّا لامتصاص حزنها وتهدئتها لكنّ العكس هو الذي حصل. هدّأت من روعه وامتصّت صدمته، وضعت يديها حول عنقه، تجاوز جسدُها النّحيل القويّ صدمته وأحاط به برفق كما لو أنّها كانت تريد حمايته من الانجراف مع تيّار حزنه وقالت: «لن أتركك أبدًا يا بابا».

أدرك ساباش أنّ الزّواج الذي اختاراه بكامل إرادتهما تحوّل مع الوقت إلى زواج إكراه لكلّ منهما مع مرور الأيام. لكنّها لم تعبّر له يومًا عن رغبتها في المغادرة. كان يفكّر أحيانًا في أنّه قد ينفصل عنها بعد مغادرة بيلا إلى الجامعة وانتقالها للعيش بعيدًا عنهما، وأنّه سيبدأ مرحلة جديدة عندما تستقلّ ابنته بنفسها وتنتفي حاجتها إليهما إلى الحدّ الأدنى.

افترض أنّ غاوري ستكمل هذه الرّحلة معه بسبب وجود بيلا كما حاول هو بلا هوادة. ولم يتوقّع يوما أنّها ستفقد صبرها قبل حلول الوقت المناسب.

لم يبق له من النساء الثلاث اللواتي عبرن حياته سوى واحدة. أمّه، ثمّ غاوري ثمّ بيلا. غاب عقل والدته في متاهة مقفرة.. فقدت اتّزانها وقدرتها على التفكير الصائب، شاخت وهرمت كثيرًا ووقعت فريسة لحادثة مقتل أوديان.

لم تجد حرّيتها إلاّ في الغرق في غياهب تفكيرها، حُبست تلك المرأة وهي في أرذل العمر في بيتها ذاته، تخرج مرّة كلّ يوم لتلقي السلامُ على ذكراه، إنّها بحاجة إلى ديبا لحمايتها من نفسها، من احتمال ضلالها وإحراجها لنفسها، من إمكانية تمثيلها لمشهد مخجل جديد أمام الجيران.

ومن ناحية أخرى، أنقذها عقل غاوري ومكّنها من الاستقلال والوقوف وحيدة دون الارتباط بأحد، مهّد لها طريقًا خاصة بها، وجهّزها للمضيّ قدمًا بعيدًا عنه.

ماذا تركت أمّها أيضًا؟ بقعة مليئة بالنّمش الداكن الذي ورثته بيلا منها أعلى مرفق ذراعها اليمنى، من الخلف، حيث يتوجّب عليها ليُّ ذراعها لتراه، بقعة تدلّ على اللون الداكن الذي كان يمكن لها أن تكون

عليه، وعلى بنصر يدها اليمنى تحت المفصل الأوسط بالضبط، علامة أخرى تذكّرها بذات الشيء.

ومع مرور الوقت، كشفت بصمات أمّها عن نفسها في بيت رودآيلند، بقيّة منها لم تغادر المكان أبدًا.. ظلٌّ لم يختف على أحد جدران غرفتها في إحدى الزوايا، ليذكّر بيلا بشكل والدتها.. ولم تلاحظ بيلا وجود ذلك الظلّ إلاّ بعد رحيل والدتها، ولم تتمكّن يومًا من محوه.

رأت بيلا انطباع جانب وجه أمّها وجبينها على ذلك الجدار وخطّ ميَلان أنفها وفمها وذقنها.. لم تعرف مصدر ذلك الظلّ مطلقًا.. تشكّلت بعض خطوطه من أغصان الأشجار في الخارج، وبعضها الآخر من ميلان السقف المعاكس لخطوط الضوء.. لكنّها لم تتمكّن من الجزم.

كان ذلك الظلّ يتلاشى كلّ يوم مع ميلان الشّمس حتى مغربها حول البيت، ويعود كلّ صباح إلى المكان الذي هربت منه والدتها.. لكنّها لم تلحظ تشكّله ولا تلاشيه يومًا.

رأت بيلا ظلّ والدتها في هذا الشبح كلّ يوم فشعرت بأنّها تزورها بشكل أو بآخر. كان الأمر كتشبيه عفويّ يقوم به المرء لشكل ترسمه الغيوم في السّماء، فيمثّله بشيء معين.. لكنّ ظلّ غاوري لم يتغيّر مع تغيّر مكانها كما تتفرّق السّحب لتعيد التشكّل من جديد في صور أخرى.. لم يتبدّد، ولم يتحوّل إلى شكل آخر.

4

مكتبة

تلاشى الجهد الذي كان مضطرًّا إلى بذله ليكون معها، وحلّ مكانه شعور الأبوّة الفريد الذي تمتّع به دون غيره وهو الرباط الذي لن يحتاج إلى مراجعة نفسه يومًا ما بخصوصه، ولن يفكّر أبدا في إنهائه. عاش برفقة ابنته واحتفظ لنفسه بحقيقة أنّه ليس أباها، لكنّ الخيوط القليلة التي بقيت في حياته لم تكن سهلة، لم يكن ما جرى نصرًا ولا هزيمة.

أصبحت بيلا في الصفّ السابع، وبدأت تتعلّم الإسبانية وعلم البيئة والجبر، فأمّل ساباش أن تتكفّل المدرسة الجديدة والمعلّمون الجدد والمناهج الغريبة عنها كليًا والارتقاء من صفّ إلى آخر بإلهائها عن فراق أمّها. وقد بدا له في البداية أنّ كلّ تلك الأمور مجتمعة تمكّنت من إلهائها بالفعل، فقد أعدّت الفتاة مصنّفًا وزّعته إلى ثلاثة أقسام وكتبت اسم كلّ مادّة على قسم منفصل ووضعت معها جدول الحصص.

أعاد ساباش جدولة برنامجه أيضًا، فتوقّف عن الانطلاق باكرًا ليتمكّن من تحضير وجبة الإفطار لابنته ويعطيها قبلة الوداع قبل الانصراف إلى المدرسة، ويراقبها حتى تصل إلى موقف الباص يوميًا مع حقيبتها المعلّقة إلى كتفيها المثقلة بكتبها.

لاحظ في أحد الأيّام أنّ صدرها تحت قمصانها وبلوزاتها لم يعد يبدو مسطحًا، وهو يدرك تمامًا أنّها على أعتاب مرحلة جديدة من

حياتها وأنّها تتحوّل مع الوقت إلى شابّة جميلة، تُزهر كوردة بدلًا من الذّبول بسبب حزنها كما كان يخشى.

نحلت بيلا وباتت أكثر هدوءًا وراحت تقضي عطلات نهاية الأسبوع وحدها وتتصرّف كما كانت غاوري تفعل ولم تعد ترجوه القيام بنزهات في عطلات الأسبوع كما كانت تفعل من قبل. برّرت ذلك بواجباتها المدرسية الكثيرة التي تنتظرها. غرقت في مزاجها الجديد بسرعة دون إنذار كالسماء التي يباغتها الخريف فتتلاشى أنوارها الساطعة فجأة. لم يسألها عن خطبها لأنّه كان يعرف الإجابة.

كانت بيلا تبني كيانًا خاصًا بها بشكل منفصل عنه، وفي هذه النقطة كمنت الصّدمة الحقيقية. لقد ظنّ ساباش أنّه الشّخص الذي سيحميها ويمنحها الأمان لكنّه شعر بأنّها تزيحه جانبًا وتضعه في ذات الخانة التي وضعت فيها غاوري، وقد خشي من فرض سلطته عليها بعد أنّ هزّ رحيل غاوري ثقته بنفسه كأب.

طلبت بيلا تغيير غرفة نومها والانتقال لمكتب غاوري، فقبل طلبها رغم قلقه من طلبها هذا، وطمأن نفسه بأنّ ردّة الفعل هذه طبيعية للغاية، فساعدها على الاستقرار في الغرفة الجديدة وقضّى نهارًا كاملًا في نقل محتويات الغرفتين، وتعليق ملابسها في الخزانة من جديد وإعادة إلصاق الصّور التي كانت معلّقة على جدران غرفتها، ثمّ وضع مصباحها على مكتب غاوري وكتبها على رفوفها أيضا. وبعد أسبوع، اعترفت بيلا بأنّها تفضّل غرفتها القديمة وعبّرت عن رغبتها في الانتقال إليها من جديد.

تقلّصت الأحاديث المتبادلة بينهما مع الزمن إلى محادثات سريعة

محدودة عند الضرورة. وكانت تنقضي أيّام لا تكلّمه فيها بتاتًا. تساءل ساباش إن كانت قد أخبرت أصدقاءها بما جرى، لكنّها لم تطلب إذنه مطلقًا للخروج لرؤية أصحابها ولم تزرها أيّ صديقة في البيت، وسأل نفسه إن كان البيت المجاور للحرم الجامعي أكثر ملاءمة لحالتها الآن، في الشقة المحاطة بجيران من الأساتذة والمتخرّجين وعائلاتهم، لا في هذه البقعة المنعزلة من المدينة. لام نفسه كثيرًا على اصطحابها إلى تولّيه غانج، لأنّ غيابه منح غاوري الفرصة للهرب، وتساءل أيضًا عمّا فهمته الفتاة من جدّتها حول موضوع أوديان، ومع أنّها لم تذكر له اسم جدّتها أو غاوري مطلقًا إلاّ أنّه تساءل عمّا فهمته بالفعل.

بلغ الحادية والأربعين في شهر كانون الأول، وفي تلك المناسبة، كانت بيلا تأخذ نقودًا من أمّها لشراء هديّة له. كانت تحبّ الاحتفال بعيد مولده. لقد قامت في العام المنصرم بإعداد كعكة له وتزيينها. أمّا هذا العام، فقد وجدها في غرفتها عندما عاد من العمل، كالعادة. وبعد انتهائهما من تناول العشاء، لم تهده بطاقة ملوّنة ولم تفاجئه بأيّ شيء.. وقد كان لانكفائها عنه، وانحسار اهتمامها به ولامبالاتها الجديدة هذه عظيم التّأثير في مشاعره.

اتصلت مرشدة بيلا في المدرسة به هاتفيًا في أحد الأيام أثناء العمل وأخبرته بأنّ أداء بيلا في المدرسة مقلق، إذ أنّها لا تحضر أيّ شيء وتبدو مشتّتة الذهن على الدوام مع أنّهم رفعوها إلى الصفّ السابع بناء على توصية من معلّمتها في الصف السادس، ولهذا فهم يخشون أن يكون هذا الصفّ تحدّيًا يفوق قدراتها وسنّها.

ـ ضعوها في صفّ آخر إذًا.

ـ لكنّ الأمر لا يتعلّق بهذا الجانب فحسب.. إنّها لا تقيم أيّ علاقات صداقة مع رفاقها، وتجلس وحيدة على مائدة منفصلة ساعة الغداء، ولا تشارك بأيّ نشاط مدرسيّ بعد الدراسة، فضلا عن عودتها مشيًا على الأقدام إلى البيت وحيدة على الدوام.

ـ لكنّها تستقلّ الحافلة للعودة إلى البيت وتدخل البيت وتقوم بواجباتها ريثما أعود إلى البيت.

ـ لقد شاهدها العديد من الأشخاص تتجوّل وحيدة في أصقاع المدينة بعد المدرسة.

ـ إنّها تحبّ الخروج في نزهات معي.. ربّما كان المشي يشعرها بالراحة، ربّما يسرّها تنشّق الهواء النظيف.

ـ ربّما... غير أنّها تسير بمحاذاة الطرقات السريعة التي لا يسير بجانبها أحد، لا مشاة ولا عابرون.. لا تسير في شوارع تربط بين مناطق المدينة، بل بجانب طرقات سريعة تربط بين الولايات. لقد شوهدت هناك لآخر مرّة .. كانت تقف على الواقي المعدنيّ المجاور للطريق السّريع وذراعاها مرفوعان نحو الأعلى محاولة حفظ توازنها، كمن يمشي على حبل. ولقد قبلت في مناسبة أخرى دعوة لإيصالها إلى المنزل من شخص مجهول توقّف ليسألها إن كانت بخير.. ولحسن الحظّ أنّ ذلك الشّخص كان إنسانًا عاقلًا وعلى خُلق.. إنّه والد أطفال آخرين في المدرسة. أنا أطلب لقاءك رسميًّا مع والدة بيلا.

انقبضت معدته.. وأضاف كالمعتذر: «والدتها لم تعد تسكن معنا».

ـ منذ متى؟

ـ منذ الصّيف.

ـ كان عليك إخبارنا يا سيّد ميترا.. هل جلستما مع بيلا أنت وزوجتك قبل الانفصال؟ هل هيّأتماها إلى ذلك؟

أنهى ساباش مكالمته.. رغب في الاتّصال بغاوري والصراخ في وجهها، لكنّه لم يكن يعرف رقم هاتفها.. لا يعرف سوى عنوان الجامعة التي تعمل فيها.. لقد رفض الكتابة إليها بعناد ورغب في الاحتفاظ بتحوّلات بيلا وتأثير مغادرة والدتها عليها لنفسه.. ورغم كل ذلك العناد.. ودّلو قال لها إنّكِ يا غاوري تركت لي جسدها لكنّكِ أخذتها معكِ.

بدأ ساباش يرافق بيلا إلى أخصائيّة نفسيّة نصحته بها المرشدة الاجتماعية في المدرسة. كانت عيادتها تقع في نفس مبنى طبيب العيون الذي يتردّد عليه. قاوم في البداية وقرّر الحديث معها بنفسه وأخبر المرشدة بعدم حاجتها لاختصاصية نفسية، لكن المرشدة أنهت الموضوع بحزم.

أخبرته بأنّها تحدّثت مع بيلا بالفعل وأنّها لم تعترض لأنّها بحاجة إلى مساعدة أخصائيّ ولا يمكنه هو أن يقدّم تلك المساعدة لابنته.. وبيّنت له على سبيل الإقناع أنّ الأمر أشبه بكسر أصاب أحد أعضاء جسدها.. وأنّ الزمن لن يشفي مثل ذلك الكسر، لن يلتئم ذلك النّوع من الكسور تلقائيًا بمرور الوقت.. وألحّت في ختام حديثها معه على أنّه غير قادر على جبر ما كسر بحنانه واهتمامه.

فكّر مجدّدًا في غاوري.. لقد فشل رغم بذله كلّ طاقته لمساعدتها. خشي أن تغرق ابنته أكثر، وأن ترفضه بنفس الطريقة التي رفضت بها أمّها من قبل.

وهكذا، كتب ساباش شيكًا باسم الدكتورة إيملي غرانت ووضعه في مغلّف لدفع تكاليف جلسات ابنته كما يدفع فواتير كلّ شيء آخر. كانت فواتيرها تأتيه بريديًا بشكل قصاصات صغيرة من الورق في نهاية كلّ شهر تحتوي على مفصّل لعدد الجلسات الشّهرية، مكتوبة بخطّ اليد. وكان يرمي الفواتير بعد دفعها، ويكره اسم الدكتورة المتكرّر على طرف دفتر شيكاته.

كانت بيلا تذهب إلى تلك الجلسات وحيدة، ممّا دفعه إلى التساؤل عمّا كانت تقوله للطبيبة، ما إذا كانت تخبر تلك الغريبة بالأسرار التي لم تعد تسارّه بها. تساءل عن مدى طيبة تلك المرأة وتذكّر المرّة الأولى التي عرف فيها بزواج أوديان من غاوري وشعوره بأنّ أخاه قد استبدله بامرأة، إنّه يشعر بنفس ذلك الشعور الآن.. يشعر أنّ ابنته استبدلته، لقد استُبدِل للمرّة الثانية.

لم يتمكّن من فهمها وتقبّلها منذ التقى بها للمرّة الأولى والأخيرة، فقد فتح الباب وصافح يد امرأة أصغر ممّا كان يظنّ، قصيرة القامة بنيّة الشعر ذات سحنة شاحبة متّزنة ترتدي جوربين طويلين ضيّقين في ساقيها الثخينتين فبدت أشبه بمراهقة ترتدي ملابس أمّها، إذ كانت السترة واسعة قليلًا عليها وطويلة بعض الشيء. ومع أنّه لاحظ شهادة تخرّجها العالية بامتياز على الجدار، إلاّ أنه تساءل عن الكيفية التي ستتمكّن بها تلك المرأة الغريبة الشكل من مساعدة بيلا.

أصابته نظرتها بالتوتر، كان يطغى عليه شعور بأنّها تعرف أدقّ تفاصيل حياته، وتحتفظ بالكثير من الأسرار الخافية عليه. خشي أن تكون واحدة من أولئك الأطبّاء الماهرين الذين يفحصون المريض

بنظراتهم ويشخّصون مرضه الخفيّ. هل عرفت السرّ الذي أخفوه عن بيلا حتّى الآن؟ هل عرفت أنّه ليس والد بيلا الحقيقي؟ هل اكتشفت أنّه كذب عليها بهذا الخصوص على امتداد كلّ هذه السّنوات يوما بيوم؟

لم تستدعه مطلقًا إلى داخل الغرفة، ولم ترسل إليه في الأشهر الأولى أيّ تقرير عن حالة ابنته. لم يزده الجلوس في غرفة الانتظار، بقرب الباب الذي تجلس بيلا والطبيبة خلفه، إلاّ استياء. راح يشتري حوائجهما الأسبوعية من المتاجر القريبة ويحسب الوقت الذي تستغرقه العيادة وينتظرها في مرآب السيارات، وكانت تجلس بقربه حين انتهائها وتغلق باب السيارة، فيسألها: «كيف كان اللقاء؟»

ـ جيّد.

ـ أما زلتِ تشعرين بأنّ جلساتها تساعدك؟

رفعت كتفيها بلامبالاة.

ـ ما رأيك بتناول العشاء في مطعم الليلة؟

ـ لست جائعة.

كانت تهزّ رأسها بلامبالاة كما كانت غاوري تفعل، وذهنها في مكان آخر وهي تشيح بوجهها إلى اتّجاه آخر.. كانت تعاقبه، لأنّ غاوري ليست هنا لتقوم بذلك.

ـ هل ترغبين بكتابة رسالة إليها؟ ما رأيك أن تكلّميها على الهاتف؟

نفت الرّغبة في ذلك بحركة من رأسها وبكتفيها المنحنيين إلى الأمام المضموم أحدهما إلى الآخر، وذرفت الدّموع.

وقف بباب حجرتها مساء بعد خلودها إلى النّوم قلقًا عليها وراح يسترجع بذاكرته صورة الطفلة التي كانتها من قبل، طفلة الستّ أو

السّبع سنوات التي كانت تجوب الشاطئ جريًا بلا توقف وتقضي معه أروع ساعات أسبوعه المرهق. كانا يركضان بلا توقّف عندما يخلو الشاطئ من الناس، وتلقي الشمس الغاربة بظلّ مستقيم يمتدّ باتّجاههما على صفحة الماء عريضا عند نقطة خطّ الأفق البعيدة ورقيقا حين ينتهي على مقربة منهما.

كانت ظلال الشمس في تلك الأوقات تنعكس على بشرتها فتبدو ورديّة اللون، فتقترب من صفحة ماء البحر الهائل وتحاول اقتحامه بجسدها الصغير المقدام.. لم تبدُ بمثل تلك الحيويّة إلاّ عندما كان يحضرها إلى هنا.

علّمها هناك التّمييز بين الكائنات، فكانا يلعبان لعبة تحصل فيها على نقطة لقاء كلّ محارة تجدها ونقطتين لقاء كل قوقعة وثلاثٍ لقاء كلّ سرطعون بحر. أما عندما كانت تشير إلى طائر الزقزاق الذي يندفع من فوق الكثبان الرملية إلى البحر، فكانت تحصل على خمس.

كانت تسير خلفه وتتّبع خطواته المحفورة على الرمال وتتوقّف بين الحين والآخر لتشير إلى شيء ما على الأرض، وتتنقل بحذر على الأراضي الصخرية وتدندن لحنًا وتضع بعضًا من شعرها خلف أذنها.. ثمّ يناديها ويحسب نتائجهما ليعرف الفائز.

كان يتوقّف لانتظارها وهي تلهو على الشّاطئ. تطير في دفقة مفاجئة من الحيويّة وتسبقه وتقفز وتجري بلا توقّف وتغمس كعب قدميها في الأمواج فيطير الرذاذ على وجهها ويلتصق بعض من شعرها على ذقنها. كانت الريح تعبث بشعرها فيغيب وجهها خلف خصلاته المتطايرة مع الهواء. وعندما يفقد الأمل في وقوفها، عندما يشعر أنّها

ستجري هكذا إلى الأبد، تتوقّف، وتستدير لاهثة ويداها مستندتان إلى خصرها لتتأكّد من أنه هناك.. خلفها.

تحرّرت ببطء ممّا جرى في العام التالي، فظهرت نظرة جديدة صافية في عينيها وعمّ الهدوء وجهها وانقلبت طباعها وانفتحت على الآخرين، فاختلفت نظرتها إلى نفسها ولم تعد تبدو وكأنّها في مواجهة الرّيح على الدّوام، بل راحت الرّيح تدعمها وتدفعها نحو العالم.

وبدلًا من الوحدة القاسية والمستقرّة في المنزل دأبت على الخروج. لم يكن رنين الهاتف ينقطع في المساء. كان يتّصل بها أناس مختلفون، شبّان وشابّات، وكانت تحتجب في غرفتها لساعات كي تحادثهم خلف بابها المغلق.

تحسّنت نتائجها المدرسية وشهيّتها للطّعام ولم تعد تضع شوكتها بعد لقمتين لتعبّر عن شبعها. ثمّ انضمّت إلى فرقة الموسيقى النحاسيّة وحفظت الأناشيد الوطنية وتمرّنت على عزفها على الكلارينيت كلّ يوم بعد العشاء.

وفي عيد المحاربين القدامى راقبها ساباش وهي تمرّ في الشارع أثناء الاستعراض مع رفاقها في لباسهم الموحّد وهي تنفخ في آلتها الموسيقية، غير آبهة ببرودة رياح الخريف ثابتة العينين على النوتة الموسيقية المعلّقة حول رقبتها. في يوم آخر، لاحظ وجود فوطة نسائية في سلّة مهملات الحمّام فأدرك أنّها بلغت. لم تذكر له شيئًا، لا بدّ أنّها اشترت المحارم اللازمة وحدها وأخفتها عنه وراحت تتدبّر أمرها وحدها.

انضمت إلى نادي الدراسات الطبيعية في المدرسة وساعدت أستاذ العلوم في تثبيت بطاقات الأسماء على السلاحف وريش الطيور،

وكانت تذهب معهم أيضًا إلى الشواطئ لتنظيفها لتصبح مناسبة لاستقبال البيض. ثمّ سافرت إلى ولاية ماين لتدرس سلوك فقمات البحر، وإلى قاعدة ماي لمراقبة سلوك الفراشات. شغلت نفسها على الدوام بمواضيع لا يمكن له الاعتراض عليها، كالطّواف في شوارع المدينة وطرق الأبواب مع إحدى زميلاتها لجمع توقيعات الناس على عريضة تطالب برسكلة القوارير الزجاجية والبلاستيكية.

وعندما حصلت على شهادة القيادة، كانت تذهب بنفسها إلى المطاعم وتجمع الطعام المتبقّي بعد انصراف الناس وتأخذه إلى الملاجئ. أمّا في الصّيف فكانت تبحث عن أعمال تبقيها خارج المنزل، كالعناية بنباتات الحدائق أو مساعدة المسؤولين عن مخيّمات الأطفال. لم تطمع بيلا في الحصول على أيّ شيء.. لم ترغب يومًا في شراء أيّ شيء لنفسها.

تخرّجت من المدرسة الثانوية في السنة التالية ولم تسافر معه عندما تلقّى رسالة من ديبا لإخباره بجلطة أصابت أمّه. أخبرته أنّها ترغب في البقاء في رودآيلند لقضاء مزيد من الوقت مع أصحابها الذين ستفارقهم عمّا قريب. رتّب لها شؤون بقائها في منزل إحدى صديقاتها. ومع أنّه لم يحبّ فكرة الابتعاد عن بيلا لعدّة أسابيع، إلاّ أنّه ارتاح بعض الشيء لهذه الإجازة المفاجئة، التي لا تجبره على اصطحابها إلى تولّيه غانج من جديد.

لم يعرف ساباش ما إذا كانت والدته قد تعرّفت عليه جيدًا أم لا.. إذ كانت تقول جملًا متشظّية إلى ألف كسرة، وتظنّه أوديان في بعض الأحيان أو تخاطبه وكأنّه طفل صغير، فتطلب منه عدم تلطيخ قدميه بطين الأرض المنخفضة وألاّ يتأخّر في العودة إلى المنزل.

أدرك فيما بعد أنّها تعيش في زمن مختلف رديف.. تسبح في حقيقة مريحة لها أكثر من هذه. كما أنّها فقدت الاتّساق في ساقيها ولم تعد قادرة على المشي، فلم يعد هناك حاجة إلى ربط السلسلة على بوابة السلّم، فقد انتهى بها الأمر على شرفة المنزل إلى الأبد، في الطابق العلوي من المنزل.

فهم ساباش بعد مدّة أنّه لم يعد موجودًا في ذهن والدته وأنّها لم تعد تأبه له منذ زمن بعيد، فقد تحدّاها بزواجه من غاوري وتفاداها لسنوات وعاش حياته في مكان غريب عنها رغم أنّه أمضى كلّ طفولته تقريبًا ملتصقًا بها.

لكن المسافة بينهما الآن ليست بعدًا ماديًا أو عاطفيًا فقط.. لقد تلاشت كلّ علاقة وكلّ عاطفة مهما كانت بسبب كلّ ذلك البعد، ممّا فجّر إحساسًا بالمسؤولية تجاهها ودفعه للبقاء بجانبها بعد أن أصبح بقاؤه معها غير مهمّ. وهكذا، راح يسافر كلّ شتاء في السنوات الثلاث اللاحقة إلى كالكوتا لقضاء بضعة أسابيع معها، لرؤيتها والجلوس بجانبها وقراءة الصّحف لها وشرب الشاي معها، وليشعر بالإقصاء نفسه الذي شعرت به بيلا بعد أن غادرتها غاوري.

كان يشعر في تولّيه غانج وكأنّه صبيّ صغير من جديد، فلم يكن يبتعد أكثر من المسجد الواقع على الزاوية، ويجوب طرقات الحيّ قليلًا ثمّ يذهب إلى الأرض المنخفضة لإلقاء السلام على حجر أوديان التذكاري، ثمّ يعود من جديد. أمّا المدينة المكتظّة النابضة أبدًا، فلم تعنِ له شيئًا، كانت مجرّد ممرّ ما بين المطار والبيت. لقد غادر كالكوتا كما غادرت غاوري بيلا، وأهملها طويلًا كما أهملت غاوري ابنتها.

اضطرّ في زيارته الأخيرة إلى نقل والدته إلى المستشفى لضعف

أصاب قلبها وحاجتها للأوكسجين، فكان يمضي طوال النهار بجانبها ويصل باكرًا كلّ صباح ليمسك بيدها. اقتربت النّهاية، وأخبره الأطباء بأنّه فعل خيرًا بقدومه من أمريكا، لكنّ الأزمة القلبية الحقيقية الكبرى حصلت خلال تلك الليلة.

لم تمت بيجولي في تولّيه غانج، في البيت الذي تشبّثت به حتى آخر لحظة من حياتها. ومع أنّ ساباش عاد ليكون قريبًا منها وقطع كلّ تلك المسافة ليكون بقربها إلاّ أنّه وصل متأخّرًا في ذلك الصباح، فقد توفّيت وحيدة في غرفة تغصّ بالغرباء، وحرمته من فرصة حضور لحظة مغادرتها لهذه الحياة.

اختارت بيلا كليّة فنون ليبرالية في وسط البلاد، فأخذها بسيارته عبر بنسلفانيا وأوهايو وإنديانا، وسمح لها أحيانًا بقيادة السيارة، ثمّ التقى زميلتها في السكن وأهلها وتركها هناك، لتبدأ دراسة منهاج جديد لا يحتاج إلى امتحانات أو درجات للتخرّج. وقد ناسبتها هذه الطريقة وكتب لها أساتذتها في نهاية العام الأوّل خطابات تقييم عالية المستوى، ثمّ تخصّصت في العلوم البيئية. وفي سنة التخرّج، قدّمت أطروحة حول الآثار السلبية للمبيدات على الأنهار المحلّية.

لكنّها لم تبد اهتمامًا بمتابعة دراستها بعد التخرّج فأحبطت آمال ساباش. أخبرته أنّها لا تريد قضاء عمرها في المدن الجامعية والأبحاث العلمية. لقد أخذت حصّتها الكاملة من الكتب والمختبرات ولا تريد منح حياتها لمثل هذه الأمور.

عبّرت عن رأيها هذا بلهجة لا تخلو من الازدراء، وقد كان ذلك أقرب تعبير عن رفضها الفكري لطريقة والديها في الحياة تذكّر أوديان

الذي كره الدراسة فجأة، كما فعلت بيلا الآن.

حدّثته عن فيالق قوّات حفظ السلام في العالم وعبرت عن رغبتها في الانضمام إليهم والسّفر إلى أماكن أخرى من العالم، وتساءل عن احتمال ذهابها إلى الهند فيما لو انضمّت إليهم بالفعل، لقد بلغت الواحد والعشرين من العمر، ممّا يخوّل لها اتخاذ قرارات هامّة كهذه. ورغم ذلك، لم تنتقل بعيدًا عنه إثر التخرّج، لم تذهب أبعد من غرب ماساتشوستس، حيث حصلت على عمل في إحدى المزارع.

ظنّ ساباش في البداية أنّها تعمل هناك باحثة في مجال التّربة أو مساعدة في إنتاج أنواع جديدة من المحاصيل، لكنّه اكتشف بعد مدّة أنّها تتدرّب هناك على الزراعة وتتعلّم كيفيّة وضع خطوط الريّ، وإزالة الأعشاب الضّارة والحصاد وتنظيف حظائر الحيوانات وحزم صناديق بيع الخضروات بعد وزنها لبيعها للناس العابرين على الطريق المجاور.

لاحظ التغييرات التي طرأت على ملمس يديها وشكلهما كلّما قدمت لزيارته في عطل نهاية الأسبوع وانتبه للتسلّخات في كفّيها والتراب العالق تحت أظافرها ورائحته المنبعثة من جلدها واللون البنّي الذي صبغ رقبتها وكتفيها ووجهها.

راحت ترتدي افرولات الجينز وتنتعل أحذية المطاط الثقيلة وأصبحت تربط قماشًا قطنيًا على شعرها، تستيقظ في الرابعة فجرًا وترتدي قميصًا رجاليًا ترفع أكمامه حتى الكتفين وتضع أربطة جلدية على معصميها لمساعدتها في العمل.

وفي كلّ مرّة أيضًا كان هناك تغيير جديد يطرأ عليها، كوشم أعلى كاحلها بشكل صفحة كتاب مفتوحة، وخصلة مختلفة اللّون على

شعرها وحلقة فضّية متدلية من أنفها.

أصبحت هذه الحياة حياتها.. تنقّلت للعمل بين الكثير من مزارع الريف القريبة والبعيدة، في واشنطن وأريزونا وكنتاكي وميسوري وبعض القرى النائية التي كان يتوجّب عليه البحث عنها في الخرائط وبلدات صغيرة أخرى تنعدم فيها إشارة مرور واحدة كما أخبرته. كانت تسافر في موسم الزراعة أو تزاوج الحيوانات، لزراعة أشجارالخوخ أو صيانة خلايا النّحل ولتربية الدجاج أو الماعز.. كانت ترحل من أجل القيام بأيّ عمل من هذه الأعمال الزّراعيّة مهما كان وحيثما كان.

حكت له عن إقامتها في أماكن قريبة من مكان عملها، وعن عدم تقاضيها للمال لقاء بعض تلك الأعمال، بل إنّ بعض الناس كانوا يمنحونها العمل لقاء طعام كلّ يوم بيومه وتعيش أحيانًا برفقة مجموعات يجمعون ما يحصلون عليه من أجور ويتقاسمون نفقات المعيشة، كما عاشت لبضع شهور في مونتانا في خيمة ووجدت أعمالًا غريبة عندما احتاجت لعمل ما، مثل رشّ المبيدات على أزهار الأوركيد وتنظيم الحدائق العامة. عاشت بيلا دون تأمين صحّي، دون قلق على مستقبلها ودون أيّ عنوان ثابت.

كانت ترسل إليه بطاقة بريدية في بعض الأحيان لتخبره بمكان وجودها أوعلبًا كرتونية تحتوي على البروكولي أو الإجّاص المجموع بعناية داخل ورق الجرائد، أو عنقود من الفلفل الأحمر المجفف. تساءل إن كان عملها قد حملها يومًا لكاليفورنيا حيث تعمل غاوري حتى الآن، أو أنّها تفادت الذهاب إلى هناك بكلّ بساطة.

في الحقيقة، لم يتّصل بغاوري مطلقًا، ولم يملك أيّ تفصيل عن

عنوانها سوى رقم صندوق بريد كان يرسل إليه فواتير الضرائب خلال السنوات الأولى لرحيلها، إلى أن حصل كلّ منهما على حساب ضرائب منفصل. وخلافًا لهذا الاتصال الرسمي، لم يحصل بينهما أيّ لقاء.

عاشا منفصلين على طرفي القارة المتقابلين، تفصل بينهما تلك البلاد الشاسعة التي تجوبها بيلا. لم يتكبّدا عناء الحصول على طلاق رسميّ لأنّ غاوري لم تطلبه ولأنّ ساباش لم يكترث. كان البقاء على هذه الحال أفضل من مفاوضتها حول الحقوق الزوجية من وجهة نظره من جديد. ولطالما راعه عدم اتصالها بابنتها، وعدم إرسالها رسالة واحدة خلال كلّ تلك السنوات. لطالما هاله برود قلبها وشكر الله على سهولة خروجها من حياته.

كان يلتقي في حفلات عشاء يقيمها زملاؤه الأمريكان والهنود بعضَ النّساء الأرامل أو العوانس اللواتي يتّصلن به فيما بعد أو يتّصل هو بهنّ.. يدعوهنّ لمرافقته لحفل موسيقي أو مسرحية.. ومع أنّه لم يشعر برغبة في إمضاء وقته بتلك الطريقة، إلاّ أنّه فعلها بحثًا عن الرّفقة في عديد المرّات. قضى بضع ليال في سرير امرأة ما.. لكنّه لم يرغب في بناء علاقة، إنّه في الخمسينيات من عمره، وقد فاته قطار الزواج وإنجاب الأطفال، لقد تجاوز هذا مع غاوري ولا يمكنه التفكير بإعادة ذلك مع امرأة أخرى من جديد.

لم يرغب فعلًا في مرافقة أحد غير بيلا، لكنّها كانت متقلّبة المزاج ولم يكن يعرف مواعيد زياراتها فقد كانت تعود غالبًا في الصيف وتختار عطلة أسبوع أو أسبوعين في موعد عيد ميلادها لزيارة الشواطئ والسباحة في البحر المجاور للبيت الذي قضت فيه طفولتها، كما كانت

تزوره أحيانًا في عيد الميلاد، وتعده في بعض الأحيان بالقدوم ثمّ تعتذر لأمر طارئ في اللحظة الأخيرة.

كانت تنام في غرفتها القديمة حين تزوره وتفرك ساقيها وذراعيها بالكافور ثمّ تستريح ساعات في المغطس الساخن، تسمح له بأن يطهو لها أطباقها المفضّلة ويعتني بها بطريقته البسيطة، تشاهد معه الأفلام السينمائية القديمة وتتنزّه معه في شوراع المدينة كما اعتادا أن يفعلا عندما كانت صغيرة.

ومع ذلك، كانت تحبّ إمضاء بعض الوقت وحدها، فتبقى صاحية ليلًا بعد خلوده إلى النوم وتطهو الخبز بالكوسا أو تستعير مفاتيح سيارته وتقودها في نزهة وحيدة دون أن تدعوه إلى مرافقتها. وكان يعرف بعد عودتها أنّ جزءًا منها ما يزال منغلقًا على نفسه، ما يزال يفضّل إبعاده عنها، وأنّ إحساسها بالحدود بينهما كان قاسيًا، ومع أنّها كانت تبدو مثل شخص وجد ذاته إلاّ أنّه خشي من أن تكون عالقة في دوّامة الضّياع حتى الآن.

كانت تحزم حقيبتها وتغادره كلّ مرّة دون أن تخبره بموعد عودتها المقبلة، وتختفي كما اختفت غاوري، بسبب رغبتها في متابعة العمل الذي كان ينتشلها من أيّ مكان، يمنحها شخصيّتها ويقود مسار حياتها.

كان عملها قد امتزج مع مرور السنوات بأفكار مخصوصة وبدأ ساباش يمتعض ممّا كانت تقوم به.

كانت تمضي الوقت في المدن، وتساعد في تحويل الممتلكات المهجورة إلى أماكن عامّة جميلة، كما كانت تعلّم العائلات الفقيرة كيفيّة زراعة الخضراوات في حدائقهم الخلفيّة كي لا يعتمدوا كليًّا على بنوك

الطعام، وكانت توقف ساباش عن الكلام حين يمتدح سلوكها هذا وتقاطعه قائلة. «هذا أمر ضروريّ».

كانت تبحث في محتويات ثلاجته وتوبّخه لإصراره على اقتناء التفّاح من المتجر الكبير لأنّها تعارض فكرة تناول الطعام الذي يُنقل لمسافات كبيرة، بالإضافة إلى النّباتات التي تمّ استزراعها من بذور معدّلة جينيًا. حدّثته عن أسباب موت الناس في البلدان التي غزتها المجاعات وعن فقر المزارعين وأبدت مرارا إدانتها لنظام توزيع الثروة غير العادل.

عاتبته أيضًا لإلقاء قشور الخضروات بدلًا من استخدامها سمادا طبيعيا، وفي إحدى زياراتها، ذهبت إلى متجر الخرداوات وابتاعت رقائق خشبية ومسامير وصنعت له سلّة مهملات كبيرة في حديقته الخلفية وعلّمته كيفية إفراغها من المحتويات بعد امتلائها.

«إننا ندعم ما نستهلكه». قالت مرّة وهي تحثّه على القيام بدوره تجاه الطبيعة. إنّها ابنة أوديان، لقد وجّهت نفسها للخير كما فعل أوديان من قبل.

قلق ساباش من الأفكار المثالية العاطفية التي ملأت رأسها، لكنّه بدأ مع الوقت بالتردّد على المزارع للتسوّق بدلًا من المتاجر الكبرى. كان ينطلق إليها في صباحات أيّام السبت، لشراء الفواكه والخضار والبيض، كما أشارت عليه، رغم أنّ تلك المتاجر كانت أقرب وأرخص.

ذكّره الناس الذين يعملون هناك بابنته، أولئك الذين يزنون المشتريات ويضعونها في أكياسه القماشية ويحسبون ما يجب عليه دفعه بالقلم. كانوا يذكّرونه ببساطتها، وشعر بالامتنان لها لتنبيهه إلى ضرورة

تناول المزروعات التي تنبت في فصولها بدلًا من تناول أيّ شيء في أيّ وقت.

كان تكريس نفسها لرفع مستوى الوعي في العالم الذي تعيش فيه يحقّق ذاتها ويملأ كيانها، لكنّه لم يتمكّن من التخلّص من قلقه عليها.. فقد تخلّت عن الاستقرار الذي عمل جاهدًا طوال حياته للحصول عليه. لقد نسيت معنى الحياة المستقرّة وعاشت حياةً محفوفة بالمخاطر (في رأيه)، حياةً لا مكان له فيها، لكنّه تركها تذهب، كما ترك غاوري منذ سنوات بعيدة.

كان لها مجموعة من الأصدقاء الذين كانت تحدّثه عنهم بحرارة دون أن تعرّفه عليهم إطلاقا. حدّثته عن حفلات زفافهم التي حضرتها والستر الصوفية التي كانت تحيكها لأطفالهم الرضّع والبطاقات التي ترسلها إليهم لتفاجئهم، لكنّه لم يسمع مطلقًا بأيّ شريك عاطفيّ في حياتها، لم تحضر معها أحدا إلى البيت أبدًا.

تعلّم تقبّلها كما هي واحترم المسار الذي اختارته لنفسها، وبدت له ولادتها الثانية أكثر عجائبيّة من الأولى.. المعجزة في رأيه أنّها اكتشفت بنفسها معنى حياتها.. وأنّها قادرة على التكيّف مع ما فعلته غاوري، وأنّها استعادت مع مرور الزمن حبّها القديم له.

ومع ذلك، شعر بالتهديد في بعض الأحيان لأنّه ظنّ أنّ سلوكها هذا قد أوحي إليها من شبح أوديان.. خشي من أن يكون تأثير أوديان أعظم ممّا بدا حتى الآن. فقد غادرته غاوري دون رجعة، لكنّه خاف من عودة أوديان نفسه من القبر في بعض الأحيان.. لاستعادة مكانته وزوجته وابنته.

الفصل السادس

1

جلست غاوري لتسرّح شعرها أمام السرير في غرفة نومهما في تولّيه غانج بعد أن أغلقت الباب واقفلت مصاريع النوافذ، واستلقى أوديان على السرير ووضع المذياع فوق صدره تحت الناموسية وطوى إحدى ساقيه تحت الأخرى ووضع منفضة سجائر صغيرة معدنية بجانبه وعلبة ثقاب وعلبة سجائر من ماركة ويلز.

إنّها سنة1971، السنة الثانية التي مرّت على زواجهما وعلى إعلان قيام الحزب، وقد مضى عام على مداهمة مكاتب صحيفتي ديشاربراتي والتحرير. لكنّ أوديان ما زال يقرأ أعداد هاتين الصحيفتين رغم إغلاقهما لأنّها ما تزال تصدر بشكل سرّي وتُوزّع بصمت، ويخفيها تحت مفرش السرير. وقد اعتُبر محتوى كلّ منهما مثيرًا للفتنة ممّا يعني أنّ حيازة أيّ عدد من أعدادهما تعتبر جريمة لا غبار عليها.

عُيّن رانجيت غوبتا مفوّضًا جديدًا للشرطة، فغصّت السجون بالمعتقلين، وراح أفراد الشرطة يسحبون الرفاق والأعضاء السرّيين للحزب من بيوتهم وجامعاتهم وأوكارهم السرّية ويسجنونهم في مراكز احتجاز في أماكن عديدة من المدينة لانتزاع اعترافاتهم تحت التعذيب. كان البعض يخرج بعد عدّة أيّام في حين يبقى الآخرون حتى أجل غير مسمّى، فيحرقون ظهورهم بالسجائر ويسكبون الشمع الحارّ السائل في آذانهم ويدخلون قضبانًا معدنية في مؤخّراتهم. وهكذا.. لم يتمكّن

الناس المقيمين حول سجون كالكوتا من النوم ليلًا.

وفي أحد الأيّام، قُتل أربعة طلاّب جامعيين خلال ساعات قليلة قرب كليّة ستريت، ولم يكن لأحدهم أيّ علاقة بالحزب، ولم يرتكب أيّ منهم ذنبًا سوى عبور بوابات الجامعة لحضور صفّه.

أطفأ أوديان المذياع وسألها: «هل أنتِ نادمة على قرارك؟».

ـ أيّ قرار تقصد؟

ـ الزّواج.

توقّفت عن تمشيط شعرها لبرهة ونظرت إلى صورته المنعكسة في المرآة ولم تتمكّن من تبيّن وجهه بوضوح بسبب الناموسية المحيطة به، ثمّ قالت: « لا».

ـ ألا تندمين على زواجك منّي؟

نهضت غاوري ورفعت الناموسية وجلست على طرف السرير ثمّ تمدّدت بجانبه وقالت من جديد: «لا».

ـ لقد اعتقلوا سينا.

ـ متى؟

ـ منذ بضعة أيّام خلت.

لم يبد في نبرة صوته أيّ شعور بالإحباط أو الهزيمة وكأنّ الأمر لا يعنيه.

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ يعني أنّهم إمّا سيجبرونه على الاعتراف، أو سيقتلونه.

اعتدلت في مجلسها وبدأت تضفر شعرها استعدادًا للنّوم. لكنّ

أوديان أبعد أصابعها وجرّدها من الساري ونثر خصل شعرها فوق قميصها.

ـ دعيه هكذا الليلة.

انهمر شعرها كالمطر بين يديه وتناثرت بعض خصلاته على السرير، ثمّ تلاشى وزنه واختفى، وأصبح أقلّ طولا وتغيّرت طبيعته وبات أكثر خشونة، وغزاه اللّون الرماديّ.

لكنّ أوديان بقي في الحلم شابًّا في العشرين، أصغر من غاوري بثلاثة عقود، وأكبر من بيلا بعقد فقط، شعره المتموّج مرفوع إلى الخلف، وشعر ذراعيه كثيف وداكن، خصره نحيل مقارنة بكتفيه العريضين.. ولكنّها في السادسة والخمسين، سنوات حاضرة واضحة بفعل المرونة التي فقدها جسدها.

لم يلحظ أوديان الاختلاف، سحبها إليها وقبّلها، مال إلى صدرها المتهدّل.. حاولت أن تقاومه وقالت إنّه ليس زوجها الآن.. أخبرته أنّها تزوّجت ساباش.

لم يكترث بالمعلومة، وأبعد عنها ملابسها فبدت لها لمسة يد زوجها القديم أشبه بالشيء المحرّم.. شعرت بأنّها عارية أمام شابّ يافع يبدو أقرب إلى سنّ أولادها.

في بداية زواجها كانت تعيش رُهابا بسبب خوفها من أوديان وخشيتها من تمضية حياتها وحيدة، ولطالما كرهت ذاك الشعور الذي يباغتها بعد الاستيقاظ من ذيّاك الكابوس في سريرهما في تولّيه غانج، على بعد سنتيمترات منه.. وهي ما تزال أسيرة لعالم موازٍ لا يعرف فيه أحدهما الآخر، حتى عندما يشدّها إليه ليضمّها بين ذراعيه.

لقد تعرّفت عليه منذ بضع سنوات وها هي الآن في بداية رحلة اكتشافها لهويّته الحقيقية، لكنّها عرفته طوال حياتها بطريقة أو بأخرى. فبعد موته، بدأت رحلة المعرفة الداخلية الناتجة عن تذكّره ومحاولة فهمه، عن افتقاده والحزن والأسى عليه، ولم يشغل بالها باستثناء ذلك شيء.. لم يفترسها شيء غيره.. لم يشغلها عنه شيء كما شغلها حزنها عليه.

تساءلت عمّا قد يكون عليه شكله الآن لو ظلّ حيًّا.. عمّا كانت السنوات ستفعل فيه.. عن الأمراض التي كان يمكن أن تصيبه والأمراض الأخرى التي كان يمكن له أن ييأس من الشفاء منها.. حاولت تخيّل بطنه الشابّة المشدودة أكثر ترهلًا، أو شعرات رمادية على صدره.

لم تبح غاوري بما جرى لأوديان طوال حياتها سوى لساباش (بعد أن طلب منها ذلك)، وللبروفيسور وايس (لاضطرارها لذلك أيضًا). لم يعرف أحد آخر في العالم أيّ شيء عنه، وبالتالي لم يكن أحد سيسألها. ما الذي جرى خلال سنوات حياته الأخيرة في كالكوتا وماذا شاهدت من الشرفة في تولّيه غانج وما فعلته لأجله، لأنّه طلب ذلك منها.

في البداية، طاردها الأحياء في كاليفورنيا لا الموتى، خشيت من ظهور ساباش أو بيلا في أحد المدرّجات فجأة أثناء المحاضرات أو دخولهم إلى أحد الاجتماعات، فراحت تجوب المدرّجات بناظريها في بداية كلّ محاضرة وهي تتوقّع باحتمال كبير ظهور أحدهما بشكل عجائبي في الصفّ.

خشيت أن يجداها في هذه الجامعة المشمسة، على أحد الأرصفة التي تقطعها من مبنى إلى آخر، لمواجهتها وفضحها والإمساك بها كما فعلت الشرطة عندما وجدت أوديان.

لكنّ أحدًا منهما لم يظهر خلال عشرين عامًا، لم يستدعها أحد، منحاها ما طلبته، وضمنا لها حصولها على الحرّية التي طمحت لها.

تمكنت غاوري بطريقة ما من تخيّل صورة المرأة الرّاشدة التي ستكون عليها بيلا حين تصبح في العشرين من العمر منذ بلغت العاشرة من العمر، فقد كانت الصغيرة ذات السنوات العشر تمضي معظم وقتها في المدرسة وتنام أحيانًا في بعض العطل الأسبوعية في منزل إحدى صديقاتها، ولم تجد صعوبة لقضاء أسبوعين بعيدًا عن غاوري في مخيّم الكشّافة الصيفي. كانت تجلس بين ساباش وغاوري على مائدة العشاء ثمّ تضع طبقها في الحوض بعد انتهائها وتصعد للنّوم دون مساعدة أحد.

ومع ذلك، انتظرت غاوري حتى عرض عليها أحدهم عملًا، وسافر ساباش إلى كالكوتا. عرفت غاوري أنّ الأخطاء التي ارتكبتها خلال سنوات بيلا الأولى لا تُغتفر ولا يمكن إصلاحها، وباءت كلّ محاولاتها بإصلاح الوضع معه بالفشل لأنّ الأساس غير موجود. تغلغل فيها ذلك الشعور مع الوقت ولم يظهر منها سوى أنانيتها واهتمامها بنفسها وعدم مرونتها.

لقد أقنعت غاوري نفسها بأنّ ساباش منافس لها، بل غريم، وأنّها في صراع معه على حبّ بيلا. كانت منافسة مهينة وظالمة. ولذلك كان لا بدّ من أن تضع لها حدّا، كان لا بدّ من انسحابها الاختياريّ واستئصال وجودها من حياة ابنتها، لا بدّ من انسلالها السرّي ذاك واختفائها الإرادي الذي لا مجال لاجتنابه. رسمت بنفسها خطوط انزوائها ثمّ محت نفسها من اللوحة بلا رجعة.

كانت الشمس ساطعة جدًا خلال رحلتها عبر البلاد، فاضطرّت

لارتداء نظارات شمسية اتقاء لوهج الشمس داخل الطائرة، وتمكّنت معظم الوقت من رؤية الأرض من النافذة البيضوية. شاهدت نهرًا ملتفًا كسلك معقوف بعدّة اتجاهات بطريقة فجّة، وملأت التشققات الشبيهة بمسارات الأنهار الأرض البنّية الذهبية، لكنّها لم تكن أنهارًا بل صدوعًا يجوبها الخواء، وارتفعت المنحدرات كالجزر المتكسّرة بسبب حرارة الشمس. وفي الأفق، شاهدت غاوري جبالًا سوداء جرداء لا ينبت فيها عشب ولا شجرة ولا يتحرّك فيها كائن حيّ.

شاهدت أيضًا خطوطًا متعرّجة كفروع أنهار رقيقة ملتوية لا يمكن التنبّؤ بمسارها، لكنّها لم تكن أنهارًا بل طرقًا للسيارات تنتهي في أماكن خالية، ثمّ شاهدت رسوما هندسيّة كالسجّاد الملوّن بالوردي والأخضر والأسمر، في خطوط مستقيمة وأخرى دائرية مختلفة الأحجام والأشكال، متقاربة ومتداخلة وممحوّة في بعض الأماكن، وعلمت من الرّاكب الجالس بقربها أنّها محاصيل زراعية، لكنّها بدت لعيني غاوري مثل كومات من القطع النقدية التي لم يطبع عليها شكل وجه أحد.

عبرت الطائرة الصحراء الخالية من الناس والمعالم، المسطحة تمامًا، ثمّ وصلت أخيرًا إلى الطرف الآخر من أمريكا والمنخفض الرّحب الذي تقع عليه لوس أنجلس ذات الكثافة السكانية المرتفعة التي لا تهدأ. إنّه المكان الذي عرفت غاوري بأنّه سيحتويها، حيث ستضيع بسهولة وكما تريد بالضبط، وفي داخلها، كان مرجل الذنب والأدرينالين يتّقد بما ارتكبته بذات الدرجة التي يلهث فيها مُنهكًا.. وكأنّها مشت كلّ المسافة ما بين رودآيلند وكاليفورنيا على الأقدام، لتفرّ من حياتها.

ولجت غاوري بعدًا جديدًا، افتتحت حياةً جديدة، شعرت بأنّ

الساعات الثلاث التي تفصلها عن توقيت ساباش وبيلا حاجز ماديّ كثيف كالجبال الصحراوية التي عبرتها لتصل إلى هنا. لقد فعلتها.. وقامت بأسوأ شيء فكّرت فيه.

انتقلت شمالًا لفترة وجيزة بعد حصولها على عملها الأوّل للتدريس في سانتا كروز ثمّ في سان فرانسيسكو. ثمّ عادت إلى جنوب كاليفورنيا وأمضت هناك بقية حياتها، في مدينة جامعية صغيرة محاطة بجبال بلون البسكويت، في حرم جامعي يسكنه الطلاب، في مبنى صغير أقيم بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان من المستحيل أن يعيش المرء مجهولًا في مؤسسة تعليمية صغيرة كهذه، إذ لم يكن عملها محصورًا في تدريس الطلاب، بل توسّع إلى إرشادهم الشخصي، ممّا يتطلّب منها معرفتهم عن قرب، وممّا يعني أيضًا أنّها مضطرّة إلى فتح مكتبها برحابة صدر لساعات طويلة أكثر من بقية الزملاء كي يجدها أيّ طالب بحتاجها في أيّ وقت.

وفي قاعات الدّرس، كانت تقود مجموعات من الطلاب تتألّف من عشرة طلاّب أو اثني عشر طالبًا. فتعرّفهم إلى كتب الفلسفة المهمّة وتطرح عليهم الأسئلة التي لم يجد لها أيّ أحد إجابات، وتطلعهم على قرون من الخلافات والخصومات حول المبادئ وأعدّت كذلك درسا في الفلسفة السياسية وآخر في الميتافيزيقيا وحلقات بحث في تأويل الزمن، وأسّست تخصّصات جديدة كالمثالية الألمانية وفلسفة مدرسة فرانكفورت.

قسّمت طلاّبها الكثيرين إلى مجموعات للنقاش، وكانت تدعو بعض الطلاب أحيانًا لزيارتها في منزلها أيّام الآحاد وتقدّم لهم الشاي

وتحدّثهم عن الفلسفة، وتستمع أثناء وجودها في المكتب إلى تساؤلاتهم ومناقشاتهم في مكتبها المحاط برفوف الكتب تحت الإضاءة الخفيفة الصادرة من مصباحها الذي جلبته معها من البيت. كانت تستمع إلى اعترافاتهم وتلمس الرّعب والخوف من عجزهم على كتابة أطروحاتهم بسبب مآسيهم الخاصة التي تسيطر على حياتهم، وتمنعهم في بعض الأحيان محارم ورقيّة لمسح دموعهم وتطلب منهم الاسترخاء وعدم القلق والتقدّم بطلب تأجيل، محاولة بذلك تفهّم كلّ ما يمرّون به.

ساعدها الانفتاح على الآخرين وتواصلها العميق معهم على خلق طريقة غير متوقّعة لبدء عهدها في تلك الجامعة. لقد خيّرت غاوري الضياع في غياهب كاليفورنيا والاختفاء بين طيّاتها. لكنّ تلك العلاقات المؤقّتة مع طلابها ملأت حياتها الفارغة، رحّب بها زملاؤها وأعجب بها طلابها وأخلصوا لها، وترك لها الجميع مهمّة العناية بشؤون الطلبة لثلاثة أشهر أو أربعة في العام، فكان الطلاب معها على الدوام، عشقوها ثمّ انتهوا من دراساتهم وغادروا كغيرهم، لكنّها حافظت على رعايتها الروحية لعدد منهم رغم انتهاء دراستهم.

و بسبب أصولها الهندية أوكلت إليها إدارة الجامعة مسؤولية إضافية، تمثّلت في العناية بشؤون الطلاب القادمين من الهند. وهكذا، كانت تتعرّف عليهم عن كثب وتدعوهم مرّة في العام لتناول العشاء في بيتها وتعدّ لهم البرياني والكباب، فلمست أنّ الطلاّب الجدد كانوا أثرياء سعداء لقدومهم إلى أمريكا، لا يعتريهم أيّ خوف أو شعور بالغربة.. لقد نشأوا في هندٍ مختلفة عن تلك التي عرفتها.

كان بعض طلابها يرسل إليها بطاقات بريدية في الأعياد ويدعونها

لأعراسهم فكانت تلبّي دعواتهم لأنّها لم تكن مرتبطة بأحد.. لم تكن مسؤولة عن تلبية احتياجات أحد.

أمّا دخلها، فكان ثابتًا بعيدًا عن التدريس، فقد نشرت ثلاثة كتب، وهي: *الفهم الأنثوي لفلسفة هيغل*، *تحليل أساليب هوركهايمر*، والكتاب الذي بني على أطروحتها التي كتبت بناء على المقالة التي قدّمتها للبروفيسور وايز قبل سنوات: *نظرية المعرفة في توقعات شوبنهاور*.

تذكرت على الدوام ولادة الأطروحة البطيئة خلف باب مغلق في رود آيلند، تذكّرت باستمرار الخوف الذي اعتراها مع مرور السنين وتقدّمها في كتابتها من احتمال عدم تمكّنها من إنهائها، من احتمال فشلها ها هنا، أيضًا وأيضًا، وهي عالمة تمامًا بأنّ متطلّبات عملها هذا تطغى على واجباتها وأمومتها، لكنّ وايز استدعاها بعد قراءة الأطروحة وأخبرها أنّه فخور بها.

أصبحت قادرة على تكلّم الألمانية مع الدكتور وايز بعد دراستها لتلك اللّغة لوقت طويل ثمّ قضّت عاما كاملا بصفتها طالبة زائرة في جامعة هايلدبرغ. ما يزال وايز على قيد الحياة وقد سمعت أنّه انتقل إلى فلوريدا بعد تقاعده، لكنّه ساعدها قبل ذلك في دخول برنامج درجة الدكتوراه في بوسطن والحصول على أوّل عمل لها في كاليفورنيا. فعل ذلك لأنّه أراد أن يسدي لها معروفًا لأنّه لم ينسها أبدًا، ولم يدرك مطلقًا أنّها كانت تفضّل أيّ عمل على متابعة حياتها كأمّ لطفلة.

لم تحافظ على صلة ثابتة معه لأنّها ظنّت بأنّ أمرها قد افتضح في رود آيلند، وأنّ الناس في الجامعة علموا بما فعلته. وعرفت أنّه لن يحترمها

عندما يعرف ما اقترفت، ذاك الأستاذ الذي ما فتئ يرشدها ويسألها عن ابنتها على الدوام، ذاك الأستاذ الذي آمن بها دائما.

عزلت غاوري عقيدتها الفكرية عن الواقع الملموس مدعومة بوقتها الطويل في الأكاديمية. لقد رغبت منذ زمن بعيد في القيام بعمل ينشر فكر أوديان، لكنّها خانت مع مرور الوقت أفكاره وكلّ ما آمن به، وحرّفت كلّ الأشياء التي ألهمها لفعلها بدهاء لتصبّ في مصلحتها الفكرية الخاصة.

كانت تحضر بضع مرّات في العام مؤتمرات علميّة تقام في مختلف أنحاء البلاد أو في بلدان أخرى، وكانت تلك الرحلات هي الوحيدة التي قامت بها، وكانت تستمتع بالمناظر المختلفة التي تراها في رحلاتها في بعض الأحيان، وتستمتع بالتكلّم عن ثمار أفكارها غير العاديّة في أحيان أخرى.

ظلّت تحتفظ بالشال التركوازي في حقيبة سفرها الصغيرة التي تصعد معها إلى الطائرة، وهي الشيء الوحيد الذي احتفظت به من ساباش، وقد سافرت بالفعل إلى الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة لكنّها تفادت الذهاب إلى بروفيدنس وبوسطن ونيوهيفين كي لا تقترب من البيت، كأنّها شعرت بأنّ تلك الأماكن محظورة ومحرّمة عليها، كخطّ أحمر لا يمكن تجاوزه.

واختارت أيضًا الاحتفاظ بجنسيّتها الهندية رغم اعتباطيّة ذاك القرار عمليّا، فكانت تجدّد جواز سفرها الهنديّ مع احتفاظها ببطاقة الغرين كارد الأمريكية لكنّها لم تعد إلى الهند أبدًا. كان حملها لجنسية بلاد مولدها يعني الانتظار الطويل في المطارات ومزيدا من أسئلة

الشرطة وطلبات إضافية ببصماتها لدى دخولها الولايات المتحدة كلّ مرّة، لكنّهم كانوا يرحّبون بها في كلّ مرّة ويسمحون لها بالدخول.

فكّرت في التقدّم لطلب الجنسية الأمريكية من أجل تقاعدها وتسهيل إجراءات نهاية حياتها. لكنّها اعتبرت ذلك خيانة جديدة لأوديان.

وفي كل الأحوال، كانت كاليفورنيا بيتها الوحيد، فقد تأقلمت مع طقسها الغريب والمريح بسرعة، رغم الحرّ، والجفاف بدل الرطوبة، بعيدًا عن الضباب الذي كان يلفّ رودآيلند بعد ظهر كلّ يوم.

امتنت لله لغياب معالم فصل الشتاء في كاليفورنيا وندرة هطول الأمطار ورياحها الصحراوية الدائمة، وكانت علامة الشتاء الوحيدة البادية للعيان هي الثلوج القابعة على قمم الجبال اللامعة في الأفق.

التقت أيضًا بلاجئين آخرين قادمين من الساحل الشرقي بعد أن قادتهم ظروفهم الخاصة إلى هذا المكان، واضطروا لخلع جلودهم القديمة دون أدنى فكرة عن الحياة الجديدة التي تنتظرهم، وكانوا على أهبة الاستعداد للقيام بتلك الرحلة. ومثلما فعلت غاوري، قيّدوا أنفسهم بكاليفورنيا ولم يعودوا أبدًا إلى المكان الذي أتوا منه، وكانوا كثرًا.. كثرًا جدًا إلى درجة أنّ أحدًا لم يهتمّ بالبلد الذي أتوا منه أو بالأسباب التي دفعتهم إلى هنا. وبدلًا من الحديث عن تلك الأمور، كانوا يتحدّثون في المناسبات الاجتماعية عن محبّتهم المشتركة للاكتشاف والامتنان العظيم لهذا المكان.

بدت بعض النباتات مألوفة عندها، كأشجار الموز ذات الأطراف الحمراء، والتي تحمل البراعم البنفسجية التي علمتها حماتها كيفية

تقطيعها وطهيها في تولّيه غانج، وكالأوكاليبتوس ذي اللّحاء الأبيض والنخيل بعناقيد بلحه المتدلّية على الدوام.

ومع أنّها عاشت بقرب شاطئ آخر في الماضي إلاّ أنّ المحيط الجديد الماثل على الجانب الآخر من البلاد كان مختلفًا تمامًا. لم تشعر أبدًا بأنّه عدوانيّ وجارف للأمواج كمحيط رودآيلند الذي كان مضطربًا على الدوام وبلا لون، مفتقدًا للحياة ويجرف معه كلّ شيء. ثمّ إنّ مقاييس المكان الشاسعة والمسافات الطويلة التي تربط بين الأماكن كانت شيئًا غريبًا جديدًا كوحي من السماء.. تلك المئات من الأميال التي يمكن للمرء قيادة السيارة عبرها دون الخروج من المكان حقًا.

لم تكتشف منها سوى القليل، غير أنّ الفراغ والمسافات الفاصلة بينها وبين حياتها القديمة دفعتها للشعور بالحماية. بدا لها أنّ كلّ النباتات الشوكية وكلّ نسائم الهواء الصحرواي الجافّة الحارّة، وكلّ البيوت الاسمنتية الصغيرة المغطاة بأسقف من القرميد الأحمر تحبّها، وبدا لها الناس هنا أكثر انفتاحًا وليبرالية وأقلّ تحفّظًا وأقلّ ميلًا لانتقاد الآخرين. كانوا دائمي الابتسام غير فضوليين، وكأنّ كلّ تلك الوجوه والمسافات الشاسعة الغارقة في وهج الشمس والمحدّدة بالظلال الحادّة تهمس لها بأن تبدأ من جديد.

لكنّها بقيت، رغم ملابسها وميولها الأكاديمية الغربية، امرأة تتكلّم الأنكليزية بلكنة غريبة، امرأة تدلّ ملامحها ولون بشرتها على عدم انتمائها إلى هذا المكان، امرأة محافظة متحفّظة في مقابل طبائع الأمريكان المتحرّرة. لم تتوقّف عن تعريف نفسها باسم غريب الوقع، اسمها الذي منحه لها والداها.

لم يكن النّاس يتوقّفون عن سؤالها عن البلاد التي قدمت منها بسبب شكلها ولكنتها بالإضافة إلى الناس الذين كانوا يفترضون اعتباطيّا افتراضات خاطئة. دُعيت يوما إلى إلقاء كلمة في سانديغو، فأرسلت إليها الجامعة سيارة كي ترفع عنها عناء قيادة سيارتها إلى مكان اللقاء. حيّت غاوري السائق عندما قرع الجرس لكنّه لم يدرك أنّها البروفيسورة التي حضر لاصطحابها، اعتقد السائق أنّها الخادمة التي تفتح الباب.. قال بنبرة محايدة وببرود: «أخبريها أنّ السائق بانتظارها».

في البداية أحاطت غاوري نفسها بجدران التّبتّل ورحابة الصدر التي تنعم بها الأرامل عادة، تلك التي حُرمت من الاستغراق فيها من قبل بسبب ساباش وبيلا. وتفادت طويلًا المواقف التي يقدّم فيها الناس بعضهم إلى بعض، وتبنّت العادة الغربية في ارتداء خاتم زواج خلال النهار.

كانت ترفض دعوات العشاء والغداء وتظلّ وحيدة في المؤتمرات، وتلتزم بمكتبها على الدوام ولا تأبه برأي الناس فيها وفي عدوانيتها المزعومة، وشعرت بعدم صواب البحث عن رفقة شخص آخر بعد تركها زوجها وابنتها.

وهكذا، تحوّلت هذه العزلة الاختيارية إلى رفيق حميم، يجسّدها صمت الغرف وهدوء المساء الذي لا يتغيّر، والأشياء التي كانت تعود لتجدها حيث وضعتها.. والوعد الذي وعدت به عزلتها بألاّ يحصل أيّ تغيير، وأيّة مفاجأة.. كانت عزلتها تحيّيها مساء كلّ يوم وتستلقي بجانبها ليلًا. لم تقاوم غاوري تلك المشاعر بل اعتمدت عليها كمن يدخل في علاقة جديدة تحتاج إلى أسس ثابتة من الثقة، برضى وقناعة

تفوق ما وجدته في زيجتيها السابقتين.

وعندما بدأت الرغبات تشقّ طريقها إلى حياة غاوري كانت عارضة لا يمكن التنبّؤ بها، بالإضافة إلى الحيويّة التي كانت تضخّها في حياتها. باغتتها تلك الفرص في بيوت زملائها على موائد العشاء والمؤتمرات التي تقام من حين إلى آخر.

كان معظمهم من الزملاء، لكنّ الحال لم تكن كذلك دائمًا. فهناك الرّجل الذي نسيت اسمه، والذي ركّب لها الرّفوف في الشقة، ثم زوج عازفة الموسيقى في الأكاديمية الامريكية في برلين.

كانت تحظى بعدد من العشّاق في بعض الأحيان، وتبقى بلا رجل لفترات طويلة جدًّا في أحيان أخرى، وقد أحبّت بعضهم جدًّا وحافظت على صداقة مع آخرين لكنّها لم تسمح لأحدهم بأن يفسد عليها حياتها.

لم يكشفها أحد سوى لورنا، تلك المراة التي قرعت بابها خلال ساعات العمل في أحد الأيام وقدّمت نفسها وهي ما تزال على عتبة الباب، وقد كانت امرأة ثلاثينية طويلة القامة، لها شعر مرتّب مشدود إلى الخلف، أنيقة الهندام، في سروال ضيّق وقميص أبيض مغلق الأزرار، فاعتقدت غاوري لأوّل وهلة أنّ الطارق أحد الزملاء القادمين من كلّية أخرى.

لكنّها لم تكن كذلك..بل كانت طالبة متخرجة من كلية UCLA وقد قدمت لمقابلة غاوري بعد أن قرأت كلّ كتاباتها. وكانت لورنا تعيش في نيويورك وتعمل منذ سنوات في مجال الدعاية والإعلان، في لندن وطوكيو، إلى أن قرّرت العودة إلى الجامعة والتخلي عن كلّ

شيء. وكانت تبحث عن قارئ محايد لأطروحتها التي تدور حول الذاتية النسبية، وتحمل في يدها نسخة منها، وقالت إنّها على استعداد، في المقابل، لمساعدة غاوري في أيّ بحث أو تقدير علامات الطلاب في مقابل منحها شرف قراءة الأطروحة. وختمت كلامها بعبارة توسّل لطيفة وبنبرة محبّبة قائلة: «أرجو أن تقبلي».

كان جمالها رصينًا.. عنق طويل وعينان رماديتان وحاجبان مزجّجان وأذنان صغيرتان إلى درجة أنّهما تبدوان غير موجودتين وبعض المسامّات الواسعة على الوجه.

ـ سمعت كلمتك الشهر الماضي في جامعة ديفيس. وطرحت عليك سؤالًا.

ـ لا أذكر ذلك.

ـ ألا تذكرين السؤال؟

ـ لا أذكر، معذرة.

سحبت لورنا من حقيبتها لوح شوكولا وقالت: «كان سؤالي عن ألتوسير. أنا آسفة.. لم أتناول غدائي. هل تمانعين؟».

نفت غاوري بحركة من رأسها ففتحت لورنا اللّوح وأكلته وشرحت لها وهي تتناول قطع الشّوكولا أسس مشروعها والنقطة الأساسية التي رغبت في مناقشتها. بدت يداها صغيرتين قياسا بطولها، ومعصماها ناعمين للغاية، ثمّ أخبرت غاوري بأنّها استغرقت عامًا لاستجماع ثقتها بنفسها للقائها.

شعرت غاوري بشيء من العُجب في مكتبها ذاته، فقد أوقعتها الفتاة في الفخّ وامتدحتها في نفس الوقت.. كيف يمكن لها نسيان وجه كهذا؟

أثار الموضوع اهتمامها فعيّنتا موعدًا للقائهما وتبادلتا العناوين الالكترونية وراحتا تتقابلان في المقاهي والمطاعم. وكانت لورنا تكتب القليل في أوقات وتتوقّف عن الكتابة في أوقات أخرى ثمّ تكتب فصولًا كاملة متماسكة على حين غرّة. كانت تتّصل بغاوري كلّما شعرت بالضياع، أو خانتها ثقتها بنفسها أو فقدت رباطة جأشها.

دفعت جاذبيّة لورنا غاوري للاتصال بها والسماح للأحاديث أن تمتدّ إلى ما خلف المعقول. شتّتت ملامح لورنا وكلماتها انتباه غاوري، وبدأت تعتني بمظهرها قبل الالتقاء بها ولم تفكر قبل عبور الخطّ الذي قادها إلى الإعجاب بجسد امرأة أخرى.. وجدت نفسها فجأة على الجانب الآخر من ذلك الخطّ.

وحينما كانتا تجلسان متقابلتين أمام طاولة لتدقيق شيء في مخطوطتها، كان يحدث أن تلتقي أطراف يديهما اللتين تحملان قلمين، فتتلامسان بحنان. وشعرت غاوري في أوقات أخرى بفقدانها للتوازن كلّما وقفتا وحيدتين في غرفة. خافت أن تفشل في السيطرة على جرأة الخطوة الأولى، ثمّ التالية.. حتى اللحظة التي ألغت فيها كلّ مسافة تفصل بينهما.

ومع ذلك، لم تقم غاوري بأيّ خطوة ناتجة عن تلك الدوافع لأنّها لم تكن متأكّدة من احتمال تجاوب لورنا، رغم كلّ ما كان يغريهما بالتحابب ورغم كلّ ما كان يغويهما بالاستمرار في ذلك.

ظهرت لورنا فجأة في مكتبها مساء دون الاتّصال مسبقًا كما دأبت على الفعل. فرغت منذ وقت قصير من كتابة الفصل الأخير ودسّت صفحات مخطوطتها الثمينة في مغلّف سميك تحت ذراعها. كان الطابق خاليًا من الناس بعد أن أوى الطلاب إلى مهاجعهم ولم يبق سوى بعض

الفرّاشين والأساتذة المتفرّقين هنا وهناك في مكاتبهم.

سلّمت لورنا المغلّف إلى غاوري وبدت مرهقة مستنفذة، وكانت ترتدي للمرّة الأولى سروال جينز وبلوزة قطنية، ولم تتكبّد عناء رفع شعرها كالعادة، وأتت إليها مباشرة بعد مرورها للتسوّق، فكانت تحمل أيضًا أكياسًا تحتوي على شرائح الجبن والعنب والبسكويت المالح وزجاجة نبيذ وكأسين ورقيين.

ـ ما هذا؟

ـ فكرت في أنّه قد نحتفل بهذه المناسبة.

ـ هنا؟

نهضت غاوري عن طاولة مكتبها وأغلقت الباب وأقفلته رغم عدم جواز ما قامت به، لأنّ الباب يجب أن يبقى مفتوحًا. عندما التفتت وجدت لورنا أمامها مباشرة.. تنظر إليها بهيام من مسافة قريبة جدًا.

أمسكت بيد غاوري ووضعتها على صدرها المتحفّز كصدر غاوري.. شعرت بقبلاتها الناعمة ورائحتها وملمس جلدها اللطيف وهما تزيحان الأوراق لتفسحا لنفسيهما مكانًا على أريكة المكتب.. لم تحظ غاوري بعشيق أصغر سنًّا منها مسبقًا.. لقد بلغت الخامسة والأربعين وبدأ جسدها في التداعي شذرات شذرات..كانت أضراسها تحتاج إصلاحا وفي عينيها ترتسم شرايين قرمزية جديدة لم تكن هناك في الماضي كبرق أحمر في زاوية العين.. كانت غاوري على استعداد للصدّ والرفض لوعيها بكلّ عيوبها.. كانت على استعداد لعدم الاستسلام.. ولكنّها لم تفعل. لقد انساقت إلى نداء تلك الرّغبة دون تفكير.

ومع أنّ لورنا لم تكن تلميذتها فعليًا.. لم تكن تلميذة في المؤسسة

التعليمية التي تعمل بها إلاّ أنها ما تزال مرشدتها ومعلمتها.. بشكل أو بآخر.. إنّها تدرك تمامًا احتمال وقوع فضيحة حقيقية لو كشفهما أيّ شخص.. لا في تلك الليلة فقط، بل في ليال تالية كثيرة.. متباعدة لكنّها كافية.. في سرير غاوري أو في سرير لورنا.. وفي غرفة فندق مطلّ على البحر أمضيا فيها عطلة نهاية الأسبوع ذات مرّة.

عندما انتهى العمل على الأطروحة، جلست غاوري بين صفوف لجنة القراءة المختصّة بإعطاء الرأي النهائي فيها، وطرحت عليها أسئلة كالآخرين.. وكأنّهما لم تقضيا تلك الأوقات وتلك الأمسيات معا.

عرض أحدهم على لورنا عملًا في تورنتو فانتقلت دون تردّد.. لم تناقشا كيفية لقاءاتهما المستقبلية.. انتهى زمن الوصال دون ضغائن وبشكل قطعيّ. شعرت غاوري بالذلّ للاستخفاف الذي عوملت به.

ومع ذلك، حافظت كلّ واحدة منهما على درجة محدّدة من الصداقة ما بينهما، فكانتا تحتسيان القهوة معا إذا ما تقابلتا في أحد المؤتمرات صدفة. وعرفت غاوري أنّها تحوّلت في نظر لورنا من عشيقة إلى مجرد زميلة، لا شيء آخر.

لم يكن هذا مختلفًا كثيرًا عن الطريقة التي انقلبت فيها أدوارها في الماضي مرّات كثيرة، من زوجة إلى أرملة.. من كنّة إلى زوجة، من أمّ إلى امرأة بلا أطفال. وقد اختارت بنفسها القيام بتلك الانقلابات باستثناء فقدان أوديان الخارج عن إرادتها.

لقد تزوجّت ساباش بإراتها وتخلّت عن بيلا بإرادتها واستولدت نسخةً جديدة من نفسها وتحمّلت الكلفة القاسية المتوحّشة لتلك

التحوّلات.. لم تُلبس حياتها أثوابًا جديدة إلاّ لتخلعها جميعًا.. لتعرّيها وتبقى وحيدة في النهاية.

مضى على علاقتها بلورنا أكثر من عقد، مدّة طويلة كافية لنفيها من كيانها. انجرفت غاوري بعيدًا عن تلك الأحاسيس وانحسرت حياتها لتقتصر على عناصرها الأساسية.. على اعتمادها الكامل على نفسها وأزيائها السوداء الرسمية المتشابهة وكتبها وحاسوبها المحمول وسيارتها التي تقلّها من مكان إلى آخر.

مازال شعرها قصيرًا مفروقًا من منتصفه، نظارة بيضوية العدسات متدلّية من رقبتها بسلسلة وظلال زرقاء تحت عينيها، صوتها خشن بعد سنوات المحاضرات الطويلة وبشرتها ازدادت جفافا بسبب التعرّض لشمس الصحراء الجنوبية القاسية.

توقّفت عن العمل ليلًا واتّبعت نمط الحياة القديم.. فكانت تنام في العاشرة وتنهض فجرًا.. سمحت لنفسها بالترف في بعض الأمور التي لم تفعلها سابقًا، فاقتنت بضع نباتات زرعتها في أوعية جميلة داخل المنزل أو في الحديقة كما كانوا يفعلون في بيت تولّيه غانج، زرعت الياسمين الذي يتفتّح مساءً وشجرة كركديه تورق بلون اللهب وشجيرة غاردينيا ذات أوراق خضراء لامعة.

أحبّت غاوري الجلوس على شرفتها المبنيّة من حجارة القرميد الحمراء، تحت التعريشة الخشبية بعد يوم طويل منهك من القراءة أمام مكتبها.. لتشرب كوبًا من الشاي وتنظر في بريدها، لتشعر بشمس العصر على وجهها وتراجع بعض الصفحات التي كانت تعمل عليها وتبقى أحيانًا لتناول العشاء.

وفي سيارتها، كانت تستمع إلى الكتب المسجّلة صوتيًا التي لم تتسنّ لها قراءتها كلّما شعرت بالملل من برامج الراديو المحلّي. لكنّها لم تكن تشتري تلك الكتب الصوتية، بل تستعيرها من المكتبة العامة.

لم ترفّه عن نفسها بطرق أخرى.. كان وجودها وحيدة، بعد موت أوديان وابتعادها عن ساباش وبيلا، رفاهية في حدّ ذاته. لقد انتهت حياة أوديان في لحظة عابرة، واستمرت حياتها هي بلا توقّف.

وبقي جسدها مشدود القوام رغم السنين كإبريق الشاي الأخضر النحيل الذي اشترته من أحد الأسواق المقامة في باحات المنازل الخلفية. استمتعت برفقته خلال ساعات كتابتها ورافقها خلال رحلتها إلى كاليفورنيا ملفوفًا في ورقة وخدمها حتى النهاية.

وقعت عيناها في أحد الأيام على صورة منضدة شرفة صغيرة مناسبة لها في أحد الإعلانات التي وصلتها عبر البريد. لم تكن المنضدة ضرورية لكنّها اتصلت بالشركة وطلبتها لتستبدل المنضدة القديمة ذات السطح الزجاجي المغطّى بمفرش قديم.

وصلت شاحنة التسليم إلى باب بيتها بعد أسبوع. توقّعت غاوري أن تستلم علبة ثقيلة تحتوي على قطع الطاولة التي ستحتاج إلى يوم كامل من العمل برفقة كتيّب تعليمات للانتهاء من تركيبها، مع كيس مليء بالمسامير والقطع الصغيرة التي يجب عليها تركيبها بنفسها. لكنّ المنضدة وصلت جاهزة للاستعمال، وحملها رجلان إلى داخل المنزل ووضعاها على الشرفة حسب رغبتها.

أرشدتهما إلى المكان المحدّد ثمّ وقّعت لهما على وصل استلام وودّعتهما ووضعت كلتا يديها على سطحها لتتلمّسها واقتربت لتتنشق

عبير الخشب القويّ.. إنه خشب الساج!

قرّبت وجهها من السطح وتنشّقت بعمق.. ألصقت خدّها بها.. إنّه عبير غرفة النوم التي خلّفتها في تولّيه غانج..عبير الخزانة وطاولة الزينة الذي لا يُمحى.. أريج السرير ذي القوائم النحيلة الذي حملت عليه بيلا. طلبتها من كتالوج أمريكي وأوصلتها شاحنة.. لقد عاد إليها شيء ممّا فقدت من جديد.

لم تكن رائحة المنضدة قويّة دائمة كرائحة غرفة نومها القديمة، لكنّها كانت تفوح بين الحين والآخر على الشرفة بعد تعرّضها لنور الشمس الدافئ ربّما، أو بسبب هبوب رياح سانتا آنا. طوى ذلك العبق واختصر في نفحاته كلّ تلك المسافات والأزمنة.

بمَ أخبر ساباش بيلا ليبقيها بعيدة عنها كلّ تلك السنين؟ ربّما لم يخبرها بأيّ شيء. إنّها عقوبة عادلة لجريمتها. إنّها تعرف الآن معنى هجرها لفلذة كبدها... إنّها جريمة القتل التي اقترفتها.. العلاقة التي دمّرتها بيديها.. الموت الذي لم يؤثّر في أحد إلاّ عليهما.. إنّها جريمة تفوق بشاعة كلّ ما اقترفه أوديان.

لم تكتب لابنتها مطلقًا ولم تجرؤ على الاتّصال لتأكيد حبّها لها.. أيّ تأكيد هذا الذي كانت ستقدمّه؟ لقد قامت بشيء لا يمكن التراجع عنه.. وبدا لها أنّ صمتها وغيابها الكامل أفضل موقف يمكن لها اتّخاذه.

أمّا بالنسبة إلى ساباش فلم يقترف أيّ خطأ، لقد سمح لها بالرحيل ولم يزعجها أبدًا ولم يلمها على أيّ شيء، على الأقلّ لم يتفوّه بشيء في وجهها. وقد أملت في أن يكون قد وجد بعض السعادة بعيدًا عنها.. إنّه يستحقّ ذلك.. أمّا هي فلا تستحقّ شيئًا من تلك السعادة.

ومع أنّ زيجتهما لم تكن حلّا لأيّ مشكلة.. فقد أبعدتها عن تولّيه غانج. لقد حملها إلى أمريكا ثمّ أطلقها هناك كحيوان احتفظ به مدّة حبيسًا في قفص. لقد حماها وحاول أن يحبّها، وفي كلّ مرّة كانت تفتح فيها وعاء المربّى الجديد، كانت تتذكّر الحيلة التي علّمها.. بأن تطرق الغطاء عدّة مرّات بملعقة لتسهيل فتحه.

2

انتهت عمليّات تجديد السكة الحديدية التي كانت تحمل الركاب سابقا بين محطتيْ كينغستون وناراجانست مع بداية الألفية الجديدة، وكان الطريق الجديد سهلًا، يمرّ عبر غابة وينحني لتجنّب النهر وبعض فروعه الصغيرة. وعلى جانبيه، اصطفّت هنا وهناك بعض المقاعد التي يمكن للعابرين المتعبين أن يحصلوا على بعض الرّاحة بالجلوس عليها. كما كانت هناك إشارات منتظمة تفصل بينها مسافات ثابتة تدلّ على الموقع وتشرح بعض مميّزات المكان، كوجود نوع معيّن من الأشجار.

كان يقود سيّارته، بعد تناول إفطار يوم الأحد، كلّ أسبوع إلى محطة القطار الخشبية التي وطأتها قدماه لأوّل مرّة عندما وصل طالبًا إلى هنا، وهو نفس المكان الذي يستقبل فيه بيلا أحيانًا. وقد نشب حريق ها هنا قبل سنوات لكنّهم جدّدوا البناء وبنوا سكّة حديديّة جديدة خاصّة بالقطار السريع. ركن السيارة ومشى وحيدًا عبر ممرّات البلدة المسيّجة. لم يفهم ساباش أبدًا النقيضين اللذين عاش حياته فيما بينهما: قدومه من مدينة لا متّسع فيها للبشر، وحلوله في أخرى لا بشر فيها لملء البيوت الفارغة.

تابع المشي لساعة تقريبًا، أحسّ كأنّه مشى زمنا أطول، لأنّه يستطيع مشي ستّة أميال ذهابًا وإيابًا دون أن يشعر بالتّعب. لقد عاش في هذه المدينة أكثر من نصف حياته وأخلص لها لكنّ الخط الحديدي الجديد غيّر علاقته بها، جعله يراها غريبة من جديد. مشى في الشوارع الخلفية

لأحد الأحياء وبجانب ملاعب الرياضة الخاصّة بطلاّب المدارس ثمّ عبر جسرًا خشبيًا للمترجّلين حيث شاهد كيسًا مرميًا على الأرض يحتوي على أعشاب مائية، ثمّ وصل أمام أحد مصانع النسيج القديمة المهجورة.

بات يفضّل النّزهة على الشاطئ هذه الأيام ويخيّرالأماكن الظليلة هناك، فقد ولد ونشأ في كالكوتا إلاّ أنّ شمس رودآيلند الحارقة الناجمة عن اتّساع ثقب الأوزون بدت له الآن أقسى من شمس طفولته، لم ترحم أشعّتها جلده، فأصابته بحروق خفيفة لا يمكن له احتمالها في الصّيف خاصّة. لم تكن بشرته لتصاب بحروق شمسية من قبل، لكنّ شعوره بحدّتها طغى على كلّ شيء فكان يتهيّأ له أحيانًا أنّها تستهدفه شخصيًا .. وأنّ ذاك اللّهب الحارق يأتيه خصّيصًا من تلك النجمة البعيدة.

مرّ أمام مستنقع في بداية نزهته، حيث تعشّش الطيور وتبيض الحيوانات وتتوالد، وتنمو أشجار القيقب الأحمر والأرز فوق التلال المغطّاة بالطحالب. إنّها أكبر أرض رطبة في جنوب نيو إنكلند، وكانت مغطّاة فيما سبق بالثلج خلال العصر الجليدي، ومازالت حتى اليوم محاطة بالركام الحجري الناتج عن ذلك.

كانت قد وقعت على أرضها معركة، هكذا قرأ في واحدة من الإشارات المثبّتة على جانبي الطّريق والتي تتحدّث عن الموقع ومميّزاته. أثار الموضوع اهتمامه وعند عودته إلى المنزل في أحد الأيّام بحث في حاسوبه المحمول عن الموضوع وطلب معرفة المزيد من التّفاصيل عن المجزرة الوحشية التي وقعت هناك.

بنت قبيلة ناراجانست حصنًا خشبيًا على الجزيرة التي تتوسّط المستنقع وأحاطته بسور من العصيّ وسكنت داخله معتقدة أنّها في منأى عن كلّ الشرور والمخاطر. اعتقد أهلها أنّ حصنهم هذا منيع ومستعص على كلّ معتدٍ، لكنّ قوات المستعمرين هاجمتهم في شتاء عام 1675، حين تجمّدت مياه البحيرة وتعرّت الأشجار المحيطة، فأحرق ثلاثمائة رجل أحياء ومات الآخرون الذي تمكّنوا من الهرب جوعًا أو مرضًا.

قرأ في مكان ما أنّ ذكرى تلك المجزرة قد خلّدت بعمود غرانيتي موجود في ناحية ما من الموقع، لكنّ ساباش لم يجده، وضاع وهو يبحث عنه دون جدوى. لم يعشق في شبابه شيئًا أكثر من التجوّل هنا وهناك مع بيلا، وقد حرص فيما سبق على اتّباع التعليمات وتعليم الطرق ما بين الأحراش. فكانا يغزوان الطبيعة البكر ويتوهان وحيدين معزولين يكتشفان شجيرات التوت البرّي ويسبحان في البرك الخافية عن عيون الناس. لكنّه فقد ثقته القديمة بنفسه التي كانت تعينه على تخمين الاتّجاهات الصحيحة.. لم يشعر بأنّه وحيد قبل الآن.. لقد تخطّى الستين عامًا دون أن يعرف موقعه من الحياة.

فاجأه رجل يقود درّاجة ويعتمر خوذة صباح يوم أحد وهو تائه بين أفكاره على الطرف الآخر من الطريق، وتوقّف صائحًا به: «يا إلهي.. ساباش.. ألم أنصحك بمراقبة الطريق على الدّوام؟».

إنه ريتشارد، على درّاجة رياضية ذات عشر سرعات، رفيق سكنه الذي شاركه البيت قبل عقود. اقترب منه وهزّ رأسه طربًا وابتسم ثم قال: «ماذا تفعل هنا حتى الآن بحقّ الجحيم؟».

ـ لم أعد إلى بلدي.

ـ اعتقدت أنّك كنت تخطّط للعودة إلى الهند بعد تخرّجك.. لذلك لم أفكّر أبدا في البحث عنك.

كانا يقفان بقرب مقعد خشبي، فجلسا وتحدّثا. لم يعد الشعر تحت خوذة ريتشارد داكن اللون، كما اختفت كمية كبيرة منه، لكنّه ما يزال يربط الباقي إلى الخلف على شكل ذيل حصان كما اعتاد في الأيام الخالية. ازداد وزنه، ومع ذلك فقد رأى فيه ساباش الشابّ الوسيم الذي كانَه فيما مضى، الطالب النحيل الذي التقاه في بداية عهده هنا، ذلك الذي كان يذكّره بطريقة ما بأوديان، في ذلك الزّمن البعيد الذي سبق زواج كلّ منهما، عندما كانا يعيشان معا ويشتركان في كلّ شيء بدءا من التسوّق وصولا إلى الأكل.

تزوّج ريتشارد وأصبح جدًّا. افتقد المكان على امتداد فترة غيابه عنه ونوى العودة إليه بعد التّقاعد فيه. باع بيته قبل عام واشترى مع زوجته كوخًا فيساندرستاون في مكان غير بعيد عن ساباش.

موّل ريتشارد طوال سنوات مركزًا للدراسات اللاعنفية في إحدى جامعات الغرب الأوسط وما زال حتى الآن أحد أعضاء مجلس إدارته، لكنّه تمكّن من التخلّص من ارتداء البزّات الرسمية وربطات العنق طوال حياته. وكان في خضمّ عمليّة تأليف كتاب وتجديد مطبخ منزله بيده بالإضافة إلى كتابته لمدوّنة تهتمّ بالسّياسة على الانترنت بشكل دوري. كان أيضا يخطّط لرحلة إلى جنوب شرق آسيا يزور فيها مقاطعتي بنوم بن وسايغون في فيتنام مع زوجته.

ـ هل تصدّق ذلك.. بعد كلّ ما كنت أقوله في الماضي.. ها أنا ذاهب

لزيارة فييتنام.

لخّص ساباش بدوره أحداث حياته، وحكى له عن الزوجة التي هجرته والبنت التي تركت البيت بعد أن كبرت وعمله في نفس المختبر البحري لحوالي ثلاثين عامًا، بالإضافة إلى بعض الاستشارات التي يقدّمها للتخلّص من البقع النفطية بين الحين والآخر، أو لأشغال المدينة العامة. إنّه وحيد، بلا عائلة.. كما كان حاله عندما التقى بريتشارد من قبل، لكنّه وحيد الآن على نحو آخر.

ـ أما زلت تعمل خمسة أيام في الأسبوع؟

ـ نعم، وإلى أن يتمّ إيقافي عن العمل.

ـ وهل ما زلت تقود سيارتي؟

ـ لا.. تركتها منذ استقالة نيكسون وحدوث عطل في جهاز نقل الحركة.

ـ لطالما حكيت لزوجتي عن طبق الكاري الذي كنت تعدّه والبصل الذي كنت تطحنه على الخلاط.

سافر ريتشارد إلى الهند وزار نيودلهي ووقف على قبر غاندي في كوجارات ورغب في زيارة كالكوتا أيضًا لكنّه لم يفعل، وفكّر في الذهاب إليها في رحلة العودة من سايغون حسب قوله. ثمّ سأله ببراءة: «وأخوك.. ذاك المناضل الناكسالي.. ماذا جرى له؟».

تبادلا أرقام الهواتف وعناوين البريد الالكتروني وعاودا اللقاء للتنزّه أو لشرب البيرة في حانة البلدة. ذهبا للصيد مرّتين ولوّحا بصنّارتيهما فوق صخور بوينت جوديث حيث اصطادا سمك حنّاء البحر وأعاداه إلى الماء.

كان ساباش يعده في كلّ مرّة بأن يدعوه وزوجته في وقت قريب إلى منزله ليطهو لهما طبق الكاري المشهور. كان قد فكّر في أن يفعل ذلك تزامنا مع إحدى زيارات بيلا ليتمكّن ريتشارد من رؤيتها، لكنّه لم يتمكّن من تحقيق ذلك الوعد على مدى عامين، بقيت صداقتهما فضفاضة وسهلة دون عقد كما كانت في السابق.

اعتاد ساباش على تلقّي كمّيات هائلة من الرسائل الالكترونية من ريتشارد، لإعلامه بمواعيد المحاضرات والسباقات المختلفة، أو الإحصائيات حول تكاليف الحرب على العراق، والروابط الخاصّة بمدوّنة ريتشارد، بالإضافة إلى كثير من الرسائل القصيرة على هاتفه المحمول لتحيّته بين الحين والآخر.

وفي يوم أحد، بينما كان يشاهد نشرة الأخبار على قناة CNN، تلقّى اتصالًا من رقم ريتشارد، فخفض صوت التلفاز وفتح الخطّ. لم يتوقّع سماع صوت كلير، زوجة ريتشارد.. المرأة التي لم يلتق بها أو يتحدّث إليها من قبل، لتخبره بوفاة صديقه قبل عدّة أيّام بسبب جلطة دموية تشكّلت في ساقه ثمّ انتقلت إلى رئته بعد يوم واحد من رحلة قاما بها على متن الدراجة إلى روم بوينت.

أغلق ساباش السمّاعة وأطفأ التلفاز، وتابع بعينيه حركة غريبة خارج نافذة غرفة جلوسه، فلاحظ الكثير من العصافير وهي تعيد ترتيب نفسها فوق الشجرة بلا هوادة.

تقدّم من النافذة ليراها بشكل أفضل، فشاهد الطيور الصغيرة الداكنة اللون ذات الصوت العالي على إحدى الشجرات وهي تتحرّك بقلق من غصن إلى غصن، ويحادث بعضها بعضا برغم الشتاء، عن

الحياة التي تنتظرها من الشجرة.. كانت العصافير تطالب الشجرة بإنتاج الأوراق والبراعم بإلحاح.. وقد أهانه ذلك ودفعه للشعور بالحنق.

دخل ساباش قاعة جنائزية للمرّة الأولى في حياته، انحنى فوق التابوت المفتوح ونظر إلى جثة أنيقة الهندام مسجاة في كفن. لاحظ اختفاء الحياة من وجه ريتشارد ومحاولة محاكاتها من قبل الحانوتي الذي حاول جاهدًا رسمها كما لو كان يرسمها على وجه قُدَّ من شمع. تذكّر المرّة الأخيرة التي شاهد فيها أمّه، وهي مغطّاة بكفنها.

قاد سيّارته إلى منزل ريتشارد بعد انتهاء القدّاس لحضور حفل استقبال المعزّين، الذي لا يختلف كثيرًا عن الحفلات الأخرى التي حضرها من قبل في أمريكا: طاولة طويلة مترعة بأطباق الطعام وشرائح الجبن والسلطات، وكثير من الناس الذين يرتدون البزات السوداء ويحملون كؤوس النبيذ ويتناولون شرائح اللحم البارد.

وقفت كلير في أقصى الغرفة محاطة بأولادها وأحفادها تشكر المعزّين وتصافحهم، وتخبرهم بأنّه لم يشعر بأيّ شيء إلاّ قبل يوم واحد من وفاته، عندما شكا لها من ضيق خفيف في التنفّس، ثمّ أيقظها في فجر اليوم التّالي غير قادر على الكلام وأشار إليها كي تتّصل بالإسعاف هاتفيًا، لكنّه مات في سيارة الإسعاف، على الطريق وقبل الوصول إلى المشفى، وهي تتبعهم بسيارتها.

وقف الضيوف يتحدّثون في مجموعات صغيرة، والتقط بعض أفراد العائلة الصور لأنّ اللقاء كان اجتماعًا عائليًا لهم إلى جانب الجنازة، خاصة لأولئك الذين أتوا من مناطق بعيدة لاستكشاف رود آيلند وزيارة نيوبورت في الغدّ.

ـ كان إليس سيلفا جارنا.

اقتربت منه ووقفت بجانبه أمام باب الشرفة الزجاجي وحكت له عن منزل الجار المجاور البادي من خلف سور البيت، وعندما التفت لينظر إليها عرّفته بنفسها.

ـ لقد رأيت ريتشارد وكلير قبل عدّة أيام، متشابكيْ الأيدي كما كانا على الدوام، هناك بركة ماء تتجمّد كلّ شتاء خلف الشجيرات حيث يذهبان للتزلّج معا دون أن يفلتا ذراعي بعضهما.

كانت بشرتها داكنة كبشرته تقريبًا وشعرها رماديًا تقريبًا، لكنّ حاجبيها ما يزالان أسودي اللون، وقد رفعت شعرها إلى الخلف كما كانت بيلا تفعل أحيانًا وثبّتته بملقط في مؤخّرة رأسها كي لا تسقط خصلاته أمام عينيها. كانت ترتدي ثوبًا أسود اللون طويل الكمّين وجوارب سوداء ناعمة وتضع حزامًا فضّيًا أنيقًا على خصرها.

تحدّثا عن الوقت الطّويل الذي عرفا فيه ريتشارد وكلير لكنّ رابطة أخرى كانت تجمعهما.. فقد أخبرها ساباش عن اسمه، فسألته إن كان قريبًا لطالبة قديمة لها تدعى بيلا ميترا درست في قِسم التاريخ الأمريكي عندها قبل سنوات في المدرسة الثانوية.

ـ أنا والدها.

قلق ساباش بشكل غريب وهو يعلن عن ذلك مؤكّدًا هويّته وصلة قرابته ببيلا. تأمّل المرأة التي علّمت ابنته. إنّه واحد من الكثير من التفاصيل التي لم يعرف عنها أيّ شيء في حياة ابنته بعد بلوغها سنًّا معيّنة. ما يزال يذكر أسماء بعض معلّيمها في المرحلة الابتدائية لكنّ كلّ ما كان يعرفه عن المرحلة الثانوية لم يكن يتجاوز المعلومات التي تصله

مكتوبة في بطاقة تحتوي على الدرجات.

- أنت لا تعرفني، لكنّك سمحت لي باصطحاب ابنتك إلى قرية هانكوك شيكر. لقد اصطحبت بيلا مع مجموعة من الطلبة في رحلة ميدانية إلى هناك.

- لم أكن أعرف ذلك. لا أعرف حتى موقع تلك القرية.

أطلقت ضحكة خفيفة بعد أن قالت كالمعاتبة: «هذا معيب بحقك».

- لماذا اصطحبتهم في رحلة ميدانية إلى هناك؟

حدّثته عن الطائفة الدينية التي تقطن تلك المنطقة التي أنشأت في القرن الثامن عشر وكرّست نفسها للتبتّل والحياة البسيطة، مجموعة من الناس أدّى بهم إيمانهم إلى الانقراض. ثمّ سألته عن مكان بيلا.

- إنّها لا تقطن أيّ مكان.. إنّها بدويّة حقيقية.

- دعني أخمّن.. إنّها تحمل حياتها في حقيبة ظهرها وتحاول جعل العالم مكانًا أفضل.

- كيف عرفت هذا؟

- بعض الناس ينحتون ذواتهم باكرًا، ويحظون بتركيز عالٍ على أهدافهم، وقد كانت بيلا واحدة من أولئك الأطفال.

ارتشف بعضًا من النبيذ ثم قال: «لم يكن لديها خيار آخر».

أمعنت إلسي النظر إليه وأومأت برأسها لتدلّ على أنّها تفهم قصده وتعرف ظروف مغادرة غاوري للمنزل.

- هل تحدّثتْ معكِ بالأمر.

- لا.. ولكنّ معلّميها علِموا به.

ـ أما زلت تدرّسين؟

ـ لم أتمكّن من مزاولة مهنتي بعد تجاوز منتصف الخمسينيات من عمري، وأعتقد أنّي كنت أحتاج إلى التغيير أيضًا.

قالت إنّها تعمل في المجمع التاريخي المحلّي وتدوّن الأرشيف على الأنترنت وتدقّق الصحيفة الصادرة عنه. فأخبرها أنّه قرأ معلومات عن مجزرة المستنقع الكبرى وسألها عن وجود أيّ سجلاّت عن الحدث.

ـ بالطبع.. يمكنك إيجاد طلقات نارية حديدية إذا حفرت بنفسك حول العمود التذكاري.

ـ بحثت عنه مرّة لكنّني تهت.

ـ يصعب إيجاد مكانه.. عليك دفع بعض المال لأحد المزارعين لقيادتك إلى هناك.

تعب ساباش من الوقوف وأدرك بأنّه لم يأكل حتى الآن فقال: «سأذهب لتناول بعض الطعام.. هل تودّين مرافقتي؟».

اقتربا من مائدة الطعام حيث وقفت كلير في نهاية الطاولة تبكي، فتحلّق حولها أقاربها لمواساتها.

قالت إلسي: «لقد مررت بهذا قبل سنوات». ثمّ حكت له عن زوجها الذي توفّي قبل سنوات بسبب سرطان الدّم في سنّ السادسة والأربعين وترك لها ثلاثة أبناء.. صبيّين وفتاة، وقد كان أصغرهم في الرابعة من العمر، فاضطرّت للانتقال مع أولادها إلى بيت والديها.

ـ تعازيّ الحارّة لك.

ـ لقد أحاطت بي عائلتي..وقدّمت لي بعض العون.. لكنّك كنت وحيدًا مع بيلا.

تزوّجت ابنتها مهندسًا برتغاليًا ورحلت لتعيش في لشبونة التي قدم منها أسلاف إليس في البداية، لكنّها لم تسافر إلى أوروبا مطلقًا قبل عرس ابنتها، أمّا ابناها فقد كانا يعيشان في دينفر وأوستن، وقد قسّمت وقتها بينهما قليلا، بعد التقاعد، حتّى تساعدهما على تربية أحفادها، وكانت تذهب مرّة في العام إلى لشبونة، لكنّها انتقلت إلى ررود آيلند من جديد قبل عشر سنوات بعد موت والدها لتبقى قرب أمّها.

ذكرت له في معرض حديثها شيئًا عن رحلة سياحية في الأسبوع القادم لزيارة بيت ريفي تمكّنت الجمعية من إعادة تأهيله لجعله معلمًا تاريخيًا، فأعطته بطاقة دعوة تحتوي على كلّ التفاصيل. قبل البطاقة منها وشكرها ثمّ طواها ووضعها في جيب سترته.

«بلّغ بيلا تحيّاتي». قالت ذلك وابتسمت ثمّ تركته وحيدًا وانضمّت إلى مجموعة من النّاس في الغرفة.

في صمت البيت والسكينة التي تلفّ عالمه جلس مستيقظًا بعد الجنازة حتى الثالثة صباحًا. سيلازمه الأرق كذلك لعدّة ليال أخرى.. لا هدير محرّك سيّارة في الشارع، لا شيء.. حتى صوت تنفّسه أو ازدراد اللعاب في بلعومه لم يكن يسمعه.

كان المنزل بعيدًا جدًّا عن الشاطئ ممّا أعاقه عن سماع هدير الأمواج، ولطالما ندم على ابتياعه منزلا بعيدا عن الشاطئ لهذا السبب. لكنّ الرياح كانت قويّة جدًا في بعض الأحيان إلى درجة أنّه كان يتمكّن من سماع أوار الموج واهيًا.. غاضبًا.. قويًا متجذّرًا في العدم.. يهدّد من بعيد بنسف البيت من أساسه والإطاحة بالأشجار المرتعشة وتدمير بنية حياته كاملة.

اقترح أحد زملائه بعد ملاحظة الإرهاق البادي عليه أن يقوم ببعض التمارين أو تناول كأس نبيذ مع العشاء أو كوب شاي مع البابونج. وكان قادرًا على تناول أقراص منوّمة لكنّه رفض ذلك الخيار. إنّه يتناول حبوبًا لخفض كوليسترول الدم وأخرى لرفع مستوى البوتاسيوم وحبّة أسبيرين يوميًا لميوعة الدم. كان يحفظها في علبة بلاستيكية تحتوي على سبعة أقسام ممهورة بأيام الأسبوع كي لا يرتكب أيّ خطأ حين يتناولها مع وجبة إفطاره الصباحي.

لكنّ القلق كان سبب أرقه، رغم أنّه لم يكن ذات القلق الذي انتابه بعد رحيل غاوري وبقائه وحيدًا مع بيلا في المنزل، نائمًا في الغرفة المجاورة لها.. على وعي تامّ وإدراك كامل لمعاناتها وأنّه الشخص الوحيد المسؤول عن تربيتها الآن.

يذكر طفولة بيلا البعيدة.. حين لم تكن تعرف الفرق بين الليل والنهار.. تستيقظ وتنام.. تنام وتستيقظ.. تغفو ساعة أو ساعتين وتصحو.. وقد قرأ في مكان ما أنّ مفهومي الليل والنهار والراحة والنوم المتعلّقين بهما يكونان معكوسين في بداية الحياة.. أنّ الزمن في الرّحم عكس الزمن الذي نعيشه نحن. تذكّر الشيء الذي تعلّمه عن الدلافين والحيتان حين ذهب في رحلة بحث تعليمية لأوّل مرّة في البحر؛ إنّها تصعد في سباحتها على مقربة من سطح الماء لتتنشّق الهواء ملء رئتيها.. إنّ كلّ نفَس تتنشّقه هو فعل واع متعمّد.

تنشّق الهواء من منخريه آملًا في استمرار رئتيه في التنفّس بإخلاص كدقّات قلبه، ليتمكّن من أخذ قسط من الراحة بضع ساعات. أغمض عينيه لكنّ عقله بقي مستيقظًا.

باتت هذه حالته بعد وفاة ريتشارد. ما انفكّ يخالجه وعي لا يلائم كائنا على قيد الحياة.. تطلّع بشوق إلى النوم العميق غير المتقطّع الذي رفض الاستسلام له، لإعفائه من عذاب محاولة النوم كلّ ليلة.

لم تسبّب له هذه الاضطرابات اليقظة عندما كان أصغر سنًا، لأنّه كان يستثمر الساعات الإضافية التي يجافيه النوم فيها في قراءة المقالات أو الخروج للنظر إلى النّجوم، وكان جسده يشتعل طاقة في بعض الأحيان ليلًا إلى درجة أنّه كان يتمنّى لو كان الوقت نهارًا لينهض ويمشي دون توقّف.. كان بإمكانه أن يمشي وقتها إلى المكان الذي التقى فيه بريتشارد بعد كلّ ذلك الغياب، إلى ذلك المقعد الذي جلسا عليه قبل عامين.. ليجلس ويفكّر.

وبدلًا من ذلك، كان يجد نفسه مسافرًا عبر الزمن في سريره كلّ ليلة، إلى الماضي، يتنقّل بشكل عشوائي ما بين أطلال ذكريات صباه. زار السنوات التي سبقت مغادرته لعائلته، عندما كان والده يعود من السوق كلّ صباح حاملًا السمك الفضّي المقطّع في كيس قماشي، حيث تغسله والدته وتقطّعه وتملّحه لتناول الإفطار.

رأى والدته منكبّة على آلة الخياطة محنيّة الظهر ومنهمكة في تشغيلها بقدميها، تدفع الدوّاسة إلى الأعلى والأسفل، غير قادرة على الكلام بسبب الدبابيس التي تثبتها بين شفتيها. كانت تجلس أمام آلتها تلك في المساء لتخيط التنانير لزبائنها، أو الستائر لمنزلها. كان أوديان يضع قطرات من الزيت في محرك الآلة ويصلحه بين الحين والآخر. هناك عصفور يعيش في حديقته في رودآيلند يُسمّى بالعصفور السريع، يحطّ ويطير هنا بين الحين والآخر، ويقلّد صوت تلك الآلة كلّما فتح منقاره للتّغريد.

رأى والده يعلّمه مع أخيه كيفيّة لعب الشطرنج، ويرسم لهما المربّعات على ورقة. شاهد أخاه ينحني فوق الورقة ليفهم الموضوع، متقاطع الساقين على الأرض.. يمدّ إصبعه على الورقة ليلاحق حركة الأحجار عليها كما كان يمدّه داخل طبقه ليمسح آخر قطرة من الحساء.

كان أودايان في كلّ مكان.. يمشي مع ساباش إلى المدرسة، ويعود معه إلى البيت عصرًا، يدرس معه على السرير الذي كانا يتقاسمانه، ويشاركه قراءة الكتب. يحفظ الكثير من الأشياء ويكتب في الكراسات ويركّز على دراسته.. رأسه منحن فوق ورقته ولا يكاد يبعد عنها أكثر من إنشات قليلة.. يستلقي بجانبه في الليل وينصت إلى عويل بنات آوى في نادي تولّيه. رآه يركض مسرعًا، واثق الخطى، متحكّمًا في الكرة بكلّ أناقة على أرض ملعب كرة القدم خلف الأرض المنخفضة.

لقد قولبته تلك الانطباعات الصغيرة رغم تلاشيها منذ زمن بعيد.. إلاّ أنّها لم تختفِ إلاّ لتظهر قويّة من جديد. ظلت تشتّت تفكيره وتبقيه مشغول الذهن كأجزاء من منظر طبيعي يتابعه المرء عبر نافذة قطار سريع. كان المنظر مألوفًا، لكنّ بعض الأشياء هزّته كلّ مرّة وكأنّه يصادفها للمرّة الأولى.

لم تحتوِ حياة ساباش على أيّ شيء مهمّ قبل مغادرة كالكوتا، وكان بإمكانه وضع كلّ مقتنياته في صندوق صغير. فما الذي كان يملكه أثناء طفولته؟ فرشاة أسنانه وعلبة السجائر التي اعتاد تدخينها مع أودايان سرًّا وحقيبة كتبه القماشية وبعض الملابس. لم يحظ بغرفة خاصة به وحده حتى وصل إلى أمريكا. لقد انتمى بكامل كيانه إلى والديه وأخيه، كما انتموا هم إليه بكامل كيانهم. وهذا كلّ شيء.

وهنا، نجح بشكل رائع في دراسته ونجح في إيجاد عمل جيّد وتمكّن من إرسال بيلا إلى الجامعة التي اختارتها.. وهذا كافٍ على الصعيد المادّي.

لكنّه ما يزال أضعف من أن يخبر بيلا بما تستحقّ أن تعرفه، ما زال يتظاهر بأنّه والدها، ما زال يكتنز لنفسه الشيء الذي لم ينله بنفسه.. كان أوديان على حقّ عندما نعته بالأنانيّ.

تعلّقت حاجته الماسّة إلى إخبارها بالحقيقة كمشنقة فوق رأسه، أرعبته. إنّها المسألة المعلّقة الكبرى في حياته، بيلا كبيرة بما يكفي وقويّة بما يكفي لتحمّل الحقيقة ومع ذلك.. ولأنّها كانت الشخص الوحيد الذي أحبّه في حياته كلّها، لم يتمكّن من فعل ذلك.

هذه الأيّام تنامى إحساسه تدريجيّا بمقدار ما يملك، وبالجهد المستمرّ الذي يحتاجه إلى متابعة حياته بشكلها الحالي، وبآلاف الزيارات التي قام بها للمتاجر للتبضّع وبأكياس الطعام المترعة التي كانت ورقية في البداية، ثمّ بلاستيكية، ثمّ قماشية في هذه الأيّام، تلك الأكياس التي يحضرها معه من المنزل، ويملأ بها أغراضه في المتجر ثمّ يفرغها في المطبخ ويعيد وضعها في إحدى الخزانات.. كلّ ذلك الطعام للمحافظة على جسد وحيد. فكّر في كلّ الأقراص التي يتناولها كلّ صباح وفي كلّ أعواد القرفة التي اشتراها لتنكيه الزيت الذي يستعمله في طهي طبق الكاري المشهور به.

سيموت ذات يوم مثل ريتشارد، وسيحضر أناس غرباء لإفراغ منزله من كلّ مقتنياته، لرمي كلّ شيء. لقد توقّف عقله بالفعل عن الاحتفاظ بالمعلومات التي لا يحتاجها، كالاتجاهات التي لا يحتاجها في

المستقبل وأسماء الناس الذين لن يتحدّث إليهم مجدّدًا. كان الكثير ممّا يحتويه عقله من معلومات تافهًا جديرًا بالإهمال باستثناء شيء واحد.. قصّة أوديان التي يريد كشفها.

عرف البيت في الحال. إنّه البيت الذي عاش فيه برفقة ريتشارد من قبل، بيت خشبيّ أبيض اللون ذو مصاريع سوداء على النوافذ. لكنّه لم يعرف ذلك إلاّ حين وصل لأنّ أسماء الشوارع تغيّرت فكان العنوان المدوّن على البطاقة التي مدّته به إليس مختلفا كليًّا عما عهده.

ابتسمت له حين رأته وناولته تذكرة من بكرة قطع التذاكر الثخينة، وبدت له مختلفة اليوم، ترتدي قميصًا فضفاضًا من اللينين الرمادي وشعرها الفضّي يحيط كهالة مقدّسة بوجهها وتضع نظارة شمسية على رأسها.

ـ أشكرك على الحضور. كيف أصبحت؟

ـ أنا أعرف هذا البيت، لقد عشت فيه مع ريتشارد.

ـ حقًا؟

ـ لقد عشت فيه أوّل سنوات عهدي بأمريكا.. ألا تعرفين ذلك؟

تغيرت ملامح وجهها وخبت ابتسامتها لكنّ النّظرة التي ملأت عينيها كانت توحي بالاهتمام الشديد بما قاله.

ـ لا أملك أدنى فكرة عن الموضوع.

لم تخبر بقيّة المجموعة بتلك المعلومة أثناء قيامهم بالجولة السياحية في المكان. تغيّر تخطيط المكان وقلّ عدد الغرف وفُرشت بشكل جميل وأحيطت الأبواب بمزاليج حديدية واعتمد المصمّمون على الخشب الداكن اللون في هندسة البيت الداخلية، وفرشت الطاولات بمفارش

قماشية أخفت أرجلها إلى حدّ كبير كتنورة نسائية طويلة، وأغلق سطح مكتب الدراسة وأقفل، وتمّ تركيب موقد من خشب البلوط.

إنّه لا يذكر أيّ شيء من تلك السنوات رغم أنّه عاش هنا، لقد كان ينظر من خلال هذه النوافذ وهو يدرس، منذ وقت طويل، عندما كان حديث العهد برود آيلند وعندما كان أوديان ما يزال على قيد الحياة. قرأ رسائل أوديان هنا ووقعت عيناه على غاوري لأوّل مرّة هنا وتساءل عنها غير مدرك أنّه سيتزوّجها في ما بعد هنا.

أشارت إلسي إلى نمط الكراسي الذي كان سائدًا في وقت سابق وإلى الشارع الذي كان مركز البلدة في الأيّام الخوالي، وأخبرتهم عن متجر القبّعات الذي كان ملاصقًا للمنزل وتحوّل إلى دكّان حلاقة لرجال البلدة.

«كان هذا البيت مشغلًا للخياطة في البداية ومكانًا لإقامة صاحبه أيضًا، ثمّ تحوّل إلى مكتب محام ثمّ إلى منزل عائليّ لعدّة أجيال، ثمّ تمّ اقتطاع أجزاء منه لتأجيرها في الستينيات كشقق منفصلة. وعندما مات آخر مالك له تبرّع به في وصيته إلى الجمعية التاريخية في البلدة، فجمعنا له التبرّعات لتجديده وتعاونّا مع معرض فنّي محلّي لإقامة المعارض في بعض غرفه السّفلى».

أذهله الجهد المبذول للمحافظة على مكان كهذا، صدمته الأطباق المحفوظة في خزانة زجاجية في الزاوية، تلك الأطباق التي أكل الناس فيها بالفعل، والشمعدانات التي أضاءت للناس بالفعل فيما مضى وجدران المطبخ التي عُلّقت عليها المغارف والملاعق التي طبخوا فيها بالفعل، والأرضيّات المصنوعة من خشب الصنوبر التي مشى عليها

السكان الأوائل كما مشى عليها هو في الماضي.

كان تأثير رؤية تلك الأشياء مثيرًا لقلقه. شعر بألاّ أحد يعترف بوجوده على قيد الحياة. كأنّ الحياة ذاتها تنكره حتى وهو واقف بشحمه ولحمه ها هنا. إنّه ممنوع من الوصول.. لقد رفض الماضي الاعتراف به.. لم تذكّره هذه الزيارة بشيء إلاّ بأنّ هذا المكان الذي اختاره بشكل عشوائي، حيث حطّ رحاله وصنع حياته الخاصّة لم يكن له أبدًا، تماما مثل بيلا.. لم يكن له، وفي نفس الوقت كان يبقي مسافة تفصله عنه، مثلها تمامًا أيضا. إنّه مجرّد زائر عابر ما بين أشجاره وغرفه التي درس فيها ونام وعشق ونما.. ربّما كان أسوأ زائر، الزائر الذي يرفض أن يغادر.

فكّر في البيتين اللذين امتلكهما خلال حياته، بيت تولّيه غانج الذي لم يزره منذ موت والدته وبيت رود آيلند الذي هجرته غاوري، والذي تخيّل أنّه سيكون بيته الأخير. لقد تعهّدت إحدى قريباته بيت تولّيه غانج بالرعاية، وكانت تجمع الإيجارات وتودعها في حساب له بأحد المصارف وتستعين به في حال اضطرارها لإجراء أيّ إصلاحات فيه. لن يعود أبدًا ليعيش هناك لكنّه لن يبيعه.. قطعة الأرض الصغيرة تلك والبيت العادي المشيّد عليها والذي ما يزال يحمل اسم عائلته كما أمل والداه من البداية.

يعيش طبيب وعائلته في البيت الآن ويستخدمون الطابق الأسفل كعيادة وهم يجهلون بماضي المكان على الأرجح، وربّما سمعوا ببعض تفاصيل المأساة من الجيران لكنّ الزوّار لن يجوبوه لإبداء احترامهم وإعجابهم ببيت الشهيد بعد مائتي عام كما يجري هنا.

أضاف اسمه ورقم هاتفه وبريده الالكتروني بعد انتهاء الجولة

لقائمة الجمعية التاريخية وتلقّى بطاقة جديدة من إلسي لحضور مزاد لبيع النباتات في الشهر القادم.

لم توله إلسي أيّ اهتمام خاصّ بعد حديثهم الأوّلي في عصر ذلك اليوم ووجّهت كلامها للمجموعة طوال الوقت، لم تقترب منه كما تمنّى عندما تجوّل وحيدًا في الطابق الأعلى، في المكان الذي له بدا الأكثر حميميّة.

استنتج أنّها دعته لزيارة المكان في سبيل الحصول على زائر آخر وأنّه لا يعني لها أيّ شيء، لكنّها اتّصلت به بعد عدّة أيّام.

ـ هل أنت بخير؟

ـ ما الدّاعي إلى سؤالك؟

ـ بدوت مضطربًا قليلًا في ذلك اليوم. لم أرغب في التطفّل عليك.

ثمّ دعته إلى مناسبة أخرى، لم تكن مسرحيّة أو حفلة موسيقية، لم تدعه إلى شيء سيرفضه قطعًا، بل قالت إنّه ذكر لها في جنازة ريتشارد بأنّه يحبّ التنزّه على الأقدام في الطرق الجانبية الخاصة بالدراجات، وأنّها عضوة في أحد نوادي التنزّه، حيث يخرجون جميعًا في نزهة مشتركة مرّة في الشهر لاكتشاف المعالم والطرق القديمة والآثار.

ـ سنجتمع أمام المستنقع الكبير في المرّة المقبلة ففكّرت بك. هل تريد الانضمام إلينا؟

3

استحالَ لون أوراق شجرة الجنكة أرجوانيا متوهّجا بعد أن كانت ساطعة بلون أصفر قبل عدّة أيّام، إنّها مصدر التألّق الوحيد البادي في هذا الصباح. لقد أسقطت زخّات الأمطار الليلية الكثير من الأوراق الغضّة على بلاط الرصيف الحجري الأزرق المرصوف على جانبي الطريق، ولم تكن البلاطات مستوية بسبب جذور الأشجار التي كانت تدفعها للارتفاع هنا وهناك. إضافة إلى أنّ قمم الأشجار لم تكن مرئية من خلال نافذة بيلا التي لا ترتفع على مستوى الأرض إلاّ بدرجتين، ولم تكن تراها إلاّ عندما تخرج من البوّابة الحديدية لتستطلع النهار.

كان الحيّ يتألّف من صفّين متقابلين من البيوت المتماثلة المأهولة في معظمها، أغلبها مسكون وقليل منها محاط بأسوار خشبية. إنّها تسكنه منذ بضعة أشهر بعد أن واتتها الفرصة مصادفة. كانت تعيش في شمال الولاية شرق آلباني، حيث تقود شاحنتها كلّ سبت باتّجاه أحد أسواق المزارعين وتفرغها ثمّ تنصب خيمة فوق بضاعتها. فذكر شخص ما تلك الغرفة المعروضة للإيجار أمامها فانتهزت الفرصة.

كانت فرصة ذهبية للسّكن في بروكلين لبعض الوقت، وتمكّنت أيضًا من الحصول على عمل قريب من مكان سكنها يتلخّص في تحويل ملعب قديم إلى مستنبت لزراعة الخضار في أحواض، وتدريب المراهقين على العمل هناك بعد المدرسة، حيث كانت تعلّمهم كيفيّة

العمل بالمجرفة وزراعة أزهار عبّاد الشمس على طول سياج خاص بذلك. كانت تبيّن لهم أيضا الفرق بين زراعة صفّ زراعات متماثل وما بين زراعة صفّ زراعات مختلط، وتشرف على كبار السنّ المتطوّعين لمساعدتها.

انتقلت مؤخّرا للعيش مع عشرة أشخاص في بيت عائلي، مؤلّفين وكتّاب سيناريو ومصمّمي مجوهرات ومتخرّجين جدد وأشخاص أكبر سنًا منها يفضّلون عدم الإفصاح عن ماضيهم، يعتزلون الناس ويعيشون وفق برنامج مختلف عن الآخرين، لكنّهم ينتظمون جميعًا في دور لطهي الطعام للجماعة، ويتقاسمون الفواتير ويشتركون في استعمال المطبخ ومشاهدة التلفاز ويتداولون على أعمال المنزل بعدالة ما بينهم. وكانوا يضعون أسماءهم في الصباح على لوحة خاصّة باستعمال الحمّام، فيحدّد كل منهم وقت استحمامه، ويجلسون كلّ أحد لتناول وجبة جماعية.

مازال الناس يتكلّمون عن حادثة إطلاق النار التي وقعت قبل عدّة سنوات، خارج الصيدلية التي تقع على زاوية الشارع، عندما قُتل صبيّ في الرابعة عشرة من العمر يعيش أهله في الشارع المقابل. وكان معظم الناس يتبضّعون من متجر بوديغاس أو يذهبون إلى السوبر ماركت، لكنّ الحيّ يحتوي الآن على مقهى وآلة إكسبريسو، وهناك آباء يرافقون أولادهم إلى المدرسة وهم يرتدون بزّات العمل الرسمية.

أحيط أحد البيوت في نهاية الشارع بحواجز شبكية بسبب الإصلاحات الجارية عليه. وكُشطت طبقة الطلاء عن واجهته فكُشف الطلاء القديم الرمادي الداكن. وزُرعت نباتات زهريّة متسلّقة حمراء وبرتقالية خلف البوّابة في حوض أرضيّ صغير، وكان اسم المتعهّد

المكتوب على اللافتة يشي بأنّه إيطاليّ الأصل، لكنّ العمّال كانوا من بنغلاديش، ويتكلّمون اللغة التي كان والداها يتحدّثان بها معا، اللغة التي كانت تفهمها بصورة أفضل من قدرتها على استعمالها في طفولتها، اللغة التي لم تسمعها أبدًا بعد رحيل أمّها.

كان غياب أمّها أشبه بلغة جديدة ينبغي عليها تعلّمها، لغة لم تتمكّن من كشف تعقيداتها وفروقاتها إلاّ بعد سنوات من الدراسة. ومع ذلك، لم تتمكّن من استيعابها بالكامل، لأنّها كانت لغة غريبة، دخيلة عليها.

إنّها لا تستطيع فهم أولئك الرجال، لكنّها تعرف بعض الكلمات وتسمع لكنة مختلفة تدفعها للإبطاء في سيرها كلّما مرّت من أمامهم. هي لا تحنّ إلى طفولتها لكنّ هذا الشيء المألوف والغريب في الآن ذاته يسحبها من محيطها وحياتها، يدفع جزءًا منها للتساؤل عن الوقت الذي سيستيقظ فيه فهمها الكامن لتلك اللغة يومًا ما لتتمكّن من التكلّم بها في نهاية المطاف.

كانت ترى العمال جالسين أحيانًا على شرفة المنزل الأمامية، يتحدّثون في الاستراحة ويمازح بعضهم بعضا، يدخّنون السجائر. كان أحدهم أكبر سنًّا من الجميع وله لحية بيضاء تصل حتى صدره تقريبًا. تساءلت عن مقدار الزمن الذي عاشوه في أمريكا وعن احتمال أن يكونوا أقرباء لها، تساءلت هل كان العمّال يحبّون العيش هنا وهل كانوا يفكّرون في العودة إلى بنغلاديش يومًا ما أو يفكّرون في البقاء هنا إلى الأبد. تصوّرت حياتهم الجماعية كما تعيش هي، فرأتهم في مخيّلتها جميعهم على العشاء بعد نهار عمل طويل، يتناولون الأرز بأيديهم.

ما موقفهم منها؟ ما رأيهم في سروالها الجينز الرمادي الفاتح وجزمتها المطاطية؟ وشعرها الطويل الذي تعقصه إلى خلف أو تجمعه في ذيل تدسّه في ياقة قميصها؟ ما رأيهم في وجهها الخالي من المساحيق وحقيبة ظهرها المعلّقة بشكل معكوس إلى الأمام؟ كيف ينظرون إلى الأسلاف الذين كانوا يعيشون يومًا في بلد واحد، على أرض واحدة؟

وإذا ما ضربنا صفحا عن مسألة اللغة، لم تكن بشرة أحد منهم تشبه لون بشرة أبيها. لكنّهم كانوا يذكّرونها به بشكل أو بآخر، يدفعونها إلى التّفكير فيه وفي رودآيلند والتساؤل عما يقوم به الآن.

كان نويل يذكّرها بأبيها أيضًا، إنّه يسكن البيت المشترك مع صديقته اورسولا وابنتها فايولت، ويحتلاّن غرفتين متجاورتين في الطابق العلويّ الذي لم تقع عينا بيلا عليه يومًا. كان نويل يمضي أيّامه مع فايولت. أمّا أورسولا فتعمل طاهية في مطعم، تلك المرأة الجميلة ذات تسريحة الشعر الغريبة تعمل لتنفق على عائلتها وليس الرجل.

كانت بيلا تراقب نويل عندما يصطحب ابنته كلّ صباح إلى الروضة ويعود بها بعد عدّة ساعات، ثمّ يأخذها إلى الحديقة العامة ويعلّمها كيفية ركوب الدراجة ويركض خلفها أثناء محاولتها الحثيثة للتوازن ويتمسّك بشال صوفي ربطه حول صدرها، كانت تراقب طهيه لعشاء فايولت، عندما يشوي قطعة هامبرغر وحيدة على المشوى الموجود خلف المنزل.

لاحظت بيلا أنّ الفتاة لا تشتكي من خروج أمّها كلّ يوم، ولا هو أيضًا، كانا يودّعانها صباحًا بقبلة ويهرعان لاحتضانها عندما تعود مساء، حاملة في بعض الأحيان حلويات من المطعم. ولأنّها استثناء لا

قاعدة، فقد كانت تحظى بعلاقة مختلفة مع ابنتها، أقلّ صلابة ورسوخًا ولكنّها أكثر كثافة. لقد عدّلت تلك الفتاة الصغيرة توقّعاتها من الحياة كما فعلت بيلا عندما كانت طفلة.

كان نويل وأورسولا يقرعان باب بيلا أحيانًا وهما يعدّان العشاء بعد نوم الصغيرة، ويقولان إنّهما يعدّان دومًا كمّيات أكبر من حاجتهما وإنّهما يرحّبان بها متى أرادت. يتناولان الخبز والجبن ويعدّان قدرًا كبيرًا من السلطة تخلطها أورسولا بأصابعها رغم تعبها بعد عودتها من مناوبتها المسائية في المطعم، وكانت تحبّ تناول العشاء معهما ومشاركتهما الحديث حول بعض ما جرى خلال النهار.

أمّا بيلا، فكانت تستمتع بقضاء الوقت معهما وتحاول أن تعاملهما بلطف وكرم، فتعتني بفايولت إذا خرجا لمشاهدة فيلم، وتهدي أورسولا الأزهار والأعشاب لتحملها معها إلى المطعم. لكنّها لم ترغب يومًا في الاعتماد عليهما. رفضت دعوتهما إلى الذهاب بالسيارة إلى جزيرة النار للاحتفال بعيد ميلاد أوروسلا لأنّها حظيت بصداقة أزواج مثلهما حاولوا إشراكها معهم في نشاطاتهم للتّخفيف من وحدتها. كان ذلك يذكرها بالوحدة الفعلية التي تعيشها.

اعتادت على اكتساب أصدقاء جدد أينما حلّت وتوديعهم بعد فترة دون لقائهم مجدّدًا، لكنّها لا تتخيّل نفسها رفيقة درب أحد، أو خطيبة أو حبيبة أو زوجة، أو فردًا من أيّ عائلة بأيّ شكل كان. لم تحظ يومًا بعلاقة حبّ حقيقيّة دامت فترة من الزمن.

لم تشعر بيلا بالمرارة حين تكون مع نويل وفايولت وأورسولا.. بل سحرها قربهم وقدّم لها السلوى. لم تكن هي وأمّها وأبوها أبدا عائلة،

حتى قبل أن تغادرهم والدتها.. لأنّها لم ترغب أبدًا في أن تكون حقًا معهم.

وعرفت عندما زارت والدها قبل أشهر أنّه على علاقة بامرأة، لكنّها لم تكن أيّ امرأة.. إنّها معلّمة التاريخ الآنسة سيلفا. وقد طلبت منها أن تناديها إلسي عندما اجتمعا بها لتناول الإفطار.

أذهلتها علاقتهما في البداية، علاقة والدها بأكثر شخصية مؤثّرة في طفولتها وغضبت سرًّا من ذلك مؤقّتًا، لكنّها عرفت أنّه إجحاف من قبلها باعتبار أنّها لا تراه إلاّ نادرًا، وأنّها ما تزال تقاطعه لفترات طويلة دون أن تحدّد أمام نفسها السبب الحقيقي لذلك.. هل تقوم بذلك لتحرمه منها أم لتحرم نفسها منه.

لاحظت عصبيّته البادية بوضوح وهو يخبرها بالأمر، لاحظت خوفه من ردّة فعلها، من احتمال تذرّعها بعلاقته لتقاطعه بشكل نهائي. لكنّها أكّدت له بعد أن استشفّت خوفه بأنّها سعيدة لأنّه وجد صديقة جديرة به، وأنّها تتمنّى له الأفضل على الدوام.

لكنّ الحقيقة هي أنّها أحبّت الآنسة سيلفا دائما، لقد نسيتها بيلا لفترة لكنّها تذكر الآن كيف كانت تنتظر درسها بشوق. وفي الصيف الماضي، اكتشفت على الفور عمق العاطفة التي تجمع بينهما، من خلال الطريقة التي تصفّحا بها قائمة الطعام في المطعم، ومن طريقة إلسي في إقناعه بالتخلّي عن حبوب الشوفان التي يتناولها صباحًا وتناول الفطائر البلجيكية الفاخرة بدلًا عنها. لاحظت بيلا في وجهيهما سكينة عميقة ولاحظت أنّهما متّحدان بحياء، بشكل معاكس كليًا لحالة والدها مع والدتها.

تساءلت عن احتمال زواجهما في النهاية، لكنّ هذا يعني أنّه سيضطرّ لتطليق أمّها رسميًا أوّلًا. أمّا هي.. فلن تتزوّج أبدًا.. إنّها تعرف هذا عن نفسها لأنّ التعاسة التي عنونت علاقة والديها كانت أقوى شعور احتلّ كيانها.

كانت غاضبة من والدها عندما كانت أصغر سنًّا أكثر من غضبها من والدتها. لطالما لامته ظلمًا لأنّه دفع والدتها إلى الرّحيل دون محاولة إيجاد طريقة لإعادتها إلى المنزل، ولربّما كانت بقايا ذاك الغضب هي ما يمنعها من إخباره بأنّها تعيش على بعد ثلاث ساعات منه، هنا في نيويورك.. لكنّها اتّبعت معه هذه السياسة لتراه بمشيئتها دون أن تكون مضطرّة إلى الإفصاح أبدًا عن مكان إقامتها.

في هذه المرحلة، عاشت بيلا نصف حياتها تقريبا بعيدًا عنه، ثمانية عشر عامًا في رودآيلند وخمسة عشر عامًا على طريقتها.. ستبلغ الرابعة والثلاثين في عيد ميلادها القادم وما زالت حتى الآن تتوق إلى إيجاد مكان مختلف، بديل عمّا آلت إليه حياتها، لكنّها لا تعرف ما يمكن لها أن تفعل فيما عدا ذلك.

تمنّت لو كان الوضع أسهل، لو كانت قادرة على قضاء وقت جميل مع والدها، لو لم تذكّرها رودآيلند بوالدتها التي كرهت المكان.. لم تشعر بيلا هنا بشيء إلاّ بكونها غير مرغوب فيها، وبأنّ والدتها لن تعود من أجلها.. لم تشعر سوى بجفاف يتغلغل في أدقّ خيوط شخصيتها القويّة، ولهذا.. لم تتمكّن مطلقًا من البقاء لفترة طويلة في المكان، رغم زياراتها المتكرّرة والسلّم الذي أرسته مع والدها أيًّا تكن درجته، رغم أنّه قريبها الوحيد الذي تعرفه.

ساعدتها الدكتورة غرانت قبل سنوات على تحويل مشاعرها إلى كلمات وأخبرتها بأنّ المشاعر تنحسر لكنّها لا تخبو أبدًا، وأنّها ستكون طرفًا في كلّ حقيقة تحيط بها أينما حلّت، وأنّ غياب والدتها سيكون حاضرًا دومًا في فكرها وأنّهم لن يجدوا جوابًا أبدًا عن لغز رحيلها.

كانت الدكتورة على حقّ.. لقد انحسر الحزن ولم يعد يسيطر عليها، لكنّها تعيش على شاطئه.. على أطرافه وتحتفظ بمسافة تفصلها عنه. كانت جدّتها أيضا تجلس على الشرفة في تولّيه غانج لتنظر إلى الأرض المنخفضة والماء الرّاكد في البركتين المتجاورتين.

كانت تقترب من عمّال البناء وتنصت إلى أحاديثهم الغريبة والمألوفة في الوقت ذاته.. إنّهم لا يعرفون بأنّ أحاديثهم تؤثّر فيها، تمشي إلى نهاية الشارع وتحيّيهم وتتساءل عن وجهتهم التالية بعد بروكلين.. يشاهدونها ويلوّحون لها.

ستكلّم والدها بالأنكليزية في المرّة المقبلة.. لكنّها لن تجد شيئًا تقوله إذا ما واجهت والدتها مرّة واحدة.. لن تتفوّه بكلمة حتى لو عرفت كلّ لغات العالم.

و لكنّ هذا ليس صحيحًا.. إنّها تحتفظ بروابط اتّصال بوالدتها.. كلّ ما جرى في حياة بيلا هو ردّة فعل..

إنّ شخصيّتي وطريقة حياتي وكلّ ما أنا عليه الآن هو نتيجة لفعلتكِ أنتِ.

4

حمل حزيران غيومًا حجبت الشمس وعواصفَ حوّلت لون البحر رماديا، فاضطرّ ساباش إلى اعتياده على ارتداء جواربه المنزليّة السميكة بدلًا من خفّ المنزل الصيفي، إضافة إلى مواصلة تشغيل الشرشف الكهربائي الذي يدفئ سريره ليلًا. وكانت جلّ الأمطار تنهمر ليلًا وتسقط بقوّة على سقف منزله كقرع الطبول ثمّ تنحسر إلى حالة الرذاذ المتقطّع في الصباح دون أن تتوقّف كليًّا، وكانت تستجمع قواها وتضعف ظاهريًا، ثمّ تعاود الكرّة من جديد بكلّ عنفوان.

كشط ساباش بُقعَ الفطريات الخضراء عن ألواح المنزل الخارجية، ففاحت رائحة العفن من القبو إلى درجة أنّ عينيه كانتا تحرقانه كلّما نزل إلى هناك لغسل ثيابه. تغلغلت الأمطار في تربة الحديقة إلى الحدّ الذي منعه من حراثة التربة وذهبت بالبذور التي زرعها قبل مدّة. أزهرت الورود الأرجوانية قبل موعدها وتفتّحت بتلات أزهار الفاونيا قليلًا قبل أن تنحني سيقانها بسبب الرياح، فتداعت البراعم وسقطت على الأرض المبتلّة. كانت رائحة الرّطوبة النفّاذة شبه ملموسة لشدّتها، وكأنّها تعلن فساد الأرض.

أيقظته الأمطار ليلًا، وطرقت نوافذه وغسلت البلاطات المؤدّية إلى باب بيته.. تساءل إن كان كلّ ذلك علامة على حدوث شيء ما، أو على بوادر تحوّل جديد في حياته، إذ تذكّر المطر العارم الذي هطل خلال

الليلة الأولى التي قضاها مع هولي والأمطار الطوفانية التي لم تنقطع ليلة ولادة بيلا.

توقّع تسرّب المياه من خلال أحجار القرميد التي بنيت منها المدفأة، أو من خلال ألواح السقف، شعر بأنّ الماء سيتسلّل من تحت الأبواب، وفكّر في الأمطار الموسمية التي تحلّ كلّ عام على تولّيه غانج، وذكَر البركتين اللتين تفيضان وتتّحدان في مستنقع واحد، وتمحوان كلّ أثر للأرض الفاصلة ما بينهما.

وفي تموز، امتلأت حديقته بالعيدان التي جرفتها المياه من أماكن أخرى، وبدأت الأمسيات تبدو له طويلة جدًا، بينما كانت الشمس تبزغ في الخامسة صباحًا. وعندها، اتّصلت بيلا لتخبره بأنّها قادمة. كانت تأتي أحيانًا بالقطار وأحيانًا أخرى بالطائرة، وقادت ذات مرّة سيارة استعارتها من أحدهم لمئات الأميال وصولًا إلى منزله.

نظّف سجّادة غرفتها بالمكنسة الكهربائية وغسل الملاءات مع أنّها لم تُستعمل منذ زيارتها الأخيرة في الصيف الماضي. ثمّ أحضر من القبو مروحة إضافية لها لأنّ الطقس حارّ ومشمس رغم الرطوبة التي لم تنحسر. فكّ الصواميل التي تربط أجزاءها ومسح شفراتها جيّدًا قبل وضعها في غرفتها.

كانت رفوف غرفتها مزدانة بأشياء وجداها سويًا، في الغابات الظليلة أو على الشاطئ، مثل عشّ عصفور حقيقي قام بصنعه من خيطان صوفية، وجمجمة أفعى سامّة وفقرات ظهر تعود لدلفين بشكل مروحة. إنّه يذكر الحماس الذي كان يصيبها لدى إيجاد تلك الأشياء برفقته، وأنّها كانت تفضّل هذه اللقى على الألعاب والدمى. يذكر أنّها

وضعت مرّة أكواز الصنوبر والحصى الجميلة في قبّعة معطفها الشتوي بعد أن امتلأت جيوبها ولم تعد تتّسع لشيء. كانت صغيرة جدّا أنذاك.

ستثير بقدومها جوّ بيته الرصين الوقور. ستنثر مقتنياتها هنا وهناك، سترمي ملابسها أرضًا وستمنع شعراتها الطويلة الماء من النزول بسهولة عبر مصرف الحمام، ستبقى الأطعمة الصحيّة التي تحبّ تناولها على رفّ المطبخ لفترة، كرقائق القطيفة وقطع الخرنوب وعلبة الشاي بالأعشاب والزبدة المستخلصة من اللوز والحليب المستخرج من الأرز.. ثمّ سترحل من جديد.

ذهب إلى بوسطن لاستقبالها فتذكّر رحلته إلى هناك لاستقبال غاوري عند وصولها من الهند لأوّل مرّة عام 1972، معتقدًا أنّه سيقضي حياته مع هذه المرأة، وتذكّر رحلة العودة من المكان ذاته مع بيلا ذات الاثني عشر ربيعًا قبل سنوات ليكشتف أنّ غاوري قد رحلت.

وصلت مع حقيبة قماشية وحقيبة ظهر. حطّت طائرتها القادمة من مينسوتا فخرجت متميّزة بملابسها عن بقيّة الركّاب المتأنّقين في بزّاتهم الرسمية ومعاطفهم المضادة للرياح. راحوا جميعا يفتحون هواتفهم المحمولة لتفقّد الرسائل ويجرّون خلفهم حقائبهم. إنّها داكنة البشرة، قويّة البنية، غير متجمّلة، وقفت بانتباه غير مشتّتة بين هذا وذاك، اقتربت منه ببشرة متوّهجة وعانقته بذراعيها القويّتين.

ـ كيف حالك يا بيلا؟

ـ بخير..أنا على خير ما يرام.

ـ هل تشعرين بالجوع؟ مارأيك لو خرجنا لتناول شيء ما هنا في بوسطن؟

ـ أريد الذهاب إلى المنزل، ولنذهب إلى الشاطئ غدًا.. كيف أحوالك؟

أخبرها أنّ الصحّة على ما يرام وأنّه مشغول ببحث يجريه وكتابة مقالة في نفس موضوع بحثه، ثمّ أخبرها عن الطماطم التي لا تثمر في حديقته وتبقى مجرّد فصوص سوداء داكنة على جذوع أمّهاتها.

ـ لا تشغل نفسك بها يا أبي.. لقد هطلت كميات كبيرة من الأمطار هذا الربيع.. كيف حال إلسي؟

أخبرها أنّها بخير، لكنّه لم يشعر بأنّه يستطيع طرح نفس السؤال عليها باعتبار أنّها لم تعرّفه يومًا على صديق حميم لها.

لم تطلب إذنه يومًا عندما كانت مراهقة صغيرة في بيته لتواعد أحدًا من الشبان. ولم تسبّب له أيّ متاعب بذلك الخصوص، فأقلقه خلوّ حياتها من أدنى مؤشّر على ذلك.

لقد تمنّى جزء منه اليوم بأن تفاجئه بالظهور مع رفيق ما في المطار، شخص يهتمّ لأمرها ويشاركها الحياة ويكسر الرّتابة التي تعيشها.. لقد قال لها يومًا بأنّه لن يعيش إلى الأبد، عندما اتّصل بها ليخبرها بوفاة صديقه ريتشارد لكنّها أسكتته وعاتبته لوصفه المأسوي ذاك.

لقد تعلّم مع السنين التخلّي عن المسؤولية التي كان يعتقد أنّها ملقاة على عاتقه، تلك التي تتلخّص في تأمين مستقبل ابنته عبر نقل مسؤوليتها إلى عاتق شخص آخر. لو كانوا يعيشون في كالكوتا لكان مسؤولًا عن تزويجها، أمّا هنا فطرح ذلك الموضوع عليها يعتبر تدخّلًا في شؤونها وتخطّيًا للحدود الشخصية. لقد نشأت في مكان متحرّر من تلك العادات الاجتماعية، وعندما عبّر عن تلك المخاوف لإلسي في أحد الأيّام نصحته بعدم طرح الموضوع على ابنته وذكّرته بأنّ العديد

من الناس هنا يختارون الانتظار لما بعد الثلاثين أو الأربعين للزواج.

ولكن.. كيف يمكن له الاعتقاد بأنّ بيلا قد تفكّر في الزّواج بعد المثال الفاشل الذي جسّده هو وغاوري أمامها؟ لقد كانوا عائلة تتكوّن من أشخاص منعزلين، متوحّدين.. لقد كانوا كأنّهم تلاقَوْا عرَضا ثمّ ما لبثوا أن تفرّقوا.. هذا هو تراثها العائلي، ولو افترضنا أنّها لم تتأثّر بأيّ تجربة أخرى لكان هذا كافيًا جدًّا للعزوف عن الزواج.

افتقدت بيلا نيو إنكلند وعبّرت عن ذلك كلّما عادا بالسيارة إلى البيت كانت معالم وجهها الناظر من خلال نافذة السيارة توحي بالاستسلام، وكانت تطلب منه التوقّف لشراء عصير اللّيمون المثلّج على الطريق كلّما شاهدا إحدى تلك الشاحنات التي تبيعها.

فتحت حقائبها في البيت واستخرجت الخوخ الفوّاح بأنواعه من لفائف قماشية كانت تضعه فيها ووضعته في طبق عميق. وسألها أثناء العشاء وهما أمام طبق الأرز ولحم الغنم الذي طهاه بيديه: «كم ستبقين من الوقت؟ هل ستمضين أسبوعين معي كما فعلت في المرّة السابقة؟».

وضعت شوكتها بعد أن سكبت لنفسها طبقًا ثانيًا وقالت: «لا أعرف بعد».

ـ لماذا؟ هل هناك مشكلة؟

نظرت مباشرة في عينيه فلاحظ توتّرًا مصحوبًا بتوق وعزم. تذكّر أنّها كانت تضغط على يديها عندما كانت تتعلّم السباحة بنفس الطريقة التي تضغط بها عليهما الآن.. تضغط ثمّ تتوقّف.. كمن يستعدّ لبذل جهد ما، لقفزة الإيمان التي تحتاجها.

ـ يجب أن أخبرك بشيء ما يا بابا.. عندي أخبار لك.

توقّف قلبه عن الخفقان ثمّ تسارعت دقّاته.. لقد فهمها.. فهم سبب الابتسامة التي قابلته بها في المطار والفرح الذي لمسه في حركاتها طوال المساء.

ولكن لا.. لم تلتق بالشخص المناسب بعد. لم يكن هناك صديق تودّ تعريفه عليه، أو لتدعوه إلى بيت والدها. تنفّست بعمق ثمّ أطلقت نفسا طويلا قالت دفعة واحدة: « أنا حامل».

إنّها في الشهر الرابع، ولم يكن الأب جديرًا بأن يكون جزءًا من حياتها ولا يعرف أيّ شيء عن حالتها. كان مجرّد شخص التقته وتورّطت معه في علاقة لسنة أو لليلة واحدة.. لم تفصح له. إنّها تريد الاحتفاظ بالطّفل وتريد أن تصبح أمًّا وأخبرته بأنّها فكّرت في الأمر مليًّا وأنّها مستعدّة له. ثمّ أضافت: «من الأفضل ألاّ يعرف الأب..هذا سيخفّف من إمكان تعقّد الأمور».

ـ لماذا؟

ـ لأنّه لا يشبه الأب الذي أريده لولدي.. إنّه لا يشبهك.

ـ فهمت.

ولكنّه لم يفهم.

من يكون الرجل الذي حوّل ابنته إلى أمّ؟ من هذا الذي يجهل أبوّته لأنّه لا يستحقّها؟

بدأ يكلّمها بلطف: «إنّ تربية طفل وحدك أمر صعب جدًا يا بيلا».

ـ لقد قمتَ بذلك.. وقام بذلك كُثرٌ غيرك.

ـ لكلّ طفل يا بيلا والدان في هذه الحياة إذا أردنا الحديث عن المثاليات.. أب وأمّ..».

ـ هل يزعجك الأمر؟

ـ أيّ أمر؟

ـ هل يزعجك حملي بلا زواج؟

ـ ليس لديك أيّ دخل ثابت يا بيلا.. أنت لا تملكين بيتًا..

ـ لديّ بيتي هذا..

ـ وأنت هنا على الرّحب والسّعة، دائما.. لكنّك تعيشين هنا أسبوعين في السنة وتقضين بقية العام في أماكن أخرى.

ـ إلاّ إذا..

ـ إلاّ إذا ماذا؟

إنّها تريد العودة إلى البيت من جديد.. تريد البقاء معه لتلد طفلها في رود آيلند، ليحظى الطفل بالبيت الذي قضت فيه طفولتها، كي لا تضطرّ إلى العمل لبعض الوقت.

ـ هل توافق على هذا؟

باغته التاريخ وهو يعيد نفسه.. أذهله وحيّره. امرأة حامل.. طفل بلا أب.. سيولد هنا في رودآيلند من جديد، يحتاجه كما كان يحتاجه الطفل الأوّل بنفس الشدّة. بيلا تعيد سيرة حياتها وظروف ولادتها، تخطّ بنفسها نسخة جديدة من القدر الذي حمل غاوري إليه قبل سنوات طويلة.

طلبت منه بيلا مفاتيح السيارة للقيام بنزهة مسائية بعد انتهائهما من العشاء وتنظيف الأطباق.

ـ إلى أين؟

ـ أريد مشاهدة شروق الشمس على شاطئ جوديث.

ـ ألست بحاجة إلى الرّاحة؟

أشعر بنشاط شديد.. هل ترغب في القدوم معي؟

رفض ساباش وأخبرها بأنّه متعب من رحلة الذهاب إلى بوسطن ذهابًا وإيابًا وأنّه يفضّل عدم الخروج مجدّدًا.

ـ سأذهب إذا.

ـ وحدكِ؟

لم يتمكّن ساباش من منع نفسه من القلق عليها رغم أنّها تقود باحتراف منذ سنّ السادسة عشرة، وبدأ يشعر بشكل لا عقلاني بأنّه لا يريد لها أن تغيب عن ناظريه.

هزّت رأسها محتارة من سؤاله وهي تتلقى منه المفاتيح ثمّ قالت: «سأقود بحذر وأعود في الصباح».

ومع أنّهما لم يتقابلا منذ أكثر من عام، ومع أنّها طلبت منه مرافقتها إلاّ أنّه شعر، كما شعرت هي، بالحاجة إلى الانفراد بنفسه قليلًا ليفكّر وحده بما قالته.

أضاء أنوار المدخل الخارجي لكنّه لم يشعلها في الداخل حيث يجلس، راقب تدرّج ألوان السّماء الشاحبة وتحوّل الأشجار إلى ظلال داكنة والتباين الحادّ الماثل بينهما. بدت له الأشجار ثنائية الأبعاد بلا حياة وكأنّها صورة على ورق، إلى أن تلاشى الفرق ما بين ظلالها الداكنة والسماء المعتمة خلفها بعد دقائق قليلة.

لقد هجرتها غاوري.. نعم، لكنّه يعرف أنّ إخفاقه هو كان أكبر عندها. كان رحيل غاوري على الأقلّ صريحًا ونهائيًا، لم يكن جبنًا أو لامبالاة.. لم يدفعها لسحب ثقتها بها، كما فعل هو.

وها هو الآن في مواجهة هذه الطفلة.. طفلتهما.. حُكِم عليها بأن تصبح أمًّا، وهو يعرف منذ الآن أنّها ستكون أمًّا مختلفة عن غاوري.. إنّه يشعر بوضوح بالفخر والاعتزاز والفرح الذي يكتنفها لحملها. ولا يمكنه في نفس الوقت تجاهل رفضها الإفصاح عن والد طفلها، ولا تجاهل إصرارها على تربية طفلها وحدها، لكنّ أكثر ما أغضبه لم يكن حملها دون زواج، بل لأنّها تعتبره الأب المثالي، لأنّها تراه مثالًا يُحتذى في كلّ شيء.

تذكر حوارًا دار بينهما منذ سنين خلت. فاجأته بسؤال لم يفهمه في البداية. قالت له وهي تجلس القرفصاء أمامه: «لماذا لا يوجد اثنان؟» ثمّ أضافت حين لاحظت دهشته موضّحة: «عندي عينان.. لماذا أرى شخصًا واحدًا ولا أرى اثنين؟».

سؤال بريء.. سؤال ذكيّ. كانت في السادسة أو السابعة، وقد سبق له أن أخبرها بأنّ كلّ عين تلتقط صورة مختلفة عن الأخرى لأنّهما تنظران من زاويتين مختلفتين بدرجة صغيرة جدًا. غطّى إحدى عينيه ثمّ غطّى الأخرى لتتأكّد بنفسها من أنّها ترى نسختين من صورته. وشرح لها بأنّ الدماغ يمزج الصورتين المنفصلتين في صورة واحدة تتطابق فيها النقاط المشتركة وتتمّ التعديلات التي تظهر هنا ولا تظهر هناك وبالعكس، لتعرض للعين الأفضل بينهما.

ـ ممّا يعني أنّي أرى بعقلي.. لا بعينيّ؟

إنها ترى بعقلها الآن. وبطريقة ما يجب عليها أن تفهم ما سيقوله الآن.

سمع صوت السيارة بعد ساعة تقريبًا، وهو ما يزال على حاله منذ

رحيلها. أنصت إلى صوت المكابح الحادّ وصوت الباب الناعم.

مشى إلى المدخل وفتح الباب قبل أن تضطرّ إلى قرع الجرس. شاهدها من خلال الزجاج المغطّى بالبرغش. لطالما فكّر في مدى خطورة الحقيقة ومدى تأثيرها فيها، لكنّه الآن قلق أكثر من أيّ وقت مضى بسبب حملها. لقد عادت إليه بحثًا عن الاستقرار. إنّه أسوأ وقت ولكنّه غير قادر على الانتظار أكثر.

شعر ساباش بأنّ حضور جيل جديد في داخلها يخطّ بداية جديدة، ويجبره على وضع نهاية للماضي. لقد حلّ مكان أوديان وتحوّل إلى والدها، لكنّه لا يستطيع التحوّل إلى جدّ بنفس الطريقة المفعمة بالأسرار.

خشي أن تكرهه ابنته الآن كما كرهت غاوري لأنّها لم تتزوّج من بعده.. لم يطلق سراحها.. استبقاها له بشكل رمزيّ.. لم يمنحها الحرّية للارتباط برجل آخر، لكنّه شعر الآن بأنّه مضطرّ لفعل ذلك مع بيلا.. تجهّز لإعادتها إلى أوديان، لدفعها بعيدًا عنه في اللحظة التي رغبت في العودة إليه رغم خطر فقدانها للأبد.

قالت وهي تجتاز العتبة وتهشّ البرغش بيديها بعيدًا عن الباب: «ماذا تفعل يا بابا؟ لقد تأخّر الوقت.. لماذا أطفأت كلّ الأنوار؟ لماذا تقف هنا هكذا؟».

لم تتمكّن بيلا في هذه الظلمة الدامسة من رؤية الدّموع المنحدرة على خدّيه.

لم يناما طوال الليل.. بقيا صاحيين حتى انبلج صباح اليوم الجديد.

ـ أنا لست أباكِ.

ـ من تكون إذًا؟

ـ زوج والدتك.. عمّك.. كلاهما.

لم تصدّقه.. ذهب في ظنّها أنّ خللًا أصاب عقله.. أنّه فقد عقله.. أنّه عانى خلال غيابها من جلطة دماغية، فانحنت أمامه وأحاطت كتفيه بذراعيها وقرّبت وجهها من وجهه.

«توقّف عن هذا». جلس أمامها لكنّه لم يكن هناك، جلس صامتًا كجثّة بين ذراعيها لكنّه شعر بأنّه يصدمها.. إنّه يدرك وحشية الحقيقة التي تفوق شدّتها قوّة أيّ ضربة مادية تصيب الجسد. وفي نفس الوقت، لم يكن في حياته أكثر إثارة للشّفقة وضعفًا منه الآن.

صرخت في وجهه وطلبت منه إخبارها عن السّبب الذي منعه من الاعتراف بالحقيقة قبل الآن.. دفعته على الأريكة ثمّ راحت تبكي وانهارت قبالته كما لو أنّه مات أمامها.. أمّا هو فقد كان يشعر بأنّه قد مات فعلا.

هزّته.. حاولت حثّه على العودة إلى الحياة وكأنّه مجرّد قشرة خارجية، وكأنّ الشخص الذي عرفته قد غادر بلا رجعة.

تقدّم الليل واستقرّت الحقيقة أمامها كشبح هامد، سألته بضع أسئلة عن ظروف موت أوديان ثمّ عن الثورة التي تجهلها وتثير اهتمامها.

ـ هل كان مذنبًا بحقّ أحد ما؟

ـ كان مذنبًا في بعض الأشياء.. لم تخبرني والدتك بكلّ شيء.

ـ بمَ أخبرتك إذن.. ؟

حكى لها كلّ الحقيقة.. قال لها إنّ أوديان خطّط لأعمال عنف وصنع متفجّرات لكنّ أحدًا لم يتأكّد حتى الآن من ذلك.

ـ هل عرف بأمري؟ هل عرف بأنّي سوف أولد؟

ـ لا.

أنصتت إليه من الكرسي المقابل له.. ثمّ أخبرها بأنّه يحتفظ ببضع رسائل من أوديان في مكان ما يذكر فيها أنّ غاوري هي زوجته.

عرض عليها قراءة الرسائل لكنّها رفضت وعادت ملامح العناد الطفولي لتظهر على وجهها من جديد.. إنّه شخص غريب بالنسبة إليها.

لم يشعر ساباش بأنّ الحوار يحقّق أيّ تقدّم، لم يشعر سوى بالإرهاق والتعب. غطّى إحدى عينيه بسبب النعاس الشديد وعجزه على إبقائها مفتوحة. حطّ الآن في عينيه نعاس كلّ تلك الليالي التي قضّاها جاحظ العينين منذ وفاة ريتشارد.. أزاح عنه كلّ ذلك التّعب الذي منعه من مؤانستها، فذهب إلى سريره.

رحلت بيلا قبل استيقاظه، وقد عرف جزء منه بأنّها سترحل، وأنّ الطريقة الوحيدة لاستبقائها هي تقييدها بالحبال. ومع ذلك.. هرع إلى غرفتها ليتأكّد من مغادرتها فوجد أنّها قد نامت بالفعل ثم رتبت سريرها على طريقتها واصطحبت معها أكياسها.

وفي الأسفل، على طاولة المكتب، كان دفتر الهاتف ما يزال مفتوحًا على الصفحة التي تحتوي رقم مكتب سيارات الأجرة العاملة في البلدة.

انقلبت حقيقة أبيها.. هناك أبوان لا أب واحد.. كما هو حالها الآن في حملها، شخصان متشابكان في جسد واحد، كحالها الآن وهي ملتحمة بكائن لا تستطيع رؤيته أو معرفة شكله.

وكان هذا المجهول النّامي في داخلها الكائن الوحيد الذي شعرت برابطة تجمعها به خلال فرارها من رودآيلند لتهدئة نفسها.. لتستوعب ما خبرته. كان الجزء الوحيد الذي شعرت بإخلاصه لها ومعرفتها

العميقة به وهي تنظر من نافذة حافلة بيتر بان التي استقلّتها إلى مشاهد طفولتها المألوفة التي لم تتعرّف على شيء منها.

كذبوا عليها طوال حياتها لكنّ الكذبة رفضت امتصاص الحقيقة ومحوها. مازال ساباش أباها حتى بعد أن أخبرها بأنّه ليس والدها وأنّ أوديان هو الأب الحقيقي.

لا يمكنها لوم والدها على إخفاء الحقيقة حتى الآن.. قد يلومها طفلها في المستقبل لذات السبب.

إنّه الجواب الذي فتّشت عنه طوال حياتها.. إنّه سبب مغادرة والدتها.. سبب إمضائها أوقات طفولتها مع واحد منهما بدلًا من بقائهم مجتمعين كأسرة طوال طفولتها. إنه مصدر كلّ الجزع والشجن والقلق الذي اعتراها طوال الوقت.. سبب عدم قدرتها على جلب الفرح والابتسامة لوجه والدتها، سبب شعورها بالاختلاف الغريب مقارنة مع كلّ الأولاد الآخرين الذين كانت الابتسامة لا تفارق شفاه أمهاتهم.

لم تتظاهر أمّها أمامها بأيّ شيء.. كانت تُشعّ تعاسة لا تني مع الوقت.. أمواج حزن صامت ثابت لا يتغيّر، بلا كلمات. ومع ذلك.. كانت بيلا تشعر به كما يشعر الإنسان أمام جبل هائل عظيم لا يمكن تحريكه ولا تسلّقه.. جبل لا يمكن التغلّب عليه.

والآن.. هناك فرد ثالث.. أب جديد يلوح في حياتها كالنجوم التي علّمها ساباش كيف تتعرّف عليها في السماء.. نجم موجود منذ الأزل يشع نورًا استثنائيًا.. أب ميّت لكنّه عاش الآن فقط في عينيها.. أب فرحت لمعرفتها بوجوده لكنّه لن يغيّر شيئًا في حياتها رغم كلّ شيء.

تذكّرت صورته المعلّقة في تولّيه غانج على حائط فوق مسامير

الفواتير.. وجه باسم يحيط به إطار مغبرّ من الخشب.. شابّ أشارت لها جدّتها بأنّه أبوها إلى أن أخبرها ساباش بأنّها صورة أوديان. مُحيت تفاصيل الوجه بعد نفي الخبر من قبل والدها وفقدت اهتمامها به.

فهمت الآن سبب عدم سفر والدتها معهما إلى كالكوتا ذاك الصيف، وسبب عدم عودتها لرؤيتهما أبدًا وسبب عدم ذكرها لأيّ تفاصيل حول حياتها هناك حين كانت تسألها.

لقد أخذت والدتها معها تعاستها حين غادرت رودآيلند.. لم تعد تمطرهما بها، وتركتها بلا دليل يرشدها إلى تلك التعاسة.. لقد حدث المستحيل وانزاح الجبل. حلّ مكانه حجر ثقيل كالجلاميد الصخرية التي كانت تكتشفها حين تحفر على الشاطئ.. تحت الرمال.. أكبر من أن تتمكّن من استخراجها.. سطحه مرئي للعيان لكنّ حدوده مجهولة.

لقد علّمت نفسها تجاهله وتفاديه لكنّ تلك الحفرة بقيت تشير إلى أصلها المجهول ولحظة مجيئها إلى هذا العالم. وها هي تستعيده الآن.. استسلمت الرمال أخيرًا وتمكّنت من كشف كلّ ما كان دفين الزمن ورفعته من القبر الذي أحاط به، تأمّلت أبعاده لوهلة ووزنت ثقله بيديها، شعرت بالضغط الذي يلقيه على كاهلها قبل رميه إلى البحر دفعة واحدة وإلى الأبد.

لم يسمع منها ساباش أيّ خبر خلال الأيّام التالية. حاول الاتصال بها على هاتفها الخلوي ولم يفاجئه عدم ردّها. إنّه لا يعرف وجهتها ولا يعرف أيّ شخص يمكنه سؤاله عن مكانها. اشتبه في احتمال ذهابها لكاليفورنيا للبحث عن غاوري وسماع الجزء الذي يخصّها من القصّة وأقنع نفسه بأنّها قامت بذلك فعلا.

وعندما تحدّث مع إلسي على الهاتف أخبرها بأنّ بيلا غيّرت رأيها وغادرت. لقد رغب عدّة مرّات في الاعتراف لإلسي بأنّه ليس والد بيلا الحقيقي وأنّ هذا كان أحد أسباب مغادرة غاوري وشعر بأنّها ستتفهّم لكنّه لم يقل لها شيئًا احترامًا لبيلا، لأنّها تستحق أن تكون أوّل شخص يعرف بذلك.

نام طويلا ولم يستيقظ إلاّ لمامًا.. لم يستحمّ، وعندما كان النّوم يملّه كان يجلس هامدًا في السرير. تذكّر العزلة التي أحاطت به في البحر والسّكون العظيم بعد إطفاء المحرّكات. لقد حرّر نفسه من عبء السرّ.. رماه عن كاهله لكنّه شعر بثقل غير مسبوق وقلق لا يبدّده الزمن. طلب إجازة مرضية من عمله في المختبر وبقي في البيت عدّة أيام.

فكّر في التقاعد وبيع المنزل والرحيل بعيدًا، رغب في الاتصال بغاوري للانفجار في وجهها.. ليخبرها بأنّها قتلته.. هزمته كليًّا.. ليقول لها بأنّه أبلغ بيلا بالحقيقة ممّا يعني أنّها ستعتبره من الآن فصاعدًا مجرّد عمّ لها. لكنّه لم يرغب حقًا إلاّ في الحصول على غفران بيلا.

هبّت الرياح كالزوابع ليلًا رغم حرارة الأيّام الخانقة، هدّأته نسائمها التي تسللت عبر النوافذ المفتوحة وبدا له بأنّ الصيف سيغادر قريبًا رغم أنّه لم تمض على دخوله إلاّ أيّام معدودة.

رنّ الهاتف في نهاية الأسبوع، ظنّ بأنّ المتّصلة إلسي للاطمئنان عليه.. كانت معدته فارغة لأنّه لم يتناول سوى الشاي بين الحين والآخر والفواكه الصغيرة التي أحضرتها بيلا، كما كانت شعيرات ذقنه طويلة لطول فترة إهمالها. فكّر في تركه يرّن دون الإجابة لكنّه رفع السماعة في اللّحظة الأخيرة وانتظر سماع صوت إلسي ليعترف لها بما جرى ويسألها النصيحة.

لكنّها كانت بيلا. جاء صوتها ناعما: «لماذا لم تذهب إلى العمل؟».

اعتدل في السرير على الفور وكأنّها دخلت الغرفة بالفعل ووجدته هكذا.. طويل الذقن.. محبطًا فاقدًا لكلّ أمل في الحياة.

ـ أنا.. قرّرت الرّكون إلى الرّاحة في البيت لهذا اليوم.

ـ لقد رأيت بعض الحيتان قرب الشاطئ أكثر ممّا ينبغي إلى درجة أنّني كنت قادرة على السباحة بجانبها ولمسها.. هل هذا طبيعي في هذا الوقت من العام؟

لم يتمكن من التفكير في كلامها على الفور لفهم كلماتها ولم يكترث بالبحث عن جواب معقول. كان مغمورا بالارتياح الذي اعتراه لسماع صوتها.. خشي من قول أيّ كلمة في غير مكانها الآن ممّا قد يدفعها لإغلاق الخط.

ـ أين أنتِ؟ أين ذهبتِ؟

استقلّت سيارة أجرة إلى بروفيدانس ثمّ حافلة إلى كايب كود حيث تقيم إحدى صديقاتها القديمات، فبقيت هناك عدّة أيام. كانت صديقتها تلك قد انتقلت إلى هناك لقضاء الصيف، وبقيت هناك منذ عدّة سنوات، وتزوّجت هناك. كانت الشواطئ جميلة ومزدحمة بالناس كما لم تكن منذ سنوات مراهقتها.

تذكّر أنّهما زارا تلك المنطقة في طفولتها، في الربيع، في العام الأوّل من رحيل غاوري، وأنّهما تمشّيا على طول الشاطئ.. وأنّها جرت أمامه بعد أن أثار شيء ما اهتمامها.

لحق بها فاكتشف أنّها شاهدت هيكل دلفين ميّت مكشوف العظام.. محِجرا عينيه أجوفان فأخرج كاميرته لالتقاط صورة له ونظر

من خلال العدسة فاكتشف أنّ بيلا تبكي.. أرخى الكاميرا وتوقّف عن التصوير. بكت بصمت إلى أن أحاطها بذراعيه فانتحبت بصوت مرتفع.

ـ كم ستبقين هناك؟

ـ سأسافر إلى هايينس على متن رحلة حافلة الثامنة.

ـ إلى أين؟

ـ إلى بروفيدانس.

صمت لوهلة كما صمتت هي.. إنّها تتّصل من هاتفها النقال ولا يعرف أظلّت على الخط أم أغلقته.

ـ بابا؟

سمعها.. إنها ما تزال تناديه بهذا اللقب.

ـ هل يمكنك المجيء لاستقبالي في المحطة أم أركب سيارة أجرة؟

شكرته في الأيّام اللاحقة لإطلاعها على مسألة أوديان، مشيرة له باسمه المجرّد، وقالت إنّ الحقيقة ساعدتها على فهم بعض الأمور، وأنّها سمعت ما كانت بحاجة إلى سماعه وأنّه ليس مطالبا بإخبارها بأكثر من ذلك.

اعترفت له بأنّ الحقيقة ساعدتها على التقرّب من الطفل الذي تحمله في أحشائها أكثر.. وبأنّ أوديان مجرّد تفصيل مؤثّر في الحياة التي لطالما جمعتهما لكنّها تجمعهما الآن لأسباب مختلفة.

ولدت ابنتها في الخريف وأخبرته بعد الولادة بأنّ الأمومة جعلتها تحبّه أكثر بعد مكابدتها لكلّ ذلك العناء.

الفصل السّابع

1

تناولت غاوري خبزها المحمّص والفواكه وشربت الشاي على شرفتها، ثمّ انكبّت على حاسوبها المحمول وثبّتت نظارتها على عينيها لتقرأ أخبار اليوم. صار بإمكانها قراءة الأخبار التي تعود إلى أيّ تاريخ تريده. باستطاعتها الانتقال بنقرة واحدة إلى مواضيع ومقالات نُشرت قبل أعوام.. الماضي ماثل هنا في أيّ لحظة تشاء، مُعلّق بالآن.. إنّه أحد تعابير بيلا الغريبة عن البارحة أثناء طفولتها.

كانت غاوري تلحظ في بعض الأحيان مقالات عن الحركة الناكسالية التي انتشرت في أنحاء مختلفة من الهند ونيبال في الصحف الأمريكية، ومواضيع صغيرة عن المتمرّدين التابعين لماو الذين يفجّرون الشاحنات والقطارات ويضرمون النار في مخيّمات الشرطة ويحاربون الشركات العاملة في الهند ويخطّطون لقلب نظام الحكم من جديد.

كانت تتصفّح في بعض الأحيان تلك المواضيع بشكل خاطف لأنّها لم تكن تريد أن تعرف أكثر ممّا ينبغي. كانت بعض المقالات تشرح معنى كلمة ناكسالباري وتوفّر شروحا خاصّة إلى أولئك الذين لم يسمعوا بالكلمة من قبل، وتلخّص أحداث السنوات الستّ الماضية واصفة إيّاها بالسنوات الملعونة التي تلتْ استقلال البنغال. لكنّ صفة الفشل تظلّ ملازمة لمحاولة ثوريّة وحيدة فاشلة، ولن تلبث الجمرات القديمة أن تشعل شرارة الثورة في الأجيال الجديدة.

«من هؤلاء؟ هل كانت تلك الحركة مصمّمة لاحتواء الشباب المتحمّس كأوديان وأصدقائه؟ هل يمكن لها أن تكون قد حدثت هكذا بلا قائد، بلا غاية.. بضياع تامّ لا يعادله سوى الرّعب الذي نتج عنها؟ هل يمكن لكالكوتا أن تختبر شيئًا مماثلًا لها في المستقبل؟» كان شيء ما في داخلها يخبرها بنقيض ذلك كلّه.

إنّها تفهم الكثير الآن ممّا لم تكن تفهمه فيما سبق. لقد فهمت الأحداث من خلال أجهزة الحاسوب التي كانت تستعملها فيما مضى في المكتبات العامّة ثمّ عن طريق الشّبكة اللاسلكية التي حصلت عليها في منزلها، ومن خلال قراءة الكثير على الشاشة الساطعة، التي تحوّلت فيما بعد إلى حاسوب يمكن طيّه وحمله إلى أيّ مكان للإجابة عن أيّ سؤال يجول في خاطر العقل البشري، فتلك الشّبكة تحتوي على معلومات تفوق كثيرا ما يحتاجه أيّ شخص.

لاحظت غاوري أنّها مصمّمة للقضاء على الغموض والألغاز إلى حدّ كبير، لتقليص حسّ المفاجأة.. هناك خرائط تدلّ المرء على طريقه وصور لغرف الفنادق التي قد يفكّر في النزول فيها وحالات المطارات وأوقات مغادرة الطائرات ومسالك للوصول إلى الناس المشهورين أو المغمورين.. أناس من الماضي قد يرغب المرء في استعادة علاقته بهم أو أناس قد يقع في حبّهم أو يوظّفهم.. مواطنو شبكة الأنترنت يعيشون في دولة تحرّرت من الهرميّة.. هناك متّسع عادل للجميع باعتبار أنّ المكان غير موجود في تلك الجمهورية.. لا بدّ أنّ أوديان كان سيعجب بهذا.

توقّف بعض طلاّبها عن الذهاب إلى المكتبة واستعمال القواميس للبحث عن الكلمات ولم تعد هناك حاجة لتكبّد عناء التنقّل لحضور

درسها أو غيره. كان حاسوبها المحمول يحتوي على تاريخ حياة كاملة من الدراسة بالإضافة إلى كلّ ما لن تتّسع له حياتها.. هناك ملخّصات لنقاشات فلسفية في الموسوعات المتوفّرة على الأنترنت وشروح لطرائق التفكير التي احتاجت إلى سنوات لفهمها وروابط مباشرة لفصول الكتب التي اضطرت فيما سبق للبحث عنها طويلًا وتصويرها للاحتفاظ بها أو طلبها من مكتبات أخرى، بالإضافة إلى مقالات لا تنتهي ومراجعات وبراهين تقابلها تفنيدات وكلّ ما يمكن للباحث أن يفكّر فيه.

تذكّرت الوقوف على طرف شرفة في كالكوتا والحديث مع أوديان، ومكتبة جامعة الرئاسة التي كان يدخلها للقائها في بعض الأحيان ويجدها غارقة على كرسيّ بين أكوام الكتب تحت مروحة تطيح بالصفحات بلا توقّف. كان يقف وراءها بصمت وينتظرها حتى تلتفت، ينتظر أن تشعر بوجوده بلا سابق إنذار.

تذكّرت قراءة الكتب المهترئة في كالكوتا والكشك المجاور لكلية اللغة السنسكريتية الذي كان يحتوي على ما يطيب لأوديان قراءته.. تذكّرت مسار دراستها البطيء وساعات البحث بين بطاقات الكتب في جامعة الرئاسة، ثمّ في رودآيلند وبعض الشيء في بداية إقامتها في كاليفورنيا. تذكّرت تدوينها لأرقام الكتب بأقلام الرصاص القصيرة والبحث بين الممرّات التي تظلم حال نضوب بطارية الأضواء.. إنّها تذكر بكلّ وضوح بعض فقرات الكتب وكأنّها تراها أمامها.. تذكر مكان تلك الفقرات بين صفحات الكتاب وأرقام صفحاتها.. إنّها تذكر حزام الحقيبة الثقيلة الذي كان يؤلم كتفها في طريق عودتها إلى البيت.

لا يمكنها تجاهل الأمر، إنّها جزء من عالم افتراضي، وجزء منها يطفو

في هذا البحر العظيم الذي غطّى سطح الأرض. هناك ملفّ خاص بها على موقع الجامعة الالكتروني يحتوي على صورة حديثة نسبيًا وقائمة بالموادّ التي تدرّسها وقائمة أخرى بإنجازاتها، ثمّ شهاداتها ومؤلّفاتها والمؤتمرات التي شاركت فيها والجامعات التي تحظى بزمالتها بالإضافة إلى عنوان بريدها الإلكتروني ليتمكّن أيّ شخص من الاتّصال بها أو إرسال أيّ شيء لها. قد يؤدّي مزيد من البحث عنها للعثور على صورة فوتغرافية تجمعها بزملاء أكاديميين، مؤرّخين وعلماء اجتماع شاركوا في نقاش أكاديمي في معهد بيركلي.

عبرت القاعة ثمّ جلست على الكرسي المخصّص لها خلف الطاولة، حيث كتب اسمها على لافتة صغيرة. راجعت ببطء كلّ البطاقات التي بين يديها بينما استعدّ الجميع لافتتاح ذاك المؤتمر، ثمّ اتّكأت بمرفقها على الطاولة وابتدأت الحوار.

هناك الكثير من المعلومات ومع ذلك، لم يكن ذلك كافيا في نظر من كان في مثل وضعها. في عالم تتضاءل أسراره يومًا بعد يوم، يحافظ المجهول بالنّسبة إليها على حجمه وكمّه.

لقد وجدت ساباش.. مازال يعمل في مختبر رودآيلند.. اكتشفت مقالات ألّفها مع بحّاثة آخرين واسمه كان مذكورًا في ندوة عن علم المحيطات حيث شارك من قبل.

بحثت مرّة واحدة عن اسم أوديان لأنّها لم تتمكّن من منع نفسها من ذلك، لكنّها لم تجد له أثرًا كما توقّعت رغم غزارة المعلومات الموجودة والآراء المطروحة حول الهند.. لم يُذكر اسمه مطلقًا ولم تُذكر الأمور التي قام بها. كان واحدًا من مئات آخرين في كالكوتا في ذلك

الوقت.. واحدًا من الجنود المجهولين الذين لاحقهم الجيش وأعدمهم بكلّ تكتّم. لم يعرف أحد أبدًا بمنجزاته وعوقب كما عوقب الآخرون دون أن يحظى بما يميّزه عن الآخرين.

وكأوديان تماما، كانت بيلا غير موجودة.. لا يمكن إيجاد أيّ شيء حين البحث عن اسمها على الشّبكة. لا جامعات ولا أصحاب ولا اشتراكات بالشبكات الاجتماعية ولا أيّ صورة.. لم يكن لها أيّ أثر في هذه الشّبكة الهائلة.

هذا لا يعني أيّ شيء بالضرورة. هذا لا يعني سوى أنّها غير موجودة في الفضاء الذي بحثت فيه غاوري وأنّها ترفض أن تجدها أمّها. رجّحت غاوري أنّ غيابها عن الأنترنت قد يكون شاملًا، وأنّه قد يكون اختيارًا متعمّدًا من قبلها لتتأكّد من عدم وجود أيّ لمحة عنها وعدم قدرة أيّ شخص على الوصول إليها.

إلاّ أنّ أخاها ماناش بحث عنها ووجدها وأرسل إليها رسالة عبر البريد الالكتروني. سأل عن أحوالها وعن احتمال عودتها إلى كالكوتا لزيارته يومًا ما. أخبرته فيما بعد بانفصالها عن ساباش لكنّها اخترعت تاريخًا مزيّفًا لحياة بيلا وأخبرته كذبًا بأنّها كبرت وتزوّجت.

لم تتوقّف غاوري في بحثها عن بيلا بين الحين والآخر دون الوصول إلى أيّ نتيجة، وأدركت أنّ ابنتها قرّرت هذا الانفصال عن العالم الافتراضيّ، لكنّها لم تتجرّأ على طلب معلومات عنها من ساباش فباءت كلّ جهودها للبحث عن ابنتها بالفشل. كان الحماس يعتريها كلّما كتبت الاسم في خانة البحث آملة في بعض النتائج الإيجابية، لكنّها كانت تعود خائبة في كلّ مرّة.

وصلتها رسائل من طالب سابق اسمه ديبانكر بيسواس، وهو تلميذ بنغالي الأصل لم تنس اسمه أبدًا، ولد في هيوستن بنفس العام الذي ولدت فيه بيلا، فشعرت تجاهه بالحنان وتبادلت معه بعض الرسائل باللغة البنغالية وعدّته مقياسًا لما يمكن أن تكون بيلا عليه خلال سنين دراسته عندها. لقد تسنّى له قضاء فصول الصيف في كالكوتا في بيت جدّيه الواقع في شارع جامير، وظنّت أنّه سيسجّل في كليّة الحقوق لكنّه غيّر رأيه وشرح لها في رسالة لاحقة أنّه أصبح بروفيسورًا في العلوم السياسية في جامعة أخرى وتخصّص في سياسة جنوب آسيا، واعترف لها بأنّها أثّرت فيه تأثيرا كبيرا.

كتب إليها معربا عن تقديره لشخصها ومُخبرا عن قُربه من مكان إقامتها، حيث سيزور جامعتها في الأسبوع القادم لحضور مؤتمر وطلب منها تناول وجبة غداء معه، وأخبرها بأنّه يؤلّف كتابا ويأمل منها المشاركة فيه وسألها عن إمكانية مناقشة ذلك.

فكّرت في الرّفض، لكنّها اقترحت عليه اسم مطعم هادئ ألفت التردّد عليه بين الحين والآخر. كان بها فضول لرؤيته مجدّدًا.

وجدته بانتظارها على الطاولة، لم يكن يرتدي البنطال القصير والصندل الذي كان يلبسه في الصفّ منذ سنوات، لم يكن يضع في زنده حلقات مصنوعة من القواقع، بل ارتدى قميصًا قطنيًا مقلّمًا وحزامًا جلديًا فاخرًا حول خصره أعلى السروال الذي يغطّي ساقيه. حكى لها بأنّه ارتاد جامعة نبراسكا ثمّ عمل في بوفالو وأنّه سعيد للفرصة التي قادته إلى هنا. أخرج هاتف الآي فون من جيبه وعرض لها صور ابنيه التوأم، صبيّ وفتاة بين ذراعي والدتهما، زوجته الأمريكية.

هنّأته وتساءلت عن وضع بيلا: هل هي متزوّجة الآن مثله.. هل لها أطفال مثله.

طلبا طعامًا وأخبرته أنّها حرّة لمدّة ساعة قبل اضطرارها للعودة مجدّدًا إلى الجامعة، ثمّ قالت: «أخبرني.. عمّ يتحدّث الكتاب؟».

ـ لقد كنتِ في جامعة الرئاسة في الستينيات. أليس كذلك؟

وقّع تلميذها هذا عقدًا مع صحيفة أكاديمية لكتابة تاريخ الطلبة الذين كانوا موجودين بالجامعة في أوج الثورة، لمقارنتهم بحركة SDS الأمريكية، وكان يأمل في تدوين الأحداث بشكل تجارب شخصيّة وتسجيل مقابلته معها لإدراجها في طيّات الكتاب.

بطريقة لاشعوريّة رفّت عيناها بعصبية، وهي الحركة العصبية اللاواعية التي تطوّرت مع الأيام عندها، تمنّت ألّا يلاحظ ذلك وأملت في عدم انتباهه لتوتّرها الذي اعتراها فجأة.

أجابته بعد أن جفّ حلقها تمامًا: «لم أتورّط في الحركة». ثمّ رفعت كأسها إلى شفتيها وشربت بعض الماء فابتلعت بعض قطع الثلج قبل أن تتمكّن من مضغها.

ـ لا يهمّ.. أريد منك وصف الجوّ العام في ذاك الوقت.. فيمَ كان الطلاّب يعتقدون؟ وبمَ كانوا يفكّرون؟ وما الأمور التي كانوا يقومون بها؟.. أريد منك أن تنقلي لي مشاهداتك.

ـ أنا آسفة.. لا أريد المشاركة في هذا البحث.

ـ حتّى لو احتفظنا بسرية اسمك؟

في الحقيقة خشيت أن يكون على دراية بشيء ما .. خشيت أن يكون اسمها مدرجًا على قائمة ما، وأن يكون أحدهم قد فتح ملفًا قديمًا، أو

أن يكون أحدهم قد قرّر إجراء تحقيق حول أحداث حصلت منذ زمن بعيد. وضعت يدها على جفنها لتثبيته ومنعه من الارتجاف وتفحصّت وجهه.

لا.. إنّه يأمل في الحصول على أيّ معلومة منها لكتابه، لا أكثر، أدركت أنّها مصدر معلومات لديه. توقّفا عن الكلام لحضور النادل الحامل للطعام.

ـ اسمع.. يمكنني إخبارك بما أعرفه ولكنّني لا أريد إدراج اسمي في الكتاب.

ـ هذا كافٍ بما فيه الكفاية.

طلب إذنها لتشغيل جهاز تسجيل صغير لكنّ غاوري طرحت عليه السؤال الأول: «ما الذي لفت انتباهك للحركة؟».

أخبرها بأنّ عمّه كان أحد الثوّار المتورّطين الذين ألقي القبض عليهم لكنّ والديه تمكّنا من إطلاق سراحه وإرسلاه إلى لندن.

ـ ماذا يفعل الآن؟

ـ إنّه مهندس. وهو محور مادّة الفصل الأوّل من الكتاب تحت اسم مستعار بالطبع.

أومات برأسها وفكّرت في مصائر الآخرين المجهولة، تساءلت هل كانوا محظوظين مثله، ورغبت في قول الكثير.

ـ لقد أخبرني عن المسيرة التي أقيمت يوم إعلان تأسيس الحزب.

تذكّرت غاوري حرّ ذلك اليوم اللاهب من شهر أيار، وكيف وقفا أمام المبنى مباشرة وشاهدا سانيال يطلّ من شرفة تلك المنصّة.

كانت تقف مع أوديان بين الآلاف في ذلك الميدان، استمعا لخطابه ثمّ هلّلا كالآخرين. تذكّرت بحر الناس المتلاطم والمبنى الرفيع الطويل كآلة فلوت ممشوقة، وشرفتيه العاليتين تناطحان السّحاب.. والمنصّة المزيّنة بصور هائلة الحجم لشخص ماو.

تذكّرت صوت سانيال الهادر عبر مكبّرات الصّوت.. كان شابًا يضع نظارات طبية عاديّ الهيئة لكنّه ذو شخصية جذّابة بشكل استثنائي.. ما تزال تسمع نداءه: *رفاقي وأصدقائي*.. ما تزال تسمع تحيّة الحشود له والشعور الجمعيّ العارم الذي شعرت بأنّها جزء منه.. تذكر الحماس والفرح اللذين غلباها أثناء خطبته.

كانت انطباعاتها عن ذلك اليوم نابضة بالحياة رغم مضيّ عمر على انقضائه.. كما كانت الأحداث نابضة بالحياة تمامًا بالنسبة إلى ديبانكر.. إنّه يحتفظ بكلّ الأسماء والأحداث والمناسبات والحوادث في متناول يده.. بإمكانه اقتباس عبارات ماجومدار بلا مشقّة، كما أنّه يعرف كلّ شيء عن موضوع الانشقاق من الألف إلى الياء، كلّ ما جرى بين سانيال وماجومدار وأدّى بهما إلى الانفصال بعد اعتراض سانيال على الأفكار التخريبية.

درس ديبانكر تكتيكات الحركة التي أدّت إلى انهيارها وافتقارها إلى التنظيم والتعاون وأفكارها اللاواقعية. إنّه يفهم ما جرى أكثر من غاوري دون أن يكون طرفًا مثلها في الأحداث.. يفهم سبب صعودها وإخفاقها.

ـ كان عمّي هناك عندما ألقي القبض على سانيال مجدّدًا، وبعد وقت قصير أُرسل إلى لندن للمحافظة على حياته.

تذكّرت غاوري تلك الأحداث وأعمال الشغب التي قام بها أتباعه بعد اعتقاله، بعد إعلان إقامة الحزب. لقد حدثت أسوأ أعمال العنف إثر اعتقاله.

- تزوجتُ في ذلك العام.
- وزوجك..هل تأثّر بتلك الأحداث؟
- كان يدرس في أمريكا. لم يكن له أيّ علاقة بالأمر.

قالت ذلك وشكرتْ الله على أنّ الحقيقة الثانية تخفي الأولى في طيّاتها.

- أنا أخطّط للقيام ببعض الأبحاث الميدانية في كالكوتا.. هل يمكن لأحد من معارفك إفادتي بالأمر؟
- أخشى أنّني لم أعد أعرف هناك من يمكن له مساعدتك الآن. آسفة».
- ساذهب إلى ناكسالباري إذا ما استطعت، أودّ رؤية القرية التي ولد فيها سانيال وعاش بعد إطلاق سراحه من السجن.
- نعم.
- الأمر يذهلني.. الانعطاف الكبير الذي حصل في حياته.
- ماذا تعني؟
- بقاؤه بطلًا جماهيريًا رغم الطريقة التي عوقب بها.. واستمراره في التنقّل ما بين القرى المحيطة على الدرّاجة الهوائية على مدى سنين طويلة لحشد الدعم.. ليتني تمكّنت من الحديث معه.
- لمَ لا تطلب مقابلته؟
- لقد مات.. ألم تسمعي بالأمر؟ مات منذ عام تقريبًا.. تدهورت صحّته وتوقّفت كليتاه عن العمل وتراجع أداء عينيه، كما كان

يعاني من الإحباط إلى أن باغتته نوبة قلبية عام 2008 فأصيب بالشلل ورفض تلقّي العلاج في مشفى حكومي.. رفض طلب معونة الحكومة لأنّه كان يحاربها.

ـ هل مات بسبب الفشل الكلوي؟

هزّ ديبانكر رأسه نافيًا.. ثمّ أضاف موضّحا: «لقد انتحر».

عادت إلى منزلها وجلست أمام حاسوبها وكتبت اسم سانيال في شريط البحث فظهرت النتائج واحدة تلو الأخرى في عدّة مواقع هندية لم تنقّب فيها من قبل. راحت تفتحها واحدًا تلو الآخر وتقرأ تفاصيل سيرة حياته.. كان واحدًا من مؤسّسي الحركة، رفيق ماجومدار، الحركة التي ما تزال تهدّد الجمهورية الهندية حتى الآن. ولدفي 1932 وبدأ حياته ككاتب في محكمة شيلينغاري. ثمّ عمل على تنظيم الحركة الشيوعية الهندية في دارجيلينج وانفصل عن الحزب بعد انتفاضة ناكسالباري، سافر إلى الصين للقاء ماو، قضى عقدًا من الزمن في السجن ونبذ العنف كطريقة للتعبير عن الثورة بعد إطلاق سراحه. ظلّ طوال حياته شيوعيًا وكرّس حياته لمساعدة عمّال مزارع الشاي وسائقي العربات والدّفاع عن قضاياهم، لم يتزوّج قط، واستنتج بأنّ الهند ليست أمّة، كما أنّه دعّم حركة استقلال كشمير وناجالاند.

امتلك عبر حياته بضع كتب وبعض الملابس وقليلًا من قدور الطّهي، بالإضافة إلى لوحات لماركس ولينين، ومات في حالة من الفقر المدقع. قال في إحدى المقابلات التي أجريت معه قبل وفاته بوقت قصير: «*كنت رمزًا شعبيًا في ما مضى، لكنّني فقدت شعبيتي. وأنا معتلّ الصحة الآن*».

مجّدت العديد من المقالات سيرة حياته والتزامه بهموم فقراء الهند وموته المأسوي ووصفوه بالبطل والأسطورة. أمّا منتقدوه فقد أدانوه وعبّروا عن ارتياحهم لموت إرهابي مثله.

فتحت غاوري كلّ المصادر والمواقع، فتكرّرت المعلومات مرّة تلو الأخرى لكنّها لم تتمكّن من التوقّف.

أدرج أحد المواقع تسجيل فيديو تلفزيوني يعود للثالث والعشرين من آذار عام 2010، حيث سمعت غاوري صوت مذيعة تلخّص التفاصيل وشاهدت بعض الصور القديمة باللونين الأبيض والأسود لشوارع كالكوتا في أواخر الستينيات الحافلة باللافتات والكتابات والرسوم الجدارية ولحظات من تسجيل حيّ لمسيرة احتجاجات وقعت في آذار أيضًا.

ثمّ انتقلت الصورة لمزارعين باكين يحيطون وجوههم بأياديهم، وناس كثر متجمّعين أمام بوّابة منزل طيني.. إنّه منزل سانيال ومكتب إدارة حزبه. أجريت مقابلة مع المرأة التي كانت تطهو له طعامه، لكنّها كانت عصبيّة ومتوجّسة من الكاميرا، بالإضافة إلى حديثها بلكنة ريفية خاصة. قالت إنّها حضرت إلى المنزل للاطمئنان عليه بعد الغداء ونظرت من خلال النافذة لكنّها لم تشاهده. لم يكن الباب موصدًا فنظرت مجددًا إلى الداخل فوجدته في مكان آخر من الغرفة.

شاهدته غاوري أيضًا.. من خلال شاشة حاسوبها، من أمام طاولة مكتبها، في غرفتها المعتمة في كاليفورنيا.. شاهدت ما شاهدته الطاهية.

رأت رجلًا عجوزًا في الثامنة والسبعين من العمر يرتدي قميصًا داخليًا وسروال بيجاما من القطن متدلّيًا من حبل نايلون معلّق في

السقف، وأمامه يقبع الكرسي الذي استعمله لربط الحبل.. لم يقع أرضًا، وخلا وجهه من آثار تشنّجات الموت.. كان وجهه هادئًا خاليًا من التعابير. أمّا رأسه فقد كان مائلًا إلى الجهة اليمنى ورقبته مكشوفة من خلال ياقة القميص الواسعة. لامست أطرافُ أصابع قدميه الأرض وكأنّه ما يزال خاضعًا لجاذبية الأرض، وكأنّ كلّ ما يحتاجه للمغادرة هو شدّ كتفيه للخلف والمضي بعيدًا عن المكان.

فشلت في انتزاع الصورة من مخيّلتها لعدّة أيّام وفي صرف تفكيرها عن الصورة المنكسرة الأخيرة للرجل الذي ظلّ رافضا طوال حياته، وحتى آخر لحظة منها أن ينحني.

لم تنجح في تخليص نفسها من المشاعر المضطربة داخلها، لقد أحسّت بثقل كبير يجثم على صدرها ممزوجًا بشعور بالخواء.

وفي الأسبوع التالي، وبينما كانت تهبط سلّمًا، لم تنتبه لموطئ قدمها فتعثّرت وسقطت أرضًا. مدّت يدها نحو مصدر الألم فوجدت جرحًا بليغًا ودماء تسيل على يدها. هرع إليها شخص وسألها إن كانت بخير لكنّها لم تتمكّن من النهوض والمشي رغم أنّ الألم الأشدّ كان في معصمها. شعرت بالدّوار واهتزاز شديد في جزء من جسدها.

حملتها سيّارة إسعاف الجامعة إلى المشفى على إثر التواء معصمها الحادّ ثمّ اضطرّوا إلى إجراء المزيد من الصور الشعاعية والفحوصات لأنّ الألم في رأسها لم يتوقّف وانتشر إلى الجانب الآخر أيضًا.

أعطوها استمارات لتملأها ببياناتها الشخصية وطلبوا منها تسمية شخص قريب منها لإعلامه بحالتها، ولأنّها اعتادت على وضع اسم ساباش على كلّ الأوراق المشابهة لهذه، قامت بكتابة اسمه الآن أيضًا،

لكنّها لم تتعرّض من قبل لحادثة كهذه ولم تكن في موضع يضطرّها لاستدعائه أو مكالمته.

كتبت اسمه بيدها اليسرى ودونت عنوانه في رودآيلند ورقم هاتفه القديم الذي مازالت تذكره. كانت تتّصل به أحيانًا، عندما تفكّر في ابنتها وتشعر بفداحة فعلتها ويقتلها النّدم.

لم تدخل المشفى في حياتها إلاّ مرّة وحيدة: حين ولادة بيلا.. ومازالت ذكريات ذلك اليوم طازجة كأنّها حدثت البارحة.. كانت ليلة صيفية ماطرة، وكانت هي في الرابعة والعشرين من العمر، تضع سوارًا مطاطيًا على معصمها يحمل اسمها ورقم غرفتها، وعندما انتهت الولادة، هنّأ الجميع ساباش وأرسلت إليهم الجامعة باقات من الورود تعبيرًا عن غبطتهم بالمولودة الجديدة.

منحوها اليوم أيضًا سوارًا مطاطيًا وأدرجوا اسمها في قاعدة بيانات المشفى، وبلّغتهم بكلّ المعلومات الخاصة بماضيها الطبّي ورقم تأمينها الصحيّ، لكنّها كانت وحيدة، لم يرافقها من يساعدها فاعتمدت على الممرضات والأطباء كلّما مرّوا بغرفتها.

التقطوا لها بضع صور شعاعية وصورة بالرّنين المغناطيسي ثمّ لفّوا يدها اليمنى برباط خاصّ ووضعوها في حزام معلّق برقبتها كما فعل أوديان بعد حادثة يده، ثم أخبروها بأنّ نتائج الفحوصات تشير إلى إصابتها بالجفاف ممّا اضطرهم إلى وصف سوائل تدخل جسمها عبر الوريد.

بقيت في المستشفى حتى المساء، ثمّ سمحوا لها بالمغادرة بعد اطمئنانهم لعدم وجود نزيف داخليّ ووصفوا لها مسكّنات للألم

بالإضافة إلى توجيهها لعيادة معالجة فيزيائية بعد مدّة. اضطرت للاتصال بزميل لها لإيصالها إلى المنزل لأنّها لن تتمكّن من القيادة لعدّة أسابيع، ولن تتمكّن من التجوّل في البلدة الصغيرة التي عاشت فيها طوال حياتها.

اصطحبها زميلها إدوِن إلى الصيدلية لإحضار الدواء ودعاها للبقاء في منزله لعدّة أيّام ريثما تتحسّن حالتها وعرض عليها البقاء في غرفة نوم الضيوف مؤكّدًا أنّه وزوجته لن يشعرا بأيّ حرج. لكنّ غاوري رفضت بلباقة وعادت معه إلى بيتها وجلست أمام مكتبها ثمّ سحبت مقصًّا من الدّرج وقطعت السوار المطاطي الذي بقي على معصمها.

أشعلت سخان الماء لتحضير الشاي وجاهدت لإخراج كيس الشاي من حافظته ولرفع الإبريق فوق الكوب.. فعلت كلّ شيء ببطء وشعرت بأنّها عاجزة تماما عن استعمال يدها اليسرى التي لم تعتد على استعمالها مطلقًا.

تذكّرت فجأة أنّها كانت تنوي الذهاب إلى المتجر للتبضّع لأنّها وجدت الثلاجة خاوية والحليب على وشك النّفاد. كانت تنوي الذهاب عندما سقطت، عليها الاتصال بإدوِن فيما بعد لتطلب منه اقتناء بعض اللّوازم لها.

الساعة الآن الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة.. لم تكن مرتبطة بمواعيد في الجامعة ولا خطط لديها لقضاء الأمسية. سكبت لنفسها كأس ماء وأوقعت بعضًا منه على الطاولة، تمكّنت من فتح علبة الدواء بعد معاناة ورفعت الغطاء وتركته مفتوحًا حتى لا تضطرّ لفتحه مرّة أخرى.

لم ترغب في إزعاج أحد لكنّها لم تتمكّن من قضاء حاجاتها بنفسها، فسافرت في عطلة نهاية الأسبوع وحزمت بعض الثياب في حقيبة صغيرة وتركت حاسوبها النقّال في البيت واتّصلت بسيارة أجرة ونزلت في فندق أشاد به بعض زملائها في بلدة صحراوية، حيث يمكنها المشي عبر الدروب الوعرة وإمتاع نفسها بنسائم الربيع، سافرت إلى حيث لا تضطرّ للطهو لعدّة أيّام.

لاحظت وجود زوجين هنديين على سطح الفندق حيث توجد بركة السباحة مع طفل صغير يدلّلانه ويلاعبانه، كانا يحاولان كسر حاجز الخوف من الماء ويعرضان له الأجسام البلاستيكية الطافية على السطح، سبح الجدّ أمامه قليلًا ليريه أنّ الأمر ممتع وسهل، ثمّ تناوشا قليلًا باللغة الهندية حول كمّية المرهم الواقي من الشمس الذي يجب وضعه على جسد الصبيّ وما إذا كان يتوجّب عليهما وضع قبّعة على رأسه أم لا.

كان الزّوج أصلع تقريبًا لكنّه ما يزال في عنفوانه، وأحاط ما بقي له من شعر برقبته من الخلف كتاج خجول، أمّا الزوجة فبدت أكثر شبابًا منه بشعرها الداكن وأظافرها المطلية والصندل الجميل الذي ترتديه. راقبتهما بعد ذلك وهما يطعمان الصبيّ وجبة إفطار تتألّف من اللّبن والحبوب. ثمّ التفتا إلى غاوري وسألاها بالأنكليزية عن جنسيّتها وأخبراها بأنّهما يأتيان إلى أمريكا كلّ صيف لزيارة ولديهما المقيمين هنا وأنّهما يحبّان هذا البلد كثيرًا، وأنّ أحد ولديهما يعيش في ساكرامنتو والآخر في أتلانتا.

و كانا في كلّ إجازة لا يصطحبان إلاّ حفيدا واحدا ليتعرّفا عليه عن كثب وليمنحا لولديهما وزوجاتهما بعض الوقت معًا.

«في مثل سنّنا... ما الذي نعيش لأجله غير أحفادنا؟» هكذا قال الرجل لغاوري وهو يحمل الطفل بين ذراعيه، ثمّ أخبرها بأنّهما يفضّلان الهند رغم ذلك ولا يريدان التقاعد هنا.

ـ هل تذهبين إلى الهند كثيرًا؟

ـ لم أذهب منذ فترة طويلة.

ـ هل أنتِ جدّة؟

هزت غاوري رأسها وانتظرت لحظة لتستأذن منهما ثم قالت: «ما زلت في انتظار حدوث ذلك».

ـ كم طفلًا لديك؟

ـ واحدة.. ابنة واحدة.

اعتادت غاوري على إنكار وجود أبناء لها كلّما سألها الناس، فكانوا يغيّرون الموضوع بلباقة، لكنّها اعترفت بالحقيقة الآن. لم تتمكّن من إنكار وجود بيلا، ضحكت المرأة وأومأت برأسها وقالت بأنّ للأولاد في هذا الزمن عقلية خاصّة غير مفهومة.

تحسّن وضع كتفها مع الوقت، بعد أن لفّوه بالشمع الحارّ في جلسات العلاج الفيزيائي فتمكّنت بعد مدّة من الإمساك بالفرشاة وتنظيف أسنانها، ومن توقيع شيك أو فتح باب، ثمّ عادت للقيادة من جديد، وتمكّنت من تعديل ناقل السرعة والانعطاف السريع، ومن تدقيق النصوص وتصحيح أوراق الطّلبة بيدها اليمنى.

انقضى الفصل الدراسي وشارف على الانتهاء وقدّمت غاوري حصصها الأخيرة ومنحت الطلاّب درجاتهم الأخيرة وكانت قاب قوسين أو أدنى من التقاعد في الخريف المقبل.

في أحد الأيام، بعد انتهائها من يوم عمل طويل، وصلت إلى بيتها وركنت السيارة وفتحت صندوق البريد واستخرجت بريدها. دخلت الشقّة ثمّ فتحت باب الشرفة الجرّار المؤدّي إلى الفناء ثمّ وضعت البريد على الطاولة وجلست لفتحه.

وجدت بين الفواتير والكتيّبات رسالة بخطّ يد ساباش وعنوان بيت رودآيلند القريب من الشاطئ، خطّ يده ولعابه الجاف نفسه على قفا طابع البريد. لقد أرسلها إلى الجامعة فأعادت السكرتارية توجيه الرسالة إلى عنوان بيتها.

وجدت في داخل المغلّف رسالة قصيرة باللغة البنغالية على وجهي ورقة صغيرة.. لم تقرأ شيئًا بالبنغالية منذ سنين عديدة وكانت كلّ مراسلاتها الالكترونية مع ماناش بالانكليزية.

غاوري

عرفت من الأنترنت عنوان جامعتك هذه.. أرجو منك تأكيد وصول استلامك للرسالة.

كما ترين، أنا في نفس المكان، وما زلت أتمتّع بصحّة جيّدة أيضًا لكنّي سأبلغ السبعين عمّا قريب وأقترب من عمر تصبح فيه كلّ الاحتمالات واردة بلا ريب. مهما كان ما يحمله لنا القدر من مفاجآت، أريد أن أبدأ المرحلة المقبلة من حياتي بتبسيط الأمور، وباعتبار أنّنا ما زلنا مرتبطين قانونيًا أودّ إخبارك بأني سأبيع منزل تولّيه غانج إذا لم يكن لديك مانع، وأنت تعرفين بلا شكّ بأنك تملكين حصّة فيه، كما أنّي أظنّ بأنّ الوقت قد حان لإزالة اسمكِ من ملكية بيت رودآيلند أيضًا لأنّي سأتركه لبيلا بالطبع.

توقّفت عن القراءة.. وضعت يدها على الطاولة لتدفئها قبل المتابعة، فقد ضعفت يدها بعد الحادثة وبات البرد يؤثر فيها للغاية.

أخبرها بأنّه لا يودّ جلبها إلى رودآيلند في حال حدوث حالة طارئة ولا يودّ أيضًا تكبيدها عناء الحضور في حال موته قبلها.

لا أريد استعجالكِ..لكنّي أريد حلّ الأمور العالقة بيننا قبل نهاية العام ولا أعرف إذا ما كان هناك ما يمكن لأحدنا أن يقوله للآخر.. معي أنّي لن أغفر لك ما اقترفته في حقّ بيلا رغم أنّي كنت الرابح الأكبر من أخطائك، وما زلت. مهما كانت أفعالك شنيعة تبقى بيلا جزءًا لا يتجزّأ من حياتي لكنّي أعرف أنّها ليست جزءًا من حياتكِ أنتِ. لو كانت الأمور أخفّ وطأة لكنت اقترحت لقاء شخصيًا للانتهاء من كلّ الأمور العالقة وجهًا لوجه.. مع أنّي لا أُكِنُّ لكِ أيّ ضغينة. الأمر لا يتعدّى بضع تواقيع وينتهي.. لكن البريد كفيل بإنهاء الأمر بلا شكّ.

اضطرّت غاوري لقراءة الرسالة مرّة أخرى لتفهم المغزى منها.. إنّه يطلب الطّلاق بعد مضيّ كلّ ذلك الوقت.

2

تزوّجا سرًّا دون إخبار أحد من عائلتيهما، ولا حتى ماناش. حدث ذلك في كانون الثاني عام 1970، حضر كاتب من المحكمة إلى بيت أحد أصدقاء أوديان في شيتلا، كان بروفيسورًا في الأدب وعضوًا حزبيًا، رجلًا مهذّبًا رفيع الخلق وشاعرًا، وكانوا يسمّونه تارون دا.

حضر المراسم بعض الزملاء أيضًا. كانوا قد طرحوا عليها بعض الأسئلة وأشاروا عليها بكيفية التصرّف مع الآخرين من الآن فصاعدًا. وضع أوديان يده على نسخة من الكتاب الأحمر قبل توقيع الأوراق.. كُمّا قميصه مرفوعان كما كانا على الدوام وساعداه مكشوفان، ووجهه مزدان بشارب ولحية قصيرة أرسلها في تلك الفترة. عندما انتهوا من إتمام الإجراءات وجلسا على الأريكة للتأكّد من صحّة كلّ المعلومات الواردة فيها التفت إليها وابتسم ليعبّر لها وحدها عن السعادة الغامرة التي تكتنفه.

لم تكترث لرأي أخواتها وعمّاتها وأعمامها.. سيساعدها زواجها بهذه الطريقة على التخلّص منهم إلى الأبد، ولم تكترث لفرد من عائلتها سوى لماناش.

أحضر الزملاء بعض السمك المقليّ والأضلاع المشوية للاحتفال وبعض علب الحلويات لا غير. وأمضيا أسبوعهما الأوّل كزوجين في

بيت شيتلا، في غرفة إضافية تابعة لبيت البروفيسور.

هناك وفي تلك الليلة، بعد كلّ الحوارات والنقاشات التي خاضاها في ما مضى، انتقلا للتّواصل بطريقة مختلفة.. شعرت هناك بيده لأوّل مرّة على جسدها.. هناك حيث ناما متجاورين لأوّل مرّة، شعرت بالكتفين الباردين بين ذراعيها، وبدفء ركبتيه خلف ساقيها.

كان باب المنزل جانبيًا في نهاية ممرّ طويلٍ بعيدٍ عن الشارع، وكان لسلّمه انعطاف حادّ يليه انعطاف حادّ آخر غريب الشكل، يؤدّي إلى غرف متجاورة مبنية حول شرفة، والأرض الخشبية متهتّكة متكسّرة ذات لون خشبي مائل للحمرة.

امتلأت الغرف بكتب تارون دا المكدّسة في أكوام طويلة جدًا بطول أطفاله، على الرّفوف وفي الخزائن. وكان لغرفة المعيشة الواقعة في مقدّمة المنزل شرفة ضيّقة تطلّ على الشارع حيث طلب منهما صاحب المنزل عدم الخروج إلى هناك كي لا يلفتا الأنظار.

كتبت لماناش بعد عدّة أيام لتخبره بأنّها لم ترافق صديقاتها في الرحلة المزعومة وأنّها تزوّجت أوديان ولن تعود إلى المنزل مطلقًا.

ثمّ عاد أوديان إلى تولّيه غانج لإخبار والديه بما قام به وأنّهما جاهزان للبحث عن مكان آخر يعيشان فيه في حال رفضا إقامة العروسين معهما، فذهلا. لكنّ أخاه كان في أمريكا وأوديان ابنهما الوحيد الموجود ممّا اضطرّهما لاستبقائه في البيت. تمنّت غاوري سرًّا بألاّ يقبل والده بهما.. لقد شعرت في هذا البيت المترع بالكراكيب والمثير للبهجة في شيتلا بالأمان والتقدير مع أوديان رغم اختبائهما عن عيون الناس.. شعرت بالحرّية.

اقترح أوديان عليها الحياة وحدهما في المستقبل ولم يكن يؤمن بالبيت العائلي ومع ذلك، اصطحبها إلى تولّيه غانج لأنّهما لا يستطيعان البقاء في بيت البروفيسور أكثر من هذا، ولأنّ البيت كان ملاذًا للكثيرين، ولأنّ الغرفة التي احتلاّها مطلوبة لاستقبال آخرين، ولأنّ أوديان أخيرا لم يوفّر مالًا كافيًا لاستئجار شقّة في أيّ مكان آخر.

لم يبعد بيت والده عن المكان سوى بضعة أميال لكنّ غاوري شعرت بفرق كبير في الطبيعة بعد عبور شارع هازرا. خلّفت مناطق المدينة المألوفة وراءها. صدمتها الأنوار القويّة وبدت لها الأشجار أكثر غزارة، والظّلال أعمق لونًا.

وقف الوالدان في الفناء لاستقبالها، وكان البيت واسعًا، لكنّه يفتقد الكثير من المعدّات والأدوات المنزلية. وفهمت بلمحة واحدة ظروف نشأة أوديان وأسباب رفضه لكلّ التنازلات.

تدلّى طرف الساري من رأسها وغطّى وجهها تقريبًا في علامة تدلّ على امتثالها للتقاليد كما كان ساري والدة أوديان بالضبط.. إنّها حماتها الآن، ترتدي ساريا كريمي اللون من قطن معقوص رقيق موشّى بخيطان ذهبية. أمّا حموها فكان طويل القامة هزيل البنيان مثل أوديان، له شارب وتعابير هادئة وشعر رماديّ مرسل إلى الخلف.

سألته أمّه عن رأيه في إقامة بعض الطقوس التقليدية، فرفض. لكنّها تجاهلته ونفخت في بوق مصنوع من قوقعة بحرية خاصة، ثمّ وضعت في عنقيهما إكليلين من ورد المسك ومرّرت صينية مترعة بالهدايا فوق رأس غاوري وصدرها وبطنها.

قدّمت لها علبة، فتحتها فوجدت فيها قلادةً ثمينةً، وعلى الصينية

أيضًا كانت علبة مسحوق أحمر اللون، طلبت منه والدته مسح منتصف شعرها به ثمّ حملت يد غاوري اليسرى وضغطت على أصابعها ثمّ أدخلت في يدها سوارًا حديديًا حتى معصمها.

تجمّع غرباء أمام البوّابة لمشاهدة ما يجري. إنّهم جيرانها الجدد، نظروا من خلال ثقوب جدار الحديقة، ثم قال حمواها: «أنت ابنتنا الآن». قبلا بوجودها رغم أنّهما لم يقبلا بها، وباركاها بحركة معتادة من يديهما على رأسها، وقالا: «كلّ ما لنا هو لكِ أيضًا»، فانحنت غاوري لمسح قدميهما.

زُيّنت الحديقة والفناء على شرفها وطُليت بألوان زاهية للاحتفال بقدومها. وعلى الموقد الحجريّ، غلى قدر حليب على مهل بانتظار وصولها. شاهدت شجرتي موز في الفناء موزّعتين على طرفي البوابة. وفي الداخل، كان هناك قدر آخر من الحليب ملوّن بالأحمر، طلب منها غمس قدمها في السائل الأحمر ثمّ صعود السلّم الذي ما يزال في طور البناء ولم يكن درابزينه قد بُني بعد.

غُطيت الدرجات بسارٍ أبيض كسجّادة رقيقة لحماية قدميها من الأكواب الفخارية الموضوعة على الدرج. كسرتها غاوري بقدميها وهي تصعد السلّم ببطء ضاغطة بكلّ ثقلها. كان هذا أوّل طلب يطلب منها بعد زواجها.. أن تحفر علامتها الخاصة في بيت أوديان.

لم تسمع غاوري في ذلك البيت صوت سيارات أو عربات لأنّ الزقاق ضيّق للغاية، وقد أخبرها أوديان بأنّه من الأيسر العودة إلى المنزل عبر النّزول من العربة أمام المسجد الواقع على الزاوية ثمّ دخول الزقاق وإكمال الطريق مشيًا. ومع أنّ معظم البيوت كانت محاطة بأسوار، إلاّ

أنّها كانت تسمع أصوات الحياة فيها، أصوات إعداد الطعام وغسل الأطباق، وأصوات التزوّد بالماء للاستحمام وأصوات الأطفال الباكين والآخرين الذين يراجعون دروسهم، وأصوات الغربان وهي تخدش السقوف بمخالبها وترفرف بأجنحتها وتتناحر لجمع القاذورات.

كانت تستيقظ في الخامسة فجرَ كلّ يوم وتصعد السلالم إلى الطابق الأعلى وتشرب الشاي من يد حماتها وتأكل بسكويتة من الوعاء الزجاجي المغطّى. لم يكن الغاز قد وصل المنزل بعد، ولهذا فقد كان النهار يبدأ بمحاولات متعدّدة لإيقاد الفرن الطيني بالفحم والكيروسين وأعواد الثقاب.

غشّى الدّخان الأسود عينيها وحجب الرؤية، فطلبت منها حماتها وضع الكتاب الذي أحضرته معها من الأسفل جانبًا والتركيز على العمل الذي تحاول إنجازه.

وصل العمّال بعد فترة وجيزة، حفاة شبه عراة واستأنفوا الحفر والدقّ طوال النهار فاستحالت الدراسة، وغطّى الغبار كلّ شيء، وحملت عربة خاصة الطوب والرمل والحصى إلى البيت، أضيفت غرف جديدة وانتهى العمل منها بعد فترة وجيزة. واحدة تلو الأخرى.

كان من نصيبها تنظيف السمك وتمليحه وتقطيعه إلى شرائح كلّما أحضره حموها من السوق، فكانت تملّحه وترّشه بالزعفران وتقليه بالزيت، وتقوم بكلّ هذا جالسة أمام موقد أرضيّ. كانت تطهو الصلصة الخاصة للعشاء وتعدّها حسب تعليمات حماتها، وتساعدها في تقطيع الملفوف واستخراج حبوب البازلاء من قشورها، وتنظيف السبانخ الحمراء من الطين.

وعندما تتأخّر الخادمة أو تغيب، كانت غاوري تطحن الزعفران والفلفل الحارّ بنفسها، وتهرس حبوب الخردل أو بذور الخشخاش إذا احتاجتها حماتها للطهي. كانت يداها تحترقان كلّما قطّعت الفلفل الحارّ، وعندما كانت تقلب الأرز على طبق التقديم، كانت تصفّيه من الماء أوّلًا وتتأكّد من عدم سقوط حبات الأرز خارج القدر، ثمّ تقلب المحتويات على طبق فيؤلمها معصماها لثقل وزن الطبق مع محتوياته ويلسع البخار وجهها إذا نسيت إبعاده عنها.

كانت تقوم بهذه الأعمال مرّتين في الأسبوع قبل حزم كتبها والذهاب إلى شمال كالكوتا بواسطة عربة الترام لزيارة المكتبة وحضور المحاضرات. لم تتذمّر ولم تشتك لأوديان لكنّه عرف بمعاناتها وطلب منها الصبر.

قال إنّ العائلة ستحظى بكنّة أخرى تعينها وتساعدها حين يعود أخوه ساباش من دراسته في أمريكا ويتزوّج، فكانت غاوري تتساءل على الدوام عن ماهية المرأة التي ستصبح سِلفتها.

كانت تنتظر عودة زوجها مساء من تدريس الأطفال جالسة على شرفة حمويها، وقد اعتاد النظر إلى الأعلى حال دخوله من بوابة المنزل الخارجية المتحرّكة كما اعتاد النظر من الشارع نحو شرفة جدّيها في الماضي.. عندما كانت تحلم بأن ينظر إليها، وعندما كان يحلم بأن يجدها هناك. لكنّ الوضع مختلف الآن، كانت عودته متوقّعة ووجودها في انتظاره أمرا عاديًا لأنّهما متزوّجان ويعيشان معًا في هذا البيت.

كان يستحمّ ويأكل، ثمّ تغيّر ملابسها ويخرجان للتنزّه ويتصرّفان كأيّ زوجين حديثين. وقد كانت تستمتع حقًا بالوقت الذي كانا

يقضيانه في الخارج لكنّها لم تشعر بالراحة في تولّيه غانج ولم تقبل البساطة الفجّة التي كانت سائدة هناك.

لقد كانت المنطقة غريبة عنها، ذات خصوصية مختلفة وغالبية بنغالية على عكس الحال في شمال كالكوتا، حيث يقطن البنجابيون والمرواري في العديد من الشقق الموجودة في مبنى بيت جدّيها، وحيث لا يتوقّف متجر الأغاني المقابل للمبنى عن إذاعة أغاني الأفلام الهندية، التي تختلط مع أصوات حركة السير وتعلوها. لم يكن سيل الطلاب والأساتذة الذي كان يغزو الشّارع يتوقّف أبدا.

لم يلفت نظرها شيء هنا على عكس المشهد الذي كانت تطلّ عليه من الشرفة. كان يمكن لها أن تقف طوال النهار هناك دون أن تملّ الوقوف.. لم يكن هناك ما تشاهده من هذه الشرفة سوى بعض البيوت الأخرى والغسيل المنشور على السطوح وأشجار النخيل وجوز الهند والأزقّة، والزّنابق المزدهرة ما بين طحالب الماء والأعشاب المختلفة التي غزت الأرض المنخفضة والبركتين المحاذيتين لها.

طلب منها فعل أشياء محدّدة. وحتّى تساعده وتشعر بأنّها تنتمي إلى الحركة، وافقت. كانت المهمّات بسيطة في البداية، رسم لها خرائط بسيطة وطلب منها الذهاب إلى أماكن لا تعرفها لتخبره عن وسيلة النقل المتوقّفة أمام عنوان معيّن.. هل هي درّاجة نارية أم دراجة هوائية مثلًا.

سلّمها ملاحظات مكتوبة على أوراق صغيرة لترسلها إلى صناديق بريد ما في تولّيه غانج بداية، ثمّ لإيصالها يدا بيد إلى أشخاص معيّنين. طلب منها دسّ الرسائل تحت الفواتير التي تدفعها عادة للجابي في المحطّة كما لو أنّها ستشتري بعض الحبر. وكانت الرسائل تحتوي عادة

على معلومات كعناوين أو أوقات معيّنة للقاء. حملت في بعض الأحيان معلومات غير مفهومة على الإطلاق إلاّ أنّها كانت مهمّة للشخص الذي ستسلّمه إيّاها.

حملت غاوري مجموعة من الرسائل لامرأة تعمل في دكّان حياكة، وكانت تضطرّ إلى السؤال عن المرأة (شاندرا) في كلّ مرّة لتطلب منها تفصيل بلوزة أو شيء آخر. حيّتها شاندرا أوّل مرّة وكأنّهما صديقتان قديمتان وسألتها عن أحوالها، وكانت شاندرا قصيرة بدينة ذات شعر معقوص بشكل غريب على الدوام.

ثمّ كانت تأخذ غاوري خلف ستارة مخصصة للزبائن وتتلفّظ بقياسات بصوت مرتفع دون أخذ قياسات غاوري ثمّ تكتبها في دفترها الصغير. كانت شاندرا تستر نفسها خلف الستار لا غاوري، وتستغل الحاجز القائم بينهما وبين الناس الآخرين لتفتح الرسالة وتقرأها ثمّ تطويها من جديد وتخفيها بين طيات ملابسها تحت صدارتها قبل فتح الستارة من جديد.

كانت تلك المهمّات السريّة حلقات وصل كبيرة وعميقة. باتت غاوري جزءًا من سلسلة سرّية لا تُرى بالعين كمن يمثّل مسرحية قصيرة مع ممثّلين لا يفصحون مطلقًا عن هويّاتهم، يمثلون في كلّ مرّة بعض المقاطع أو المشاهد القصيرة. ولطالما تساءلت عن مدى أهميّة مشاركتها ومن يمكن أن يكون في موضع جمهورها. طرحت أسئلتها على أوديان لكنّه لم يجبها وطمأنها بأنّ مشاركتها هذه هي أعظم دور يمكن لها القيام به ومن الأفضل لها ألاّ تعرف أكثر ممّا تعرفه الآن.

في شهر شباط تدبّر لها عملًا في التدريس. فكانت تخرج لتلتقي

الجوعى على نواصي الشوارع، والطلاب الذين يلقون بالكتيّبات أمام قدميها لتشتريها منهم، وتسمع تغريد طيور الجنّة الهندية الحزين المفعم بالأشواق للأحبّة، ولتلتقي صبيّا وأخته في جافادور بحاجة إلى المساعدة لاجتياز امتحان اللغة السنسكريتية.

كانت تذهب كلّ يوم إلى منزلهم بالعربة، وقد قدّمت نفسها لهم في اليوم الأوّل باسم مستعار. وصف أوديان العنوان لها وكأنّه ذهب إلى هناك من قبل مرّات عديدة، وأخبرها عن الغرفة التي سيستقبلونها فيها وترتيب الأثاث في المكان ولون الجدران وطاولة الدراسة الموجودة أمام النافذة. ثمّ طلب منها الجلوس على كرسيّ معيّن وفتح الستارة قليلًا وتبرير ذلك بحاجتها إلى المزيد من الضوء إذا سألها أحد عن سبب ذلك.

أخبرها أنّ شرطيًا سيمرّ أمام المنزل في ساعة محدّدة وأنّها ستراه من خلال النافذة من اليسار إلى اليمين، وعليها أن تدوّن وقت مروره بالثانية والتأكّد من ارتدائه لملابسه الرسمية أو غيرها من الملابس.

ـ لماذا؟

أفصح لها هذه المرّة بأنّ هذا الشرطي يمرّ من أمام أحد البيوت الآمنة، وعليهم معرفة توقيت مروره بالثانية، وأيّام إجازاته، لأنّ زملاءه الذين يحتاجون إلى ملجأ اضطراري بحاجة إلى المرور دون أن يلاحظهم.

جلست غاوري لمساعدة طلاّبها في حلّ تمارينهم ووضعت ساعة يدها أمامها على المنضدة ومفكّرتها مفتوحة ثمّ شاهدته فإذا هو شرطيّ في الثلاثينيات من العمر، حليق الذقن متأنّق في بزّته الكاكي متوجّه إلى عمله. لاحظت غاوري شاربه الداكن من نافذة الطابق العلوي وقمّة رأسه، فوصفته لأوديان بتفصيل شديد.

قرأت نصوص الأوبانيشاد مع تلميذيها والريغ فيدا والتعاليم القديمة والنصوص المقدّسة التي تعرّفت عليها لأوّل مرّة بمساعدة جدّها. *روح الآلهة.. بذرة كلّ العوالم، عنكبوت تفوز بحرية الفضاء بواسطة الخيط الذي حاكته بنفسها.*

وفي يوم خميس، مرّ الشرطي نفسه بلا زيّ رسمي، وبدلًا من المرور من اليسار إلى اليمين، مرّ بالاتجاه المعاكس بملابس مدنية برفقة طفل صغير في طريق عودتهما من المدرسة بعد عشرين دقيقة من موعده المعتاد، وكان يمشي براحة تختلف عن مشيته الرسمية.

وعندما أخبرت أوديان بهذا طلب منها متابعة مراقبته وتسجيل وقت مروره مع الصبيّ في الخميس القادم بدقة شديدة. وفي الخميس التالي مرّ بعد عشرين دقيقة من موعده المعتاد كما فعل في الأسبوع السابق، بملابس مدنية برفقة الصبيّ من الاتجاه المعاكس، وكان الطفل يرتدي ملابس رسمية مدرسية، بنطالًا قصيرًا وقميصًا أبيضْ اللون ويحمل زجاجة ماء معلّقة على كتفه وحقيبة مدرسية في يده وشعره مصفّف بعناية. لاحظت غاوري تجاوز الصبي لوالده المتلكّئ في مشيته بخطوتين أو ثلاثة.

سمعت الصبيّ يخبر والده بما تعلّمه اليوم في المدرسة وسمعت ضحكة الأب على كلمات ولده، لاحظت يديهما المتشابكتين وذراعيهما تتأرجحان بحبّ.

مرّت أربعة أسابيع على تلك الحال، وأكّدت غاوري لأويدان بأنّ الشرطي يكون في إجازة يوم الخميس ويمرّ بتوقيت مختلف مع ابنه ليعود به من المدرسة.

ـ هل أنتِ واثقة من أنّه يوم الخميس؟ ألم يفعل ذلك في أيّ يوم آخر؟

ـ نعم أنا واثقة.

بدا مرتاحًا لتأكيداتها، ثمّ سألها: «هل أنتِ واثقة من أنّه ابنه؟»

ـ نعم.

ـ كم عمر الصبيّ؟

ـ لا أعرف.. ستّة أو سبعة أعوام ربّما.

أشاح بوجهه بعيدًا ولم يسألها شيئًا آخر.

زارت جادافبور قبل سفرها إلى أمريكا بأسبوع واحد، وارتادت الحيّ الذي يقطنه تلميذاها السابقان، استقلّت عربة وارتدت ساريا ملوّنا باعتبار أنّها تزوّجت من جديد وبدت بنفس الهيئة التي كانت تبدو عليها عندما كانت زوجة أوديان.

كانت في الشهر الخامس من حملها، وفي أحشائها طفل قد لا يعرف أباه مطلقًا، وفي قدميها خفّ جلديّ والأساور تزيّن معصميها، وفي حضنها تستقرّ حقيبة يد مبهرجة الألوان. وضعت نظارة شمسية لأنّها لم ترغب في أن يتعرّف عليها أحد. سترتفع الحرارة بعد فترة قصيرة، لكنّها ستكون في مكان آخر بحلول الظهيرة.

طلبت من السائق التوقّف عندما اقتربت من بيت التلميذين وقرّرت إكمال الطريق مشيًا على الأقدام وتفحّصت صناديق البريد المثبتة بجانب باب كلّ بيت.

حمل البيت الأخير الاسم الذي كانت تبحث عنه، اسم الشخص الذي ذكره المحقّق حين استجوبها مع ساباش. كان بيتًا بسيطًا يتألّف

من طابق واحد مزيّن بشبكات خشبية أمامية مجاورة لشرفة بسيطة، وعلى صندوق بريده كُتِب اسم الرجل المتوفّى بخط أنيق أبيض اللون: نيرمال داي.. إنّه الشرطي الذي كانوا يرغبون في إبعاده عن الرّفاق.

تمكّنت غاوري من رؤية سكّان البيت الواقفين على الشّرفة مقابل الشارع. كانوا يحملقون في الشارع رغم أنّه لم يكن هناك أيّ شيء يلفت النظر، وكأنّهم كانوا بانتظارها.. شاهدت غاوري الفتى الصغير الذي كان يمسك بيد أبيه فيما مضى.. كانت تراه دائما من قفاه لأنّه كان يقطع الطريق باتّجاه معاكس لها، لكنّها عرفته من النظرة الأولى رغم أنّها لم تر وجهه أبدًا.

شاهدت وجهه، شاهدت أثر الفقدان الذي لن يمحى أبدًا، ولمحت الخسارة العظمى التي شعر بها الطفل الذي يتشكّل داخلها.

عاد الطفل من مدرسته وخلع ملابسه البيضاء الفاتحة وارتدى بنطالًا قصيرًا غامقا وقميصًا حائل اللون ووقف جامدًا كصنم، وأصابع يديه معلّقة بالشبّاك الخشبي، نظر إليها لوهلة ثمّ حوّل نظره إلى شيء آخر.

تخيّلت اليوم الذي انتظر فيه والده ليأتي لاصطحابه، وانتظر طويلا، إلى أن أخبره أحدهم بأنّ والده لن يأتي أبدا.

وبجانبه كانت امرأة، أمّ الصبيّ، امرأة لا تكبر غاوري سوى ببضعة سنوات على الأغلب. إنّها المرأة التي ترتدي الساري الأبيض الآن، نفس الساري التي كانت ترتديه منذ بضع أسابيع خلت، وكان القماش مشدودًا حول وسطها ومتدلّيًا عن كتفها وطرف رأسها بعد انقلاب حياتها رأسًا على عقب، وبدت بشرتها وكأنّها قشّرت لتعرض للعالم جلدًا جديدًا لا تعرفه.

لم تبعد المرأة نظرها عندما شاهدت غاوري، بل سألتها: «عمّن تبحثين؟»، فأجابتها غاوري بالكلمات الوحيدة التي خطرت على بالها، قالت لها إنّها تبحث عن عائلة التلميذين السابقين.

- إنّهما يعيشان في الاتجاه المعاكس.

وأشارت إلى الاتجاه الآخر ثم أردفت: «لقد ابتعدتِ كثيرًا».

ابتعدت غاوري عنهما وهي تدرك بأنّ الأمّ والصبيّ قد نسيا أمرها على الفور، كانت أشبه ما تكون بحشرة ما إن تدخل غرفة ما حتى تطير خارجها من جديد. وعلى عكس غاوري، لن يفكّر أيّ منهما بتلك اللحظة مرّة أخرى وسينسيان تمامًا تلك المرأة الباحثة عن عنوان في شارعهما، مع أنّها متورّطة في الحادثة التي ستبقيهم في حداد طوال العمر.

3

بلغت ميجنا الرابعة من العمر ممّا جعلها في سنّ مناسبة لارتياد نادٍ صيفيّ خاصّ لتحضير الأطفال لمرحلة الروضة التي ستبدأ مع بداية العام الدراسي بعيدًا عن بيلا، وقد أقيم النادي بعد محطة القطار على أرض خاصّة بالتخييم قرب إحدى البرك.

قضت الطفلة فترات الصباح رفقة أطفال آخرين وتعوّدت اللعب معهم في ظلال الأشجار، والجلوس في جماعات على طاولات الرحلات الخشبية المنتشرة في المكان، وتعلّمت كذلك مشاركتهم الطعام. خبزوا مع معلّماتهم لفائف بنّية اللون أحضرتها معها في أكواز ورقية. وجلست على جلد خروف معهم في أكواخ مخروطية تشبه أكواخ الهنود الحمر كلّما هطلت الأمطار، ولعبت معهم بتشكيل معجون الشمع وشاهدت مسرحيات الدمى الخشبية برفقتهم.

ولأنّها كانت مضطرّة للخروج من المنزل باكرًا جدًا، التزم ساباش بمرافقتها كلّ يوم على أن ترجعها والدتها إلى البيت عصرًا بعد عودتها من العمل، وقد أسعدتها عودتها إلى مزاولة نشاطاتها والاستيقاظ باكرًا قبل شروق الشمس والتعرّق تحت نورها أثناء العمل والشعور بسريان القوّة والنشاط في ذراعيها وساقيها نهاية النهار.

لقد زارت هذه المزرعة لأوّل مرّة في طفولتها برفقة أبناء صفّها

لمشاهدة الخراف عن قرب، ثمّ حضرت أكثر من مرّة لشراء اليقطين لعيد جميع القدّيسين في تشرين الأوّل ولشراء النباتات في الربيع، وها هي الآن، تزرع البذور وتسمّد التربة وتقلبها وتقتلع منها العيدان والأعشاب الضارّة.

حفرت بيلا خنادق لزراعة البطاطس وتركت مجالا للمشي بينها ولتفسح مجالا للكائنات الحيّة الدقيقة التي تعيش تحت التربة للازدهار، وزرعت المشاتل في بيت خشبي جانبي في أوعية خاصة قبل نقلها إلى التربة الخارجية المعرضة للهواء والشمس.

وفي عصر أحد الأيّام، ولأنّها شعرت بحاجتها إلى تبريد حرارة جسمها الذي لسعته الشمس، قادت السيارة إلى جيمس تاون برفقة ابنتها حيث اعتاد والدها اصطحابها وعلّمها السباحة لإمضاء بعض الوقت، وفي طريق العودة لاحظت عربة لبيع الذرة فتوقّفت لشراء قليل منها.

وجدت بيلا وعاء قهوة حراريّ بجانب علبة معدنية عليها غطاء بلاستيكي مخصّصة لوضع المال، تحمل لافتة تطلب دولارًا واحدًا مقابل كلّ ثلاثة فناجين قهوة، وقائمة أخرى بأسعار أشياء أخرى، حزم فجل وريحان وأوراق بلّوط وخسّ أخضر رائع.

رفعت العلبة المعدنية وهزّتها فسمعت صوت النقود داخلها، فابتاعت بعض الذرة والفجل ووضعت المال اللازم في الفتحة. عادت في الأسبوع التالي لاكتشاف صاحب الكشك الخفيّ وقطعت المسافة القصيرة ما بين بيت والدها والشاطئ عبر الجسر، لكنّها لم تجد أحدًا. راودتها حيرة غير مسبوقة تجاه هويّة الشخص الذي زرع تلك الخضار

ووثق بالناس إلى درجة تركها في الشارع دون رقيب، ممّا قد يعرّضها للسرقة من قبل الناس أو حتى من قبل نوارس البحر.

وفي أحد أيّام السبت، وجدت بيلا شخصًا ما هناك أخيرًا، مع المزيد من البضائع المحمّلة على مؤخّرة شاحنة كبيرة، كالبصل والجزر والحشائش بالإضافة إلى خروفين أسودين مستقرّين في قفص مليء بالقشّ. اقتربت ميغنا منهما فعلّمها كيفية إطعامهما بيديها وشجّعها على لمسهما.

ـ هل ترزع هذه الخضار على الجزيرة؟

ـ لا، أنا أزور المكان للصيد، لكنّ صديقًا لي سمح بترك العربة على أرضه للانتفاع من عدد السياح الكبير الذين يزورون المنطقة في مثل هذا الوقت من السنة.

ـ لقد حاولنا زراعة هذه الخضار هنا هذا الموسم.

ـ أين؟

ـ في مزرعة كينانا على الطريق 138.

ـ أعرفها. هل أنتِ حديثة العهد برود آيلند؟

أجابت بالنّفي بحركة من رأسها. لقد ولد كلاهما وعاش طفولته وشبابه هنا لكنّهما ارتادا مدرستين ثانويتين مختلفتين لا تبعد إحداهما عن الأخرى كثيرًا.

بدا الشاب أكبر منها بعشر سنوات، عيناه خضراوان وفي وجهه بعض التجعّدات، وعلى رأسه شعر يشبه الملح والبهار يطير مع النسيم. كان دمثًا لكنّه لم يتورّع عن النظر إليها ملء عينيه.

ـ سأحضر الأرانب معي في المرّة المقبلة. اسمي درو.

انحنى ومدّ يده لمصافحة ميغنا وسألها: «ما اسمكِ؟» ولكنّ الفتاة لم تجبه فاضطرّت بيلا إلى الإجابة نيابة عنها.

ـ اسم جميل.. ولكن ماذا يعني؟

ـ إنّه اسم أحد الأنهار التي تجري في خليج البنغال، وقد اختاره والدي لها.

ـ هل يناديك الناس ميغ لاختصار الاسم؟

ـ لا.

ـ هل يمكنني مناداتك هكذا؟ هل ستتوقّف أمّك لشراء الخضار في الأسبوع المقبل؟

راح يصطحب معه كلّ مرّة حيوانات أخرى كالدجاج والجراء والقطيطات ممّا جعلها لا تتوقّف عن الحديث عنه طوال الأسبوع، والسؤال عن موعد زيارته القادمة. أعطى بيلا أشياء دون قبض ثمنها، وراح يضع لها الحزم والأكياس في حقيبتها ويرفض مالها، كالفاصولياء البنفسجية التي تتحوّل إلى اللون الأخضر عند طهيها ورؤوس ثوم وردية اللون وبازيلاء غير مقشورة.

كانت المزرعة تخصّ عائلته وقد عاش فيها طوال حياته ولم تكن كبيرة المساحة، بضعة هكتارات يمكن للمرء التجوّل فيها بسرعة، وقد كانت أكبر من ذلك فيما مضى، وعاصرت أجيالًا عديدة من تلك العائلة لكنّ والديه اضطرّا إلى بيع قسم كبير منها لمستثمرين واحتاج هو إلى دعم بعض الشركاء لإدارتها والإبقاء عليها.

عرض عليهما زيارة المزرعة في أحد الأيّام، فكانت على الطرف الآخر من الخليج قريبًا من حدود ولاية ماساتشوستس، حيث تعيش

بقية الحيوانات، كالديك الرومي والدجاج الغيني والخراف التي لا تملّ التحديق في الكثبان الرملية الملحية المحيطة بالمزرعة.

ـ هل نتبعك؟

ـ وفّري ثمن الوقود وتعالي معي.

ـ ستضطرّ إلى العودة بنا إلى هنا في هذه الحال.

ـ أنا مضطرّ إلى العودة في كلّ الأحوال.

جلست بيلا بجانب درو في شاحنته الواسعة الدافئة بسبب الشمس ووضعت ميغنا بينهما وأغلقت الباب.

راحا يتقابلان في عطل نهاية الأسبوع ولم تسمح لنفسها أبدًا بالانجراف وراءه، شعر درو بإحجامها فلم يستعجلها، راح يفاجئها أثناء عملها ويسألها عن وقت راحتها ليطلب منها الذهاب للسباحة على الشاطئ.

باعدت بيلا بين لقاءاتهما لتشمل بعض أيّام السبت، ووقفت معه تحت خيمة بيضاء في سوق الخضار المفتوح في بريستول، حيث كانت تقطّع الطماطم للزبائن لتعطيهم فكرة عن طعمها. كانت تذهب معه أحيانًا لتسليم طلبات المطاعم وبعض طلبات المنازل. مشت معه كذلك على الشاطئ وساعدته على جمع أعشاب البحر التي يستعملها لتمهيد الأرض لتناسب أكثر بعض الزّراعات. ثمّ راح يصنع اللّعب اليدوية لميغنا من الخشب وينحت لها مفروشات لبيت الدمى.

لقد زارت العديد من الأماكن بينما لم يخرج هو من هذه الولاية. استخدم العديد من الناس الذين كانوا يغادرون في نهاية اليوم وعاش وحيدًا بعد موت والديه، تزوّج صديقة الثانوية ولم ينجب منها أطفالًا

ثمّ طلقها منذ زمن طويل.

عرّفته بيلا على والدها وإلسي بعد شهر، حيث حضر للقائها صباح يوم عيد ميلادها فالتقى بالجميع. ترك جزمته في الشاحنة ومشى حافي القدمين عبر المرج ودخل البيت، وحمل معه بطيخة تناولوها بسعادة وعبّر عن إعجابه بالكوسا التي يزرعها ساباش في الحديقة الخلفية ووعدهم بزيارتهم مجدّدًا لتذوّقها على طريقة ساباش، مقلية بالزبدة. أعجب والدها بالشابّ بما يكفي لتشجيع بيلا على قضاء الوقت معه والعناية بميغنا أثناء ذلك.

أخبرته بيلا بأنّ أمّها ماتت، كانت تخبر كلّ الناس الذين يسألونها عنها. لقد أعادت غاوري إلى الهند في ذهنها وادّعت إصابتها بمرض مُعدٍ التقطته من هناك وأماتتها بشكل مؤسف. وقد صدقت بيلا كذبتها تلك مع السنين وتخيّلت جثمان أمّها المحترق فوق كومة من العيدان الجافة، ورمادها الذي تطاير مع الهواء في كلّ مكان.

طلب درو منها إمضاء الليالي معه، للاستيقاظ معا صباح الأحد وتناول الإفطار في الحظيرة التي جدّدها وفتح فيها ممرًّا يمكن للناظر من خلاله رؤية طرف المحيط.

رفضت بيلا وبرّرت ذلك بأنّ الوقت ما زال مبكّرًا جدًّا على ذلك. الوقت مبكّر على ميغنا خاصّة. زعمت بيلا ذلك لأنّها لم ترغب في القيام بتلك الخطوة بسرعة، كانت تريد أن تتأكّد من مشاعرها أكثر.

أجابها درو بأنّ المزرعة تحتوي على غرفة إضافية يمكن لميغنا النوم فيها وأنّه يريدها مع أمّها هناك أيضًا، قال إنّه سيصنع لها سريرًا خشبيًّا وسيخصّص لها مساحة آمنة للعب وسيبني لها كوخًا بين أغصان إحدى

الشجيرات في الخارج. وفي نهاية الصيف، عبّر لها عن حبّه وقال بأنّه لا يحتاج إلى مزيد من الوقت وأنّه في عمر مناسب لمعرفة حقيقة مشاعره. قال إنّه سيساعدها في تربية ابنتها وسيكون أبا لميغنا إن سمحت له بيلا بذلك.

أطلعت درو في ذلك اليوم على حقيقة علاقتها بأمّها وأخبرته بأنّها غادرتها وهجرتها ولم تعد أبدًا حتّى الآن. صارحته بأنّ أمّها هي سبب تفاديها البقاء مع شخص واحد أو الاستقرار في مكان واحد، وسبب رغبتها في تربية ابنتها وحدها وعدم ثقتها في قدرتها على منحه ما يحتاجه منها رغم اقترابها من سنّ الأربعين وحبّها الحقيقي له.

وأسرّت له بأنّها اعتادت الجلوس داخل خزانة أمّها، خلف المعاطف التي لم تأخذها والحقائب والأحزمة التي لم يتخلّ عنها والدها. كانت تحشر وسادة في فمها لتبكي بكلّ طاقتها دون أن يسمعها والدها في حال عودته إلى المنزل قبل أوانه. حكت له أنّها كانت تبكي كثيرًا إلى درجة انتفاخ الجلد تحت عينيها وارتسام جيبين هلاليّ الشكل شاحبيْ اللون أكثر من الجلد المحيط بهما.

ثّم أخبرته في النهاية عن أوديان، وأنّها نشأت بين شخصين غير متحابّين رغم أنّها ابنة لشخصين تحابّا بكلّ ما أوتيا من قوّة.

احتضنها درو طوال الوقت دون مقاطعتها ثمّ قال بعد انتهائها من سرد حكايتها: «لن أذهب إلى أيّ مكان. لن أتركَكِ».

4

كانت بروفيدانس تبعد مسافة ساعة بالسيارة. أدخلت غاوري الرمز البريدي في جهاز الملاحة وسلكت الدرب. لكنّها تعرّفت وحدها على الاتجاهات لأنّ أسماء الشوارع المؤدّية إلى الضواحي المختلفة والبلدات لم تتغيّر رغم السنين. تذكّرت كلّ الأسماء: فوكس بورو، أتلبورو، باوتوكيت، والبيوت الخشبية المتجمّعة حول بعضها وقبّة المجلس البلدي. ثمّ تذكّرت بعد مرورها أمام كرانستون أنّ المخرج المؤدّي إلى البلدة يقع يسارًا لأنّ كلّ المخارج الأخرى تقود إلى نيويورك.

طارت إلى بوسطن واستأجرت سيارة من هناك كما فعل ساباش حين استقبلها أوّل مرّة، وقادت السيارة على نفس الجانب من الطريق، على نفس الطريق الذي كانت ترتاده مرّتين أسبوعيًا للدراسة في الكليّة. إنّه الخريف، فالهواء عليل والأوراق تتساقط مع هبّات النسيم.

انعطفت بعد مجموعة أخرى من الإشارات الضوئية يسارًا إلى بيته. ها هو البرج الخشبي المحاط بالنخيل والمطلّ على الخليج. في درج مكتبها في كاليفورنيا هناك، صورة لبيلا على أعلى نقطة منه، ترتجف بردًا، في معطف سميك أصفر له قلنسوة مبطنة بالفراء. لقد سحبتها غاوري من أحد ألبومات المنزل قبل رحيلها لتكون الذكرى الوحيدة التي تمتلكها من ابنتها.

حاولت الكتابة لساباش في البداية، لتأكيد موافقتها على طلبه، حاولت إرسال خطاب له، وعملت على كتابته لعدّة أيّام لكنّ محاولاتها منيت بالفشل.

عرفت غاوري أنّ الطلاق لن يؤثّر في حياتهما بعد الآن لأنّ زواجهما انتهى بالفعل قبل زمن طويل، ومع ذلك.. قلب طلبه المنطقي والعقلاني كيانها، وشعرت بالحاجة الماسة إلى لقائه.

ظلّت حياتها مرتبطة في جزء منها بحياته رغم انفصالهما الطويل الذي كان نتيجة تواطؤ مشترك غير معلن للنّاس. لقد أبعدها عن تولّيه غانج وتحوّل إلى الرابط الوحيد الذي يصلها بأوديان، وغمر بيلا بحبّه العارم وإخلاصه العظيم وأحاطها برعايته وتربيته وأنقذها من كلّ الفراغ الذّي سبّبته والتشوّه الذّي خلّفته.

شعرت بأنّ توقيت الرسالة كان كإشارة وحي لها، لأنّها افترضت أنّه رغب في الطلاق قبل عشر سنوات أو سنتين ربما قبل الآن لكنّه لم يفصح عن رغبته. إنّها مرتبطة الآن بالسفر إلى الشاطئ الشرقي في كلّ الأحوال، ثمّ لندن لحضور مؤتمر، فطلبت من وكيل سفريّاتها تسجيلها في رحلة ما بينهما لتتمكّن من قضاء ليلة واحدة في رودآيلند وتمنحه ما يريد. لم تأمل سوى في مقابلته وإنهاء رباطهما وجهًا لوجه، بعد أن أعرب عن عدم ممانعته من ذلك.

لكنّها لم تكن مدعوّة لبيته.. لقد قرّرت الذهاب دون استئذانه ودون إعلامه مسبقا لأنّها لم تتمكّن من التصرّف بشكل صحيح بعد رسالته.

لم تسقط كلّ أوراق الأشجار بعد فلم تتمكّن من رؤية الخليج

من الطريق. انعطفت لتسلك الشارع العريض ذا الاتجاهين الذي شُقّ في قلب الغابات ليصل إلى المدينة الجامعية، تحفّ به بيوت الأساتذة والطلاّب الخرّيجين المائلة السقوف والمحاطة بأشجار الأزاليا العملاقة والأسوار الحجرية المنخفضة.

ولجت بسيارتها طريقًا معبّدة بالحصى تحيط به شجيرات اللبلاب. لاحظت إشارة خشبية معلّقة تتأرجح مع النسيم تحمل اسم فندق صغير وتاريخ بنائه. اتّجهت إليه وطلبت استئجار غرفة.

حملت حقيبتها إلى الباب الرئيس ودقّت الجرس، حاولت فتح مقبض الباب عندما لم يجبها أحد لكنّها وجدت الباب مفتوحًا. فدخلت لتجد نفسها مقابل غرفة معيشة تلي المدخل مباشرة ومكتب استعلامات يحمل جرسًا صغيرًا وإشارة تدلّ الزائرين على ضرورة قرعه.

نزلت امراة في مثل سنّها تقريبًا لتحيّتها، كانت ذات شعر فضيّ مفروق إلى أحد الجانبين بشكل فوضوي بعض الشيء. أمّا بشرتها فمائلة إلى الاحمرار وكانت ترتدي سروال جينز وسترة صوفية ومريولًا ملطّخًا بالطلاء وخفًّا منزليًا في رجليها.

ـ هل أنت السيدة مترا؟

ـ نعم.

«كنت أرسم في الاستديو» قالت المرأة، ثمّ مسحت يديها بقطعة قماش قبل مصافحتها وتعريفها باسمها: «اسمي نان».

اكتظت غرفة المعيشة بكثير من الأشياء: أباريق مطلية بالمينا اللامعة على أطباق متماثلة، خزائن زجاجية تملؤها الكتب والتحف السيراميكية، بالإضافة إلى أعمال خزفية يدوية مرتّبة على طاولة منفصلة

تتكوّن من أكواب وأطباق مختلفة الأحجام وسلطانيات عميقة مطلية بظلال داكنة.

ـ هذه للبيع، أنا أصنعها في الأستديو خلف المنزل، ولديّ المزيد هناك إذا لفت الموضوع انتباهك. يمكنني إرسالها إليك بالبريد لو أحببتِ.

ناولتها غاوري بطاقتها وهويتها وراقبت نقلها للمعلومات على استمارة الدخول إلى الفندق دون أن تنطق بكلمة.

ـ قد تهطل الأمطار هذه الليلة، وقد لا تهطل.. هل هي أوّل زيارة لك إلى هنا؟

ـ كنت أعيش في رودآيلند.

ـ في أيّ منطقة؟

ـ على بعد عدّة أميال بعد هذه المنطقة.

ـ آه.. أنت تعرفين المنطقة جيّدًا إذًا.

لم تسألها نان عن سبب زيارتها ثمّ قادتها إلى الأعلى وأعطتها مفتاح غرفتها ومفتاحًا آخر للمدخل الخارجي في حال عادت متأخّرة بعد الساعة الحادية عشرة من الخارج.

كان السرير مرتفعًا واللّوح الأمامي قديمًا والفراش مغطّى بمفرش قطنيّ أبيض. وجدت أيضًا تلفازًا صغيرًا على طاولة الزينة وستائر مخرّمة على النافذة تسمح بدخول بعض الضوء دون فتحها. تأمّلت غاوري الكتب المرتّبة في المكتبة الصغيرة وتناولت أحدها ووضعته بجانب السرير لتقرأه قبل النوم.

ـ إنّها كتب والدي، كان أستاذًا جامعيًا. لقد عاش في بيته هذا حتى

وفاته عن خمسة وتسعين عامًا، رفض مغادرته فاضطررنا لإحضار كرسي متحرّك خاصّ بالأطفال لإخراجه من البيت للنزهة أو للجلوس في الحديقة، بسبب ضيق الأبواب.

سألتها غاوري عن اسمه فبدا مألوفًا لديها، ربّما كان أحد أساتذتها في الماضي.. لكنّها لم تذكر شيئًا معيّنًا بحد ذاته.

اغتسلت وارتدت البلوزة القطنية التي أحضرتها في حقيبتها لأنّ الغرفة كانت معرّضة للرّياح، والموقد كان للعرض فقط. فاضطرّت إلى النّزول إلى الطابق الأسفل حيث توجد المدفأة الحقيقية، فالتقت بزوجين شابّين جالسين أمام النار، ووجدت إبريق شاي وأكوابًا على المنضدة مع بسكويت وعنقود عنب. كان الزوجان يتأمّلان منتوجات نان الخزفية لاختيار أحد الأطباق فاستمعت غاوري لحوارهما وانتباههما لأدقّ التفاصيل في كلّ قطعة لاختيار أفضلها.

التفت الزوجان إليها وعرّفاها بنفسيهما. كانا من مونريال، فانحنت لتصافحهما ونسيت اسميهما على الفور، لم يكونا تلاميذها ولهذا لم يكن أمرهما يهمّها على الإطلاق.. لم تحضر غاوري إلى هنا للقاء أيٍّ منهما.

جلسا على أريكة بلون الشامبانيا ونهض الزّوج ليملأ كوبيهما بمزيد من الشاي.

ـ هل تودّين الانضمام إلينا؟

ـ لا شكرًا، استمتعا بأمسيتكما.

ـ كما ترغبين.

خرجَت إلى سيارتها في أنوار الغسق، كان النهار على وشك الانتهاء، شحبت السماء وكادت تظلم. أخرجت غاوري هاتفها من جيبها

واستخرجت رقم ساباش. لقد أعادها شيء ما إلى هنا، سبب شنيع وصاعق وهادر كتيّار لا يمكن إيقافه، كالذي دفعها إلى المغادرة من قبل.

إنّها تتعدّى حدودها، تتعدّى حدود الاتفاقية التي خضعا لها طوال تلك السنين.. قد يكون مشغولًا.. قد يكون في مكان آخر. ورغم لطف رسالته، إلاّ أنّها تعلم بأنّه غير راغب في رؤيتها بكلّ تأكيد. لكنّ عبثية خطابه وجرأته منحتاها الإذن رغم شعورها بأنّها مجرّد دخيلة على حياته، مجرّد عامل تسلّل يومًا وغادر بلا أثر.

لم تكن مضطرّة للانتهاء من الأمر بسرعة. كانت تعلم أنّها تملك الوقت وأنّ طائرتها إلى لندن لن تقلع قبل مساء الغد.. ستقابله غدًا.. في وضح النهار، ثمّ ستغادر مباشرة إلى المطار.. ستتأكّد الآن فقط من أنّه موجود في المنزل.

قادت السيارة إلى المدينة الجامعية ومرّت أمام الأبينة التي التحقت بها طالبةً، وبالممرات التي مشت عليها برفقة بيلا للتنزّه، ثمّ عبرت الطريق المحاذي لمجموعة الأبنية الحجرية ومنحوتات الستينيات، ومرّت أيضًا أمام الحيّ الذي عاشت به في بداية عهدها بالمكان، حيث ولدت بيلا، ثمّ أمام المبنى الذي يحتوي على دكّان الغسيل حيث كانت تغسل الثياب، ثمّ اتّجهت إلى قلب البلدة.

تحوّل المتجر الكبير الذي اعتاد ساباش التبضّع منه إلى مكتب بريد كبير، وازداد عدد المتاجر في المكان بالإضافة إلى صيدلية كبيرة وعديد المطاعم والمقاهي.

اختارت مطعمًا تعرفه، كانت بيلا تستمتع فيه بتناول مثلّجاتها المفضّلة بنكهة النعناع المغطّى بالسكّر الملوّن بجانب النافذة. وهناك،

كانت كراسٍ محاذية لمنضدة خدمة الزبائن بالإضافة إلى بضعة طاولات في الداخل. إنّه يوم السبت. جلست غاوري هناك إلى جانب تلاميذ من المدرسة الثانوية غير مصحوبين بأهلهم، يشربون الحليب المخفوق ويمازحون بعضهم بالإضافة إلى أناس آخرين يجلسون كلاً على حدة ويتناولون أطباق الدّجاج المقليّ والبطاطس المهروسة.

شعرت من جديد بعدم الارتياح الذي لطالما شعرت به في رود آيلند كلّما وطأت قدمها مترًا واحدًا خارج الجامعة، شعرت بتجاهل الآخرين لوجودها وتمييزها عن الباقين في الوقت ذاته، وإلباسها شخصية أنموذجية موجودة في عقولهم. تناولت طعامها بسرعة فحرقت لسانها بالحساء الحارّ ثمّ طلبت بعض المثلّجات وتناولتها بسرعة أيضًا لأنّها قلقت من احتمال لقائها بسابش فجأة.. هل تغيّر فأصبح شخصا يرتاد المطاعم الآن؟

قادت سيارتها إلى الخليج وركنتها بين البرجين المطلّين على البحر، بجانب الممرّ المخصّص للرياضة والتنزّه في نور الغسق، ثمّ أكملت طريقها إلى البيت.

كانت الأنوار مضاءة فابطأت سيرها وأصيبت بتوتّر منعها من التوقّف. شاهدت سيارتين متوقّفتين أمام المدخل.. إنّها غير مستعدّة لهذا.. هل هناك سيارة ثالثة في المرآب؟ من هو الزائر يا ترى؟ من هم أصدقاؤه الآن؟ أهم أحبّاؤه؟ إنّها عطلة نهاية الأسبوع.. هل يستقبل ضيوفًا؟

انعطفت وعادت بسيارتها إلى الفندق مرهقة رغم عدم تأخّر الوقت لأنّ المساء يحلّ في نفس الوقت تقريبًا على الشاطئ الغربي. خرج

الزوجان الكنديان واختفت نان في مكان ما من البيت.

صعدت إلى غرفتها فوجدت طبقًا يحتوي على بسكويت الزنجبيل بجانب سريرها وكوب شاي بالأعشاب بجانب سخان الماء الكهربائي.

أعجبت غاوري بكرم ضيافة نان وترحيبها رغم أنّها تعرف أنّه لم يكن ترحيبًا شخصيًا بها. لقد استقبلتها هذه الغريبة وأكرمتها واحترمتها.. لكنّ غاوري لا تعرف إن كان ساباش سيعاملها بالمثل غدًا أم لا.

حزمت حقيبتها بعد الإفطار صباح اليوم التالي ودفعت فاتورة الليلة واستعدّت للمغادرة دون تحقيق غرض زيارتها. محت آثارها المؤقّتة من الغرفة ورتّبت السرير.

سلّمتها المفتاح مدفوعة برغبتها الجارفة في لقائه ومتردّدة أيضًا، لأنّها لا تملك مكانًا يأويها الآن سوى سيّارتها هذه.. لم يبق شيء.. سوى تحقيق هدف الرحلة التي حملتها إلى هنا.

عادت بسيارتها إلى الطريق السريع، عبرت الإشارات الضوئية، آخر فرصة تسمح لها بالالتفاف وإعادة أدراجها إلى بوسطن.. غلبها الفزع للوهلة الأولى فأشعلت دون انتباه منها ضوء السيارة المشير إلى الانعطاف قصد التوقّف فانزعج سائق السيارة التي تسير خلفها عندما غيّرت رأيها من جديد واستأنفت السّير دون توقّف.

وجدت سيارة واحدة الآن في مدخل المنزل، سيارة صغيرة له بلا شكّ، مع أنّها فوجئت بأنّها سيارة قديمة إلى حدّ بعيد. مازال يقود نفس نوع السيارة التي كان يقودها في حداثة عهده وكأنّه ما يزال طالبًا جامعيًا رغم المرحلة المتقدّمة التي بلغها من حياته. كانت تحمل لوحة تعريف من رودآيلند ولاصقة خلفية تشجّع الرئيس أوباما، وأخرى

تحمل عبارة: *كن بطلًا محليًا واشتر المزروعات المحلية.*

شاهدت شجرة القيقب الياباني وقد باتت أطول منها بثلاث مرات، لقد كانت هنا عندما غرسها ساباش غصنًا يافعًا ضعيفًا، إنّ أغصانها الرائعة تكاد تلامس الأرض لغزارتها، وقد غطّى جذعها لحاء ناعم كقطعة سيراميك مصقولة، كما شاهدت الكثير من الأزهار التي لم تكن هنا من قبل، كزهرة السوسن ذات العين السّوداء والزنابق التي تتحدّى اقتراب الشتاء وتنمو بكثرة أمام البيت، وأقحوانات عديدة مزروعة في أوعية زينة على الدرج المؤدّي إلى الباب.

هل كان يجدر بها إحضار شيء ما معها، كهديّة من كاليفورنيا مثل كيس فستق حلبي أو ليمون الساحل الغربي.. لتعبّر عن البعد السّلميّ لزيارتها؟

لقد وقّعت أوراق الطلاق وضمنت حقوقها وستسلّمه الأوراق يدا بِيَد.. ستخبره بأنّها كانت بقرب المكان ففكّرت بالحضور بنفسها.. لا أكثر..

ستعبّر له عن صحّة قراره بإنهاء زواجهما رسميًا، وستؤكّد له تنازلها عن منابها من بيت تولّيه غانج وبيت رودآيلند، ستقول له إنّه حرّ في التصرّف فيهما. تخيّلت حوارهما في غرفة الجلوس وتبادل أخبار مقتضبة وكوب شاي قد يتفضّل بتقديمه إليها..

رسمت هذا السيناريو على متن الطائرة وفكّرت فيه من جديد في سريرها الليلة الماضية ثمّ في طريقها إلى البيت مجدّدًا.

جلست في السيارة وتأمّلت المنزل متأكّدة من وجوده في الداخل،

ومتأكّدة أيضا بنفس الدرجة من الغضب الذي سيعتريه حال رؤيتها. كانت تتوقّع أيضا أنّه قد لا يفتح لها الباب.

تذكّرت صندوق بريد الشرطيّ في جادافبور، الذي كانت تفتحه عنوة ممتلئة بالخوف ممّا قد تجده في الداخل، وهي متأكّدة من ذلك الشيء الذي ستجده.

فكّرت في عدم إزعاجه، في ترك الأوراق في صندوق بريده والرّحيل. حلّت حزام الأمان واستخرجت مفتاح السيارة منها، وفكرت فيما يمكن أن تقوله له: تشكره على إحضارها إلى أمريكا رغم أنّها لا تتوقّع مغفرته.. أو تشكره على أبوّته لبيلا والسّماح لها بالرحيل.

لكنّ الذنب الذي ملأ أوردتها دائم أزليّ لا يزول مع الوقت، ولن تتحرّر منه مهما جرى ومهما فعلت.

لقد جاءت للبحث عن بيلا بعد كلّ هذا الوقت.. جاءت لتسأله عن حياة ابنتها، لتطلب منه أن يسمح لها بالتواصل معها، لتسأله عن رقم هاتفها وعنوانها لمراسلتها، لتعرف إذا ما كانت ترحّب بالتواصل معها أم لا قبل فوات الأوان.

صفع الهواء البارد وجهها لدى خروجها من السيارة. رياح البحر عاتية هنا لقرب البيت من البحر.. أخرجت قفّازين من حقيبتها وارتدتهما.

لم يكن الوقت باكرًا جدًا، العاشرة والنصف.. قد يكون ساباش جالسًا لمطالعة الصحيفة التي أزالها من صندوق البريد كما لاحظت.

كانت على ثقة من أنّها سترى نسخة كهلة من أوديان عندما ستلتقي بساباش، ستسمع صوته مجدّدًا.. مازال ساباش رغم كلّ شيء بديله المرفوض والمقبول، الغريب والحميم في الوقت ذاته.

5

إنّه صباح الأحد. السماء صافية بعد عاصفة صيفية ليلية طويلة. وعمّا قريب، ستتمكّن بيلا من قطف اللّفت وملفوف بروكسل. ستنتظر بعض البرد لأنّه سيحسّن من مذاقها. انخفضت الحرارة فجأة ليلة البارحة فاضطر الجميع إلى الاستعانة بأغطية إضافية، ولن يلبث الطقس أن يتغيّر. جلست ميغنا لترسم على الطاولة وخرج ساباش مع إلسي لتناول إفطارهما خارجًا والتنزه معًا. نهضت حينئذ ميغنا واقتربت منها وشدّت بلوزتها وقالت: «هناك شخص ما بالباب».

اعتقدت أنّه درو، وفكّرت في أنّه حضر دون الاتصال مسبقًا كما كان يفعل أحيانًا فأغلقت صنبور الماء وجفّفت يديها وابتعدت عن الحوض ونظرت من نافذة غرفة المعيشة.

لم تجد شاحنة درو في المدخل، بل سيارة بيضاء صغيرة جديدة تمامًا خلف سيارتها، ثمّ نظرت من العين السحريّة لكن الضيف تنحّى جانبًا.

فتحت الباب وتساءلت عن هويّة الشخص الذي جاء لزيارتها. خمّنت أن يكون أحد الباحثين عن التوقيعات أو التبرّعات لقضيّة ما، لكنّها وجدت امرأة ترتدي قفّازين في يديها المتسمّرتين أمام فمها.

إنّهما بنفس الطول تقريبًا الآن، إلاّ أنّ الشعر مُزدان ببعض الخصلات الرمادية ومسرّح إلى الخلف وملتصق برأسها.. لقد تضاءلت

بنيتها ونعمت بشرتها ورقّت حول العينين مكثّفة التركيز وبدت ضئيلة بما يكفي لدفعها بعيدًا كما يدفع المرء عنه متسوّلة جائعة.

لكنها اهتمّت بمظهرها ووضعت طبقة من الطلاء الوردي على شفتيها وتحلّت بقرطين ذهبيين وعقدت شالًا حريريًا حول رقبتها.

أما بيلا، فقد كانت حافية القدمين، ترتدي سروال المنامة التي قضت الليلة بها، وقميصًا قديمًا يخصّ درو.. مدّت يدها إلى مقبض الباب الشبكيّ في نفس اللحظة التي شعرت بها بالحقيقة الماثلة أمام عينيها.

«بيلا». سمعت صوت أمّها..رأت دموعها تتدحرج على خدّيها.. لا شيء غير هذا الشّعور العجيب بالارتياح وعدم تصديق ما تراه العينيان.. الصوت المألوف نفسه الذي اخترق كلّ الأبواب.

سألتها ميغنا: «ماما.. من هذه السيدة؟».

لم تجب.

ـ لماذا لا تفتحين الباب؟

فتحت الباب وراقبت والدتها تدخل المنزل، راقبت حركاتها المحسوبة والعارفة لكلّ تفاصيل المكان، نزلت الدرجات القليلة التي تفصل المدخل عن غرفة المعيشة بلا تفكير لأنّه لم تنسها.

هنا، حيث يُستقبل الضيوف، جلستا.. بيلا وميغنا على الأريكة وأمّها مقابلة لهما على كرسيّ منفصل. تأمّلت غاوري التراب المحشو تحت أظافر بيلا وخشونة يديها.

مازالت بعض قطع الأثاث على حالها كما تركتها كالمصباحين المجاورين للأريكة والمصباحين العاجيين اللذين يقفان على طاولتين مجاورتين يمكن للمرء وضع قهوته عليهما، والكرسيّ الهزّاز ولوحة

معلّقة على الجدار تحمل رسم قارب صيد هندي يعارك الأمواج.

لكنّ البيت مزدحم الآن بذكريات من حياة بيلا أيضًا.. سلّة حياكتها وأزهارها على الشرفة ومطربانات الحبوب والفاصولياء الملوّنة على رخام المطبخ وكتب الطهي على الرّفوف.

نظرت أمّها إلى ميغنا، ثمّ إليها من جديد. ثمّ قالت كالهامسة: «هل هي ابنتك؟.. نعم.. هذا واضح».

سألت وأجابت بعد انتظار دام عدّة لحظات. لم تتفوّه بيلا بحرف لأنّها فقدت القدرة على النطق.

ـ متى ولدت ابنتك، ومتى تزوّجت؟

مجرّد أسئلة بسيطة لم تمانع بيلا يومًا في الإجابة عنها لأيّ غريب، لكنّها بدت لها مثيرة للغضب والحنق من فم أمّها.. شعرت بيلا بأنّ كلّ سؤال من والدتها هو إهانة جديدة لها.. لم ترغب بإبلاغ أمّها بأيّ شيء رغم بساطة الأمور والحقائق والاختيارات التي اتّخذتها في حياتها، ورفضت الإفصاح عن أيّ شيء.

تحوّلت غاوري إلى ميغنا وسألتها: «كم عمرك؟».

رفعت أربع أصابع وقالت: «على وشك بلوغ الخامسة».

ـ ومتى يحلّ عيد ميلادك؟

ـ في تشرين الثاني.

ارتجفت بيلا ولم تتمكّن من السيطرة على نفسها.. كيف جرى هذا؟ لمَ خضعت لرغبتها؟ لم فتحت لها الباب؟

ـ أنت تشبهين أمّك عندما كانت في مثل سنّك تمامًا.. ما اسمك؟

أشارت ميغنا إلى لوحة رسمتها وكتبت عليها اسمها وقرّبتها منها لتراها.

ـ ميغنا.. هل تعيشين هنا أم أنّك في زيارة؟

شعرت ميغنا بالحماس وقالت: «بالطبع نعيش هنا».

ـ مع أبيكِ؟

ـ لا أب لي.. من أنتِ؟

ـ أنا..

تدخّلت بيلا للمرّة الأولى. قالت بسرعة كأنّها تريد أن تتدارك جواب أمّها: «إنّها صديقة جدتك». نظرت إلى غاوري بغضب وأسكتتها بحركة واحدة من رأسها.. هدّدتها وذكّرتها بمكانتها.

شعرت غاوري بنفس الحيرة وانعدام اليقين الممزوج بالذّعر، بالتهديد الوشيك وغير المعلن في الوقت ذاته، الذي تشعر به كلّما اهتزّت جدران البيت في كاليفورنيا، باهتزاز فنجان القهوة بسبب هزّة أرضية، غير واثقة من نجاتها أو موتها إلى أن تنتهي آثار الاهتزاز.

ـ إنها صديقة قديمة لجدّتك، أي أنّها مثل خالة كبرى أو عمّة كبرى لك.. لم أقابلها منذ وفاة جدتك.

ـ آه..

أطلقت ميغنا تلك الآهة الصّغيرة علامة على الفهم وعادت للرسم وانكبّت على طاولة القهوة التي تتوسّط غرفة المعيشة فوق مجموعة أوراق بيضاء وعلبة تلوين وركّزت على عملها.

جلست غاوري على كرسيّها، في الغرفة التي لم تتغيّر أبدًا، لكنّ بيلا

تغيرت كليًا. انقضت السنون مؤكدة مرورها مخلّفة آثارها في كلّ شيء. حفر الزمن ما بينهما في هذه الغرفة هوّة واسعة لا يمكن اجتيازها.

لقد حضرت بحثًا عن بيلا، وها هي أمامها.. على بعد ثلاث خطوات، بعيدة جدًا ولا يمكن الوصول إليها، امرأة ناضجة الآن تقارب الأربعين من عمرها، أكبر سنًّا من غاوري التي رحلت عن هذا البيت، تغيّرت ملامح وجهها، بات أكثر عرضًا وطولا وباتت ملامحها أكثر وضوحًا، كما أنّها لا تهتمّ بمظهرها على الإطلاق، كان حاجباها غير مشذّبين وشعرها معقوصا بلا اكتراث إلى الخلف على مستوى رقبتها.

سألت ميغنا بيلا: «هل تلعبين معي؟».

ـ ليس الآن يا ميغنا.

نظرت الفتاة إلى غاوري فلاحظت أنّ لونها كان نفس لون بشرة أمّها وأنّ عينيها البنّيتين تملكان نفس النظرة، فسألتها: «هل تلعبين معي؟»

رجّحت غاروي أنّ بيلا ستمانع لكنّها لم تبد اعتراضا. فانحنت إلى الأمام وتناولت قلم تلوين ورسمت إشارة.

ـ هل تعيشين هنا مع والدتك وجدّك؟

أومأت ميغنا ثم قالت: «وإلسي تأتي كلّ يوم».

لم تستطع منع نفسها من السؤال الذي فرّ من شفتيها: «ومن تكون إلسي؟»

ـ ستصبح جدّتي الجديدة عندما يتزوّجها جدّي، وسأكون زهرة المنزل.

جفت دماء غاوري وجاهدت كي تتمالك نفسها. انتظرت مرور

تلك اللحظة العصيبة ثمّ فاجأتها ميغنا بصيحة: «انظري.. لقد ربحت».

سحبت ملفّ الأوراق الموقّعة من حقيبتها ووضعته على الطاولة ودفعته باتّجاه بيلا قائلة: «هذا لأبيك».

راقبتها بيلا كمن يراقب طفلًا يتعلّم المشي، كأنّها على وشك الوقوع أرضًا والتسبّب في ضرر لنفسها مع أنّ غاوري كانت تجلس بشكل متوازن للغاية.

ـ هل هو على ما يرام؟ هل يتمتّع بصحة جيّدة؟

لم تجبها.. لم تكلّمها، لم تتغيّر ملامحها من لحظة وصول غاوري حتى الآن.

ـ حسنًا..

اشتعل قلبها غضبًا من فشلها في ما حضرت من أجله..لأنّ جهد الرحلة بدا لها قد تبخّر سدى، كلّ الافتراضات والتوقّعات والاعتقاد الغبيّ في إمكانيّة عودتها إلى حياتها.. اكتشفت غاوري أنّه لم يطلب الطلاق لتبسيط حياته بل لإثرائها، ومع أنّها لم تكن تحتلّ شبرًا واحدًا من تلك الحياة إلاّ أنّه ما يزال قادرا على اجتثاثها من البلاد والقضاء عليها.

فكّرت في الغرفة التي كانت تستعملها كمكتب فيما سبق ورجّحت أنّها أصبحت الآن ربّما غرفة نوم ميغنا.. لم تكن ترغب فيما مضى سوى بإغلاق بابها عليها وفصل نفسها عن ساباش وبيلا.. لم تتمكّن وقتها من تقدير النّعمة التي كانت ترفل فيها.

وقفت فجأة وعدّلت مكان حقيبتها وقالت: «عليّ أن أذهب».

ـ انتظري.

قالت بيلا بنبرة حازمة وباردة في آن، ثمّ نهضت إلى خزانة وأحضرت معطفًا وحذاء لميغنا وقالت لها: «اخرجي واقطفي لنا بعض الأزهار للمائدة، اقطفي باقة كبيرة ثمّ تفقّدي طعام العصافير وتأكّدي من وجود كمّية مناسبة لها.. اتّفقنا؟».

أغلقت بيلا باب الحديقة المنزلق خلف ابنتها وواجهت والدتها وحيدة. تقدّمت نحوها واقتربت منها كثيرًا ولم تتوقّف إلى درجة أنّ غاوري تراجعت إلى الوراء إلى أن لامس الجدار ظهرها.. رفعت بيلا يديها نحو وجه أمّها وكأنّها تريد دفعها أكثر لكنّها لم تلمسها. ظلّت تتقدّم نحوها وترفع يديها المتصلّبتين ثمّ أطلقت صيحتها المكتومة من بين أسنانها في وجهها: «كيف تجرّأت..كيف تجرّأت على دوس هذا البيت بقدميك؟».

لم تواجه غاوري في حياتها عينين تحملان كلّ هذا الكمّ من الكراهية والحقد عليها كهاتين.

ـ لماذا أتيت؟

شعرت غاوري ببرودة الجدار خلفها فاتّكأت عليه جيّدًا ملتمسة أن تحظى منه بسند يحول دون انهيارها وأجابت: «أتيت لأعطي والدك أوراقه، ولكي».

ـ لماذا؟

ـ أردت سؤاله عنك.. لكي أجدك.. كما أنّه عبّر في رسالته عن عدم رفضه للقائنا.

ـ وانتهزت الفرصة لاستغلاله مرّة أخرى كما فعلت من قبل.

ـ لقد أخطأت يا بيلا.. لقد أتيتُ لكي..

ـ أخرجي..عودي إلى ذلك الشيء الذي يفوقنا أهميّة من وجهة نظرك.

صاحت بيلا ووضعت يديها على أذنيها ثمّ قالت: «لا أحتمل رؤيتك لا أطيق سماع صوتك وكلماتك».

مشت غاوري إلى الباب الأمامي جافّة الحلق دون التجرّؤ على طلب الماء ووضعت يدها على المقبض وقالت: «أنا آسفة يا بيلا.. لن أزعجك مجدّدًا».

ولكنّ بيلا استمرّت في نهش ظهرها بالصّياح بأقصى ما تملك من قوّة: «أنا أعرف سبب هجرانك لنا... عرفت قصّة أوديان منذ سنوات.. أعرف هويّتي وأعرف ابنة من أكون».

انقلبت الأدوار، تجمّدت غاوري في مكانها، لم تحتمل سماع اسمه من فم بيلا التي استمرّت في هيجانها: «لكنّ الأمر غير مهمّ.. لا يمكن لشيء أن يقدّم العذر لفعلتك تلك».

أسكتت كلمات بيلا غاوري كالرصاصات التي أنهت حياة أوديان.

ـ لن يعفيك شيء من مسؤوليّتك.. أنت لست أمّي.. أنت لا شيء.. هل تسمعين؟ أومئي برأسك إذا كنت قد سمعتِني.

قلبها بارد كالحجر.. في داخلها خواء يعوي.. هل هذا ما شعر به أوديان عندما وقف لمواجهتهم في الأرض المنخفضة؟ لقد شاهده كلّ الجيران لكن لا أحد الآن يشهد ما يجري..

أومأت برأسها بخفّة.

ـ أنت ميّتة بالنسبة إليّ مثله تمامًا. الفرق الوحيد بينكما هو أنّك

تركتني بتصميم ورغبة منك.

إنها على حقّ.. لا حاجة لإيضاح أيّ شيء آخر.. لا شيء آخر يمكن قوله.

طرقت ميغنا باب الحديقة فذهبت بيلا لتفتح لها. التفتت غاوري إليهما، وقفت الفتاة الصغيرة بجانب مائدة الطعام لتفحص الأزهار التي اختارتها.. نسيتها بيلا، كرّست كلّ اهتمامها لابنتها وتصرّفت كما لو أنّ غاوري قد رحلت بالفعل منذ مدّة طويلة. أخرجتا الأزهار القديمة من المزهرية واستبدلتاها بالأزهار الجديدة.

لم تتمكّن من أن تمنع نفسها. عبرت الغرفة واقتربت من الطاولة ووضعت يدها على رأس الطفلة ثمّ على خدّها البارد ثمّ قالت: «إلى اللقاء يا ميغنا، لقد سررت بمعرفتك».

نظرت الطفلة إليها وابتسمت ثمّ تابعت ما تفعله ونسيتها على الفور.

لم تنبسا بكلمة أخرى.. مشت غاوري إلى الباب بعزم وخفّة هذه المرّة دون اكتراث من قبل بيلا التي لم تتكبّد عناء فعل أيّ شيء لإيقافها.

فتحت المغلّف بعد انصراف أمّها، قبل تحرّك السيارة من أمام البوّابة وتأكّدت من توقيعها وموافقتها على طلبات والدها. لقد أخبرها والدها قبل عدّة أشهر بأنّه يفكّر في طلب الطلاق من غاوري ولهذا لم تشعر بالمفاجأة.

وجدت كلّ التوقيعات في مكانها وشكرت الله على ذلك. شكرته أيضًا على أنّه قدّر لها مقابلة والدتها، لا أبيها.. شكرت الله على تمكّنها من حمايته من مثل تلك الصدمة.

لقد صعقتها زيارة أمّها القصيرة كما لو أنّها التقت بجثّة عادت إلى الحياة بعد الموت، لكنّها اختفت كما حضرت، أنصتت إلى صوت السيارة تبتعد ثمّ تختفي ثمّ شعرت وكأنّ أمّها لم تحضر أبدًا، كما لو أنّ تلك الدقائق العصيبة لم تحدث أبدًا.. لكنّها عادت ووقفت أمامها وتكلّمت معها وكلّمت ميغنا.. لطالما حلمت بيلا بهذه اللحظة.

حطّمتها قوّة غضبها بعد لقاء أمّها هذا الصباح. لم تشعر من قبل بمشاعر مضطرمة في أعماقها بمثل هذه القوّة..

مرّ إعصار هذه الزيارة فوق حبّها لوالدها وابنتها وولعها الحريص بدرو، اقتلعت هبّات رياحه تلك الأشياء من جذورها، مزّقتها ورمتها جانبًا وأسقطت كلّ الأوراق عن أمّهاتها.

عادت فجاة في لحظة واحدة إلى يوم عودتهما من كالكوتا، إلى حرارة ذاك اليوم اللاّهب من آب، وباب مكتب والدتها المفتوح، ومكتبها الخالي والعشب الذي كان طويلًا لطول فترة إهماله إلى أن كاد يلامس كتفيها، ويتماوج أمامها كبحر يداعبه النسيم. وشعرت الآن بالحاجة إلى ضربها رغم مرور كلّ تلك السنين.. للتخلّص منها، لقتلها من جديد.

6

كان طريق الشخصيات الهامّة - الطريق السريع القديم المؤدّي إلى المطار في ولاية دم دم- قصيًّا ومهجورًا وبعيدًا بما يكفي ليتكاثر فيه اللّصوص. ولهذا فقد كان الناس يتحاشونه بعد حلول الظلام. أمّا الآن، فقد أحاطت به الأبنية السكنية الشاهقة والمكاتب الرسمية ذات الواجهات الزجاجية بالإضافة إلى ملعب أولمبي ومراكز تسوّق كبرى ومتنزّهات مضاءة تخلب الأبصار، وكثرت حوله مقرّات الشركات الأجنبية والفنادق الفاخرة.

تُدعى المدينة الآن كولكاتا كما يلفظها البنغاليون، وقد سلكت بها سيارة الأجرة طريقًا دائريًا عظيمًا يحاذي شمال المدينة ومركزها المزدحم. إنّه المساء، السيارات كثيرة جدًا لكنّها تتحرّك بسرعة. زُرعت الأزهار والأشجار على جانبي الطريق، وشُيّدت جسور جديدة وحلّت قطاعات سكنية حديثة مكان الحقول والمستنقعات. استقلّت غاوري سيارة أجرة فخمة بالفعل، غير أنّ معظم سيارات الأجرة الأخرى كانت صغيرة الحجم وعادية.

انعطفت السيارة بعد اجتيازهم إلى أحد المستشفيات الفخمة وانتهاء الطريق الدائري فلاحظت أشياء مألوفة. رأت سكك حديد بالي غانج وتقاطعاتها في غاريهات، الحياة المتدفّقة من الشوارع الملتوية والناس الجالسين على الدرجات المتكسّرة وباعة الثياب المتجوّلين

وباعة الأحذية والحقائب على طول الطريق.

إنّه عيد دورجا بوجو، أهمّ يوم في حياة المدينة. احتشد الناس في الشوارع وعلى الأرصفة. شاهدت الأجنحة الدالة على العيد في نهايات الأزقّة المغلقة أو في الفجوات الفاصلة بين المباني.. لقد تزيّنت دورجا بأسلحتها ومشت محفوفة بأولادها الأربعة وصُوِّرت وعُبِدت بطرائق كثيرة. صُنِعت تماثيلها من الجصّ أو الطين وظهرت لامعة مجيدة في كلّ صورها وأشكالها.. وصوّر الأسد الذي يساعدها للقضاء على الشّيطان جاثيا ذليلًا عند قدميها... إنّها امرأة حضرت لزيارة أهلها، ومدينتها لا أكثر.

يقع بيت الضيوف عند الجادّة الجنوبية. وقد مُنحت غاوري شقّة في الطابق السابع تطلّ على البحيرة. وفي نفس المبنى، يوجد ناد رياضي للسيّدات، وقد بدا لها المصعد ضيّقًا جدًا وأقرب إلى حجيرة هاتف في أيّ شارع، لكنّها تدبّرت أمرها للصعود به مع الحمّال والحقيبة.

سألها الحمّال: «هل أتيت لحضور الاحتفال ببوجو؟».

كانت غاوري في طريقها إلى لندن، لا إلى هنا، لكنّها قررت المجيء إلى الهند فجأة أثناء رحلتها. اتّخذت قرار تغيير وجهتها عند طيرانها فوق المحيط الأطلسي.

لم تغادر المطار في لندن، ولم تذهب لإلقاء المحاضرة المطبوعة على أوراق عديدة والتي كان يفترض بها إلقاؤها هناك. لم تخرج الأوراق من حقيبتها وظلّت قابعة هناك. لم تتكبّد أيضا عناء إرسال خطاب لمنظّمي المؤتمر لتبرّر غيابها.. لم تكترث بكلّ بساطة.. فقدت كلّ الأشياء أهمّيتها، لم تلق بالاً لأيّ شيء بعد ما قالته بيلا.

توجّهت إلى مكتب الحجوزات في مطار هيثرو وطلبت حجز تذكرة لها على متن رحلة إلى الهند، وأبرزت لهم جواز سفرها الهنديّ وبطاقة جنسيّتها التي لم تستنفد مدّة صلاحيّتها، فتمكّنت بالفعل من السفر على متن رحلة إلى وجهتها الجديدة في الصباح التالي.

حملتها الرحلة المباشرة إلى مومباي دون الحاجة للتزوّد بالوقود في الشرق الأوسط. قضت ليلة أخرى في فندق تابع للمطار.. بين ملاءات بيضاء باردة، أمام تلفاز يعرض محطات هندية وأفلامًا سينمائية قديمة تعود إلى الستّينات بالأبيض والأسود بالإضافة إلى قناة CNN الإخبارية. فتحت حاسوبها النقال حين جافاها النّوم وبحثت عن شقق للضيوف في كولكاتا وحجزت مكانًا لها.

قال الحمّال: «سيتمّ ملء المطبخ بالمؤن صباح الغد، وبإمكان خدمة الغرف أن تؤمّن لك العشاء الليلة إذا أحببتِ».

ـ لا حاجة بي إلى ذلك.

ـ هل تودّين طلب سائق خاصّ لك من أجل نهار غد؟

أخبرها الحمّال أنّها تستطيع دفع أجرة نهار كامل له ليرافقها طوال الوقت، وسينتظرها في الصباح مهما كان الوقت باكرًا ليكون دليلها داخل المدينة حيث تريد.

ـ سأكون جاهزة للانطلاق في الثامنة من صباح الغد.

استيقظت قبل انبلاج الصبح. فتحت عينيها في الخامسة. استحمّت بالماء الساخن في السادسة وارتدت ملابسها المعلّقة في زاوية الحمّام ونظّفت أسنانها فوق مغسلة وردية. وجدت فيما بعد علبة شاي ليبتون على رفّ في خزانة المطبخ، فسخّنت الماء وأعدّت لنفسها كوب

شاي وشربته، وتناولت معه قطعة بسكويت بقيت معها ممّا قدّم لها على الطائرة.

قرع جرس الباب في السابعة تمامًا، فوجدت خادمة تحمل سلّة ملآى بالفواكه والخبز والزّبد والبسكويت بالإضافة إلى الصحف، تماما مثلما أخبرها المسؤول عن الغرف.

اسمها آبنا، امرأة ثلاثينية ثرثارة وأمّ لأربعة أطفال، يبلغ أكبرهم السادسة عشرة. أخبرت غاوري عن كلّ شيء في حياتها، بما في ذلك عملها الإضافي بعد الظهر في تنظيف أحد المشافي. أعدّت مزيدًا من الشاي ووضعت بجانبه طبقًا متنوّعًا من الكعك والبسكويت.

كان شاي آبنا أفضل من ذاك الذي أعدّته غاوري، أقوى نكهة، مقدّمًا مع الحليب الساخن والسكر. قدّمت لها طبقًا آخر بعد دقائق.

ـ ما هذا؟

أعدّت لها بيضًا مخفوقًا وأحاطته بقطع خبز محمّص مدهون بالزبد المالح، وتبّلت البيض بالفلفل الحارّ فتناولت غاوري الطبق كلّه وشربت مزيدًا من الشاي.

شاهدت من شرفة غرفتها الصغيرة سيارة تتوقّف أمام المبنى في الثامنة تمامًا، وكان سائقها شابًا أجعد الشعر مستدير البطن يرتدي سروالًا وصندلًا جلديًا. خرج من السيارة واتّكأ عليها وأشعل سيجارة.

ذهبت برفقته شمالاً، وعبرت شارع كولدج ومرّت أمام جامعة الرئاسة حيث درست، لزيارة حيّ طفولتها والبحث عن ماناش. لكنّ ماناش كان في زيارته السنوية لابنه تلك التي يقوم بها في مثل هذا الوقت من كلّ عام. استقبلتها زوجته في بيت جدّيها القديم، صعدت

نفس السلّم المعتم غير المستقيم الذي لم يتغيّر منذ بنائه. ولجت الباب الذي فُتح لها، حيث ما زال ماناش وعائلته يعيشون حتى اليوم.

جلست معهم في إحدى غرف النوم والتقت بولده الآخر وأحفاده الذين لم يصدّقوا ما تراه أعينهم. ذهلوا لمشاهدتها ورحّبوا بها بتهذيب وقدّموا لها الشطائر ولفائف لحم الضأن والشاي. سمعت غاوري من الوراء.. من خلف الجدار والشرفة، صوت الصفّارة المألوفة ورنين جرس الترام.

انقادت لرغبتها في مشاهدة الشرفة المحيطة بالمنزل وهمّت بطلب ذلك منهم، لكنّها تراجعت سريعا.. كم قضت من ساعات في تلك الشرفة محدّقة في حركة السير وتقاطع الشارعين الذي لا ينام وهي شبه متدلّية إلى الخارج، متّكئة بمرفقيها إلى الأمام وذقنها بين يديها.. لم تتمكّن من تخيّل نفسها هناك من جديد بعد كلّ هذه السنين.

اتصلوا بماناش على رقم هاتفه الخلويّ فسمعت صوته.. ماناش الذي حجّت إلى المدينة بحثًا عنه، إنّه بوّابتها إلى أوديان.. ماناش، رفيق حياتها الأوّل.

تكلّم بصوت عميق خلخلته السنوات.. بصوت رجل عجوز أثقلته العواطف نفسها التي اجتاحتها: «غاوري.. هل حقًا أنتِ هنا؟».

ـ نعم.
ـ ما الذي دفعك إلى العودة؟
ـ احتجت إلى رؤيتك مجدّدًا.

مازال يكلّمها بحنان، بنفس الصّيغة الأبويّة التي تشكّلت خلال الطفولة.. لم تتزعزع ولم تتغيّر مع مرور الزمن، بنفس الطريقة التي

يكلّم بها الآباء أولادهم الصغار، بنفس الحرارة التي كان ساباش وأوديان يتعاملان بها بعفوية، تلك التي توحي بقرابة اللّحم والدّم لا بما يتبادله الأحبّة، بطريقة لا تشبه أبدًا الحنان والحبّ الذي أظهره لها أوديان ولا ساباش.

ـ أدعوك إلى زيارة شيرلونغ والبقاء فيها لبضعة أيّام.. وإذا لم ترغبي في ذلك، فانتظريني حتى أعود إلى كولكاتا.

ـ سأحاول.. لا أعرف كم من الوقت سيتسنّى لي البقاء.

أخبرها بأنّ كلّ أخواتها قد توفّين، وأنّها أخته الوحيدة الباقية على قيد الحياة وأنّ عائلتهما قد قاربت على الانقراض. إنّهما الوحيدان الموجودان الآن.

ـ كيف حال ابنة اختي بيلا.. هل سألتقيها؟ هل سأتعرّف إليها يومًا؟

أكّدت له حتمية حدوث ذلك ثمّ ودّعته. حملها السائق جنوبًا من جديد إلى شورينجي وإسبلاناد، إلى سينما مترو والفندق الكبير.

جلست غاوري في السيارة، وسط حركة المرور الخانقة والهواء المشحون بدخان السيارات والمثقل بالرّطوبة. شاهدت نسخة من نفسها تقف في إحدى الحافلات المزدحمة متعلّقة بحبل وترتدي واحدًا من أزياء الساري القطنية التي كانت ترتديها كلّما قصدت الجامعة، أو استعدادا للقاء أوديان في مكان ما اقترحه أو في أحد المقاهي البعيدة عن الأعين حيث لا يعرفهما أحد. كان دائما يسبقها إلى الموعد فتجده بانتظارها، حيث كان يُتاح لهما الجلوس متقابلين ما شاء لهما من الوقت.

ـ ما رأيك في الذهاب إلى السوق الجديد؟ أو إلى أحد مراكز التسوّق الجديدة؟

طلبت منه الاستمرار في القيادة دون توقّف عندما وصل إلى الضاحية الجنوبية.

ـ إلى كالايت؟

ـ إلى تولّيه غانج.. بعد محطة الترام.. إنّه غير بعيد من هنا.

بُنيت محطّة مترو جديدة الآن بعد المقبرة ومسجد الزاوية القديم، مقابل محطة الترام، يقطع قطارها المدينة تحت الأرض ويصل إلى دم دم على حدّ قول السائق. شاهدت أناسًا يسارعون في طيّ درجات السلّم الهابط تحت الأرض للّحاق بقطاراتهم، أناسًا راشدين بما يكفي لحصولهم على وظائف وأعمال، وأطفالا يمثّل هذا المترو كلّ ما يعرفونه عن المواصلات العامّة.

شاهدت الجدار العالي المحاذي للشارع عن الجانبين لحماية استديوهات التصوير السينمائي ونادي تولّيه، ثمّ لاحظت المسجد الذي قاوم أربعين عامًا بلا حراك ومئذنتيه الحمراوين صامدتين على حالهما.

طلبت من السائق التوقّف ونفحته بعض المال لتناول الشاي في أيّ مكان وطلبت منه انتظارها هنا ريثما تقوم بزيارة قصيرة.

لاحقها الناس بنظرات الدّهشة، تابعوا عينيها المتواريتين خلف النظارات الشمسية وملابسها الأمريكية وحذاءها اللامع دون أن يدركوا أنّها واحدة منهم، أنّها عاشت هنا من قبل بين ظهرانيهم.. سمعت رنين الهواتف النقالة لكنّها سمعت أيضًا رنين أجراس العربات القديمة التي ما تزال تعمل رغم كلّ الحداثة البادية في كل مكان.

خلف المسجد، ازدحمت الأكواخ الفقيرة ذات الجدران المبنيّة من سيقان البامبو لإيواء هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون في الطرقات.

تابعت المشي في الزقاق، تجاوزت الكلاب الضالة ولاحظت نموّ المباني وازدياد عدد طوابقها لتحجب المزيد من نور الشمس، وتأمّلت النوافذ الزجاجية والديكورات الخشبية المطلية باللون الأبيض وسطوح الأبنية المغطاة بالهوائيات، وباحات المنازل الأرضية المتشققة، والمنازل القديمة المهجورة التي بنيت من الطوب وبدأت تفقد أقسامًا كاملة منها.

خُلِط كلّ شيء معًا، لا فسحة فارغة للوقوف، لا مكان للعب الأطفال الكرة أو الكريكت، ومازال الزقاق ضيّقًا على حاله، كما كان من قبل، لا تستطيع سيارة واحدة اجتيازه إلاّ بصعوبة.

دخلت المكان لزيارة البيت الذي ظنّت أنّه قدر لها أن تعيش حياتها فيه مع أوديان، إنّه البيت الذي حملت فيه بابنتها بيلا، وكان يمكن لها أن تولد فيه وتعيش ما قُدّر لها من حياة.

توقّعت أن تجد آثار السنوات على جدران المنزل وهيئته، لكنّه بدا أكثر بهاءً وجمالا ممّا مضى. كانت جدرانه أنعم، مطلية باللون البرتقالي الدافئ، واختفت البوّابة المتحرّكة لتحلّ مكانها بوابة خضراء بهيجة تتناسب مع ألوان الشرفة.

اختفى الفناء وبنيت مكانه غرف للمعيشة ملاصقة للشارع تمامًا وبدا أنّ أصحابه يستعملونها كغرف طعام أو شيء من هذا القبيل، ولاحظت جهاز تلفاز في إحدى الغرف واختفت قناة المجاري المفتوحة التي كان الجميع يضطر للقفز فوقها على جسر خشبي مرتجل صغير للعبور إلى البيت.

تقدّمت وخلّفت البيت وراءها وخرجت من الزقاق نحو البركتين المتوازيتين.. لم تنسَ أيّ تفصيل.. مازال شكل البركتين ولونهما على

حاله في ذاكرتها، لكنّ التفاصيل لم تعد هناك.. اختفت البركتان وبنيت مكانهما أبنية سكنيّة فوق ما كان فيما مضى منطقة مائية محضة.. منطقة مفتوحة على لا شيء.

تقدّمت أكثر، اختفت الأرض المنخفضة أيضًا، لا يوجد ما يميّز هذه الأرض التي لم يسكنها أحد فيما مضى عن بقية المنطقة الآن، ارتفعت فوقها أبنية أخرى وتوقّفت أمامها الدرّاجات النارية ونُشر الغسيل على شرفاتها ليجفّ في الشمس.

تساءلت إن كان أحد من المارّة يذكر شيئًا ممّا تذكره.. فكّرت في إيقاف رجل في مثل سنّها تقريبًا بدا شكله مألوفا، قد يكون أحد رفاق طفولة أوديان، إنّه في طريقه إلى السوق وهو في قميص داخلي وسروال مهترئ ويحمل حقيبة قماشية للتبضّع، عبر بجوارها دون أن ينتبه لوجودها.

اختبأ أوديان في مكان قريب، على بعد خطوات قليلة من قدميها.. جرّوه إلى حقل أجرد، هناك حيث يقبع حجر ذكرى استشهاده ويحمل ملخّصًا عن حياته القصيرة المشرفة، ولربّما زال الحجر أيضًا كما زال كلّ شيء آخر.

لم تتوقّع تغيّر المشهد إلى هذا الحدّ، إلى درجة اختفاء كلّ أثر للخريف الذي حلّ قبل أربعين عامًا من اليوم.

سنتان من حياتها، بدأتها بتحوّلها إلى امرأة متزوّجة وانتهتا بتحوّلها إلى أرملة وأمّ في انتظار ولادة طفلها، وشريكة في جريمة أيضا.

لكنّ الأمر بدا لها معقولًا.. بدا طلبه منها معقولًا وبريئًا.. كلّ ما أراده هو إبعاد الشرطيّ من المكان، واعتمدت الجماعة على معلوماتها.. لم تخطئ غاوري ولم تكذب.

قبلت غاوري النسخة البريئة من الموضوع..فلم يكن الأمر يثير الشكوك، اختارت إخراس صوت عقلها الذي اشتبه بحدوث الأسوأ، وخنقته وهي جالسة مع الطفلين قرب نافذتهما المطلّة على الشارع، لم يشر أحد إلى ارتباطها بالموضوع ولم يعرف أحد بجريمتها. إنّها الوحيدة القادرة على اتّهام نفسها، وهي حارسة سرّها في الوقت عينه. حالات كثيرة مرّت بها: محميّة من أوديان حين كان المحقّق يحاصرها بنظراته الحادّة، لائذة بساباش، محكوم عليها بجرم النسيان، معاقبة بإطلاق سراحها.

تذكّرت كلمات بيلا لها.. تذكّرت أنّ مثولها أمام ابنتها لم يعنِ لها شيئًا، وأنّها ميّتة كأوديان تمامًا.

وقفت هناك دون أن تتمكّن من إيجاده، شعرت بالتحامها معه من جديد، في رباط الاندثار والعدم الذي جمعهما الآن.

غرق في النوم قبل ليلة من حضورهم لإلقاء القبض عليه بعد عدّة ليال من الأرق، ثم راح يبكي في نومه فاستيقظت.

لم تتمكّن من إيقاظه، هزّته من كتفيه فلم يستيقظ أيضًا.. ثمّ فتح عينيه مرتجفًا محمومًا واشتكى من البرد ووجود تيّار قويّ في الغرفة رغم أن الرطوبة تثقل الهواء في الغرفة. طلب منها إيقاف المروحة وإغلاق المصاريع. غطّته بملاءة سميكة سحبتها من صندوق معدنيّ من تحت السرير.

ـ حاول العودة إلى النوم.

ـ ماذا؟

ـ أصبتُ وساباش بالحمى.. أخبرني والداي بالقصّة، عن أسناننا

التي اصطكّت طوال ليلة خطاب نهرو.. ليلة مولد الحرّية.. ألم أخبرك؟

ـ لا.

ـ كنا أحمقين بائسين في السرير.. كما أنا الآن.

صبّت له بعض الماء لكنّه رفض أن يشرب وأبعده عنه بيده فانسكب على الملاءة فمسحت وجهه بمنديل وقلقت من احتمال إصابته بعدوى بسبب يده المصابة، لكنّه لم يشتكِ من تفاقم الألم، ثمّ بدأت الحمى تزول وغلبه التّعب فعاد إلى النوم.

نام بهدوء حتى الصباح دون أن يغمض لها جفن.. جلست معه في الغرفة الخانقة الحارّة وأغلقت على نفسها معه.. حدّقت به رغم أنّها لم تكن تراه في الظلمة.

توضّح وجهه مع بزوغ النور.. جبهته ثمّ أنفه وشفتاه.. أحاطت به بواكير أنوار الصّبح المتسلّلة من شقوق النوافذ كالأمواج.

غطت لحيته المهملة خدّيه وأخفى شاربه الصغير ملامح شفته العليا التي تعشقها.. مازالت صورته حيّة في عقلها، مازالت تثيرها وتغريها.. وضعت يدها على صدره لتشعر بأنفاسه البطيئة.

فتح عينيه وبدا ثابت الجنان متماسكًا من جديد.

ـ كنت أفكّر..

ـ فيم كنت تفكّر؟

ـ في إنجاب أطفال..هل ستشعرين بالحزن إذا لم ننجب أطفالًا؟

ـ لماذا تشغل نفسك بهذا الآن؟

ـ لا يمكن لي أن أصبح أبًا يا غاوري.. ليس بعد كلّ ما اقترفته..

ـ ماذا فعلت؟

لم ينبس بحرف.. لكنّه أخبرها بعد وقت قصير بأنّه نادم على شيء واحد.. نادم على أنّه لم يلتق بها منذ زمن بعيد.. نادم على أنّه لم يعرفها طوال حياته.

أغمض عينيه مجدّدًا ومدّ يده ليمسك بيدها، تشابكت أصابعهما مع اشتداد نور الشمس ولم يفلتها.

سخّنت غاوري في فرن المايكروويف في بيت الضيوف الوجبة التي أعدّتها لها آبها وتناولت حساء السمك والأرز على مائدة بيضوية الشكل مغطّاة بقماش منقوش بالأزهار ومغطّى بقطعة نايلون لحمايته من البقع.. شاهدت التلفاز لبعض الوقت ثمّ رمت ما تبقّى من الطعام.

كان السرير مرتّبًا والملاءة مبسوطة والناموسية مفتوحة جاهزة.. أغلقتها وأطفأت الضوء الوحيد الموجود في الغرفة، مما جعل القراءة قبل النوم مستحيلة.. استلقت في العتمة لساعات قبل أن تغفو.

أيقظتها الغربان فنهضت وخرجت إلى الشرفة، كان الفجر المبهم ينبلج ويتوهّج ببطء كما لو كانت فوق قمّة جبل لا في قاعدة الدلتا.. في قاعدة أكبر دلتا في العالم كلّه على نفس مستوى البحر.

كانت الشرفة صغيرة لا تتّسع إلاّ لكرسيّ واحد وحوضٍ صغير لنقع الملابس المتّسخة.. لا لمكان لإمضاء الوقت.

الطرقات خالية ولم يحضر الباعة بعد لفتح متاجرهم.

ثمّ..

سُكبت المياه من الدلاء ونُظّفت الأرصفة ودخل بعض الناس محيط البحيرة للقيام بنزهتهم الصباحية، فُرادى.. أو أزواجًا. ثمّ شاهدت كشك بيع الصحف والفواكه والمياه المعدنية والشاي مقابلها.

انتقل عمّال النظافة إلى الشارع التالي لكنسه، وكان فارغًا تمامًا.. ستتصاعد حركة المرور وتتكثّف، ثمّ يتحوّل صوتها المتقطّع إلى حالة ثابتة من الضجيج.. ثمّ ستغطّي على كلّ الأصوات الأخرى.

اتّكأت على درابزي الشرفة العالي بما فيه الكفاية.. شعرت بتصاعد حدّة الياس في داخلها بوضوح، وبإلحاحه عليها.

إنّه المكان.. إنّه السبب الذي حضرت لأجله. أضحى الهدف من عودتها الآن هو الرحيل.

تخيّلت قدمها متدلّية إلى الخارج.. ثمّ الأخرى.. تخيّلت الشعور بالطفو.. دون أيّ شيء تحت قدميها.. دون شيء يقيمها ويجذبها.. لن تحتاج إلاّ إلى ثوان قليلة لإنهاء وقتها.. الأمر في غاية السّهولة.

لم تملك الشجاعة لفعل ذلك قبل أربعين عامًا، كانت بيلا في أحشائها.. لم يكن الفراغ والخواء الذي تشعر به الآن يشدّ بتلابيبها على النّحو العنيف العنيد.

فكّرت في سانيال والمرأة التي عثرت عليه، خادمة كآبها التي تقوم على خدمتها، خادمة تأتي وترحل كلّ يوم، خادمة قد تعود من نزهتها الصباحية حول البحيرة في قمّة نشاطها لتراها تسقط.. خادمة قد تغطّي وجهها بيديها حزنًا لشعورها بفوات الأوان على إنقاذها. أغمضت عينيها، سكن عقلها من هياجه ولم تفكّر إلاّ باللحظة الرّاهنة.. الآن، لا شيء آخر.. باللحظة التي تعيشها والتي لم تتمكّن من رؤيتها حتى

الآن، وخشيت أن يكون وعيها باللحظة الرّاهنة شبيهًا بالنظر مباشرة إلى الشمس، لكنّ الآن لم يدفعها إلى إبعاد نظرها عنه.

تخلّصت من الأمور التي قيّدتها واحدًا تلو الآخر.. خفّفت ثقلها، كما فعلت حين خلعت أساورها بعد موت أوديان، بعد ما شاهدته من شرفة تولّيه غانج، بعدما فعلته ببيلا، ومن صورة الشرطي العابر بجوار النافذة مع ابنه الصغير دون أن يفلت يده.

ثمّ أوديان، بجانبها على شرفة بيت جدّها في شمال كالكوتا، ينظر إلى الأسفل، إلى الشارع مثلها، يتعرّف عليها أكثر.. لا تفصل بينهما سوى بضع سنتيمترات، المستقبل عريض أمامهما، هناك ولدت من جديد وبدأت من جديدٍ حياتها.

انحنت إلى الأمام، نظرت إلى البقعة التي ستسقط عليها، تذكّرت الحماس الذي اعتراها كلّ مرّة حين لقائه، الحماس لشعورها بأنّه يعبدها، ولحظة فقدانه، وغضبها من تلطيخه ليديها بالدم دون ذنب، وجع ولادة بيلا وإحضارها إلى هذا العالم بعد موته.

فتحت عينيها.. لم تجده هناك.

بدأ الصباح، إنّه يوم آخر.. اصطحبت الأمّهات التلاميذ ببزّاتهم الموحدّة إلى المدارس، هرول الرجال والنساء إلى أعمالهم.. جلست مجموعة من المسنّين الذين يلعبون الورق طوال النهار في الزاوية، بسط المهنيّ قماشًا سميكًا على الرصيف ليعرض للناس ما سيصلحه اليوم ويجذب المزيد من الزبائن.

وتحتها مباشرة، فتح كشك فواكه وخضار أبوابه، عرض الطماطم والباذنجان والجزر الذي غلب عليه اللون الأحمر أكثر من البرتقالي

والفاصولياء الطويلة الخضراء في سلال غير عميقة، وجلس صاحبه تحت ظلّ المظلّة الواقية من الشمس متقاطع الساقين وراح يكلّم من مكانه الزبائن الذين بدأوا بالفعل بالتوافد على كشكه.

وضع الموازين على الميزان، قرع كفّتي الميزان بصوت مرتفع، ثمّ غادر أحد الزبائن بسرعة.

إنّها آبها، حضرت لطهي إفطارها وتغلية الشاي، نظرت إلى الأعلى فشاهدت غاوري، كانت تحمل كمّية من الموز وعلبة منظّف صغيرة ورغيف خبز طازج والصحيفة في يدها الأخرى.

نادتها من الأسفل: «ماذا تريدين اليوم أيضًا؟».

ـ ذلك كلّ شيء.. لا أحتاج شيئًا آخر.

ستغادر كولكاتا مع نهاية الأسبوع وتعود إلى حياتها، ولهذا.. غادرت الشرفة وفتحت لآبها عندما قرعت الجرس.

وصلتها رسالة جديدة إلى بيتها في كاليفورنيا بعد عدّة أشهر من ذلك، وكانت بالانكليزية هذه المرّة، مخطوطة بحبر أزرق فاتح اللون وبخط مخربش بإهمال شديد، وحده الله يعلم كيف تمكّن ساعي البريد من فكّ طلاسمه، ولا يشبه الخطّ الأنيق الذي كانت بيلا تخطّه عندما كانت في المدرسة، لكنّه مقروء بما فيه الكفاية ليصل إليها، وهو أيسر طريق أمكن لبيلا أن تخطوه نحو أمّها.

تفحّصت غاوري المغلّف فوجدت رسمًا زيتيًا لقارب صيد على طابع البريد، جلست على مقعد الحديقة وفضّته وأخرجت الورقة من داخله، فوجدت ورقة أخرى مطوية داخل الخطاب، إنه رسم بيد ميغنا، ملوّن وموقّع وتبدو فيه سماء زرقاء بشكل مستطيل على خطّ عريض

مستطيل الشكل أيضًا باللون الأخضر لتمثيل الأرض المعشوشبة، وقطة ملوّنة تسبح في الفضاء ما بينهما.

لم تحمل الرسالة أيّ نوع من التحية.. بل بدأت بكل بساطة..

سألتني ميغنا عنكِ، ربّما شكّت بشيء ما.. لا أعلم. وفي كلّ الأحوال، من المبكّر جدًا أن أخبرها بالقصة الآن، لكنّني سأشرح لها في أحد الأيام ماذا فعلت ومن كنتِ، ستعرف ابنتي كلّ الحقيقة لا أكثر ولا أقلّ، وإذا ما رغبت عندها في الاتصال بك لبناء علاقة معكِ فسيسعدني أن أسّهل لها ذلك. إنّه أمر يخصّها ولا يخصّني، فقد علّمتني ألّا أحتاجك، كما أنّي لا أحتاج إلى معرفة المزيد عن أوديان. ربّما نحاول لقاءك في المستقبل عندما تكبر ميغنا ونشعر كلانا بأنّنا جاهزتان للقائك.

الفصل الثامن

1

وصل زوجان لقضاء أسبوع إلى شاطئ آيرلاند الغربي على شبه جزيرة بيرا. قادا السيارة من مدينة كورك عبر الريف الغارق في سباته الأزليّ ووصلا في أصيل النهار إلى منطقة جبلية وعرة، تغطيها بطبقة من تربة الخثّ التي تستعمل وقودا عضويا نفّاذ الرائحة، وتدلّ هذه التربة على زراعة الإنسان للمنطقة في مرحلة ما قبل التاريخ وترويض الأراضي وتقطيعها وبناء جدران صخرية ليحيط منازله بها.

استأجرا منزلا في إحدى البلدات الصّغيرة، مطليًا بالجصّ الأبيض، أمّا النوافذ والباب الخارجي فطُليت باللون الأزرق، ولم يكن حجم البلدة يزيد عن حجم الحيّ الذي ولد ونشأ فيه قبل العديد من السنوات.

الشارع ضيّق ومنحدر، تحفّ به شجيرات صغيرة ذات أزهار حمراء مشتعلة، تصطفّ على طوله سيارات السكّان، وفيه بابان لحانة واحدة على بعد ذراع من كنيسة صفراء اللون، ثمّ مكتب البريد الذي اكتشفا أنّه متجر أيضًا. تبضّعا.. أحضرا الحليب والبيض والفاصولياء المعلّبة والسردين وعلبة مربّى بالتوت، واكتشفا أنّه من الممكن لهما الجلوس مقابل مكتب البريد، واحتلال إحدى الطاولات الخارجية المتروكة على الرصيف، وطلبا إبريق شاي مع قليل من الكريما الطازجة والسكّر وطبقًا من البسكويت.

لم يتمكن الرجل من أن يغطّ في النوم بعد الرحلة الطويلة وكمّية الجعة التي شربها في الحانة، فتح عينيه في السرير الذي يتقاسمه مع زوجته الجديدة.. إنّها تنام بعمق بجانبه، وجهها نحو الجهة الأخرى ويداها متقاطعتان تحت ذقنها.

نزل إلى الأسفل وفتح الباب الخلفيّ ثمّ خطا حافي القدمين على الشرفة الخشبية المطلّة على الحديقة والمراعي المفتوحة الممتدّة حتى خليج كِنماري. شعره سميك وأبيض كالثلج يُغري زوجته بتمرير أصابعها بين خصلاته.. نظر إلى شعاع القمر المتلألئ فوق الماء، فأذهله صفاء السماء وعدد النجوم.

هبّت رياح قويّة حاكت أُوار الأمواج.. نظر إلى الأعلى محاولا تذكّر أسماء عناقيد النجوم التي علّمها في الماضي لابنته، والغازات المشتعلة التي نراها على الأرض شموسًا ونقاطًا متوهّجة من الضوء.

عاد إلى سريره ولم يتوقّف عن تأمّل السماء والنجوم من نافذته، خلبت حقيقة وجود النجوم في السماء، دون أن تبرح مكانها حتى في النهار، لبّه وكأنّه يراها للمرّة الأولى. عبرت جسده رعدة امتنان لله على وصوله إلى هذه السنّ، على روائع الأرض الأبديّة والفرصة التي مُنحت له لتأمّلها.

انطلقا في نزهتهما الأولى على الأقدام بعد تناول الإفطار، شرعا في المشي على طرقات محاذية للبحر ومرّا بجانب المراعي البكر التي تغصّ بخراف وأبقار تحملق في الأفق بصمت كصورة التقطت منذ زمن بعيد. عبرا حقولا مزروعة بنبات قفّاز الثعلب والسراخس، وكان النهار معتمًا بسبب السحب، لكنّ نورًا متلألئا تخلّله في نفس الوقت، وغمرت

أمواج المحيط صخور الخلجان الوعرة المختبئة خلف المنحدرات الحادّة.

حاول الزوجان استيعاب الجمال العظيم المحيط بهما، استيعاب سكون المكان بعد المشي لساعات وتسلّق العديد من السلالم الحجرية التي كانت تربط ما بين الحقول المختلفة، واكتشفا أنّهما ما زالا على بعد أكثر من نصف الطريق الذي كانا ينويان الوصول إليه على الخريطة التي اصطحباها.

إنّهما في رحلة شهر العسل، أوّل شهر عسل للزوج رغم أنّه تزوّج من قبل، لقد وقفا قبل عدّة أيّام، على الشاطئ الآخر للمحيط نفسه لتلاوة عهود زواجهما في كنيسة بيضاء وحمراء في رودآيلند لطالما أعجب الرجل بجمالها وإطلالتها على خليج ناراجانسيت.

شهد مجموعة من الأصدقاء على زواجهما وعدد من أفراد عائلتيهما، لقد أصبح للرجل الآن ولدان وابنة أخرى، أبناء زوجته، وسبعة أحفاد.. لكنّهم لن يتعارفوا عن قرب وستبقى علاقتهم محدودة لتباعد أماكن سكنهم وعدم تلاقيهم إلاّ لماما في مناسبات نادرة، ومع ذلك ورغم تأخّر الوقت، فإنّها كانت آمالا مستقبلية جميلة لا ضير فيها.

كانت السنوات التي أمضاها الزوجان معا قبل عقد القران نتاجًا مشتركًا لحياة تعلّم كلّ منهما كيف يعيشها وحده، لا طائل من طرح أسئلة من قبيل: ماذا كان سيضير لو أنّه التقاها وهو في الأربعينيات من عمره أو في العشرينات.. لكنّه لم يكن ليتزوّجها بكلّ بساطة.

وفي اليوم التالي، خرجا من البيت ليصطدما بجنازة أحد القرويّين وبجمعٍ يمشي خلف النعش لإلقاء نظرة الوداع على الفقيد. كان الناس

يرتدون ملابس داكنة اللون ويملؤون الشارع المنحدر من أعلاه إلى أدناه. شعرا لوهلة أنّهما جزء من الموكب المهيب، لم يشعرا بأنّهما دخيلان غريبان، بل تلاشت كلّ الحدود وغابت بدايتها ونهايتها فلا أهميّة لمن يحزنون عليه، ثمّ عبرا بكلّ احترام لهالة الموت وخرجا من ظلّه بطرفة عين.

لو كان أحفادهما برفقتهما لاصطحباهما لرؤية الدلافين والحيتان والسباحة في خليج دورساي، لكنّهما كرّسا أيامهما هذه للتنزّه على الأقدام، يدًا بيد، مرتديين الكنزات الصوفية التي ابتاعاها لدرْء برد الخريف.

توقّفا كلّما تعبا، أو واجها منظرًا رائعًا، وجلسا لتناول البسكويت وقطع الجبن. وفي البرك الشاطئية التي شكّلها المدّ وجدا حصى رمادية مسطّحة وقواقع بحرية وأصدافًا عذّبها المدّ والجزر وحوّلها إلى خواتم بيضاء قاسية. جمع الرجل حفنة منها لصنع قلادة رائعة لحفيدته في رودآيلند وتخيّل نفسه يضعها على رأسها كتاج صغير.

صادفا حجارة مثيرة للاهتمام واتّبعا إرشادات سياحية للوصول إلى بعضها، وحملتهما الإرشادات إلى مناطق تحتوي على حجارة فريدة نقش عليها السياح أسماءهم، وجلمود صخري كبير منعزل على حافة جرف خطير قيل لهما إنّه ما بقي من ساحرة شريرة حاولت الهرب من شيء ما فتحوّلت إلى هذه الصخرة في غابر الأزمان.

شقّا طريقهما متأخّرين عصر أحد الأيّام عبر حقل مشبع بالرطوبة ليصلا إلى مجموعة أحجار مغليثية مرتّبة بشكل هندسي في أحد الوديان، تبدو موضوعة بشكل عشوائي لكنّها مرتّبة بدقّة، يواجه بعضُها بعضًا

في أرض تعصف بها الرياح بلا كلل، مختلفة الأطوال، عريضة عند قاعدتها ومستدقّة في أعلاها، متآكلة ومبيضّة الأطراف، تفتقد إلى الجمال لكنّها تطفح بالقدسيّة التي أضفاها عليها الزمن. لا يمكن للمرء تخيّل إمكان زحزحتها من أماكنها بسبب ضخامتها لكنّ الإنسان بالفعل، قاس أماكنها بدقة واختار تموضعها وجلبها إلى هنا بمشقّة ومنحها شكلها النهائي بيديه العاريتين.

أخبرته زوجته أنّها تعود إلى الحقبة البرونزية وأنّها وضعت ها هنا لأغراض تعبّدية اختلف العلماء فيها لكنّها قد تكون جنائزية أو تذكارية. وشرحت له أنّ تموضعاتها ذات علاقة بحركة الأرض حول الشمس، وأنّ الناس يأتون إلى هنا منذ قرون من مسافات بعيدة للمسها ورؤيتها والوقوف ما بينها التماسًا لبركاتها، وبعضهم ترك تذكارات منه بقربها.

لاحظ ساباش وجود خصلات شعر وسلاسل قماشية وأقفالًا مكوّمة أمام أحد الأحجار، وأعواد قشّ مربوطة ببعضها وبقايا حبال..و قرابين خاصّة من أناس.. وذكريات مهجورة لومضات إيمان. إنّه لا يعرف أيّ شيء عن هذه الآثار الغابرة في قدمها ولا عن هذه المعتقدات التي لم تزل تلقى أتباعا مؤمنين. إنّه يجهل الكثير عن العالم الذي ما زال يعيش فيه.

جال ببصره حول المكان فلاحظ كتلًا خضراء منتشرة بشكل متفرّق في الحقول المحيطة، تبدو ككتل عشب المستنقعات بعد انخفاض المدّ.. لاحظ التلال الحجرية البُنيّة المحيطة بالمكان، والخليج القريب الهادئ.

فكّر الرجل في حجر آخر في بلاد بعيدة .. حجر وحيد كعلامة

على الطريق يحمل اسم أخيه بين أحراش مائية متّسخة لم تعد تأبه الآن بالفصول، تحوّلت إلى مبان سكنية لخدمة أهداف أكثر عمليّة من الذكرى. حجّت أمّه لسنوات بكلّ إخلاص لزيارة ذلك الضريح، فتقدّم الأزهار إلى ولدها كلّ يوم إلى أن منعتها السنون من المشي، وأعاقتها تحوّلات الأيام عن إحياء ذكراه بأبسط الطرق.

على هذه الأرض القديمة، الجديدة بالنسبة إليه، في حضن أنقاض منعزلة نائية حفرت قدماه أثرًا في الطين. نظر إلى الأعلى، إلى السماء الرمادية الكئيبة المخيّمة فوق الأديم، إلى الجوّ المتغير أبدًا والغيوم المنخفضة التي تمتدّ أميالًا بلا انقطاع.

بزغ لون السماء الأزرق فجأة وسط السحب الرمادية فبدا غير لائق وغير متناسب على الإطلاق مع كآبتها، وبدأت شمس وردية رحلة مغيبها فتراءت له أطوار النهار الثلاثة مطوية في مشهد وحيد أمام ناظريه عبر الأفق.

وقف أوديان بجانبه، مشيا معا في طرقات تولّيه غانج، عبرا الأرض المنخفضة وقطعا طريقهما فوق أوراق زنابق الماء يحملان عصي معدنية وكرات غولف في يديهما.

الأرض غير مستوية وطينية أيضًا في آيرلاند.. حاول اغتنام كلّ لمحة منها ليخزّنها في ذاكرته لأنّه يعلم تمامًا بأنّه لن يزورها مرّة أخرى. مشى باتجاه أحد الأحجار وتعثّر فمدّ يده للاستناد عليه. إنّه نقطة علّام في نهاية رحلته، لكلّ ما مُنِح له ولكلّ ما سُلِب منه.

2

لم يسمع صوت محرّكات الشاحنة لدى دخولها إلى الحيّ، لم يشاهدها إلاّ عندما اقتربت، وعلى سبيل الصّدفة كان واقفًا على السطح، وكان البيت عاليًا بما فيه الكفاية كي لا يراه أحد، فتراجع إلى الخلف ليضمن سلامته.

كان من الأفضل له في كلّ الأحوال الابتعاد عن الحاجز لأنّه لم يستعد اتّزانه منذ الحادث، لم تعد قدماه راسختين تحته، وكان يشعر بالأرض تميد وتهتزّ وتهدّده بالسقوط إذا فكّر في النّظر إلى الأسفل.

لاحظ وجود عدد كبير من المجنّدين، ثمّ أحصاهم فإذا هم ثلاث فرق من القوّات الخاصّة الرديفة للجيش أمام منزلهم وحده. ألقى نظرة على أسطح الجيران لفحص إمكانية الهرب عن طريقها كما كان يجري في أماكن أخرى من كالكوتا، لتجاوز الفجوات ما بين الأبنية، لكنّ دواره جعل من ذلك أمرًا مستحيلًا. لقد فقد القدرة على القفز لمسافات بسيطة على كل حال، ثمّ إنّ بيوت تولّيه غانج متباعدة.

نزل السلالم قبل توجّه أبيه لفتح الباب لهم، لاهثًا مندفعًا بكل طاقته ومحاذرًا مغبّة لمحه من قبلهم أثناء عبوره الفناء. خلّف القسم الجديد من البيت وراءه وعبر القسم القديم ودخل غرفته القديمة التي تقاسمها مع ساباش ليخرج من باب قديم يفضي إلى الحديقة.

تسلّق جدار الحديقة الخلفي كما كان يفعل في صباه للهرب من البيت دون علم والدته، لكنّه لم يتمكّن من فعل ذلك بنفس الخفّة والرشاقة بسبب الإصابة التي في يده، فاضطرّ لوضع علبة زيت الكيروسين والدوس عليها للارتفاع قدر الإمكان فوق السور، وقفز إلى الناحية الأخرى وسط سكون المساء وجوِّهِ الغريب الذي عبق تلك الليلة برائحة الكبريت.

تحرّك بسرعة وقطع البركتين والأرض المنخفضة، ثمّ خاض في مياه مستنقع زنابق الماء الغزيرة وخطا خطوة، ثمّ أخرى، ثمّ أحاطت به المياه وأخفته الزنابق بين أذرعها.

تنفّس بعمق ثمّ أغلق فمه ونزل تحت الماء، حاول ألاّ يتحرّك وأبقى يده السليمة على منخري أنفه. اشتدّت حاجته إلى الهواء بعد عدّة ثوان وشعر أنّ الضغط فوق رئتيه ازداد وتضخّم وكأنّ وزن جسده مطويّ فوق رئتيه.. انقطع نفسه، احتشد في صدره كجيش، لكنّ كلّ ما شعر به كان عاديًا لأنّ الكربون كان يفور في دمائه بدل الأوكسجين.

لو تمكّن المرء من محاربة الغريزة التي ستدفعه إلى تنشّق الهواء في هذه اللحظة، لتمكّن جسده من الصمود ستّ دقائق تحت الماء، لأنّ الدماء ستبدأ في الخروج من كبده وأحشائه وتتّجه إلى القلب والدّماغ، مثلما شرح له طبيبه عندما سأله عن الموضوع أثناء تلقّي علاج يده.

راقب نبضه في محاولة منه لمراقبة حياته بنفسه، كان من الأفضل لو أنّه لم يركض طوال المسافة إلى هنا، لو أنّ نبضه كان أبطأ حين نزل الماء.. راح يعدّ.. عشر ثوان، كافح رغبته في الصعود فوق سطح الماء.. عشرين ثانية.. أجبر نفسه على البقاء لهنيهة أخرى.

وجد تحت الماء الراحة الكامنة في عدم إصاخة السمع والإنصات إلى أيّ شيء، لقد أعفته الظروف من المرور بالإحباط الناجم عن عدم الفهم، عن مطالبة الناس بترديد الكلمات والجمل.. أخبره الطبيب بأنّ سمعه سيتحسّن، وأنّ الحسّ بالانزعاج والطنين في أذنيه سيتراجع مع الوقت وأنّ كلّ ما عليه فعله هو الانتظار.

لم يكن الصمت تحت الماء مطبقًا.. بل أشبه بأنفاس عشوائية تتناهى إلى جمجمته. إنّه مختلف عن الصمم الجزئي الذي أصيب به منذ الانفجار، لأنّ الماء موصل أفضل للأصوات من الهواء.

سأل نفسه إن كان هذا الصمم والسكون المطبق هو ما يشعر به المرء حين يزور بلدًا آخر ولا يفهم شيئًا من لغته، حين لا يستوعب معنى أيّ كلمة تقال أمامه.. لم يزر أوديان أيّ بلد آخر.. لم يسافر إلى الصين ولا إلى كوبا، تذكّر كلمات تشي غيفارا التي كتبها لولديه قبل وفاته والتي قرأها مؤخّرًا فقط: *تذكّروا أنّ الثورة هي أهمّ أمر وأهمّ مسألة، وألّا قيمة لأيّ فرد منّا إذا تفرّقنا وانفرد كلّ شخص بنفسه..*

لكنّها انحسرت وتقلّصت حتى لم تعد قادرة على إصلاح أيّ شيء في حالتنا هذه، لم تعد تستطيع مساعدة أيّ منّا.. في حالتنا هذه لم يعد هناك ما يمكن تسميته بثورة، ولم يدرك ذلك إلاّ في هذه اللّحظة بالذات.

إذا لم يكن يساوي شيئًا.. فلماذا يستميت من أجل النّجاة بنفسه؟ لماذا لم يطع جسدُه أوامرَ العقل في نهاية الأمر؟

تغلّب عليه جسده فجأة وطفا على سطح الماء، برز رأسه وصدره.. أحرقه منخراه ولهثت رئتاه لتنشّق الهواء. وعلى بعد خطوات منه، أشهر

جنديان سلاحهما في وجهه، وصرخ أحدهما في مكبّر صوت يدوي يحمله بإحدى يديه بكلمات لم يجد أوديان أيّ صعوبة في سماعها.

حاصر الجنود الأرض المنخفضة ولاحظ أوديان وقوف أحد العناصر خلفه على بعد مسافة واثنين آخرين من كلّ جهة، لقد قبضوا على عائلته ولن يتردّدوا في إطلاق النار عليهم ما لم يستسلم، مثلما أعلن الضابط في مكبّر الصوت، بنبرة عالية مجلجلة بما فيه الكفاية لتسمع المنطقة بأسرها هذا التهديد لا هو فقط.

انتصب أوديان واقفًا بحذر في مياه المستنقع السميكة الحافلة بالأعشاب التي بلغ طولها حتى وسطه. بصق ما كان عالقًا في فمه وسعل بعنف حتى انقلبت أمعاؤه، طلبوا منه التقدّم إلى الأمام ورفع يديه فوق رأسه.

عاوده الدوار وفقدان التوازن. بدا له سطح الماء مائلًا والسماء منخفضة قريبة أكثر ممّا ينبغي وخطّ الأفق متململا غير ثابت. شعر بأنّه بحاجة إلى شال على كتفه، إلى ذاك الشال الناعم التي تحتفظ به غاوري معلّقًا في غرفتهما، ذلك الشّال الذي يحيطه بعبق جسدها كلّما فكر في الصعود إلى السطح فجرًا لتناول لفافة تبغه الأولى.

تمنّى لو ظلّت مع أمّه في السوق، لكنّه شاهدهما عندما خرج من الماء، وعرف أنّهما عادتا في الوقت المناسب لحضور حتفه.

بدأ الأمر في الجامعة، في حيّ غاوري، في نهاية الشارع الذي كانت تقطنه. هناك اشتعلت النقاشات في المخابر الكيميائية، وأثناء تناول الطعام في الكافيتيريا، حول الريف وكلّ ما حاق به. تكلّموا عن ركود الاقتصاد وتدهور مستوى المعيشة، وعن شحّ الأرز في الأسواق

الذي دفع بعشرات الآلاف من الناس إلى حافة المجاعة، وعن مهزلة الاستقلال المزعوم وبقاء نصف الأمّة الهندية مغلولة بالسلاسل، إلاّ أنّ الشعب ذاته هو من كان يقيّد نفسه الآن.

تعرّف على عدد من أعضاء الجناح الماركسي اليميني، وناقش معهم حرب فييتنام كمثال عن الأحداث العالمية، فبدأ يتهرّب من بعض محاضراته ويتجوّل مع أصحابه في شوارع كالكوتا ويزور المصانع والمعامل والأحياء الفقيرة العشوائية.

شنّوا هجومهم الأوّل على جامعة الرئاسة عام 1966 مطالبين باستقالة المسؤول عن إدارة بيوت الطلاب بسبب سوء الإدارة. خاطر الشبّان باحتمال طردهم نهائيًا وأغلقوا كلّ أبواب جامعة كالكوتا لتسعة وستين يومًا.

سافر أوديان إلى الريف لتثقيف نفسه أكثر حول الموضوع وتلقّى تعليمات بتغيير مكان وجوده على الدوام والمشي خمسة عشر ميلًا كلّ يوم قبل غروب الشمس. وهناك، قابل مزارعين يعملون في أراض لا يملكونها، يعيشون في بؤس وفقر مدقع يدفعهم إلى تناول ما يطعمونه لدوابّهم لعدم توفّر أيّ شيء آخر، والتقى أطفالهم الذين لا يتناولون سوى وجبة واحدة يوميًا. وسمع عن مزارعين بائسين قتلوا عائلاتهم بسبب الفقر قبل أن يقتلوا أنفسهم ليتخلّصوا من هذه المعيشة الضنكة.

كان بقاؤهم على قيد الحياة يتوقّف على ترتيباتهم مع مالكي الأراضي والمرابين، على كلّ من يستغلّهم، على قوى لا يمكن لهم السيطرة عليها.. رأى بأمّ عينه التيّار الذي يحملهم بلا حول ولا قوّة، ويُذلّهم ويجرّدهم من كلّ ذرّة كرامة.

اعتاش أوديان على ما قُدِّمَ له، من حبّات الأرز الكامل غير المقشور أو حبوب العدس التالفة وشرب مياهًا لم ترو له ظمأ أبدًا. مرّ على قرى تفتقر إلى حفنة شاي ولم يتمكّن من الاستحمام إلا قليلًا واضطرّ إلى التبرّز في الحقول، لم يجد مكانًا يضمن له الخصوصية اللازمة لمعالجة التشنّجات التي اجتاحت أمعاءه وسبّبت له التشققات الشرجية المؤلمة، لم يكن كلّ ذلك في نظره سوى حالة حرمان مؤقّت سينتهي مع مرور الوقت، لكنّه تعرّف خلال تلك الرحلة على الكثير ممّن لم يعرفوا في حياتهم أيّ شيء غير هذه المعاناة.

كان يقضي الليل مع رفاقه على أسرّة شبكية معلّقة، أو على بعض أكياس الحبوب. مزّق البعوضُ لحمهم واخترقه أسرابًا حتى العظام. كان بعض رفاقه ينتمون إلى عائلات ثريّة، فغادر اثنان منهم في غضون أيام. وفي الليل، وبعد الغضب الذي اجتاحه بسبب ما شاهد خلال النهار، كان يسمح لنفسه بالتفكير في مصدر راحة وحيد وسط صمت الريف العميق.. بغاوري، تخيّل رؤية وجهها مجدّدًا والحديث معها وتمنّى أن تقبل به زوجًا.

واجهته جثّة امرأة شابّة في أحد الأيام بينما كان يزور إحدى العيادات، كانت في مثل سنّ غاوري، أمّا لعدد لا يحصى من الأطفال.. لم يبد عليها سبب معيّن للموت ولم يُجب أحد من الطلاّب على سؤال الطبيب لدى استفساره عن آرائهم، فأخبرهم الطبيب بأنّها قضت نحبها أثناء محاولتها الحصول على أرز بخس الثمن لعائلتها وسط جمهرة كبيرة من الناس المتدافعين فسقطت وداستها الأقدام حتى تهشّمت رئتاها.

ولسخرية القدر، كان وجهها سليمًا تمامًا.. تخيّل الناس يدفعون بها

من الخلف بعنف كاف لإيقاعها وقتلها، أناسا ربّما عرفتهم طوال حياتها، فلّاحين مثلها من نفس القرية، ربّما اعتبرتهم جيرانًا لها وأصدقاء.. إنّه الدليل الأقوى على سقوط النظام وفشله، وعلى أنّ فقرًا مدقعًا إلى هذا الحدّ هو أفظع الكبائر.

أخبرهم الرفاق عن وجود نظام بديل لكلّ هذه المعاناة، لكنّ في البداية لم يكن الأمر كلّه سوى مسألة رأي، وحضور اجتماعات وإقامة مسيرات سلمية. تابع أودیان تثقيف نفسه وكتابة اللافتات للمسيرات والشعارات على الجدران في منتصف الليل، وقراءة منشورات ماجومدار والثقة العمياء بسانيال والإيمان المطلق بأنّ الحلّ في متناول اليد.

غادر ساباش إلى أمريكا بعد تشكيل الحزب في كالكوتا مباشرة، وكان ينتقد أهداف الحزب ويعارضه. لقد أغضبته معارضة أخيه، لكنّ فراقهما أشعل قلبه بالخوف من احتمال عدم لقائهما مجدّدًا رغم أنّه حاول دفع ذلك الاحتمال. ثمّ تزوّج غاوري بعد ذلك بأشهر.

ومع رحيل ساباش، لم يعد لأودیان أصدقاء سوى رفاق حزبه. تحوّلت المهمّات ببطء لتصبح هادفة أكثر فأكثر.. سكبوا زيت الكاز في مكتب التسجيل الجامعي الحكومي، ودرسوا كتيبات تحتوي على تعليمات تصنيع القنابل اليدوية وسرقوا المكوّنات من المخابر الجامعية، وناقشوا الأهداف المحتملة، مثل نادي تولّيه لرمزيته الكبيرة، وقرّروا قتل رجل شرطة للانتقام من السلطة التي يمثّلها ومن المسدس الذي يحمله.

عاش أودیان حياتين منفصلتين بعد تأسيس الحزب، عاش في بعدين، وامتثل لمجموعتين متباينتين من القوانين. كان في بعده الأوّل متزوّجًا من غاوري، ويعيش مع والديه، ويغدو ويذهب كالعادة

كي لا يثير الشبهات، ويعلّم تلامذته ويساعدهم على إقامة تجارب علمية مدرسية، ويكتب رسائلَ مفعمة بالبهجة لساباش ويتظاهر بتركه للحركة وانفصاله عنها، يتظاهر بأنّ دوافعه قد فترت وحماسه قد تلاشى. وكان يكذب على أخيه، تمنّى أن تقرّبهما تلك الرسائل من جديد. وكان يكذب على والديه كي لا يثير فيهما القلق.

أمّا في عالم الحزب، في البعد الآخر الذي يعيشه، فقد توقّع منه الأعضاء مساعدتهم على قتل رجل الشرطة لمجرّد كونه رمزًا للعنف والقسوة ولأنّه تدرّب في كليته العسكرية على يد أجانب. *ليسوا هنودًا.. ولا ينتمون إلى الأمّة*.. هكذا قرّر ماجومدار، وقرّر أيضًا أنّ كلّ عملية قتل ستدفع بالثورة إلى الأمام وستنشرها أكثر وأكثر.

ظهر أوديان كلّ مرّة في الوقت المحدّد له، وحرس الزقاق الذي ستجري به العملية. ووقع الهجوم عصرًا عندما توجّه الشرطي لإحضار ولده من المدرسة، في يوم عطلته، والفضل في ذلك يعود لغاوري لأنّها أكّدت لهم بأنّه لا يحمل سلاحه في مثل هذا اليوم مطلقًا.

تعلّم أوديان ورفاقه خلال الاجتماعات أخطر أماكن الطعن في البطن، تعلّموا موضع البقعة المناسبة تحت الأضلاع، وتذكّروا ما أخبرهم به سينا قبل إلقاء القبض عليه: *العنف الثوري نتيجة طبيعية للظلم، العنف الثوري قوّة تحرّرية وإنسانية.*

شعر بالهدوء والتماسك في الزقاق، وراقب عن كثب ملابس الشرطي وهي تتخضّب بالدماء، وتأمّل الدهشة والذعر في عينيه وانتفاخ الأوداج والأجفان وتقلّص عضلات الوجه من شدّة الألم، ثمّ.. وعلى حين غرّة، لم يعد العدوّ شرطيًا.. لم يعد زوجًا، لم يعد نسخة

من شخص ضرب ساباش يومًا بعصا غولف مكسورة خارج نادي تولّيه، لم يعد على قيد الحياة.

كان خنجر بسيط صغير الحجم كافيا للقضاء عليه، إنّه مجرّد أداة مخصّصة لتقطيع الفاكهة، وليس المسدّس المحشوّ الموجّه إلى مؤخّرة رأسه الآن.

لم يطعنه بيديه، بل راقبه فحسب، لكنّ دوره في الجريمة لم يقلّ شأنًا عن الرّفيق الذي طعن الجسد، واقترب إلى أبعد حدّ ممكن وغمس يديه في دماء ذاك العدوّ وخطّ بأنامله شعار الحزب على الجدار المجاور بالدّماء التي راحت تسيل من أسفل مرفقه قبل أن يغادر المكان.

وها هو الآن، على حافّة الأرض المنخفضة، في الحيّ الذي قطنه طوال حياته، في مساء يوم من شهر تشرين الأوّل، وقد غرقت تولّيه غانج في ظلمة الغسق قبل أسبوع من حلول عيد دورجا باجو.

تضرّع والداه للضابط، وأصرّا على براءته، لكنّهما كانا البريئين الوحيدين في المكان.

كبّلت يداه خلفه بحبل غليظ ألهب معصميه فانحصر كلّ تفكيره فيهما، ثمّ أمروه بالدوران إلى الخلف.

تأخّر الوقت كثيرًا على الهرب أو المقاومة فوقف بالانتظار، موليًا ظهره لأسرته، وكأنّه يتصوّرهم دون أن يراهم.

كان آخر ما شاهده من والديه هو التراب على قدميهما عندما انحنى لطلب بركتهما وغفرانهما، ولمس خفّ والده المطاطي الذي كان يرتديه في المنزل، وطرف ساري والدته البنيّ الذي يمتدّ ملتفًّا حول جسدها وصولا إلى أعلى رأسها ويتدلّى من هناك على كتفيها ويتجمّع في قبضتيها

المتشنّجتين أمام رقبتها.

لم يتمكّن من النظر سوى لغاوري في لحظة تكبيل يديه لأنّهم اقتادوه على وجه السرعة، فودّعها بعينيه.

أدرك أنّه لم يعد بطلًا في عينيها، لأنّه كذب عليها واستغلّها رغم حبّه العظيم لها.. وكانت فتاة الكتب تجهل قيمة جمالها الأخّاذ، ولم تعِ يومًا قدرتها على التأثير فيه وفي غيره. لقد جهّزتها الحياة وعلّمتها كيف تعيش بمفردها، لكّنه لمع في سماء حياتها شهابًا يحتاج إلى نورها ليضيء.. وها هو يهجرها بعد تعليقها لكلّ تلك الآمال عليه.

ألم تكن هي التي قرّرت هجره؟ ألم تنظر إليه نظرة لم يعهدها، أو يشاهدها من قبل.. نظرة تحرّر من الوهم، أو إعادة نظر في كلّ ما تبادلاه من قبل.

دفعوا به إلى مؤخّرة الشاحنة وأشعلوا محرّكها، فشعر باهتزاز كبير ناجم عن انغلاق الباب بعنف.. لا بدّ أنّهم سيصطحبونه إلى مكان ما خارج المدينة لاستجوابه والإجهاز عليه، إمّا ذاك أو السّجن. ولكن لا.. لقد أوقفوا المحرّك، وتوقّفت الشاحنة وفتح الباب وسحبوه إلى الخارج من جديد.

إنّهم في الحقل الذي لطالما لعب فيه مع ساباش.. لم يطلبوا منه أيّ شيء، بل حلّوا وثاقه وأمروه بالمشي باتّجاه معيّن دون الالتفات، ورفع يديه فوق رأسه.

ـ ببطء.. توقّف بعد كلّ خطوة.

فعل كما أُمِر. ابتعد عنهم خطوة خطوة..

«عد إلى عائلتك..» قال صوتٌ. لكنّه كان يعرف أنّهم ينتظرون

دخوله ضمن مجال الرماية الأنسب.

خطوة بعد أخرى.. بدأ يعدّ خطواته.. كم تحتاجون بعد؟

عرف من البداية مخاطر ما كان يقوم به، لكنّه لم يفكّر في احتمال وقوعه فريسة لنهاية كهذه إلاّ بعد قتل الشرطيّ. ولم تكن تلك الدماء دماء الشرطيّ وحده، بل تحوّلت إلى دمائه هو أيضًا. شعر بأنّ حياته أيضًا هي من تسيل مبتعدة عن جثمان الشرطي، وتنحسر بلا رجعة، بينما يستلقي الجسد جثّة هامدة على أرض الزقاق، وقد انتظر سيلان دمائه اعتبارًا من تلك اللحظة.

سمع صوت الانفجار الذي مزّق رئتيه لجزء من الثانية، ومثلما تتدفّق المياه وتزمجر الرياح لعلع صوتٌ ينتمي إلى قوى الطبيعة الثابتة في العالم، صوتٌ حمله خارج العالم إلى سكون نقيّ مبهر لا تشوبه شائبة.

ولم يرحل وحده بل ودّعته غاوري وهي تقف أمامه في ساري أرجواني بلون الدرّاق مقطوعة الأنفاس متعرّقة.. إنّه العصر المشرق بنور الشمس الذي التقاها فيه أمام السينما خلال فترة الاستراحة في منتصف الفيلم. لم يشاهدا بداية الفيلم. فقد وصلت للقائه في منتصف الوقت، وهي غريبة عنه، ولم تكن زوجة، على وشك الجلوس بقربه في الظلام.

تلألأ شعرها، فرغب في رفعه عن رقبتها للمسه بأنامله، وانعكست عليه أشعّة الشمس كما لو كان مرآة تطلق طيفَ قوسَ قزحٍ ضعيفًا ومكتملًا في الوقت ذاته.

حاول عبثًا الإنصات إلى كلماتها فتقدّم خطوة أخرى نحوها ورمى لفافة التبغ من بين أصابعه.

اقترب منها وأحنى رأسه باتّجاهها ورفع يده كمظلّة فوقهما لحماية وجهها من الشمس.. لكنّ حركته تلك ذهبت سُدى.. لفّه الصّمت وأشعّة الشمس المتلألئة على شعرها.

النهاية

الأرض المنخفضة

جومبا لاهيري

«أروع ما كتبت لاهيري إلى حدّ الآن، عملٌ مُقلقٌ رهيفٌ ورهيفٌ مُقلق ، مثل وتر مشدود... يرهق الأعصاب بقدر ما يُريحُها. متمنّع واضحٌ، وواضح متمنّع.»

The New York Review of Books

«لديها قدرة استثنائية على تقمُّص الشخصيات، ويدٌ بارعة في تفكيك الخيوط المتشابكة لدوافعهم الفردية وتواريخهم.»

Sunday Times

«رواية ساحرة ومقنعة، سيرة ملحميّة لعائلة تعود جذورها إلى ثورة كالكوتا عام 1967، وتمتدُّ إلى رود آيلند حتى يومنا هذا. رواية يتناسلُ فيها الحدثُ القصصي مثلما ينسلُّ الخيطُ من القماش. تأمّلات خلّابة في الغياب والاغتراب والضياع، بأسلوب رفيع وإيقاع عميق.»

Time Out New York